

المِفْرَدَاتُ النَّفِيسَةُ
مِنْ فَوَائِدِ جَعْفَرِ شَيْخِ إِدْرِيسَ

①

ح دار أطلس الخضراء ، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التشريف، مبارك حمد الحامد

المفرد النفيس من فوائد جعفر شيخ ادريس . / مبارك حمد

الحامد التشريف - الرياض، ١٤٤٠ هـ

١٦٣٨ ص، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٢٣٣-٥-٤

١- المقالات العربية

ديزي ٠٨١

١٤٤٠/٦٤١٦

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٦٤١٦

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٢٣٣-٥-٤

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار أطلس الخضراء

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف: ٤٢٦٦١٠٤ - ٤٢٦٦٩٦٣ فاكس: ٤٢٥٧٩٠٦

جوال: ٠٥٤٤٨٩٦٦٥٤

www.facebook.com/DARATLAS

twitter: @ dar-atlas

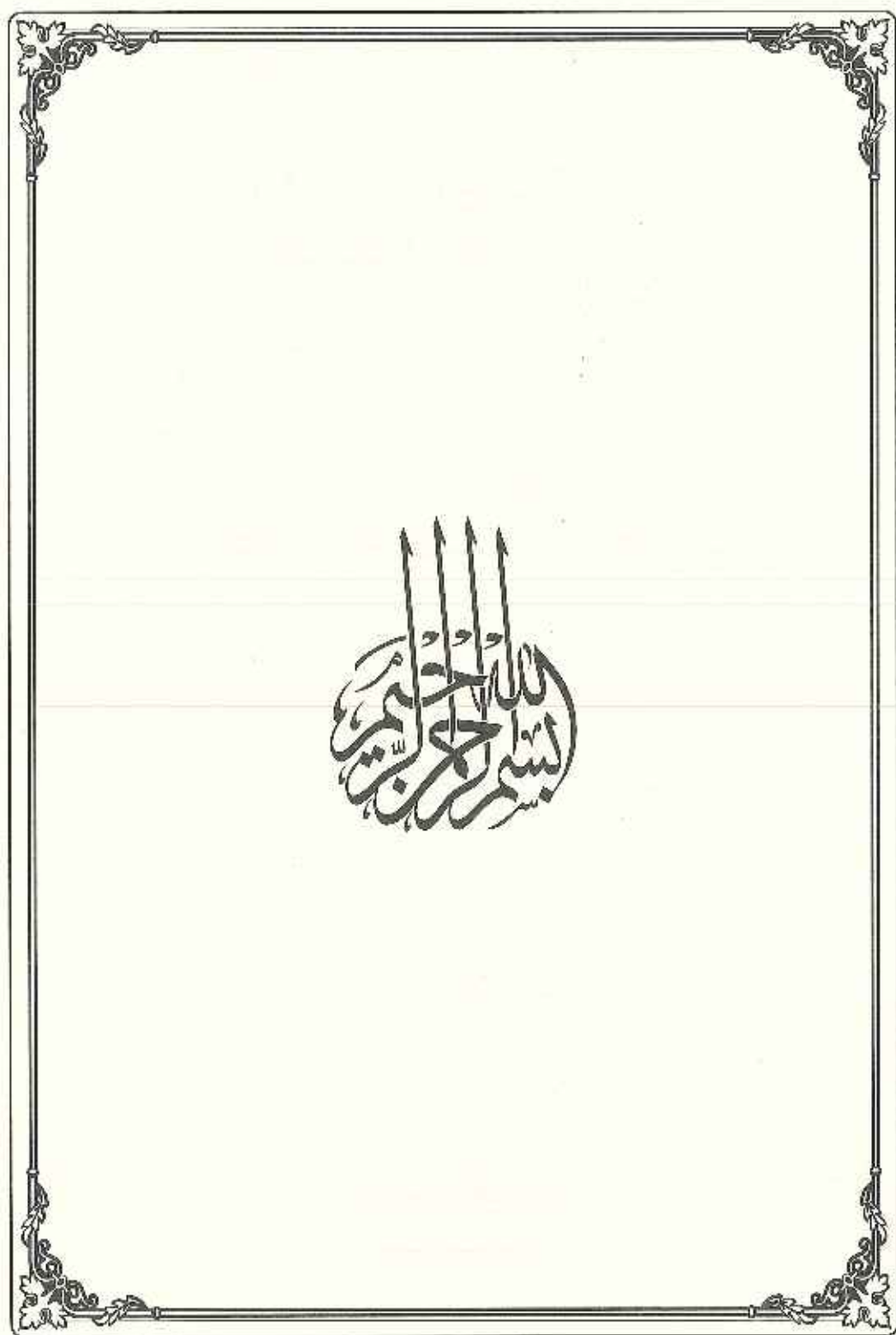
dar-atlas@hotmail.com

المِفْرَحُ النَفِيسُ
مِنْ فَوَائِدِ جَعْفَرِ شَيْخِ إِبْرَاهِيمَ
فَوَائِدُ مُخْتَارَةٍ مِنْ بَحْوثٍ وَمَقَالَاتٍ وَمُحَاضَرَاتٍ

جَمَعَ وَاعْدَادَ
د. مُبَارَكُ بْنُ حَمْدٍ الْحَامِدُ الشَّرَفِيُّ

الْجِزءُ الْأَوَّلُ

دارُ طَلْسِ الخَضِرَةِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد،
فقد أذنت للابن فضيلة الدكتور مبارك بن حمد الحامد بجمع
فوائد من بحوثي ومقالاتي ومحاضراتي، وعلى ذلك جري التوقيع.

جعفر شيخ إدريس

١٦/٨/١٤٣٨ هـ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذه مجموعة من الفوائد المختارة من محاضرات ومقالات وبحوث
ودراسات الأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس، إضافة إلى حوارات ومقابلات
أجريت مع فضيلته وقد اجتهدت في صياغة عناوين هذه الفوائد كما جعلت
تقسيمها على حسب الموضوعات التي أوردتها في كتابي: جعفر شيخ إدريس
(سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)^(١) وهي:

١ - الثقافة الإسلامية والدعوة إلى الله.

٢ - الإسلام والفكر الغربي.

٣ - علوم الدين والعلوم الطبيعية.

٤ - نظرية المعرفة ومناهج التفكير.

٥ - موضوعات متنوعة.

وقد يجد القارئ الكريم أحياناً تشابهاً وتداخلاً بين هذه الموضوعات في
محتوى بعض المقالات والمحاضرات والدراسات ولكنه قليل، وإتماماً لهذه

(١) دونت هذه الفوائد المختارة أثناء إعداد كتابي جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته -
محاضراته - بحوثه) طبعة دار كنوز أشبيليا - ط: الأولى، ١٤٣٩ هـ.

الفوائد فقد عملت قائمة بيليوغرافية لجميع ما وقفت عليه من أسماء وعناوين حوارات ومقالات ومحاضرات وكتب وبحوث ودراسات للشيخ جعفر.

أسأل الله أن ينفع بهذه الفوائد وأن يعجزني شيخنا جعفر خيرًا على ما قدم من جهود عظيمة في خدمة الإسلام والدعوة إلى الله من خلال محاضراته ومقالاته وبحوثه ودراساته.

وأخيرًا، لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر للأساتذة الكرام في دار أطلس الخضراء على قيامهم بمتابعة نشر الكتاب وإخراجه، فقد كان لحرص الجميع ومتابعتهم أثر في طباعة الكتاب في زمن قصير رغم ضيق الوقت وكبر حجم الكتاب، فلهم جميعًا مني جزيل الشكر والتقدير.

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿الدكتور جعفر شيخ إدريس﴾

نسبه ومولده:

هو الدكتور جعفر شيخ إدريس محمد صالح بابكر عبد الرحمن آل بلل. ولد عام ١٩٣١م بمدينة بورسودان. ترجع أصولهم إلى شمال السودان من بلدة اسمها السقاي وهي تقابل مدينة كريمة من الضفة الأخرى لنهر النيل، وهي مناطق قبائل الشايقية إحدى أكبر القبائل العربية بالسودان، وإليهم ينتسب الشيخ جعفر. أما بورسودان فقد كانت مدينة حديثة نسبياً خططها الإنجليز، وأصبحت الميناء الرئيس للسودان خلفاً للميناء التاريخي بمدينة سواكن التي لا تبعد كثيراً عن مدينة بورسودان، وكان سكان بورسودان خليطاً بين قبائل الهدندوة ذوي الأصول النوبية وبين مهاجرين من داخل السودان وخارجه، فقد كانت تقطن بالمدينة جالية كبيرة من اليمن وحضرموت، وجالية هندية وغيرهم من التجار، وكان والده رحمه الله من المهاجرين للعمل في تلك المدينة.

وفي الفترة التي ولد فيها الشيخ كان السودان تحت الحكم البريطاني الذي استمر إلى الأول من يناير ١٩٥٦م.

ففي تلك المدينة على ضفاف البحر الأحمر نشأ الشيخ جعفر وبقي فيها إلى أن سافر للدراسة الثانوية في مدرسة حنتوب بمنطقة الجزيرة وسط السودان. ولعلنا نترك الشيخ يحدثنا عن نفسه وعن نشأته، وتعليمه والأحداث التي

مرت عليه في حياته، وجهوده في العمل الإسلامي والدعوة إلى الله ورحلاته وصلاته وغير ذلك من الجوانب المهمة في حياة الشيخ أمد الله في عمره، وقد استندت في هذه الترجمة على بعض الحوارات التي أجريت معه في مناسبات مختلفة، أو ممن ذكر ترجمته في بعض المناسبات، أو مما سمعته منه يحدث به عن نفسه.

نشأته وأثر الوالدين عليه:

يقول الشيخ: أنا من عائلة سودانية كانت تنتمي كمعظم السودانيين آنذاك إلى الطريقة صوفية، وكانت الطريقة التي ينتمي إليها الوالدان هي الختمية، وكما هو معلوم أن الطرق الصوفية ولا سيما المنتشرة في بلادنا الآن، مبتلاه بكثير من المسائل الشريكة، لكن ربنا سبحانه أنعم عليّ بوالدين أثرا في حياتي الدينية والخلقية، فالوالدة لم تكن امرأة عالمة ولكنها كانت شديدة التدين وحازمة جداً، وقد أثرت عليّ تأثيراً كبيراً في موضوع الصلاة أكثر من الوالد، فقد كانت حازمة جداً في هذا الموضوع، وأذكر أنها كانت توقظنا أحياناً لتسألنا هل صلينا العشاء؟ وأنعم الله سبحانه علينا بالوالد وكان رجلاً متسامحاً معنا، فكان يعاملنا معاملة الكبار آنذاك، ويستشيرنا في بعض أموره، وهذا لم يكن شائعاً في السودان.

ومما أثر في حياتي تأثيراً كبيراً ما زلت أحمده الله عليه هو أن أحد أقاربنا كان من أول من نشر الدعوة السلفية في السودان، وكان من جماعة أنصار السنة المحمدية في بلدنا بورسودان، مما أحدث مشكلة بيني وبين الوالدين لاسيما

أمي، حيث كانت تظن أن هذا نوع من الانحراف فقاطعتني وصارت لا تتكلم معي، لكن ساعدني أن هؤلاء الذين تأثرت بهم كانوا من الأقارب وكان منهم رجلاً تحترمه الوالدة احترامًا كبيرًا، وهو رجل بسيط يعمل خياطًا لكنه كان رجلاً عالمًا اسمه سيد أحمد حاج عثمان، فجاء إلى أمي عند حصول هذه المقاطعة وأصلح بيننا، وبعد مدة تغير الوالد - وكان رجلاً يحفظ القرآن - حيث كنت آتي إليه وأقرأ عليه بعض الكتب وكانت كتبًا صغيرة مؤلفة في مصر، من ضمنها كتاب غاب عني اسمه الآن كان له أثرًا عظيمًا آنذاك، ومازالت أقرأ على الوالد حتى اقتنع، وتغيرت بعده الوالدة أيضًا، وأعد ذلك من نعم الله عليّ أن كنت السبب في إنقاذهما من الخرافات والشركيات والله الحمد سبحانه.

مما سبق هل يمكن أن يقال إن الدكتور جعفر كان صوفيًا ثم ترك التصوف؟

صاحب كتاب (هؤلاء تركوا التصوف) ذكر أن الدكتور جعفر شيخ إدريس كان صوفيًا، ثم تحول إلى جماعة أنصار السنة، والذي يسمع مثل هذا الكلام يتصور أن الشيخ كان صوفيًا إلى أن بلغ الأربعين أو الخمسين، ثم تحول من الصوفية إلى أنصار السنة، ولكن صاحب الكتاب قال أن سبب هدايته أن أحد أقاربه أثر عليه وهو في سن الثانية عشرة، حيث ترك انتماءه للطريقة الختمية، ولما سألت الشيخ عن ذلك قال لي: ما كنت ختميًا أنا أيامها كنت صغيرًا.

حادث في الصغر:

يقول الشيخ: كان الحادث الذي تعرضت له في الصغر أثر في تأثير ليس

بالضرورة فكريًا، ولكنني لمست نتائجه فيما بعد، إذ أصبت آنذاك، وكنت ألعب على صناديق كبيرة كانت لبعض السيارات، فقفزت من فوق إحداها على مسمار يبدو أنه أحدث كسرًا في العظم بالداخل، وتألّمت لذلك ألماً شديداً وتعقّدت الأمور - وكنت حينئذ في السادسة من عمري - واستمر المرض إلى السنة التاسعة تقريبًا، وكان ذلك في زمن الإنجليز، وعندما عرضت على الطبيب قرر هذا أن تُقطع رجلي، فوافق الوالد لكن الوالدة رفضت وبحزم شديد، ثم ذهبت تستشير السيد علي الميرغني - وكانت ما تزال في الطائفة حينئذ - فأجابها قائلاً: نعم... اسمعوا كلام الطبيب.

وما كان يظن أحد أن أُمي ستخالف رئيس الطائفة، لكنها فعلت ورفضت قوله ذلك، فقال لها الطبيب: إما أن تقطع رجله أو يموت فقالت: خليه يموت!!!. يموت برجلين ولا يعيش بواحدة، فكان من نتائج ذلك أن تأخرت في الالتحاق بالدراسة، لكن هذا التأخير أفادني جدًّا، إذ جئت إلى الدراسة بعد ذلك بنهم شديد، فأنا ما كنت بدأت أصلاً، وعندما بدأت الدراسة كان زملائي في السنة الرابعة، وأنا في السنة الأولى، وكان لي أخ ضمنهم، وكنا قد ذهبنا سوياً إلى المدرسة فقبل هو ولم أقبل لصغر سني، فكان أخي هذا يمازحني بعد ذلك فيقول: أحمد الله على هذا الحادث فلولا ما دخلت الجامعة.

وقد كانت المنافسة في الدخول إلى الثانوية كبيرة جدًّا آنذاك. إذ لم يكن وقتئذ غير ثلاث مدارس ثانوية فقط، فكان الدخول إلى أحدها في غاية الصعوبة، لكنني أتيت إلى المدرسة في مرحلة نضج واجتهاد شديد، فكنت أذهب إلى

الكتاب باختياره إذ يوقظني الوالد لصلاة الفجر وأبقى في الكتاب إلى السادسة، ثم أعود فأستعد للذهاب إلى المدرسة وعند رجوعي منها أذهب إلى الكتاب مرة أخرى، وبعد ذلك أنال شيئاً من الراحة، أعود بعدها إلى الكتاب عند المغرب.

حلقات المساجد:

يقول الشيخ: بدأت بعد ذلك دروس كان يلقيها رجل سُني فكنت أذهب إليها، ومن الرسائل التي بدأت أقرأها مبكراً وأمارس حفظ بعض الأحاديث منها رسالة الأربعين النووية، ثم لما ذهبنا المدرسة المتوسطة كنت أحضر مع الوالد دروساً في السنة كان يلقيها رجل عالم بالسنة اسمه أبو طاهر السواكني، تخرج بالازهر وكان مشهوراً في بلدنا، يدرس كتب السنة فقط، وفي هذه الفترة بدأت أقرأ بعض الرسائل الصغيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية ربّما يكون منها العبودية، وأظن أن معظمها فصول كانت تستخرج من بعض مؤلفات شيخ الإسلام يسمونها بأسماء لا أذكرها الآن، وكانت معظم هذه الكتب تأتي من مصر.

دراسة الشيخ للمذهب المالكي:

يقول الشيخ: كان الناس لا يدرسون إلا عند الشيوخ آنذاك، لكن كان معظم ما يدرسونه هو كتب المذهب المالكي، وكان هذا ما بدأت به أنا، فدرست بعض متون المذهب المالكي مثل: العزية والعشماوية، وكنت مُعجب بشخصيتين (أبو الوفا محمد درويش) الذي كتب (صيحة الحق) وكنت أوزعه وأعطيه لبعض إخواننا في المدرسة، ورجل آخر اسمه (محمد صادق عرنوس)، وكان من الذين يدرسوننا إخواننا الموريتانيون من الشناقطة، إذ كانوا يأتون إلى الحج عبر

بورسودان، فكانوا يمكثون مدة في السودان، وكان وضعه آنذاك أحسن مما هو عليه اليوم، فكنت أدرس على بعضهم، ومن الناس الذين حَبَّبُوا إِلَيَّ السُّنَّةَ آنذاك - وكان ذلك بعد المرحلة الثانوية - رجل علامة فاضل من آل شنقيط، وكان يحفظ القرآن الكريم حفظاً ما رأيت مثله، لقد كان معجماً مفهرساً لألفاظ القرآن - إذا صح هذا التعبير - فإذا سألته عن أي كلمة في القرآن أتى لك بكل الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، وأظنه كان مالكيّاً متعصباً ثُمَّ تحول فكان عنده ردٌّ فعل عنيف على كتب الفقه إذ كان يقول لنا: أن الأربعين النووية خير من كتب الفقه كلها.

فكنت أحضر عنده، ثُمَّ ذهب إلى السعودية وصار هنالك من كبار العلماء وإن لم يشتهر كثيراً ربما لأنه ليس من أهل البلد، فكان مع الشيخ ابن باز في إدارة البحوث والافتاء، وكان يحقق بعض الكتب، هذا العالم الفاضل هو الشيخ إسماعيل الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ.

شيوخه:

مما سبق يمكن أن نقول: أن الشيوخ الذين استفاد منهم الدكتور جعفر

ودرس عندهم في مرحلة صغره وشبابه:

- مصطفى ناجيز.

- سيد أحمد حاج عثمان.

- أبو طاهر السواكني.

- علماء من الشناقطة من موريتانيا.

- إسماعيل الأنصاري.

- سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز لما قدم الدكتور جعفر إلى السعودية وسيقاتي تفصيل ذلك.

مرحلة الدراسة الجامعية والتعليم العالي:

التحق الشيخ بكلية الآداب بجامعة الخرطوم وحصل على درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف من جامعة الخرطوم في تخصص الفلسفة، وتخصص ثانوي اقتصاد (١٩٦١م). ثم عُين معيداً بالجامعة وسجل لدراسة الماجستير، لكن الجامعة ابتعثته في العام التالي للدراسة بجامعة لندن.

بعد سنتين سقط نظام عبود فترك الدراسة واستقال من الجامعة؛ ليشترك في العمل السياسي الإسلامي، وكان مرشح جبهة الميثاق بمدينة بورتسودان، ثم عاد للجامعة مرة أخرى عام ١٩٦٧م، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة الخرطوم في تخصص فلسفة العلوم عام ١٩٧٠م، وكانت الدراسة الفعلية في جامعة لندن؛ وذلك حسب الاتفاقية بين الجامعتين في ذلك الوقت.

الدكتور جعفر ومحمود محمد طه:

وكان مما أثر في تحصيل الشيخ وثقافته بوقت مبكر هو تصديه للأفكار الضالة والآراء المنحرفة لبعض السودانيين في بلده أمثال محمود محمد طه، فقد رد عليه في مقالات متعددة ومناسبات مختلفة الأمر الذي جعل الدكتور جعفر يبحث ويطلع ويراجع كثيرًا من القضايا والمسائل التي يثيرها أمثال

هؤلاء، حتى أن محمود محمد طه ضاق بالطالب الجامعي ذرعاً فطلب مناظرته في الجامعة - كما حدثني هو بذلك - فوافق الدكتور جعفر ولكن محمود محمد طه انسحب في الأخير وقال: يناظره نظيره، يعني من هو في مستواه وحقيقة الأمر هو هروب وانسحاب من محمود محمد طه من مواجهة ومناظرة الشيخ.

مع الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ:

يقول الشيخ: المرحلة الأخرى التي تركت أثراً في حياتي هي التي كانت بعد أن سافرت إلى السعودية، وهناك التقيت بالشيخ العلامة عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ اللهُ، وكانت هذه من نعم الله عليّ، فقد كان الشيخ رجلاً عالمًا زاهدًا تقياً وأُعدّه في مقدمة علماء العصر الجهابذة.

والحق أقول: أني لم أر مثل الشيخ لا بين المسلمين ولا غيرهم، فالشيخ عبد العزيز بن باز اعتبره شيعي، ما أظن إنني تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه، وإن كان ذلك بعد الخمسين، ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلاً أعلم منه، ولا لقيت في كل من عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير المسلمين رجلاً في ورعه وتواضعه.

ومن العيوب المنتشرة جداً بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين أو علماء الدنيا إنهم لا يعترفون بأقرانهم ويقدمون فيهم وينقدونهم، ما رأيت رجلاً عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبد العزيز بن باز لا يذكر رجلاً من العلماء المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب، ثم إن خالفه يقول لكن أخطأ في الشيء الفلاني وكذا وكذا ثم يعتذر له أن هذه المسائل يُخطئ فيها كبار

العلماء قبله، وهو رجل كريم وما أعرف على وجه الأرض رجل يعرف من أحوال المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأنهم من أبناء بلده مثل الشيخ عبد العزيز، لذلك حزنت حزناً شديداً عندما كنت أسمع أن بعض الناس يتكلمون عنه ويصورونه كأنه مجرد رجل من (تنابله) السلطان، أو أنه يضغط عليه ليقول كلاماً لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا يؤمن به أبداً، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه، إِمَّا أَنَّهُ يُخْطِئُ، فَهُوَ بَشَرٌ كُلُّ الْعُلَمَاءِ يَخْطِئُونَ. رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَتَبَ الْعَصْمَةُ إِلَّا لِلرَّسُولِ ﷺ، وقد تميز الشيخ ابن باز بعدة خصائص أو جزها كالآتي:

أولاً: التقوى، لقد عرفت علماء عدة من المسلمين عربياً وغير عرب، فكان مما يؤسف له أن تجد الكثير منهم ينتقد رموز المعاصرين إلى درجة تصل به إلى احتقارهم، إلا الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فَقَدْ كَانَ يَنْقُدُ غَيْرَهُ بِأَدَبٍ قَلَّ نَظِيرُهُ، لَا يَحْتَقِرُ أَحَدًا وَلَا تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ الشَّنِيعَةُ الَّتِي تَسْمَعُهَا الْيَوْمَ هُنَا وَهَنَّاكَ فِي حَقِّ الدِّعَاةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ يَمْدَحُ الْكَثِيرَ مِنَ الدِّعَاةِ أَمْثَالِ الْمُوْدُوْدِيِّ وَالْبَنَاءِ، وَيَجْلِسُ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَكَانَ لَا يَذْكُرُ الشَّيْخَ الْأَلْبَانِيَّ إِلَّا وَيُصِفُهُ بِالْعَلَامَةِ، وَيُشْنِي عَلَى زَمَلَانِنَا الْمَوْجُوْدِيْنَ حَوْلَهُ.

وأذكر أنه سُئِلَ مَرَّةً عَنِ الشَّيْخِ الْمُوْدُوْدِيِّ وَأَنَّهُ يَزُوْلُ فَأَجَابَ قَائِلًا: أَنَّهُ -أَيُّ الْمُوْدُوْدِيِّ- أَخْطَأَ، لَكِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ دَقِيقَةٌ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اشْتَهَرَ فَضْلُهُ يَنْتَقَدُ لَكِنْ لَا يَشْنَعُ عَلَيْهِ.

ثانياً: الكرم، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ حَاتِمِيًّا، مشهوراً بالكرم، ولكم تمنيت أن

إخواننا الذين أكرمهم الله بالسلفية كانوا مثله، فقد كان عنده من المزايا التي كنا نجد لها لدى شيوخ التصوف، فهؤلاء عندهم رقة وعندهم كرم، وكانت كلاهما في الشيخ، فكلما تناولت عنده الغداء مثلاً أجد لديه جمعاً كبيراً لا يقل عن خمسة عشر شخصاً، من الذين يأتون لسؤاله أو طلب المساعدة منه أو زيارته.

ثالثاً: لقد منّ الله على الشيخ بذاكرة علمية عجيبة جداً، فلم يكن يتميز بقوة الحفظ فقط، فالحفظ قد يتقنه الكثير، لكنه تميز بقوة الاستحضار وسرعته، وقد تمنيت أني عرفت الشيخ مبكراً واستفدت من نصائحه في طريقة الدراسة، وكنت أحضر دروسه في الجامع الكبير وكانت كتباً كثيرة، أتذكر عندما بدأت الحضور، كانوا يقرءون في فضائل الصحابة من صحيح البخاري، ثم بعد ذلك يقرأ المبتدئون عنده كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد كان من الغريب أن الشيخ في تدريس المبتدئين يفيض في الشرح ويفصل، بينما كان في دروس الكتب الواسعة لا يعلق إلا بالشيء البسيط، فاستمعنا إلى كتب كثيرة، وبعض دروس تفسير القرآن الكريم، وكان يفضل تفسير ابن كثير ويحبّه جداً، كان حضوري للدروس بعد عام ١٩٧٥م، حيث كنت أحرص على الاستفادة منه، وقد استفدنا منه رَحِمَهُ اللهُ سَمَتاً وعلماً، وكان دائم الذكر لله في كل أحيانه، وما رأيت إنساناً مثله يعتقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، ويلمس حاجة العصر لها وكان ذلك إلى آخر حياته رَحِمَهُ اللهُ.

كيفية قراءة الدكتور جعفر:

يقول الشيخ: أنا بطيء في القراءة، وأذكر أني عندما كنت في بريطانيا حضرت دورة في زيادة سرعة القراءة، فتعلمت شيئاً من الناحية النظرية، لكن بالرغم من ذلك كنت من البطيئين في القراءة في الفصل، لكن الذي آتسني نوعاً ما أن المدرس أخبرنا أن هناك مهارات أخرى غير سرعة القراءة، فبدأ يسألنا فكنت الأول، فضحك المدرس قائلاً: لأنك بطيء القراءة طورت المهارات الأخرى «وظني أن سرعة القراءة متعلقة بسرعة الكلام، وأنا لست سريعاً في أي منهما، ولقد استفدت من الدروس التي حضرتها وقد أقنعني المدرس أن البطء ليس من العقل، ولكنه من العينين، فالذي يُدرب على القراءة كلمة كلمة منذ الصغر، لو أنه وسع المجال تدريجياً لصار يقرأ، ربما يقرأ سطرًا كاملاً كما يفعل الكثير من سريعى القراءة، وعلى العموم بالرغم من كوني بطيء القراءة لكني أقرأ كثيراً.

ومما استفدته من الشيخ ابن باز في هذا المجال -ولو كان متأخرًا- أنه رَحِمَهُ اللهُ بذاكرته القوية وحرصه على فهم كل سطر يسمعه يركز اهتمامه على بعض الكتب، ويحرص على سماعها عدة مرات، فأنا سمعت أنه قرأ (صحيح مسلم) أكثر من ستين مرة، ولذلك كانت الأحاديث تسيل لديه كالماء، وقرأ (البداية والنهاية) سبع مرات، فكان دائماً يتكلم عن المذاكرة قائلاً: أن العلم يضيع بدون مذاكرة، ولم أكن أقرأ الكتاب أكثر من مرة ربما لبطئي في القراءة -إلا نادراً، وأنا في قراءتي واسع الاهتمامات، لا اقتصر على مجال واحد، فأقرأ في الأدب الإنجليزي بمجالاته المتعددة، وأقرأ الكتب الفكرية والفلسفية والسياسية وعندى اهتمام

بالكتب العلمية خصوصًا التي تكتب لعامة المثقفين.

واستفيد منها وقد تحدثت عنها في كتابي عن وجود الخالق، حتى الكتب التي قد تشرح جانبًا معينًا في المجال العلمي، كما أحب قراءة كتب الفلك فقرأت كتبًا كتبها فيزيائيون عن ما يُسمى بالانفجار العظيم، وخصوصًا الكتب التي تثير قضايا فلسفية مع كونها علمية، وللأسف أننا تنقصنا أمثال هذه الكتب في اللغة العربية مع أهمية هذا الموضوع، وقد قرأت كتابًا من أحسن الكتب عن الداروينية اسمه: «Darwin's Black Box» (صندوق دارون الأسود) كتبه رجل علامة كاثوليكي، استفدت من هذا كثيرًا جدًا.

ومن الكتب التي قرأتها أكثر من مرة كتاب (معالم في الطريق) لأنني درسته وكنت من أوائل من لفت الأنظار على هذا الكتاب، ثم لما رأيت بعض آثاره السلبية بين الناس عملت عنه دروسًا في السودان في الجامع كان يحضرها عشرات الشباب، وكنت انتقد بعض المواضع في الكتاب، فكان هذا شيئًا خطيرًا في نظر البعض، مع أني أقول لهم أني أقدر سيد قطب وأقر له بالفضل، لكن لا مانع من نقده في مثل هذه الأمور، كما أكرر قراءة الكتب الأساسية أكثر من مرة، وأحب الكتب التي فيها الجوانب الفكرية، لذلك فالكتب التي تمتلئ بالإحصاءات والأسماء لا أميل إليها، ولذلك طالما قلت للناس أن من رحمة الله بنا أن القرآن ليس كذلك، وبالرغم من ضعف ذاكرتي لكنني في ذكري الحجج جيد فلا أنساها، سواء كانت هذه إسلامية أو غير ذلك.

وهناك كتاب قليل من الناس الذين يقرؤونه لكنني استمتعت به جدًا وقرأته

كاملاً، وهو كتاب (درء تعارض العقل والنقل) وأظن أن الجزء الأول، من أصعب ما قرأت وبقية الكتاب سهل، وقد ركزت اهتمامي على كتب ابن تيمية التي لها علاقة بأصول الدين، كدرء تعارض العقل والنقل ومنهاج السنة، ولم أهتم كثيراً بكتبه الفقهية.

استفادة الشيخ من إقامته في بلاد الغرب وما أضافه خلال مكوثه هناك إلى رصيده

الدعوي والمعرفي:

يقول الشيخ: أنا ذهبت إلى الغرب في عام ١٩٦٢م لإكمال الدراسات العليا بعد انتهائي من الدراسة في جامعة الخرطوم، وكنت في بعثة رسمية لنيل الدكتوراه، لكن نحن صلتنا بالغرب لم تبدأ منذ ذهابنا إليه، بل بدأت في الثانوية والجامعة حيث كان التدريس باللغة الإنجليزية، وكانت جامعة الخرطوم تبدأ الدراسة بها في السنة الأولى بأربع مواد، ثم الثانية بثلاث، ثم الثالثة باثنتين، ثم الرابعة بمادة واحدة، يسمونها الدراسة الخاصة، فتعرضنا للفكر الغربي في آخر ستين حيث درسنا الاقتصاد والفلسفة في الثالثة، ثم الفلسفة في الرابعة، وكل هذا فكر غربي، وأرى أنه لا بُد وقد أثر في فكرنا سلباً أو إيجاباً، ومن الأمور التي تحزنني أن معالجة القضايا والأفكار في الكتب الغربية أشمل وأعمق من كتب عالمنا العربي بكثير، فتجد البعض يكتب عن الماركسية كلاماً لو رآه ماركس لضحك، إن الكثير من نقد الماركسية عرفناه من كتب الغربيين، وهذه من الأشياء التي استفدتها من الشيخ ابن تيمية إذ يقول: أنه يستفاد من نقد أهل الأهواء لبعضهم البعض؛ لأن كل منهم يذكر أخطاء الآخر.

لكني أقول: أن هذه الكتب هي من وجهة نظر الكاتب، فما كل ما يذكره
 الرأسمالي عن الشيوعية صحيح، وما كل ما يقوله الشيوعي عن الرأسمالية
 صحيح أيضًا، فمثلاً: يقول الغربي أن الملكية الشخصية شيء فطري يعني إذا
 أنت لم تملك شيئاً تعد منحرفاً فطرياً!! وهذا ليس في الإسلام أبداً، وقد راجعت
 كتاب الله الكريم فلم أجده يمدح الشخص لأنه يملك بل يمدح الإنفاق مثل قوله
 تعالى: ﴿وَلْيَلْعَلْ هُمْزٌ لَّمْزَةٌ﴾ (١) الذي جمع مالا وعدده (٢) يحسب أن ماله
 أخذته. وبعض نقد الشيوعيين للرأسمالية صحيح جداً، فمثلاً: الانتخابات
 يقولون نعم، هناك انتخابات لكنها شكلية؛ لأن الفرصة فيها للأغنياء أو لمن
 يسنده الأغنياء، ولا ينجح الفرد غير الغني في ذاته أو غير المسنود من الأغنياء،
 وهذا عيب كبير في مسألة الديمقراطية لا بُد أن يعدل إذا أراد الناس الاستفادة من
 تجربة الغرب، ثم الكتب هذه التي تسمى العلوم العامة، كان أحسن من يهتم بها
 الاتحاد السوفيتي واستفدنا من كتبهم التي كتبوها في هذا المجال، وهم
 يخلطونها أحياناً بفلسفتهم، وتوجد بالغرب بعض الكتب المهمة بهذه الناحية
 لكنها ليست بمستوى تلك، كما إنني استفدت من إقامتي في الغرب لأنك ترى من
 عيوب الغرب بالمعاصرة ما لا يمكنك إدراكه عن طريق الكتب، فأنت هنا تتابع
 الأخبار والتحليلات فتكسب شيئاً جديداً.

ومن أحسن الكتب التي تنقد الديمقراطية بشكل واسع وعميق ما كتبه
 الغربيون أنفسهم، ولأحد مشاهير الصحفيين وأظن اسمه (ليمان) قول عجيب
 فهو يقول: أن الديمقراطية تصل بالإنسان إلى الحكم، لكن لا تقول له ماذا
 يفعل بعد أن يصل «وهذا عيب كبير، لذلك قلت لأحد إخواننا: أن هذا عكس ما

يعتقده أهل السنة، فالديموقراطية يهتمها طريقة الوصول إلى الحكم ولا تهتم بما بعد ذلك، أما أهل السنة فبعد الوصول إلى الحكم عندهم أهم من طريقة الوصول إليه، فجوزوا إماراة المتغلب ما دام سيطبق الكتاب والسنة وقيم الشريعة.

وهناك كاتب روسي اسمه (سورجنستين) جاء إلى الغرب وإلى أمريكا وانتقد الرأسمالية، وكان من ضمن ما يقوله عن الديموقراطية أنه قال: إن الديموقراطية كانت مفيدة عندما كانت مرتبطة بالدين، فالديموقراطية تعطيك حرية القول والدين يُرشدك إلى ما عليك فعله، لكن عندما ذهب الدين صارت الحرية هي حرية «فعل الشر!!» وقد قرأت قريباً في ملحق عن الكتب التي تنشرها الواشنطن بوست، عن صدور كتاب يتحدث فيه الكاتب عن هذه المشكلة التي تكلم عنها الشيوعيون قديماً، لكن بأدلة حديثة، ويبيّن عيوب الديموقراطية مضيئاً أن الثروة في هذه المجتمعات تتركز بأيدي جزء بسيط من أفرادها، وضرب مثلاً (بيل غيتس) إذ قال: أن ثروته تساوي ثروة بضع وأربعين بالمائة من المجتمع الأمريكي، فمثل هذه العيوب في أنظمة هذه المجتمعات السياسية والاقتصادية وقفنا عليها من خلال المكوث هناك.

أضف إلى ذلك المشكلة الخلقية التي يعانيها هذا المجتمع وهي جداً مخيفة، فانتشار المخدرات في المدارس والجامعات وغيرها من صفوف المجتمع الغربي؛ وكذلك ذبوع الانحلال الجنسي وغيرها من المشاكل الخلقية، والتي قد لا يتنبه إليها الكثير من أفراد هذه المجتمعات، إلا عقلاء مثقفهم، ومن الأشياء التي استفدتها أثناء إقامتي في الغرب هي قراءة البحوث الموثقة الموضوعية

المبنية على حقائق ملموسة، وقد لا توافق على النتائج التي توصل إليها هذا الكاتب أو ذاك، وكثيراً ما أبني على الحقائق التي يذكرونها وأتوصل إلى نتائج مختلفة لما توصلوا هم إليه.

وعلى سبيل المثال: أذكر أني قرأت كتاباً لإحدى رائدات الفكر النسائي في الغرب، حيث تذكر في إحدى فصول كتابها هذا: «أنهن لا يقصدن من دعوى المساواة بين الرجل والمرأة أن تكون المرأة رجلاً!! ولكن يقصدن أن تعتز المرأة بأنوثتها، إذ أن ما يحدث الآن أن هم المرأة الأول أن تكون مثل الرجل أو أن ترضي الرجال!!»، ثم ذكرت تفاصيل ما تصرفه المرأة من المال على مظهرها.

وهنا قلت: لو كانت المرأة هنا مستترة ما كانت في هذا الوضع المزري، وهنا تظهر الحكمة من الحجاب فقد قالت إحدى الأمريكيات لأستاذها المسلم: أنها كانت تعمل في مجال تصميم الأزياء وأنهم كانوا لا يصممون إلا ما يرضي الرجال، وأنها تعتقد أن أكثر شيء يعطي المرأة حريتها هو الحجاب، إذ لا علاقة لها حينئذ بالرجال!!، لذا يجب أن ننظر إلى الغرب كتجربة أعطانا الله إياها، ليرينا ماذا يحل بالمجتمعات التي تبتعد عن أوامر الله سبحانه وتعالى، لذلك ترى هنا بالإحصاءات والدراسات من مظاهر الفساد ما قد يغيب عنك ظاهراً من رؤية المجتمع ولصاحب كتاب (نهاية التاريخ) كتاب ذكر فيه من الإحصاءات ما يدل على مدى التدهور المخيف الذي تعانيه هذه المجتمعات.

الشيخ جعفر والترابي:

يقول الشيخ جعفر حفظه الله: كنت والترابي في نفس المدرسة التي أدرس فيها وكنا نسكن في نفس الداخلية (سكن الطلاب)، وكان الترابي أمامي في الدراسة ستين، ولم يكن معنا في الجماعة آنذاك، وعندما كنت في السنة الأولى بالجامعة سمعنا أنه انضم إلى الجماعة وفرحنا بذلك، ثم عرفت عن قرب وصحبته في الجامعة، لكنني بدأت ألمس فيه عيوباً في الفكر والسلوك، والبعض يظن أن دافع نقدي له هو التنافس، ولكنني لاحظت عليه ذلك وأنا مسؤول عن التنظيم ولم يكن هو آنذاك شيئاً يذكر، وانتقدته وقتها ولم تكن بيننا أي منافسة، ورغم تحفظاتي التي في قلبي فقد تعاونت معه بعد أن صار مسؤولاً وكنت اسمع منه فلتات.

فمثلاً: في وقت مبكر جداً كان يكره أهل السنة ويشمئز من ذكر البخاري وابن كثير وغيرهما، وليس عنده توقير للمصحابة، وقد قلت لبعض إخواننا الذين إذا انتقد أحداً رماه بالاعتزال، قلت لهم: لا تظلموا المعتزلة فهؤلاء كانوا عبّاداً ومخلصين، وكان ما يدعون إليه فكراً بالنسبة لهم وكان دافعهم إليه حسناً وهو اعتقاد تنزيه الله سبحانه فكثير ممن يُسمى اليوم معتزلة لو رآهم المعتزلة لتبرأوا منهم، أو يقول لك أشعري، حتى الأشاعرة لم يكونوا كذلك.

لذا أقول: أن هؤلاء أقرب إلى ما يُسمى بالزندقة أو الفلاسفة الذين لم يكونوا متدينين، ولا أقول عقلايين فقد تبعت آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر العقل، فما وجدت الله سبحانه يذم فيها العقل بل يجعل الله العقل مع الإيمان، وعدم العقل مع الكفر، وأهل الأهواء يختلفون فمنهم صاحب هوى في

الاعتقاد ومنهم في السلوك، ومنهم من جمع بين الأمرين وقد كانت هناك مجازاة لما يقوله الترابي من البعض، ونحن استطعنا إقناع البعض، لكن لم يكن نقدنا تياراً؛ لأنهم أشاعوا أن هذه مسائل شخصية وأنها من قبيل منافسة الأقران، والناس مهيؤون لقبول أمثال هذه الحجج البسيطة فهم يميلون إلى ما يعرفون، والمشكلة أن الرجل يتنكر وأنا لا ألوم الناس لأنني لا أميل إلى أن يسرع الناس إلى قبول كل اتهام يتهم به شخص من الناس خصوصاً إذا كان هذا الشخص ينكر.

وقد كان الترابي رجلاً منافقاً يقول في جلساته الخاصة خلاف ما يعلنه للناس ولا يزال حتى اليوم، وما كان يقوله في جلساته آنذاك أقل بكثير مما يقوله الآن، وليس ذلك فقط فقد صار محبوباً مرغوباً لذلك صارت فيه صفات ما كانت لتظهر فيه قديماً معنا نحن زملاؤه، فقد صار يحب القهر، دكتاتورياً متسلطاً، بل حتى لما ظهر لبعض الناس انحرافه لم يجاهره بالنقد، وبعضهم يرى أنه لا يتكلم في ذلك حفاظاً على الصف حسب زعمهم، وأعتقد أن من أخطائي الكبيرة إنني لم أكتب شيئاً في ذلك وظننت أن عندي ثقة بالناس وأتباع الحركة، خاصة أننا انتقدنا وبيننا لهم وأنه شخص واحد ولن يؤثر، لكن كان ظني خطأ ولم يقتصر خطأي على عدم الكتابة؛ بل ومنعت غيري من أن يكتب، ومن هؤلاء الشيخ سفر الحوالي وكان مهتم بذلك في وقت مبكر جداً، وجمع أشياء في هذا الصدد، لكن لعل عذري أن الوقت آنذاك كان وقت انتخابات.

وكان الترابي هو زعيم التيار الإسلامي ومنافسوه ليسوا من الإسلاميين، فخشيت أن يؤثر ذلك على الناس وأظن أن السبب في هذا هو الفكر التنظيمي إذ

يرى الكتابة في هذا تشق الصف مع أن بيان الحق أهم من ذلك بالطبع.

فراصة الشيخ جعفر (زرقاء اليمامة) :

وصف أحد السودانين الدكتور جعفر بأنه مثل زرقاء اليمامة في بُعد نظره؛ وذلك بمناسبة الأخطاء التي وقع فيها الترابي ولم يعرفها الكثير من الناس إلا في وقت متأخر، بينما الدكتور جعفر كان مدرّكاً لهذه الأخطاء والانحرافات في وقت مبكر، وكان يرد على الترابي في ذلك الوقت وبينه الناس عن هذه الأخطاء والانحرافات مما جعل الأخ السوداني يصف الدكتور جعفر بزرقاء اليمامة، ولكن الدكتور جعفر قال له: أنا لست مثل زرقاء اليمامة ولكن كثيراً منكم مثل العميان، وفي الحقيقة أن الدكتور حفظه الله له نظرات بعيدة وثاقبة وتوقعات لأمر وقعت بعد كلامه عنها بزمان طويل، فهو كما قال عن نفسه: «وقد حدث كثيراً أن اعترض البعض على آراء لي، ثم تبين فيما بعد أن ما قلت به كان صحيحاً»^(١).

فمنها على سبيل المثال :

١- موقفه من الترابي: فقد نبه على أخطائه وضلالاته في وقت مبكر وكان يناقشه ويرد عليه في حين أن كثيراً من الناس لم يعرف حقيقة الترابي إلا في وقت متأخر جداً.

٢- موقفه من الاعتداء على الترابي: وذلك لما اعتدي على الترابي في كندا، وكان ذلك قبل وفاته بأكثر من عشر سنين، وكان الذي اعتدى عليه ضربه ضربة قاتلة توقع الناس أنه سيموت بسببها، ولكن أحد السودانين (بسطامي سعيد) قال:

(١) في حوار له مع جريدة المسلمون العدد (٣١٢)، ١٠/٧/١٤١١هـ.

أنه لن يموت، وقال كلامًا فحواه: ولو أن الأعمار بيد الله ولكن الله أحكم وأعدل أن يموت رجل ضال وهو عند الكثير يعدونه من الدعاة والمصلحين، ولما سمع الدكتور جعفر هذا الكلام أيده ووافقه وتوقع الشيخ أنه لن يموت حتى يعرفه الناس على حقيقته من الزيغ والضلال والزندقة والانحراف، فكان الواقع أن الترابي نجا من هذا الاعتداء وعاش بعدها سنين ثم مات بعد ذلك، وقد انكشف للناس زيغه وضلاله.

٣- موقفه من الحرية الدينية للمسلمين في الغرب وأمريكا: وقد سمعته قال في محاضرة له في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا في الثمانينات الميلادية: «لا تغرنكم الحرية التي تستمتعون بها في أمريكا، فأنتم تُعطونها الآن لأنكم لستم مؤثرين ولا أحد يخاف منكم، أما إذا صار عددكم كبيراً، وصرتُم تمثلون جهة تخشى منها الأحزاب، أو الجماعات التي تقوم عليها الحياة هنا، فلن يكونوا مغفلين، ولن يلتزموا بالديمقراطية ولتكن النتيجة ما تكون» والعجيب أن كثيراً من الحاضرين سخر من هذا الكلام واستغربه؛ لأنه في ظنه لا يمكن أن يحصل في بلد ديمقراطي مثل أمريكا، فحصل الآن ما توقعه الشيخ فأصبحت أمريكا بلد الحرية والديمقراطية المزعومة تضيق على المسلمين في داخل أمريكا وتبيد الشعوب المسلمة وتقتلها في البلدان الإسلامية كما فعلت في أفغانستان والعراق وسوريا والصومال وغيرها من بلاد المسلمين.

٤- موقفه من سؤال الفيزيائيين عن وجود الخالق: فقد قال في إحدى المؤتمرات في أمريكا وذلك في السبعينات الميلادية لعلماء الطبيعة والفيزياء:

أنه سيأتي اليوم الذي سيسأل فيه علماء الفيزياء عن وجود خالق لهذا الكون، وأن هذا السؤال سيصبح سؤالاً مشروعاً وملحاً؛ لأنه كان في ذلك الوقت السؤال عن وجود خالق لهذا الكون سؤالاً مستنكراً وغريباً، وحصل ما توقعه الدكتور فأصبح اليوم السؤال عن وجود خالق لهذا الكون في محيط علماء العلوم الطبيعية بسبب النظريات الفيزيائية الحديثة أصبح سؤالاً ملحاً ومشروعاً. قال حفظه الله: «والله قلت هذا الكلام في سنة سبعين وبعض الناس استغربوا منه، وأجد الآن الكثير من الأمريكيين المتدينين وكأنهم أخذوه مني، وأنا متأكد أن أي أحد منهم لم يقرأ لي شيئاً أو سمع بمقولاتي».

٥- وكما كان شائعاً في ذلك الوقت استنكار السؤال عن وجود خالق لهذا الكون، فكذلك شاع أن العلوم لاسيما الطبيعية محايدة ولا علاقة لها بالدين، وكان الشيخ قد ألقى محاضرة في أحد المؤتمرات الإسلامية في أمريكا في التسعينات الهجرية من القرن الماضي، فأيد من أيد واعترض من أعترض وسخر من سخر، وكانت أعلى الاعتراضات صوتاً من دكتور يحاضر في إحدى الجامعات الأمريكية، وحجته أن العلم محايد لا يتأثر بدين أو ثقافة، يقول الشيخ: وبعد سنة وفي مؤتمر مماثل حضر البروفسور نفسه ومعه بحث طويل يؤيد ما قلته، فقلت: ماذا حصل يا فلان؟ فقال: «I did my homework» «لقد عملت واجبي المتزلي» وهكذا كثير من العلماء والباحثين لاسيما من المسلمين تغيرت نظرتهم وأصبحت لدى بعضهم أن العلوم ليست محايدة كما يقال.

٦- والشيخ كثيراً ما استمعت إليه وهو يخاطب الطلاب المبتعثين في أمريكا

في المؤتمرات والملتقيات الإسلامية قائلاً: إنني أخشى على أمتكم منكم فربما كنتم سبباً في تغريبها وأن تكونوا قنطرة للعلمانية، فلعل بعضكم ينقل سيء الحضارة الغربية إلى أمتنا ظاناً أنه حسن، ومن استمع إليكم ربما أحسن فيكم الظن بسبب مظهركم الإسلامي فصدقه وتأثر به، وقد وقع ما حذر فانتشرت العلمانية عن طريق بعض هؤلاء الفضلاء، وصارت العلمانية في المجتمعات الإسلامية كما قال الشيخ: علمانية في ثياب إسلامية.

٧- موقفه من فوز الجبهة الإسلامية في الجزائر: وذلك أن الدكتور جعفر يرى أن النظام الديمقراطي لن يسمح للإسلاميين بالوصول للحكم، وأن الغرب مستعد للتضحية بالديمقراطية من أجل العلمانية، ويستشهد بقول أحد الفلاسفة لما سُئل إلى أي مدى تتسامح الديمقراطية مع الشيوعية؟ قال: تتسامح معها ما لم تصل للحكم، فلما فازت الجبهة الإسلامية في الجزائر علق البعض بأن نظرية الدكتور جعفر فشلت وفاز الإسلاميون عن طريق الانتخابات الديمقراطية، ولكن لم يستمر الحال فقد أبعد الإسلاميون وحيل بينهم وبين ما وصلوا إليه، وقد سمعته يقول: كنت أسعد الناس أن تفشل نظريتي ويستمر فوز الجبهة الإسلامية، ثم جاءت بعدها الانتخابات في غزة وفازت حماس، ولكن الغرب لم يرض بذلك وضحى بالديمقراطية، وأخيراً الانتخابات في مصر وفوز محمد مرسي بالحكم، فكل هذا وأمثاله يؤيد توقع الشيخ جعفر أن الإسلاميين لن يسمح لهم بالوصول للحكم عن طريق الديمقراطية، وإذا وصلوا فلن يستمروا.

٨- موقفه من دخول القوات الأمريكية للخليج عام ١٩٩٠م: فقد كان كثير

من الناس يجزمون بأن القوات الأمريكية لم تأت إلا لاحتلال الخليج والجزيرة، بينما الدكتور جعفر يستبعد وقوع ذلك وينفيه فكان الأمر كما ذكر.

٩- موقفة في عدم ترك شمال السودان متحد مع جنوبه: ولقد سمعته من أكثر من عشرين سنة يقول: إن الغرب لن يتركوا السودان متحداً مع الجنوب، فلا بُدَّ من يوم يسعى الغرب لفصل جنوب السودان عن شماله، فحصل الذي توقعه.

١٠- خشيته على بعض الأفاضل ممن كان يزوره من الانحراف، فقد قال لي الشيخ يوماً: إني أشم من فلان رائحة كريهة، فظننت أنه يقصد رائحة بسبب الوساخة والقذارة الحسية، ولكنه كان يعني القذارة الفكرية، فحصل ما توقعه الشيخ فأصبح هذا المسكين (رده الله إلى جادة الصواب) حرباً على الخير وأهله، منافحاً عن الأفكار الضالة ومدافعاً عن الزنادقة والملحدين، معادياً للمدعاة والعلماء والصالحين.

مواقف الدكتور جعفر

ورؤيته لقضايا مختلفة

الدكتور جعفر يرفض أن يكون فقيه العامة؛

من حوار معه في جريدة المسلمون العدد ٣١٢، ١٠/٧/١٤١١ هـ مع
الداعية الدكتور جعفر الذي رفض أن يكون فقيها للعامة الكثيرون -علماء
وعامة- ربما لا يريدون أن يسمعوا مثل هذه الكلمات منك، ولكنك تصر عليها،
فلماذا وهل أنت ممن يرفضون أن يخاطبوا الناس بما يحبون؟

فأجاب الدكتور جعفر: هناك مثل إنجليزي شهير يتهمون به على هؤلاء
الذين يتملقون مشاعر الجماهير. يقول المثل «أنا قائدكم... دلوني على الطريق»
والمسلم عندي ليس هو من يقود الجماهير، بل هو من يهديهم إلى الحق، ومن
يظل على موقفه هذا حتى لو رفض يكون قائدا لهم، وأحمد الله إنني قادر على
أن أقول رأيي دائما، وقد حدث كثيرا أن اعترض البعض على رأي لي، ثم تبين فيما
بعد أن ما قلت به كان صحيحا.

وبعد هذا لتساءل: من الذي كَوّن آراء الناس؟ إنها أفكار الآخرين، ومعنى
أن أسير وراء الناس حيث يريدون أني أتبع آراء وأفكار أشخاص قد يكون بينهم
البعثي والعلماني والملحد، ولهذا لا بُد أن أتمسك بأفكاري ومبدئي الإسلامي وأن
أعاني من نشر ما أعتقد أنه حق.

الديمقراطية ليس لها محتوى:

من حوار في قناة المجد في ساعة حوار مع الدكتور جعفر شيخ إدريس:

سؤال: لكن هل تلاحظ أن هذه من المفارقة بين هذه الدول التي ترفع شعار الحرية شعار الديمقراطية وشعار العلمنة وبين التدخل الصريح في صميم العقائد والحريات الشخصية؟

فأجاب الدكتور جعفر: أنا أرى أننا نحن في العالم الإسلامي والعربي كثيرًا ما نتوقع من الديمقراطية ما ليس فيها، ما الديمقراطية؟ الديمقراطية هي حكم الشعب، الديمقراطية لا تلزم أي شعب بأي مبدأ ولا قيمة ولا، تقول للشعب أنت الحاكم واختر لنفسك ما تريد، فالديمقراطية ليس لها محتوى، يعني مثلاً عندما تقول: حكم إسلامي هذا لها محتوى، تقول الإسلام هو هذا القرآن والسنة، ربما حتى لو قلت حكم نصراني عندهم مرجع، حكم شيوعي عندهم مرجع، الحكم الديمقراطي ما عندهم مرجع، الشعب هو السلطة العليا وما يختاره الشعب هو الديمقراطية، أنا كنت أقول لأناس في أمريكا يعني الآن يمكن أغلبية الناس تقول كل إنسان يكون عمره في العمر هذا يقتل، هذا قرار ديمقراطي، لو صوتوا عليه ونجح ممكن أن يكون هذا قرار ديمقراطي، فالديمقراطية لا تلزم بخلق ولا تلزم بدين ولا تلزم بأي شيء، أنت يمكن أن تعترض على هذا القرار وتقول هذا القرار مخالف للدين أو مخالف للخلق، لكن لا تستطيع أن تقول أنه مخالف للديمقراطية ما دام الاجراء فيه كان إجراء تصويت.

ما تتلمذت على شيخ مثل تتلمذي على الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ:
 من حوار أجرته مجلة الاستجابة السودانية مع الدكتور جعفر شيخ إدريس:
الاستجابة: إلى أي حد استفدت من فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز؟
 الدكتور جعفر: تأثرت منذ الطفولة بأنصار السنة وما تتلمذت على شيخ
 مثل تتلمذي على الشيخ عبد العزيز بن باز، عبد العزيز بن باز اعتبره شياخي ما أظن
 إنني تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه، وإن كان ذلك بعد الخمسين
 ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلاً أعلم منه، ولا لقيت في كل من
 عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير المسلمين
 رجلاً في ورعه وتواضعه.

ومن العيوب المنتشرة جداً بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين
 أو علماء الدنيا أنهم لا يعترفون بأقرانهم، ويقدحون فيهم ويتقدونهم ما رأيت
 رجلاً عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبد العزيز بن باز، لا يذكر رجلاً من العلماء
 المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب، ثُمَّ إن خالفه يقول لكن أخطأ
 في الشيء الفلاني وكذا وكذا، ثُمَّ يعتذر له أن هذه المسائل يُخطئ فيها كبار
 العلماء قبله، وهو رجل كريم وما أعرف علي وجه الأرض رجل يعرف من أحوال
 المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأبناء بلده
 مثل الشيخ عبد العزيز، لذلك حزنت حزناً شديداً عندما كنت أسمع أن بعض
 الناس يتكلمون عنه ويصورونه كأنه مجرد رجل من تنابله السلطان، أو أنه يضغط
 عليه ليقول كلاماً لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا

يؤمن به أبداً، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه، أما أن يخطئ، فهو بشر كل العلماء يخطئون، ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَتَبَ الْعَصْمَةَ إِلَّا لِلرَّسُولِ ﷺ.

واستكمالاً للتعرف على شخصية الدكتور جعفر نورد عدداً من الحوارات التي أجريت معه في مناسبات مختلفة وأماكن متعددة:

﴿ مقتطفات من حوار مع صحيفة الشرق الأوسط ﴾

الجمعة ٧ ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ٢٠ يناير ٢٠٠٤، العدد (٩١٩٤)

لست متشدداً ولا أرفض الحوار مع الآخرين وإبعادي من أميركا يدخل ضمن الحملة المتشددة ضد السعودية:

الشرق الأوسط: اتهمت أنك تتعامل مع مؤسسات إسلامية أميركية تدعو إلى نوع متشدد من الفكر الإسلامي ما ردك؟

الدكتور جعفر: التشدد وعدم التشدد أوصاف نسبية تعتمد على تصور الواصف للأمر، إن السائد في الفكر الغربي هو أن كل من يرى دينه هو الحق الذي أوحاه الله تعالى، ويأخذه لذلك مأخذ الجد، خصوصاً وعبادة وسلوكاً بقدر استطاعته، هذا في رأيهم إنسان متشدد لأنهم يرون - حسب الدين الذي عرفوه، ثم أنه يصدق على سائر الأديان أنه متأثر بثقافة عصره فلا ينبغي أن يفرض على ثقافات عصور جاءت بعده، فالدين صار عندهم تابعاً للثقافة السائدة، وهو عندنا حكم على الثقافات وقائد لا تابع، فأنا لا أعد بالمقاييس الإسلامية متشدداً ولست من الذين يرفضون الحوار مع الآخرين ومجادلتهم بطريقة عقلانية.

الشرق الأوسط: ذكرت أنك خضعت لتحقيقات من قبل المباحث الأميركية «أف. بي. سي»، فماذا جرى معك بالضبط؟

الدكتور جعفر: نعم، لكنني خدعت فمعظم من سألوني وحققوا معي كانوا

في المطارات، ولم أكن أعرف أنهم من رجال المخابرات، ولمّا عرفت، وكان ذلك في آخر دخول لي قادمًا من بريطانيا لم أجبههم؛ لأنني علمت أنه لا حق لهم في استجوابي، وأن صلتني إنما هي بوزارة الخارجية، بل علمت من بعض رجال القانون أنه لا حق لهم في استجواب أيّ أحد إلا إذا جاءوا بوثيقة تبيح لهم ذلك، لكنهم في الغالب يستغلون جهل الناس بالقانون فيسألونهم أسئلة يورطونهم بها. لم تتعد أسئلتهم ما ذكرت لك من محاضرات وندوات، وقد غضبت ذات مرة فقلت لأحدهم: إنكم تعلمون إنني كنت من أوائل من انتقدوا ما حدث في ١١ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١ في خطبة جمعة شهدتها مراسلو قنوات تلفزيونية مشهورة منها «سي إن إن»، ثمّ قلت له: بالمناسبة أنا لست حريصًا على البقاء في بلدكم، وأنا لا أستفيد منكم أي فائدة مادية.

الشرق الأوسط: الآن في السعودية، هل لديك نشاط معين أو عمل بعينه يرتبط بعملك السابق في واشنطن؟

الدكتور جعفر: لا.

الشرق الأوسط: هل يمنعك قرار سحب التأشيرة الدبلوماسية من السفر إلى الولايات المتحدة ولو بتأشيرة عادية، وهل تنوي السفر إلى واشنطن مرة ثانية؟

الدكتور جعفر: من الناحية الرسمية لا يمنعني لكنك تعلم أن إعطاء التأشيرة يخضع لشروط أخرى، لا أفكر الآن في الذهاب للولايات المتحدة، وأنا أسف لذلك؛ لأن أميركا هي الآن من أخصب البلاد للدعوة الإسلامية، وربما كان أقرب الشعوب الغربية إلى الفطرة، والإسلام هو دين الفطرة، فكل من احتفظ بها يجد في

نفسه راحة به حين يعرفه. وأنا كثيراً ما أذكر إخواننا الدعاة بأن لا يخلطوا بين الموقف السياسي من هذه الإدارة أو تلك وهذه السياسة أو تلك وبين الموقف من الأمة الأميركية أو البريطانية أو اليابانية أو غيرها، إن دعوتنا إلى الناس تقوم على رصيد في نفوسهم لا تخلو منه أمة منهم، ولولا وجود هذا الرصيد من الخير في الأمم لما أسلم منهم أحد، لقد عشت في أميركا مدة واستفدت منها علماً وثقافة وكونت بها صداقات غزيرة، فأنا لا أخرج منها كارهاً لكل ما فيها ولا شاعراً بمرارة نحو كل أهلها.

الشرق الأوسط: ما طبيعة المواضيع التي كنت تتناولها في المحاضرات والندوات التي كنت تقيمها في أميركا؟

الدكتور جعفر: أغلبها إسلامية وجزء بسيط يتعلق بالسياسة سواء في الشأن الأميركي أو العربي أو الإسلامي وغيره.

الشرق الأوسط: هل كنت تنتقد في هذه المحاضرات والندوات السياسة الأميركية؟

الدكتور جعفر: نعم، كنت أوجه بعض الانتقادات للسياسة الأميركية، ولكن ما أقوله ليس أكثر مما يقوله الأميركيون عما يحدث في الساحة الأميركية سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية، وأنا لا أتحدث عن السياسة في كل المحاضرات والندوات.

الشرق الأوسط: متى كانت آخر محاضرة ألقيتها هناك؟

الدكتور جعفر: قبل إيعادي بأسبوع.

الشرق الأوسط: وهل وجدت أي اعتراض صريح على هذا النشاط الذي تمارسه؟

الدكتور جعفر: نعم، قالوا لي أنت دبلوماسي ويجب ألا تقوم بمثل هذا العمل الذي تخاطب به آلاف الناس، وفي الحقيقة إن العدد الذي يحضر هذه المحاضرات في الغالب يتراوح ما بين ١٠٠ و ٢٠٠ شخص من العرب والمسلمين. الشرق الأوسط: وهل صحيح أن إلغاء تأشيرتك الدبلوماسية كان بسبب التغييرات في القانون الأمريكي؟

الدكتور جعفر: الأمريكيون دائماً لا يفصحون عن السبب، ولا اعتقد أن ذلك يتطلب تغييراً في القانون، ولكن يمكن أن ترجع ذلك إلى التشدد الحاصل مع السعودية.

الشرق الأوسط: هل تتهم جهات بعينها بأنها وراء إبعادك من أميركا؟

الدكتور جعفر: نعم، ولكنني أرفض الإفصاح عنها على الأقل في الوقت الحاضر، وما أحب أن أقوله في هذا الخصوص: هو أن الصحافية الأميركية (سوزان سميث) التي أوردت قرار إيعادي في جريدة (واشنطن بوست) طلبت أن تعجري معي مقابلة صحافية إلا أنني رفضت، وهي صحافية معروفة بمعاداتها للإسلام والمسلمين، واعتقد أنها يهودية الديانة.

﴿ مقتطفات من حوار جريدة المسلمون ﴾

(العدد ٣١٢، ١٠/٧/١٤١١)

المسلمون: وكانت الفتنة القاصمة التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية ممثلة في أزمة الخليج هي مدخل هذا الحوار، فكيف وقع ما وقع ولماذا، وكيف تباينت المواقف تجاه الحدث على نحو لا يكاد يصدق؟

الدكتور جعفر: أنا أفهم ما حدث وتحليله يبدأ بتحديد معاني الكلمات وأولها هذه الكلمة (الفتنة)، وعندي أن الفتنة هي ما يجعل قبول الحق عسيراً، وقد يكون أحدنا على نحو أو آخر سبباً للفتنة عندما يكون رمزاً للدين ويعرف الناس الإسلام عن طريقة، يكون هذا الشخص في موقع قيادي، فإذا ما اتخذ مثل هذا الشخص موقفاً فيه ميل إلى الظلم، أثر بذلك على العامة، فمالوا معه.

إن واجب العلماء أن يكونوا قدوة للناس، ويجب أن يتخذوا مواقفهم بناء على هذا الموقع؛ لأن العامة يتخذونهم نموذجاً وأسوة، ومن المؤلم إن بعض الإسلاميين - في هذه الأزمة - قد ضحوا بالمبادئ والمثل العليا من أجل مواقف جزئية ومصالح موقوتة، صحيح أن الإسلام دين عملي، وهو يرتبط بالحياة وواقع الناس، ولكن هذا لا يعني أن نضحى بالمبادئ أو المثل من أجل هذه الجزئيات التي هي أدخل في باب التفاصيل منها إلى الدخول في باب الكليات، إن في الناس جهلاً وانفعالاً عاطفياً، وغالباً ما تحكمهم سيكولوجية الجماعة، ولهذا فهم دائماً بحاجة إلى قائد أو موجة أو نموذج يحتذى به؛ لأنهم غير

قادرين بذواتهم على اختيار الموقف الصحيح، وفي هذه الأزمة سار الناس وراء قادتهم أو وراء نماذجهم الإسلامية فضّلوا، وهم هنا أعني العامة - غير ملمومين، ولهذا جاءت الفتنة وتباين المواقف.

قارن هذا الموقف بموقف أبي بكر وعمر أمام أزمة المرتدين عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، لقد حارت عقول كبار الرجال من صحابة رسول الله أمام الموقف الصعب، وقال المؤرخون أن عمر قد تابع أبا بكر في رأيه، وهذا غير صحيح، والصحيح هو أن عمر قد استبان له الحق برأي أبي بكر فاتبعه. أما في أزمتنا هذه فقد طاشت عقول بعض القيادات أكثر مما طاشت عقول العامة.

المسلمون: تلك مشكلة سير العامة وراء قادتهم، فكيف انحرف هؤلاء القادة أنفسهم؟

الدكتور جعفر: لأننا - إذا أحسننا الظن - ورغم انتسابنا للإسلام، لانزال متأثرين في سلوكنا العملي بمبادئ غير إسلامية، لقد كشفت هذه الأزمة عن أهمية التربية الإسلامية التي كثيراً ما تحدثنا عنها، والتي قصرناها على أداء الشعائر في العبادة والصلاة وبعض السلوكيات، مع أن هذه التربية يجب ألا تنعزل عن الفكر، بحيث لا يكون هناك تناقض بين العبادة والعقل، أو الفكر والسلوك، والذي يحدث في واقعنا غير هذا.

فكثيراً ما نرى الإنسان المسلم صادقاً في حياته الخاصة، لا يكذب ولا يسرق ولا يخون، لكنه ما أن يبدأ التعامل مع السياسة حتى تجد نفسك إزاء إنسان آخر، حيث لا يجد حرجاً في الكذب والمراوغة معتقداً أن للسياسة معايير

تختلف عن المعايير الشرعية، نعم فعل هذا ويفعله كثير من الإسلاميين، حتى إنني راجعت بعضهم وقلت له في موقف أو آخر: إن هذا لا يجوز لأن فيه كذباً أو مخالفة، ولكن هذا البعض كان يقول لي إن العمل في السياسة يحتاج إلى مثل هذا السلوك؛ وذلك نمط من التفكير الغربي الذي لا تزال متأثرين به للأسف.

المسلمون: الكثيرون -علماء وعامة ربما لا يريدون أن يسمعوا مثل هذه الكلمات منك، ولكنك تصر عليها، فلماذا وهل أنت ممن يرفضون أن يخاطبوا الناس بما يحبون؟

الدكتور جعفر: هناك مثل إنجليزي شهير يتهكمون به على هؤلاء الذين يتملقون مشاعر الجماهير. يقول المثل: «أنا قائدكم... دلوني على الطريق». والمسلم عندي ليس هو من يقود الجماهير، بل هو من يهديهم إلى الحق، ومن يظل على موقفه هذا حتى لو رفض قائداً لهم، وأحمد الله إنني قادر على أن أقول رأيي دائماً، وقد حدث كثيراً أن اعترض البعض على آراء لي، ثم تبين فيما بعد أن ما قلت به كان صحيحاً، وبعد هذا التساءل: من الذي كون آراء الناس؟ إنها أفكار الآخرين، ومعنى أن أسير وراء الناس حيث يريدون أي أتبع آراء وأفكار أشخاص قد يكون بينهم البعثي والعلماني والملحد، ولهذا لا بد أن أتمسك بأفكاري ومبديي الإسلام وأن أعاني من نشر ما أعتقد أنه حق.

المسلمون: أنت تدعو إلى نوع من الواقعية في التعامل مع الغرب. فكيف يتم هذا مع الإحساس بأن هناك مؤامرة صليبية كبرى ضد الإسلام والمسلمين لا يصلح العمل معها إلا بالجهاد؟

الدكتور جعفر: أنا لا ادعو إلى التعاون مع الكافر في كفره، بل أدعو إلى فهم روح العصر؛ لأن رفض التعامل مطلقاً مع الغرب أمر مستحيل، على المستوى الاقتصادي على الأقل، فهو يشتري بترونا ونحن نستخدم منجزاته الصناعية.

إن تجاهل الحقائق خطأ يقع فيه الشباب وبعض الكبار أيضاً، ومن قبيل هذا التجاهل ما يقول به هؤلاء من إعلان الجهاد ضد الغرب الملمحد وعدم التعامل معه، ونموذج صدام حسين هو أشهر هذه النماذج، فمن أين له بهذه القوة كلها؟ لقد سمعت حواراً مع مسؤول فرنسي في الإذاعة البريطانية بعد أن سأله المذيع أليست نادمين على ما قدمتموه من مساعدات لصدام حتى تحول إلى طاغية يهدد الغرب ومصالحه؟

قال المسؤول: نحن نعلم أنه طاغية ولكنه علماني، وهذا يعني أنه يظل أفضل من الإسلاميين بالنسبة لنا، معنى هذا أن أحداً لا يملك أن يرفض التعامل مع الغرب بكل سوءاته، وهذا ما أقول به، بل إنني أذهب إلى حد القول إن تعبير (محاربة الغرب) لا ينبغي أن يقال، فهو شعار لا يعني شيئاً؛ لأن الحركات الإسلامية ليست مستعدة له حالياً.

فضلاً عن أن مثل هذه الكلمات الرنانة تدفع الآخرين للنظر إلى الإسلام والحركات المعبرة عنه على أساس أنها حركات غير متحضرة إن لم تكن همجية وبربرية تستهدف القضاء على الحضارة الإنسانية السائدة، وليس هذا هدفاً للإسلام بالطبع، لأننا نأخذ ما في هذه الحضارة من خير ونرفض ما فيها من شر، بل إن الإسلام ينهانا عن استخدام مثل هذا التعبير؛ لأن القرآن يستخدم

كلمات الكفر والإيمان، ولم يقل محاربة قريش أو الروم، فهدفنا ليس تدمير حضارة الغرب بل الدعوة إلى الحق، ولو آمنوا بهذا الحق لأصبحوا إخواناً لنا.

إن الصراع موجود، وهو ممتد أيضاً ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب له، لأننا لا نملك مقومات الانتصار في هذه المعركة حتى الآن، فلنتظر إذن ولنعمل «كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة»؛ لأنهم لم يكونوا مستعدين لقتال المشركين.

المسلمون: لعل من أخطر سلبات هذه الأزمة ذلك الجفاء الذي وقع بين الإسلاميين الخليجيين وإخوانهم في الدول الأخرى، والذي كان من أهم أسبابه مقولة إن هناك ظلمًا في توزيع الثروة على نحو يزرع الحقد في النفوس، فهل يمكن أن يتأثر شباب الصحوة بمثل هذه الأفكار؟

الدكتور جعفر: الحق إنني فوجئت بهذا الكم من المرارة ضد أهل الخليج، وهو كم أكبر مما كنت أتوقعه أو أتصوره بكثير، والغريب إن هذه المرارة كانت تعتمل في صدور مسلمين مخلصين يصلون ويصومون، وثمة عدة تفسيرات لهذا الموقف وهو أن السعوديون والخليجيون بشكل عام يقولون إنه الحسد.

وأنا أقول: إن السبب ربما يعود إلى نوع المعاملة التي عومل بها البعض في تلك البلاد؛ لأن أكثر الناس مرارة كانوا من هؤلاء الذين عملوا في الخليج، أما الذين لم يعملوا في الخليج ولم يزوروه يحملون تصورات خاطئة عن هذه البلاد وأهلها، إذ يعتقدون أنهم مجرد أناس خاملون مترفون، ولهذا حين وقعت الأزمة لم يتعاطفوا مع الخليجيين؛ لأنهم يقارنون بين المعاناة التي يعيشونها في

بلادهم من أجل لقمة العيش وبين إخوة لهم عرب ومسلمين يعيشون في بحبوبة
تصل إلى حد الرغد، وأمّا العرب في الغرب بشكل عام - وخصوصًا الطلبة - فهم
يفهمون الإسلام من خلال النموذج الاسمي - أي حكومة المثل الأعلى كما
يجسدها المصطفى ﷺ وخلفاؤه الراشدون - وهم يريدون إسلام
اليوم على هذا النحو، ومن هنا ذلك الجفاء الذي يشعرون به تجاه الخليج
وأهله.

مقتطفات من حوار جريدة الرياض

حاورة علي الشثري

الرياض: نريد أن نتعرف على واقع الإسلام الآن في أمريكا بعد الأحداث المتعاقبة ابتداء من أحداث ١١ سبتمبر وما أعقبها وكيف تنظرون إلى واقع الإسلام في السابق والحاضر؟

الدكتور جعفر شيخ إدريس: في السابق كانت هناك حرية للدعوة ولم تكن هناك أي مشكلة: حتى إنني كنت أقول لإخواني: «ما أظن أن هذه الحال تدوم علينا أن نستغل هذا الوضع، والذي كنت اتصوره أن الذين يحاربون الإسلام سيلجأون إلى طرق منها أن يكونوا جماعات إسلامية غير حقيقية وتكون كما يقولون متطرفة، وتقوم بحرق بعض المساجد، فهذا الذي كنت اتصوره، وفي اعتقادي أن معدل انتشار الإسلام في أمريكا يبدو أنه لا يعادله مكان آخر.

وهذا مما سبب إزعاجاً كثيراً لبعض الناس سواء كانوا متدينين أو غير متدينين، وكثير من إخواننا في العالم الإسلامي دائماً يركزون على اليهود والنصارى، ولكن هؤلاء الناس فيهم أعداد كبيرة ليسوا يهوداً ولا نصارى، وهم أعداء للدين من حيث هو سواء كان يهودياً أو نصرانياً أو إسلامياً خاصة إذا كان يهودياً، فهم يريدون أن يحافظوا على حضارتهم هذه التي هي ليست دينية رغم أنها متأثرة بالنصرانية واليهودية، لكنها حضارة منذ القرن الثامن عشر -بصرامة جداً- تركت الدين ورجعت إلى الفكر اليوناني الذي كان سابقاً للمسيحية، في

السابق كانت هناك مراقبة لكنها كانت خفية، وكل إنسان كان مطمئناً بعض الأطمئنان بسبب القانون الذي كان سارياً باعتبار إنه إذا حدث له مشكلة بإمكانه أن يذهب إلى المحكمة، أما بعد ١١ سبتمبر تغير الوضع تغيراً كاملاً.

وفي الحقيقة أمريكا هي التي تغيرت خاصة فيما يتعلق بالحريات وتطبيق القانون، فقد تغير الوضع تغيراً كبيراً.

فمثلاً: إن آخر ما حدث هو أن الندوة العالمية للشباب الإسلامي كانت قد دعت ٣٠ شاباً من الولايات المتحدة الأمريكية فحكى لي بعضهم أشياء لم يتصورها أحد أن تحدث في أمريكا، أنهم وهم يدخلون إلى الطائرة جاءت أعداداً كبيرة من (الآف بي أي) وسألوا كل واحد منهم أسئلة كثيرة، وتم إرجاع بعضهم ولم يتركوهم للسفر إلى المملكة؛ كذلك هناك مراقبة شديدة للذين لديهم نوع من النشاط، أي نوع من النشاط - حركي - فكري أو غيرهما، وكل يوم نسمع أخباراً جديدة وسمعنا أن هناك واحداً من الأطباء تم القبض عليه وهو من أصل عراقي، وكان نشطاً في تجميع التبرعات لأطفال العراق، بينما كانت هناك جمعيات غير إسلامية كانت تفعل هذا النشاط، ولكنه الآن تم القبض عليه... وجاءت الأخبار أن هناك شخصاً يعمل في منظمة التجمع الإسلامي وهي مؤسسة رسمية مسجلة تم القبض عليه.

وأعود وأقول: إن السبب الأساسي هو التوحيد، والسبب الثاني: هو النواحي الأخلاقية إضافة إلى بعض الأسباب التي لا تحصي، ولهذا فأنا أقول للناس: إن هذا القرآن فعلاً مائدة... فهناك أسئلة تقول كيف ندعو الغربيين للإسلام؟

أقول لهم: أن الغربيين بشر يجذبهم ما يجذب بقية الناس، لا تظنون إن هؤلاء الغربيين وكما يتوهم بعض الناس يجب أن نكلمهم كلامًا منطقيًا مبنيًا على العلوم الطبيعية، فهذا الكلام ليس صحيحًا فهم بشر نضع أمامهم هذا القرآن الذي بمثابة المائدة، فهناك من يحب أو يشتهي نوعًا ما من الطعام فيأكله، فهذه المائدة مليئة بكل ما يشتهي.

أود أن أضرب لكم مثالًا: كثيرًا ما أقول للناس وهو إنني قابلت امرأة قيل أنها تود الدخول في الإسلام وبدأت تهتم بالإسلام، فسألتها ما الذي لفت نظرك إلى الإسلام؟ قالت: إنني رأيت فيلمًا أمريكيًا عن جماعة مسلمين مسافرين، وإنهم إذا جاءوا للصلاة يتوضؤون، ثم فقدوا الماء فلجأوا إلى أمر آخر يفعلون كذا وكذا تقصد بذلك التيمم... هذا التيمم هو الذي لفت نظرها للإسلام.

فقلت للناس: هل كنتم تظنون إن أحدًا من الناس يفكر في الإسلام بسبب التيمم؟ فهي رأت في التيمم التيسير، وإن هذا الدين دين عجيب لا يتم فيه ترك الصلاة حتى إذا انعدم الماء، فالبديل موجود وهو التراب الذي يوجد في أي مكان، ومن الأسباب الغريبة كذلك التي جعلت الأشخاص يدخلون الإسلام هو قول ذلك الشخص، وهو موجود معنا في واشنطن قال: إن الذي أدخله الدين الإسلامي هو نظام العقوبات في السجن، قالوا له: لماذا؟ قال: إنني جربت كل الجرائم، وأرى أنه لا يمكن ولا يوجد طريقة لإيقافها إلا بدخولي في الدين الإسلامي، أعني الوازع الديني فهو يردعه، أيضًا الأشخاص المفكرون الذين يقرأون كثيرًا لديهم أسباب تدفعهم للدخول في الإسلام، فهذا قس أظن أنه

أفريقي ولكن تفكيره تفكير غربي، قال: حينما قرأت ترجمة معاني القرآن الكريم.

قلت: إن هذا كتاب عجيب، صاحبه لا يقول أبداً ربما أو أظن كل كلامه قاطع، وإن البشر لا يتكلمون بهذه الطريقة ولا أحد يستطيع أن يتكلم بهذه الطريقة إلا الله شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه امرأة أخرى تقول: إنها كانت تفكر في الإسلام وانتابها الشك في الكتب الأخرى، فذهبت واشترت ترجمة القرآن الكريم، فأول ما قرأت فيه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكَاءٍ آخَرَ﴾ [البقرة: ١٧٠-١٧١] فقط، وضعت الكتاب وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... لماذا؟ لأن أكبر مشكلة عندهم هو أن كتابهم فيه شك، فهذه الآية قد لا تلفت نظرنا نحن من هذه الناحية، ولكن بالنسبة لها تقول: الآن وجدت الكتاب الذي لا ريب فيه.

الرياض: من خلال الجامعة المفتوحة في واشنطن كيف ترون الإقبال على الإسلام من قبل الشباب في الجامعة، وما وضع الشباب الحالي من خلال تعاملكم معهم، وهل الجامعة مخصصة لمناهج معينة أو فكر معين؟

الدكتور جعفر شيخ إدريس: فيما يتعلق بالإقبال فمعظم طلابنا مسلمون، وكان الغرض الأساسي من إنشاء الجامعة هو أننا اكتشفنا أن هناك أعداداً كبيرة من الشباب المسلمين في أمريكا وكندا لديهم الرغبة في أن يتعلموا دينهم بطريقة منتظمة ومن أشخاص يثقون فيهم، وهم ليسوا بحاجة إلى شهادات.

ولهذا أنا أزعم أن مستوى الطلاب في جامعتنا أفضل بكثير من مستوى

الطلاب في جامعات أخرى من ناحية الاستيعاب والمستوى الفكري، ومستواهم كذلك أفضل من مستوى الطلاب في الجامعات الإسلامية؛ لأن معظمهم طلاب نابهن في تخصصاتهم؛ وكذلك الجامعة فيها جميع التخصصات من الكمبيوتر والهندسة، والطب، والإدارة، والاقتصاد وغيرها، لهذا هؤلاء الطلاب لديهم الرغبة الأكيدة ليتعلموا دينهم -ومن المعروف أن أمريكا توجد فيها كثير من الجامعات من هذا النوع التي تقوم على التعليم عن بُعد وتسمى الجامعات المفتوحة، وقلنا لماذا لا ننتهز الفرصة ونفتتح جامعة لهؤلاء الشباب؟

والحمد لله الآن لدينا أعدادًا كبيرة من الطلاب وإن متوسط عدد الطلاب في الفصل الدراسي حوالي ٥٠٠ طالب، أمّا بالنسبة للمقررات فقد استفدنا كثيرًا من مقررات الجامعات الإسلامية لا سيّما الجامعات السعودية والأزهر، ولكن حذفنا أشياء وأضفنا أشياء أخرى بحيث تتناسب مع البلد الذي نحن فيه... فمثلاً في موضوع الرسائل والبحوث على المستوى الجامعي نشجع الطلاب على أن يكتبوا في مشكلات تتعلق بالبلد الذي يعيشون فيه، أيضًا الجدير بالذكر أن الجامعة خيرية ليست فيها أرباح بل إن دخلنا من الطلاب لا يغطي نصف المصروفات، لهذا نلهث ونجري كل عام في الاتجاهات لجمع التبرعات.

الرياض: بالنسبة لتأثير وسائل الإعلام في أمريكا ومواقع الإنترنت التي ذكرتم أنها مشبوهة إضافة إلى مؤلفات الكتب والأفلام التي تسعى إلى تشويه صورة الإسلام فهل هذه الوسائل ستؤثر على أنتشار الإسلام؟

الدكتور جعفر شيخ إدريس: لا شك أن التشويه الموجود ليس جديدًا بل

هو قديم ولم يؤثر، ولكن حسب الاستطلاعات التي أجرتها بعض الصحف أبرزت أن معظم الأميركيين لا يعرفون شيئاً عن الإسلام، ومعظم الذين يعرفون شيئاً عن الإسلام يعرفون صوراً مشوهة، في الماضي لم تكن هذه الصور المشوهة تقف عقبة، ولكن هل ستشكل في المستقبل عقبة؟ فلا أدري؛ لأن معظم الذين أسلموا هم أشخاص رأينا فيهم بعض الجدية لا يقبل ولا يقتنع بالأساليب الدعائية، بل يذهبون ويقرأون وكثير منهم أسلموا من غير أن يستعينوا بشخص مسلم، بل بمجرد القراءة.

وأذكر إنني قابلت شخصاً من هؤلاء فسألته كيف أسلمت؟ قال لي: قرأت كتاباً عن الأديان كلها كان فيه فصل عن الإسلام، وفيه ترجمة لمعان سورة الفاتحة، ويقول: حينما قرأت هذه الترجمة حركت قلبي حينما كنت في العادة متأثر فكرياً، لكن هذه الترجمة أثرت في تأثيراً عاطفياً وهزت قلبي، فلاحظوا أن هذا الشخص دخل الإسلام بمجرد قراءته لسورة الفاتحة؛ وأنه ذهب بنفسه للبحث عن المساجد والمسلمين فهذا النوع من الناس لا تؤثر فيه الدعايات المغرضة؛ كذلك لا يخفى علينا جميعاً أن الشبهات إنها لا تؤثر في غير المسلمين فحسب، بل تؤثر حتى على المسلمين الأصليين وكثير منهم من يأتون إلينا للسؤال عما يشاهدونه من الشبهات.

ونقول لهم: لا داعي من تضييع الوقت في هذه الشبهات على الإنترنت ويصعب على الطالب العادي الرد عليها، بل قد يصعب على العالم العادي الرد عليها، ففي رأيي أن تلك الشبهات ستؤثر!! أمّا عن سؤالك بأنها هل ستقلل من

دخول الناس في الإسلام؟ ففي رأيي لا أظن ستقلل من دخول الناس في الإسلام الآن ولا سيّما أن كثيرًا من الأمريكيان ليس لديهم ثقة كبيرة في إعلامهم؛ لأن سمعة الإعلام لديهم سيئة.

الرياض: بالنسبة للمسلمين الشباب والعرب المسلمين وما يتعرضون لها من حالات المراقبة والتنصت عليهم أو متابعتهم من قبل بعض الجهات الأمريكية الاستخباراتية، هل هذه الأمور ستكون عائقًا في متابعة أعمالهم أو في نشر الإسلام في أنحاء أمريكا؟

الدكتور جعفر شيخ إدريس: أمّا هذه. فنعم، فليس هناك إنسان على وجه البسيطة يريد أن يسجن ٥ سنوات أو ٧ سنوات. بالأمس كان يكلمني شخص أمريكي جاء في زيارة إلى المملكة، قال لي: أنا داعية، ولكن لدي أعمالًا تجارية وإذا تتبعوا أي إنسان في الدنيا سيجدون فيه ثغرات، وإذا أرادوا أن يستغلوا هذه الثغرات فبإمكانهم سجنني وتعطيل أعمالي، وهذا الشخص يفكر الآن ألا يرجع إلى أمريكا، وأنا أعرف بعض الشباب رجعوا إلى بلادهم والبعض الآخر يفكر في الرجوع، وفي الأصل هذا المطلوب من هذه المضايقات خاصة بالنسبة للدعاة الشيطانيين، وكل واحد منا لا يدري ربما يمنع من الدخول إلى أمريكا ويعود إدراجه من المطار، لهذا فإن كل ما ذكرته في سؤالك سيؤثر بدون شك.

الرياض: إن بهذه الطريقة أصبحت أمريكا بدلًا من أن يذهب المسلمون إليها أصبح المسلمون الأمريكيان هم الذين يهاجرون من أمريكا، فهذه هجرة معاكسة فما تأثير ذلك؟

الدكتور جعفر شيخ إدريس: الذين يهاجرون الآن هم المتدينون الذين يخافون على دينهم وكثير من الناس يخشون على أبنائهم من الإباحية، لذلك يفضلون الهجرة إلى بلد آخر أو إلى بلده حتى ولو كان الراتب أقل، وهذه الهجرة المعاكسة ستكون لها تأثير على نوعين من الناس:

النوع الأول: هم النشيطون المتدينون فكثير منهم يكف عن الدعوة إلى الإسلام، ويؤثر السلامة وهو معذور في ذلك. أو يترك البلد ويهاجر إلى بلد آخر.

النوع الثاني: من كان إيمانهم ضعيفاً فإنهم سيذوبون في المجتمع الأمريكي، أو يتكاسلون عن أداء العبادات كالصلاة وغيرها ويتركون الذهاب إلى المساجد ويترك الاتصال بالجماعات الإسلامية، وهؤلاء عددهم كبير، وربما يزداد العدد وعلى كل حال أن هذه الهجرة لا شك إنها ستؤثر على عملية الدعوة، والمسألة ليست مقتصرة على الضغط على المسلمين في أمريكا؛ بل منع وصول المال للدعوة في أمريكا، وأمريكا بلد شاسعة ولا يمكن أن تتم فيها الدعوة بدون مساعدات مالية، فإذا وقفت منابع التبرعات هذه وخاف الناس لا شك أن الدعوة إلى الإسلام ستتأثر.

الرياض: بالنسبة للصورة المشوهة للإسلام في أذهان بعض الأمريكيان كيف نحاول أن نحسن من صورة الإسلام، هل بالإعلانات في الصحف، أم بالإعلانات التلفزيونية أو البرامج؟ فما هي الطريقة المناسبة والميسرة لتوصيل الإسلام بأقل تكلفة، وبدون أن يكون هناك ضغط بشكل مباشر أو إجبار لمعرفة الإسلام؟

الدكتور جعفر شيخ إدريس: أفضل من يقوم بذلك هي المؤسسات الإسلامية التي في أمريكا، وكثير منها إذا وجدت الدعم المالي تعمل عملاً كبيراً، ولا أعتقد أن شخصاً يعيش في العالم العربي يستطيع أن يقوم بهذه المهمة لكنه يستطيع أن يساهم.

وأضرب لكم مثلاً بجامعتنا هذه، فلو لدينا مال أو ما نقوم به هو إجراء دعاية للجامعة؛ لأن كثيراً من الناس لا يعرفونها، لأننا لا نملك مالا لنعمل به دعاية عن الجامعة، فهذا سيزيد من إقبال الشباب على الجامعة، لأننا لو استطعنا تخريج عدد من الطلاب بمعدل ٤٠ أو ٥٠ طالباً كل عام بعد دراستهم ٤ سنوات وتعلموا دينهم وهم من الأمريكيين المسلمين، أو أمريكيون من أصول أخرى، فهذا بلا شك سيؤثر أكثر من تأثيرنا نحن القادمين من الخارج؛ كذلك يمكن للجامعة أن تقوم بنشاط آخر عن طريق الإنترنت والتلفزيونات المحلية، أو عن طرق تأليف الكتب وإقامة الندوات، وهذا مثال لجامعتنا فقط، ولكن هناك أيضاً عشرات المؤسسات من هذا النوع.

فمن المؤسسات الناجحة جداً والتي يعرفها الناس في العالم العربي خاصة في المملكة هي مؤسسة (كير) فلما إذا وجدت أموالاً ستؤدي أعمالاً كبيرة، ففي آخر مرة قابلت فيها رئيسها السيد نهاد عوض قال لي أن هناك صحيفة اسمها يو أس أي تودي (Usa to day) تعتبر أكبر صحيفة يتم توزيعها في أمريكا، وقد قاموا بالاتفاق معها أن تنشر كل أسبوع كلمة عن الإسلام مدفوعة الثمن، فهذه الكلمة لا شك لها تأثير كبير، خاصة تم التوسع فيها فبدلاً من كلمة

يمكن أن تصبح كلمتين أو ثلاثة كلمات في صحف أخرى نستطيع أن نعرف بالإسلام بشكل مؤثر وسريع؛ كذلك بإمكان هؤلاء أن يسعوا إلى إنشاء محطات سراء تلفازية أو إذاعية، حيث ما زالت الإذاعة ذات تأثير فعال في الأمريكان، ويمكن أيضًا أن يتم تأسيس صحف ومجلات، فإذا وجدوا المال والتعاون فهناك عشرات الوسائل المساعدة في هذا المجال.

ففي رأيي: أن على الدول الإسلامية والعربية القيام بذلك؛ لأن في ذلك فائدة سياسية لها. فالناس في الدول العربية والإسلامية ما زالوا يرددون في مجالسهم تأثير الدور الصهيوني في حين أن عدد اليهود في أمريكا الآن أقل من المسلمين، ولكن لديهم المال والقوة، ولو أن هؤلاء المسلمين وجدوا المال والقوة فسيكونون سندًا كبيرًا للمسلمين ونصرة قضائهم.

الرياض: بالنسبة لهذه المؤسسات الإسلامية، الجامعات الإسلامية الموجودة في أمريكا، لماذا لا يكون هناك تنسيق ولقاء وحوارات بينها حتى يكون الهدف واحدًا للوصول بشيء أيسر للمواطن الأمريكي فهل هذا موجود وكيف يتم تطويره؟!

الدكتور جعفر شيخ إدريس: ما قلته في سؤالك أعتقد أنه موجود ولكن ليس بشكل مُرضٍ، فكما تعلم إن المسلمين حتى في بلادهم متفرقون، وأنا لم أعد أحزن لهذا؛ لأنني أعرف أن الناس المسلمين سيعترفون، ولا داعي للأسى والحزن ونضيق وقتًا في الحديث عن ذلك، فالذين هم على الطريق الصحيح يعرفون كيف يتعاونون، وأعتقد أن هذا التعاون موجود الآن، ولكن كثيرًا ما تكون

هذه المصائب حافزاً للمسلمين بأن يتعاونوا؛ لأنهم يدركون أن المصيبة حينما تقع لا تفرق بين جماعة وجماعة، بل تؤثر في المسلمين جميعاً.

ومن ضمن الأشياء التي أذكرها هو المدارس فكثيراً ما أذكر إنني لو لدى مال لأنشأت كلية غير إسلامية في أمريكا وللبنات فقط، فأنا متأكد أن عددًا كبيراً من الأمريكان سيأتون ببناتهم لتسجيلهن في الكلية نتيجة للمشكلات التي تحدث للبنات في الجامعات، فيمكن أن تكون المناهج فيها عادية كالكمبيوتر وغيرها من العلوم بشرط أن تجعل جوها إسلامياً، وأن تجعل مفرداتها الإسلامية اختيارية لمن تريد، وأن يكون مدير المدرسة رجلاً إسلامياً، إضافة إلى بناء مسجد في الكلية؛ لأن هناك جامعات، وكليات كاثوليكية من هذا النوع؛ لأن مستواها الأخلاقي أحسن من بقية الكليات، كل ذلك لأن المدارس لها تأثير على الشباب.

الرياض: كيف ترون واقع الإسلام مستقبلاً بين الشباب وبين المسلمين هناك، فهل يمكن أن نقول إن هناك مستقبلاً زاهراً للإسلام أم نقول إن هناك مستقبلاً غامضاً ومظلماً للإسلام في أمريكا؟

الدكتور جعفر شيخ إدريس: إذا سارت الأمور بحسب ما نرى الآن فأنا من المتفائلين جداً بمستقبل الإسلام في أمريكا، فالشعب الأمريكي بالرغم من المواقف السياسية التي تحاك ضد المسلمين، فإن فيهم كثير من الخصال الحسنة التي تجعلهم يقبلون على الدين، فهم مازالوا أقرب إلى الفطرة أكثر من الأوروبيين، وهم يعتبرون أكثر التجمعات الغربية تديناً، ونحن وجدنا أن المتدينين هؤلاء هم الذين يسلمون، فمن هذه الناحية فأنا متفائل، أمّا حينما أنظر إلى التدهور الذي

يحدث في أمريكا الآن أخاف على أمريكا نفسها، فيبدوا لي كما أن الاتحاد السوفيتي سقط من داخله فأمريكا أيضًا ستسقط من داخلها لا بسبب عدو من الخارج، حتى إنني أفكر الآن، في كتابة مقال اسميه (سلوك الدمار الشامل) بدلاً من أسلحة الدمار الشامل؛ لأن هناك من يدمر الأمة من داخلها، وأمريكا الآن فيها هذا النوع من السلوك، فإن لم يتوبوا إلى رشدهم ويقبلوا على الدين الحق فلن يكون لديهم مستقبل أبدًا.

﴿ مقتطفات من حوار في قناة المجد ﴾

حول اشكاليات الديمقراطية والبدائل الإسلامية

سؤال: دكتور جعفر شيخ إدريس عنده مشكلة كما يقول بعضهم في معنى الديمقراطية، فهو لا يرى أن الديمقراطية الحالية هي حكم الشعب ولا يرى أنها حل، وبالتالي عند الدكتور جعفر شيخ إدريس مفهوم آخر للديمقراطية فما هو مفهومك للديمقراطية؟

الدكتور جعفر: والله الحقيقة ليس مفهومى أنا، والرأى هذا أنا معظم ما أعرفه عن الديمقراطية هو مما قرأته لمفكرين غربيين، وأضفت إليه وجهة نظري الإسلامية، فمثلاً في الموضوع الذي بدأته الآن سمعت أحد المفكرين الإنجليز يقول: إن الديمقراطية بفعل الساسة الدعاية السياسية ولا سيّما دعاية بوش، يقول صارت كلمة طنانة لا معنى لها، وصار كل إنسان يعجبه شيء في الحكم يسميه ديمقراطية.

فأنا في رأى لمصلحة إخواننا المستمعين من يوافقنا ومن يخالفنا يحسن أن نتفق على ماذا نعني بالديمقراطية، الديمقراطية أولاً هي كلمة يونانية ففي معناها اللغوي معناه: حكم الشعب، هذا معظم الناس يقولونه إلا الرئيس القذافي، والله لولا إنني شاهدته بصورته يقول هذا الكلام ما صدقت، قال: أصلها كلمة عربية معناها (ديما كرسي) يعني من جلس على الكرسي، لا يحب أن يقوم من عليه أبداً، فالديمقراطية هذا معناها اللغوي، ثم هو المعنى الذي يمكن أن أقول

يجمع عليه منظورها الكبار المفكرون والفلاسفة.

أرجو من الإخوان أن لا يغتروا بالكلام الذي يقوله السياسيون؛ لأن هذه مسألة فكرية كبيرة؛ لأن الديمقراطية بهذا المعنى تجيب على سؤال مهم في السياسة ممكن أكثر من السياسة أيضًا، وهو سؤال دائمًا يسأله الناس طوال التاريخ لمن يكون الحكم؟ الحكم بمعنى التشريع ليس الحكم التنفيذي، التنفيذي معروف أنه للبشر.

قال المفكر المشهور (جان جاك روسو): ما يمكن للشعب أن يكون حاكم تنفيذي ما يمكن أن يكونوا كلهم رؤساء جمهورية أو ملوك أو وزراء أو كذا وكذا، فإذا المقصود بها التشريع، فالسؤال هو لمن تكون السلطة التشريعية العليا؟ لمن هذا سؤال في غاية الأهمية؟ الديمقراطية تقول: إن هذه السلطة للشعب، هذه إجابتها، الديمقراطية بهذا المعنى يكون واضح جدًا لكل إنسان سواء كان مسلم أو غير مسلم أنها تخالف الإجابة الإسلامية، لمن الحكم لله؟ الواحد القهار حكم التشريع.

يعني بهذا المفهوم الديمقراطية كفر، بهذا المفهوم كفر لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ﴾ [النساء: ٦٠]، فالطاغوت جعله في مقابل حكم الله، فكل حكم بغير ما أنزل الله هو طاغوت سواء كان الحاكم دكتاتور أو كان حكم حزب من الأحزاب، أو كان حكم أغلبية أو كان حكم مجالس نيابية، المهم ما دام أنه ليس بحكم الله فهو حكم الطاغوت، فلذلك لا يمكن

للإنسان المسلم أن يقول إنه يؤمن بالديمقراطية بهذا المعنى، لكن إذا قال لي إنسان: أنا أريد ديمقراطية في حدود الإسلام، سأقول له: خلا في معك لم يكن في أصول الدين، خلا في معك جزءاً منه لفظي، يعني فيه بعض الناس عندهم حجة معقولة يقول الديمقراطية هذه قيدها الغرب بدساتير، الديمقراطية في حدود هذا الدستور، أنا أريد أن أقيدها بالقرآن والسنة كما أنكم أنتم عندكم دستور يقيّد الديمقراطية، وأنا أريد أن أقول: الديمقراطية التي أريدها هي ديمقراطية في حدود كتاب الله وسنة الرسول ﷺ.

سؤال: وهذه الدساتير تختلف من مجتمع لمجتمع؟ نعم، يعني إذا هي تناسب مجتمعاتهم أو أنظمتهم؟

الدكتور جعفر: لا، لا، ليس كل شيء يختاره الناس يعني أنه يناسبهم، وإلا لكان الكفر والضلال والفسوق يناسب الذين اختاروه، كل الأشياء التي تعجب الناس في الديمقراطية تقريباً يعني كلها لها أصول في الدين، فأنا لذلك أقول لإخواننا الكلام الذي قلته، لماذا تعطيهما هذا الشرف ما دام هذه عندك، يقول: نحن لا نطبقها، طيب إذا كنت لا تطبقها وهي من عند الله فلن تطبقها؛ لأنها ديمقراطية، فمشكلتك ليست في النظرية ما دام كتاب الله عندك وحولت الحكم إلى دكتاتورية وإلى كذا وكذا، يعني ما فيه مبدأ في الدنيا سواء كان حقاً أو باطلاً يلزم الناس، الناس هم الذين يختارونه.

فالديمقراطية مثلاً حرية التعبير، ما في الإسلام حرية تعبير؟! بلى؛ لأن ما في كلمة حرية لكن الدين قائم على ما يُسمى بالبراءة الأصلية، يعني كل إنسان له

حق أن يتصرف بالبراءة الأصلية إلا إذا قال الدين لا، أنا ما أقول أريد أن أشتري سيارة، أذهب أسأل العالم أقول له اشتري مرسيدس أو رينا ما قال هذا، أنا أميز بين النظرية والتطبيق، أنا معظم كلامي عن الديمقراطية النظرية أنها مبدأ ما طبق أصلاً، ولا يمكن أن يطبق ولا في اليونان، وهذا أيضًا ليس كلامي أنا، استثنوا من الشعب ولا أدري من الذي استثنى، استثنوا كل النساء والمنظمون والأرقاء والأجانب، الذين كان لهم الحق شُدس الشعب هؤلاء يجتمعون أربعين مرة في السنة يجتمعون، أنا حسبت وقلت لنفرض أنهم يجتمعون من الصباح إلى المساء عشر ساعات، حسبت ووجدت كل واحد نصيبه منهم ثانية.

قال أحد كبار المنظرين الديمقراطيين دكتور (دال) وأضيف له كلامًا آخر: أن الذين يتكلمون كانوا هم في الحقيقة القادة فقط والباقي يستمعون، والذين يستمعون ويتابعونهم كانوا في الغالب من أهلهم أو أقربائهم أو أصدقائهم أو كذا فالصورة هذه المثالية التي في ذهن الناس غير مطبقة، الديمقراطية المثالية هي الديمقراطية من الناحية النظرية، هي التي يجتمع الناس كلهم فهذه لا يمكن أن تكون نظام حكم، ولذلك أنا من الأشياء التي تعجبني في كثير من الذين وضعوا الدستور الأمريكي كان كثير منهم أناس عقلاء، عندما جاءوا يضعون دستورهم ما قالوا نريد النموذج الفلاني أو النموذج الفلاني، قالوا: هذه بلادنا وهذه ظروفنا نريد أن نختار الشيء الذي يتناسب معنا، فهذا هو الذي يناسبنا ليس هو الديمقراطية، بعضهم قال كذا، قال بعضهم الديمقراطية الحكم المباشر وحكمنا ليس حكم مباشر، فإذا نظامنا جمهوري نيابي وليس ديمقراطي، قالوا لأنه

لا يمكن الذي سموا نظامهم نظام ديمقراطي، ديمقراطية غير مباشرة لكن إذا كان غير مباشر إذا هي ليست ديمقراطية.

سؤال: كيف تربط بين كلامك أن الديمقراطية ترعرعت في ظل الديمقراطية وبين أن الديمقراطية ما عندها محتوى؟

الدكتور جعفر: الديمقراطية ما عندها محتوى، يعني الديمقراطية لا تقول لك ينبغي أن يكون كذا وينبغي كذا، كل ما تختاره أنت وأنت حر في اختيارك، فأنت مع الديمقراطية، إن في النظم التي كانت تُسمى ديمقراطية في العالم العربي، وكان هناك حرية تنظيم وحرية تعبير وكذا، نعم، ترعرعت الحركة الإسلامية.

أقول لك شيء في أمريكا: قلت لهم إن الأمريكان الآن يسمحون بالشذوذ، يسمحون بالنزنا لكنهم يعترضون اعتراض شديد على مسألة الأطفال هذه، استغلال الأطفال جنسياً قلت لهم حتى هذه غير مضمونه، ممكن يأتي من بصوت عليها وتلغى، فرفع أحدهم يده وقال: الذي قلته نظرياً هو الآن حاصل، إن بعض الناس الآن يطالبون بإباحة شذوذ الأطفال، وفيما يتعلق بأولادهم يقول هذا ولدي ليس لك أي تدخل به. فالديمقراطية ما فيها محتوى هذا الفرق بينها وبين الإسلام، يعني لما أقول حكم إسلامي ليس كما يقول بعض الناس ثيوقراطية يأخذون الكلام من الغرب، الحكم الثيوقراطي ما هو بعض الناس يقولون نحن نتلقى الأوامر من الله، هذا ما أستطيع أن أناقشه للناس، تعالوا ناقشوا يعني كلام جاءهم من الله أنا ماذا أفعل، لكن أنا عندما أقول الحكم من الله هذا الكتاب وهذه السنة فالإسلام عنده محتوى...

سؤال: قلت أمريكا ديمقراطية بالداخل، دكتاتورية في الخارج، هل تقصد بالممارسات مع أنها تطالب البلدان العربية أن تطبق الديمقراطية في بلدانهم؟
الدكتور جعفر: هم يقولون لا بُدَّ أن تطبق الديمقراطية على شرط أن تكون تابعه لي وتبعي، أليس هذا دكتاتورية، هذا كمثال شخص يقول لك: أنا أحررك من الرق على شرط أن تكون تابع لي، أنت ما حررتني.

أنا عندي سوء ظن بالدعوة إلى الديمقراطية بالعالم الإسلامي، والله أنا في قلبي لا أعتقد أبداً ومما عرفت عن الغربيين، يا أخي هل تتصور يضحون كل هذه التضحيات في العراق من أجل الشعب العراقي يتخلص من دكتاتور، ونكون له حرية، تدري ماذا أنا في ظني أنهم يريدون الديمقراطية بالمعنى الذي قلنا إنه كفر، عندما يدعون إلى الديمقراطية ليس المهم عندهم هو الانتخابات، المهم عندهم أنك لا تحكم بما أنزل الله، هذا هو الذي يهمهم لأنك إذا ما حكمت بما أنزل الله صار ما في فرق بينك وبينهم وانتهت المشكلة، فهم يعرفون أن معظم العالم الإسلامي لا يحكمون بما أنزل الله، لكن هناك اعتقاد بأن الحكم بما أنزل الله واجب، ولذلك يؤثر في الحكم يعني الحكومات... في العالم العربي أن الحكومات العلمانية فيه ليست محاربة للدين مئة بالمئة أليس كذلك؟ يعني ما يتصور الغربيون أن حكومة علمانية وعندها إذاعة للقرآن الكريم، لو كانت الاذاعة إذاعة خاصة قلنا معلش، لكن الدولة ترعى إذاعة للقرآن الكريم وتكون مسؤولة عليها وأيضاً مسائل الزواج والطلاق وكذا، فنحن ما صرنا علمانيين بالمعنى هذا وما صرنا دكتاتوريين، الحكم بما أنزل الله جعل الدكتاتورية في التاريخ

الإسلامي محدودة جداً؛ لأن الحاكم لا يستطيع أن يقول للناس أن الربا حلال إلى بعد ما جاءت النظم الحالية، وما يستطيع أن يقول الناس تتزوج بالطريقة الفلانية والطريقة الفلانية فمعظم القوانين التي يسير عليها الناس لا علاقة لها بالحاكم، فلذلك الدكتاتورية عندنا ما كانت مثل الدكتاتورية عندهم.

سؤال: أنتم أشرتُم إلى أن مفهوم الشعب نفسه مفهوم غامض؟

الدكتور جعفر: ولو قلنا إن الشعب هو كل الناس في إطار الدولة الوطنية هل هؤلاء هم الذين يحكمون؟! مستحيل أنهم يحكمون، مثلاً في أمريكا عملت إحصاءات الذين يسجلون لكي ينتخبوا هم أكثر من خمسين بالمئة بقليل، ثم إذا جاءوا للتصويت نقص هذا العدد، ثم الشخص الذي يفوز على أكثر تقدير هو أكثر من نصف هذا النصف بقليل، ثم تقول للناس إن هذا هو حكمكم وأنتم الذين تحكمون، لكن ينبغي ألا نقول إن الديمقراطية كما هي مطبقة في الدول الغربية ما فيها محاسن، فيه كتاب وأنا شاب قرأته كان عنوانه (بيعة الرئيس) مصور الرئيس في عربة كوكا كولا فالرئيس يباع للناس، القيود على الديمقراطية في الغرب كثيرة جداً جداً، أقصد بالديمقراطية بمعنى حكم الشعب، كانوا يخافون ما يسمونهم دكتاتورية الأغلبية، لذلك فعلوا شيء إلى الآن هو محل نقاش من الناحية النظرية لماذا؟ قالوا ديمقراطيتنا ليست ديمقراطية شعبية، وهذا صحيح وإنما هي ديمقراطية ليبرالية، ما معنى ليبرالية؟ إن هناك حقوقاً للفرد ما يعجز حتى للأغلبية أن تتغول عليها.

فقال بعض المفكرين منهم مفكر ألماني، مفكر قديم قال: هذا تناقض أنت

تقول الحكم للشعب وبعدين تقول الشعب لا يجوز أن يفعل كذا، من أنت الذي وضعت هذا القيد، هم يقولون إذا تعارضت مصلحة الديمقراطية مع الليبرالية من يقدم؟ يقدم الليبرالية؛ لأن الليبرالية هي قيد على الديمقراطية، مثلاً الأغلبية في أمريكا من البيض، لو كانت الديمقراطية بحته يُمكن هؤلاء البيض أن يقولوا بالتصويت: والله نحن لا نريد هؤلاء السود أن يشتركوا معنا بالانتخابات، الليبرالية تقول لهم: لا، هذا حق للأفراد لا بُدَّ منه، ولذلك قال بعضهم من الذين وضعوا الدستور الأمريكي قال كلمة طريفة، قال: الديمقراطية هي كمثل ذئبين وحمل، يريدون أن يصوتوا على ماذا يأكلون في الغداء، أكيد سيأكلون الحمل، والليبرالية هي حمل مسلح، فإذا الحمل هذا لن يقبل برأي الأغلبية، فالليبرالية قيد على الديمقراطية.

سؤال: وهل طلب الغرب بتطبيق الديمقراطية في العالم الإسلامي ليس

جاد؟

الدكتور جعفر: ليس المطلوب في العالم الإسلامي تطبيق الديمقراطية بحد ذاتها وبشكل جاد؛ لخوفهم من ظهور البعبع الإسلامي، أنا في رأيي ليس المقصود منها انتخابات ولا كذا، وإنما المقصود محاربة الذين يدعون إلى الحكم بما أنزل الله، لذلك لا بُدَّ لنا أن نقول لهم نحن نريد أن نحكم بما أنزل الله، لكن نريد أن نوضح الصورة هذه؟ لا يكفي أن نقول للناس نريد أن نحكم بما أنزل الله فقط، هل لو حكم بما أنزل الله سيعطى الناس الحرية في إطار القانون هل ستسمح لنا أن ننتخب حكامنا الناس عندهم أسأله فلا بد أن يكون هناك إجابات واضحة.

سؤال: تعليقكم على عبارة المشروع الديمقراطي في الوطن العربي إنما هو توسيع للنطاق الأيدلوجي للولايات المتحدة؟

الدكتور جعفر: كل إنسان يؤمن بشيء يريد أن يحققه، فأنا أجي وأقول: لماذا يدعون إلى الديمقراطية في بلادنا؟، كما أنت تدعوا إلى الإسلام في بلادهم، هو أيضًا يدعوا إلى هذا في بلدك، لكن يصل الأمر أحيانًا إلى نوع من الغربيين عندهم عيب كبير، كثير من الناس لا يعرفون الغربيين، عندهم نوع من الانغلاق الفكري، يظنون أن كل شيء لا بُدَّ أن يكون مثل ما عندهم، يعني إذا نظروا في التاريخ الإسلامي يقول لك المسلمون ما حصل عندهم حركة تنوير مثل ما حصل عندنا، ولذلك قال (فوكوياما) كلمته المشهور، وإن كان قال إنه الآن تنازل عنها: إن العالم كله سائر نحو الطريق الذي نحن انتهينا إليه نهاية التاريخ، في هذه المسألة وهي الديمقراطية الليبرالية في الحكم والرأسمالية في الاقتصاد.

سؤال: هل الديمقراطية الإسلامية ممكنة؟

الدكتور جعفر: لا تستعملوا كلمة ديمقراطية إسلامية، لماذا تعطونهم هذا الشرف؟ قولوا: نحن نريد كذا، نريد كذا، ولا تنسبها للديمقراطية،

س: هل الكلام عن الديمقراطية هل يعني تأييد للدكتاتورية؟

الدكتور جعفر: الكلام عن الديمقراطية بالنسبة للذي نقوله لا يساوي شيء، بالنسبة للذين يكتبونه يمكن ما يكتب عن الديمقراطية في الغرب أكثر من الذي كتبناه عنها ولا يزال يناقشوننا، أنا الذي دعاني للاهتمام بها أن الديمقراطية بغض النظر عن الإسلام والحركات الإسلامية وغيرها، أن الديمقراطية نفسها فيها مشكلات الناس

لا يعرفونها ليست منتشرة بينهم لكنها منتشرة بين المفكرين، وأرجو أن يكون إذا كتبت هذا الكلام أن يكون مفيداً حتى لغير الإسلاميين، أنا أريد للناس أن يكونوا أحراراً ويفكروا أن يقولوا والله لو اختار الأمريكيان لأنفسهم هذا، فلماذا لا نختار لأنفسنا كذا وكذا وكذا.

سؤال: وهل الدعوة للديمقراطية صورة من صور الاستعمار؟

الدكتور جعفر: أنا لا أقول أن الديمقراطية صورة من صور الاستعمار، لكن دعوتهم إلى الديمقراطية دعوة إلى أن يكون الحكم مثل حكمهم، بل ليس هذا فقط ولذلك كثيرون منهم يقولون: أنه إذا صار حكم ديمقراطي حقيقي فهذا ليس من مصلحة الغرب؛ لأنه يضر بمصالحهم، عندما فازوا في الجزائر وقفوا كلهم ضد نتائج الانتخابات؛ لأنهم قالوا: إذا فاز الإسلاميون ستكون هذه الانتخابات الأخيرة، وعندما فاز (نجاتي) في إيران كتب أحدهم يحذر الأمريكيان قال لهم: الذي حدث في إيران سيحدث أيضاً في البلاد العربية إذا كان فيها انتخابات، فلا تقولوا لي أن الانتخابات في إيران كانت مزورة، لم تكن مزورة هذه انتخابات حقيقة وأنت بهذا النوع من الناس.

وأذكر قبل سنين طويلة جاءت جماعة من الأمريكيان قالوا: إنهم قابلوا بعض العلمانيين السعوديين وكذا وكتبوا عن هذا، قال العلمانيون السعوديين قالوا: نحن لا نريد انتخابات في هذا الوقت؛ لأن إذا جاءت الانتخابات سيأتي المطروح، المهم بالنسبة لهم ولا ننسى هذا يا أخواني هو ما يسمونه بالمصلحة الوطنية لأمريكا، لذلك بوش يتكلم لكم أنتم بصوت للناس، ويتكلم للناس في أمريكا

بشيء يقنعهم أن هذا لمصلحتنا، وأن العراق خطر علينا وأن هناك علاقة بين صدام وبين لادن، ويكلمهم على أساس المصلحة الوطنية للولايات المتحدة.

لا تخلطوا يا أخوان بين الوسائل التي اختارتها أمريكا وبريطانيا لتنفيذ الديمقراطية، وبين مفهوم الديمقراطية، هذه وسائل للديمقراطية، والتقليد لن يعيننا على اختيار البديل، التقليد كسل فينا، يقولون: نحن أوضاعنا دكتاتورية نريد نظام الغرب، الغرب ما قال هذا، ما قال أعطونا من اليونان، من السودان، هم جلسوا وفكروا وأنت أجلس وفكر؛ لأن بعض الأشياء حتى لو كانت في نفسها حسنة قد لا تناسب الطرف الذي أنت فيه، يعني يكون ضررها أكبر، أنا أذكر بعض إخواننا في العالم العربي مرة كان جاءته فرصة للانتخابات والبلد فيها قبائل، وكذا قلت لهم: أنا والله لو في مكانكم ما أعمل انتخابات بالطريقة الغربية هذه، وبعدين أعمل فتنة بين الناس وهم قبيلة واحدة؛ لأن من الأشياء المهمة في السياسة الاستقرار، وهو هدف كبير في السياسة، قولوا للقبائل أنتم اختاروا المناسب، كل جماعة قبيلة تختار بالطريقة التي تريدها وخلاص لا يلزم الانتخابات.

﴿ مقتطفات من حوار في قناة المجد ﴾

حول قرار شراك والتحرية الدينية

سؤال: لماذا بين الحين والآخر نلمح أن قضية الحجاب تترد وبالذات بالمجتمعات الغربية إلى اعتبار الحجاب أمر عدواني، وهذا عبر به الرئيس الفرنسي في تصريح له، ما تفسير هذه المفارقة؟ لماذا تدار هذه القضية باستمرار وبالذات بالدول الغربية؟

الدكتور جعفر: لسببين أو ربما أسباب كثيرة، الذي يخطر ببالي الآن سببان: أولاً: هي المظهر شيء مهم جداً، يقولون بعض علماء النفس أن المجتمع يمكن أن يتحملك إذا خالفته في الرأي، ولكن لا يتحمل أن تخالفه في المظهر، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: **إِنَّ اللَّهَ سُيْحَانُهُ وَتَعَالَى مَا فَرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْهَدْيَ الظَّاهِرَ وَهُمْ فِي الْمَجْتَمَعِ الْمَكِّي؛ لِأَنَّهُ حَتَّى مِنَ الصَّعْبِ عَلَى الشَّخْصِ أَنْ يَخَالَفَ النَّاسَ، سَوَاءَ كَانَ فِي مَجْتَمَعٍ دِيمُقْرَاطِيٍّ أَوْ غَيْرِ دِيمُقْرَاطِيٍّ، النَّاسَ لَا يَرِيدُونَ مَنْ يَخَالَفُهُمْ وَلَا يَرِيدُونَ أَحَدًا أَنْ يَخَالَفَهُمْ، وَلِذَلِكَ أَنَا أَعْتَقِدُ أَنَّ أَخَوَاتِنَا اللَّاتِي يَلْبَسْنَ الْحِجَابَ هُنَّ فِي الْحَقِيقَةِ مُمْكِنٌ أَنْ أَقُولَ هُنَّ فَوَارِسُ، هَذَا شَيْءٌ يَصْعَبُ جَدًّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَخَالَفَ، يَعْنِي جَرَّبَ أَنْتَ فِي الْمَجْتَمَعِ السَّعُودِيِّ غَيْرَ شَكْلِكَ وَأَلْبَسَ قُبْعَهُ، النَّاسَ لَا يَتَحْمَلُونَ هَذَا السَّبَبَ الْأَوَّلَ.**

السبب الثاني: قضية المرأة هذه منذ زمن طويل وهم كأنهم يعتقدون أنها المدخل لتغيير العالم الإسلامي قضية المرأة وكل ما يتعلق بها، والمرأة عندهم

متعلقة بالجنس والجنس شيء مغري بالنسبة للناس، وما من إنسان إلا وفيه ضعف من الناحية الجنسية هذه، فيريدون أن ينفذون عن طريق المرأة إلى تغيير الأفكار، وهناك تجد بعض المسلمين معهم يعني المفارقات التي حصلت في فرنسا أن بعض اليهود والكاثوليك احتجوا على القرار، وقالوا: رأينا أنه لا يصدر قرار مثل هذا طبعاً ربما كانوا يدافعون عن أنفسهم؛ لأنها من مصلحتهم، وقد أيد هذا القرار بعض النساء المحسوبات على الإسلام، ومن أسوأ ما قلن كفر أن هذا رمز لإذلال المرأة.

وأذكر بالمناسبة هذه أذكر قيل لي: أن امرأه أسلمت وكانت عارضة أزياء في أمريكا أو كندا ثمّ تحجبت، وقالت للناس: هذه أول مرة أشعر فيها أنني ألبس لباس يخصني أنا باعتباري امرأة، قالت: في السابق كل ما فعله عرض لجذب الرجال، أما الآن أنا ألبس هذا، وأقول للرجال: لا علاقة لكم بي، فالحجاب ليس أمراً سهلاً وفيه نوع من التحدي.

سؤال: لكن ما تلاحظ أن هذه من المفارقة بين هذه الدول التي ترفع شعار الحرية شعار الديمقراطية، شعار العلمنة وبين التدخل الصريح في صميم العقائد والحرريات الشخصية في تباين واضح، إلا إذا كان هناك تفسير لم يظهر؟

الدكتور جعفر: أنا أرى أننا نحن في العالم الإسلامي والعربي كثيراً ما نتوقع من الديمقراطية ما ليس فيها، ما الديمقراطية؟ الديمقراطية هي حكم الشعب الديمقراطية لا تلزم أي شعب بأي مبدأ ولا قيمة، تقول للشعب أنت الحاكم واختر لنفسك ما تريد، هذه الديمقراطية المبدأ، هذا المبدأ يأخذ شكل معين في الشعب

هذا، وفي الشعب هذا فالديمقراطية ليس لها محتوى، يعني مثلاً عندما تقول مثلاً حكماً إسلامياً هذا لها محتوى، تقول الإسلام هو هذا القرآن والسنة، ربما حتى لو قلت حكماً نصرانياً عندهم مرجع، حكماً شيعياً عندهم مرجع، الحكم الديمقراطي ما عندهم مرجع، الشعب هو السلطة العليا وما يختاره الشعب هو الديمقراطية.

أنا كنت أقول لأناس في أمريكا يعني الآن يمكن أغلبية الناس تقول كل إنسان عمره في مثل عمر جعفر هذا يُقتل، هذا قرار ديمقراطي، لو صوتوا عليه ونجح ممكن أن يكون هذا قرار ديمقراطي، فالديمقراطية لا تلزم بخلق ولا تلزم بدين ولا تلزم بأي شيء، أنت يمكن أن تعترض على هذا القرار، وتقول هذا القرار مخالف للدين أو مخالف للخلق، لكن لا تستطيع أن تقول أنه مخالف للديمقراطية ما دام الإجراء فيه كان إجراء تصويت.

سؤال: هل تم إجراء قرار الحجاب بهذه الصورة؟

الدكتور جعفر: نعم؛ لأن الديمقراطية حسب ما اختارته فرنسا أن الديمقراطية رئاسية كما هي في أمريكا، وأن هذا الحاكم يمثل الشعب، هو يمثل الشعب، فبحسب نظامهم الديمقراطي هذا فالمبدأ الذي يقول الحكم للشعب صورته في فرنسا هي هذه، أن هذا الرئيس والمجالس هي التي تمثل الشعب، فهذه المجالس رأت أنه من مصلحة الشعب الفرنسي أن يحافظ على هذه العلمانية من كل المخاطر، التناقض أين؟ لو أن أناس قالوا نحن الشعب السعودي اخترنا لأنفسنا الإسلام، ونريد أن نحافظ ونحمي الإسلام من كل شيء يشكل خطراً عليه، قيل

لنا: هذا يتناقض مع الحرية، هذا يتناقض مع الديمقراطية.

من الكتب التي قرأتها حديثاً وأتيت ببعض منها أن صاحب الكتاب، هذا الكتاب نشرته جامعة عن حقوق الإنسان، جامعة كريستون فيقول (رميل روسفل) زوجة (روسفل): هي كانت رئيس اللجنة التي كتبت حقوق الإنسان وأن أمريكا ظلت منذ ذلك الوقت تنشر مبدأ حقوق الإنسان في العالم، لكن أمريكا لا ترى أن هذا ينطبق على الأمريكيان ولا على المؤسسات الأمريكية، وإنما ينطبق على الآخرين خارج المجتمع الأمريكي، قالوا مثلاً: مبدأ قانون الإعدام، قال يمكن أن بعض الأوروبيين أو الكنديين أو كذا يقولون لنا إن قانون الإعدام هذا يتناقض مع حق الحياة الوارد في البند الثالث من حقوق الإنسان، قال لكن معظم الشعب الأمريكي سيقول لكن هذه العقوبة هي التي أرتضاها الشعب الأمريكي، وعبر عن هذه ديمقراطياً فإنها مقبولة، وأن الكلام عن حقوق الإنسان كلام ماله علاقة بالموضوع، وهذا تطفل وتدخل في شؤوننا.

ومن الغرائب أيضاً أن الولايات المتحدة قراراتها كلها لا تسري عليها بحسب دستورهم إلا إذا أجازها الكونجرس الأمريكي، بينما هي تلزم بها الآخرين لكنها لا تلتزم به، أنا في أحد الاجتماعات حضرنا في بعض الجلسات قلت لهم: أنظروا نحن بالنسبة للقرآن مثل دستوركم هذا بالضبط، فلا ترون في موقفنا شيء غريب، نحن أيضاً نقول نحن غير ملزمين بأي قرار مالم يوافق القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، فأمریکا يعني أنا في رأيي أن الدول الغربية هذه لا تكفي أن نعرف سياستها فقط، لا بُد أن نعرف نفسياتهم وطريقة التفكير وكذا،

يعني صاحب كتاب آخر يقول: إن الأمريكيان يعتقدون فعلاً أن مصلحة أمريكا هي مصلحة العالم.

ويقول إن (روزفلت) قال (لجيفتن) بعد الحرب العالمية الثانية: ما دام أمريكا تسلحت ما يحتاج الدول الأخرى تسلح، بل يجب أن ننزع السلاح من كل الدول ما دام أمريكا متسلحة، فلا تستغربوا في القرارات وكثير من إخواننا حتى من غير المتدينين في العالم الإسلامي هم متأثرون بروح الدين فيفكر بالديمقراطية كأنها دين، ويظن أنه إذا كنت أنا ديمقراطي في بلدي فيجب أن أدعوا للديمقراطية كما لو أن كنت مسلماً أحب الناس الآخرين أن يكونوا مسلمين لكن ليس هذا صحيح.

سؤال: دعنا نتحدث عن فرنسا مثلاً باعتبار هذا القرار يعتبر تدخل صريح في الحريات الشخصية وإن كان مر بالفترة الديمقراطية كما تذكر؟

الدكتور جعفر: نحن ربما إنصافاً لهم نقول هناك حزب عنصري ما فاز بالانتخابات والناس وقفت ضده، هو دفاع عن العلمانية ولماذا في فرنسا بالذات؟ لأن نسبة المسلمين كبيرة فهم يشعرون بالخطر أكثر مما تشعر به دول أخرى، يعني مثلاً سمعت بالأمس إحدى السيدات في بريطانيا قالت: نحن لا يمكن أن نفعل شيء كهذا؛ لأننا نحن كذا وكذا، فأنا ضحكت قلت: أبداً غير صحيح إذا كان عدد المسلمين صار كبيراً، مثلاً نسبة المسلمين في فرنسا أكبر من بريطانيا، ولذلك عمل القرار كلما زادت نسبة المسلمين كان الأولى أن يعمل مثل هذا القرار.

وأنا كنت أقول لإخواننا: كثير منهم يذكرون الآن منذ عشرين سنة كانوا يقولون نحن الآن في أمريكا وعندنا حرية ولا توجد من أي بلد إسلامي، وأن الإسلام سينطلق من هنا من الولايات المتحدة الأمريكية، فأنا أضحك وأقول لهم: نعم عندكم حرية الآن لأنكم غير مؤثرين، وهكذا أيضًا كانت في كثير من البلاد العربية كانت ديمقراطية وترعرعت الحركة الإسلامية في ظل الديمقراطية، وإذا بدأ التأثير وقفت هذه الديمقراطية وهناك لا تكونوا مغفلين، يعني أنتم تظنون أن الأمريكيان أو الإنجليز أو كذا يقولون نحن ديمقراطيون وسنقف وننصر الإسلام ليخطو خطوات واسعة، وبريطانيا تتحول إلى دولة إسلامية أبدًا، وكلام (شيراك) الآن ما كان يدافع عن الديمقراطية كان يدافع عن العلمانية؛ لأنها هي التي اختارها الشعب الفرنسي.

سؤال: لكن أنا ما زلت مصر على أن أثير قضية أن العنصرية وجه صريح في فرنسا ظاهر مثلاً ما كتبه الصحف الليبرالية المتطرفة جدًا باعتبار المسلمين أعداء وتحقير الأجانب وهذا ظاهر بالصحف اليمينية المتطرفة الفرنسية كثيرًا...

الدكتور جعفر: نعم إلا أن يربط الإنسان بين الدين والعنصرية؛ لأن المسلمين في فرنسا هم عرب، فإذا قلنا عنصرية يكون معناها أنهم ضد العرب وليس ضد الإسلام فقط الدين كما يرونهم في ثقافة المسلمين.

وينبغي أيضًا أن نذكر ما كل تصرف أو مظهر يحسب على المسلمين ويكون نابع من الدين الإسلامي، وإلا تكون كارثة هذه، يعني كثير من اللصوص وتجار المخدرات فيهم مسلمون، الظلم هو إذا رأى مسلم يفعل هذا قال الإسلام، لكن

إذا رأى يهوديًا يفعل هذا لا يقول اليهودية، أو يرى نصرانيًا يفعل هذا لا يقول النصرانية، لكن إذا عدد من المسلمين ضربوا مبنى في أمريكا أو البلد كلها الذي جاء هؤلاء منها كلها إرهابيين.

أنا لا أقول أنه لا يوجد عنصرية، الفارق بين ما يُسمى بالمصلحة الوطنية والعنصرية يعني ضئيل، بالنسبة للفرنسي المواطن الحقيقي ليس هذا الذي جاء وأخذ جواز فرنسي أو كذا، المواطن الحقيقي هو الفرنسي الأصل عن أب وجدّ وكذا هذا هو الفرنسي الأصلي، أما هؤلاء يعني تحملناه لمصالح لكن ليس هم الفرنسيين الحقيقيين، فالفارق بين الوطنية الشديدة والعنصرية فارق بسيط.

سؤال: لكن إيصال قضية الحجاب للمحاكم الفرنسية هل فيه نزعة ظاهرة بينما لا يتخذ نفس الإجراء في لباس الراهبات، لهن لباس معين وأشبه ما يكون بالحجاب؟

الدكتور جعفر: بحسب القرار الآن أن هذا ينطبق على أي إنسان سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، يظهر بمظهر يدل على دينه في المدارس الحكومية ما قال لا تلبس الحجاب في الشارع، ما قال لا تلبس الحجاب في مدرسة خاصة أنت معير، لكن هذه المدرسة التي تصرف عليها الدولة العلمانية، ليس لك الحق وهذا يتناقض مع المبدأ العلماني ونصرة للدين سواء كان دينًا نصرانيًا أو إسلاميًا، لذلك لا يشمل هذا الرأي في الكنائس ولا المسلمين في المراكز الإسلامية ولا الشوارع حسب ما فهمت.

سؤال: هل يمكن أن يقال أن هذا القرار حدًا للحريات وليس قرار ديمقراطي؟

الدكتور جعفر: أنا استغرب عندما يقول بعض إخواني أن هذا القرار ليس ديمقراطي لا يكون ديمقراطيًا إذا توصل إليه بطريقة غير ديمقراطية، أما كل قرار يتوصل إليه بطريقة ديمقراطية فهو ديمقراطي، سواء كان مخالف للإسلام أو مخالفًا للمسيحية، أو مخالف للمخلق، أو مخالف للدين فهو ديمقراطي؛ لأن كثيرًا من إخواننا حتى من الأمريكان أنفسهم يخلطون بين الديمقراطية، المبدأ الذي يقول بالحكم للشعب والسيادة للشعب، والديمقراطية كما هي مطبقة في مكان وزمان معين.

كنت مرة أقول هذا الكلام في أمريكا وقلت: إن الأمريكان الآن يستفظعون الاعتداء على الأطفال، ما عندهم مانع الزنا بين الرجال والنساء ما داموا متراضين لكن يستفظعون الاعتداء، وقلت: يأتي وقت من الأوقات ويباح هذا، فوقف أحد الإخوان وقال: بالمناسبة هناك جماعات الآن تدعوا إلى هذا وتقول ما الفرق بين الكبار والصغار.

فمن الناحية النظرية كل شيء مهما كان فظيعة هو ممكن من الناحية الديمقراطية، ولذلك بالمناسبة الديمقراطية فيها مشاكل كثيرة مع الأسف كثير من الناس لا يعرفون، ولذلك الذين وضعوا الدستور الأمريكي أعقل من الذين جاءوا بعدهم ما كانوا يريدون الديمقراطية التي يسمونها الديمقراطية الخالصة، ولذلك قالوا نحن نريد ديمقراطية ليبرالية، ما معنى ليبرالية أي التي تتكلم عن

حقوق الإنسان وكذا وكذا، لكن نشأت مشكلة قالوا أنتم الآن تقولون السيادة للشعب ولكن في الوقت نفسه تقولون أنه لا يحق للشعب أن يعتدي على الحريات، من الذي قال لا يحق له كأنتكم تفترضون أنه هناك قوة أكبر من قوة الشعب، وإلا صار الكلام متناقضاً وأحد الألمان كتب قبل مدة كتاب عن تناقض الديمقراطية الليبرالية وأثار ضجة، وما حلت المشكلة إلى الآن.

وأنا في كثير من المؤتمرات عندما يأتي موضوع حقوق الإنسان أقول لهم: من الذي أعطى الإنسان هذه الحقوق؟ قالت واحدة متخصصة: هذا إجماع، طيب أنت قبل قليل قلت إن بعض المسلمين تحفظوا عليه فكيف الآن تقولوا إجماع؟ طيب هو إجماع متى كان الإجماع هذا في وقت من الأوقات؟ يمكن الآن بعض الناس يقولون غيرنا رأينا، مشكلتهم الآن رغم الضجيج الكبير عن الديمقراطية مالها أساس كان أساسها الدين، قالوا لا نريد الدين كانوا يقولون شيء طبيعي فصارت الحجة واهية، هل الطبيعي أن الرجال يتزوج رجل، فما أصبح لها أي أساس تعتمد عليه غير أن هذا هو الذي اختاره الغرب الآن، ولذلك صاروا يقولون عن كل شيء يدعون إليه، يقولون هذا ليس خاصاً في الغرب، ليس هذا ثقافة محلية، هذه مسألة إنسانية، أنا إنسان ولا أريده.

بالنسبة لكلام الأخ، أمريكا مختلفة عن بعض البلاد الأوربية، بلد أصلاً تكونت من أجناس مختلفة وثقافات مختلفة ومازالت أبوابها مفتوحة، وأصل تكوينها من شعوب مختلفة ولو كان في الغالب اللغة الإنجليزية، يعني مثلاً اللغة الأسبانية لغة مهمة جداً في أمريكا هذه واحدة، الشيء الثاني أن أمريكا إذا ما

استعلمت القوانين تستعمل سياسيات، وأنا لا أريد في الحرية الدينية أن تفهم فهمًا ضيقًا، قالي أحد النصاري قبل مدة قال لي: لا تخدعوا كما خدعنا، نحن كنا نعتقد أن العلمانية محايدة ثمَّ وجدنا أن العلمانية في الحقيقة صارت دينًا معاديًا للأديان، قلت له: شكرًا لك لأن هذا في ذهني؛ لأنه لا يمكن للدولة لا يكون لها دين بالمعنى العربي كلمة دين؛ لأن هذا له دين وهذا له دين (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) يعني قوانينه، وكذا لا يمكن لدولة ما يكون لها منهاج حياة؛ لأنها لا بُدَّ أن يكون لها رأي في الاقتصاد، لا بُدَّ لها رأي في العلاقات الخارجية على أي أساس تعمل قوانينها وكذا، فالكلام على أن العلمانية تعطي للأديان حرياتها ليس بصحيح، قال بعض المفكرين المتدينين قال: نعم، تعطي الحرية للدين بمفهومها هي للدين.

سؤال: دكتور هو أشار إلى موضوع مهم إلى هذا الجانب هو ما يتعلق بالمسؤولين الأمريكيين باعتبارهم تحدثوا عن هذه القضية بالمفهوم الديمقراطي نفسه في المعارضة، والمسؤولين الأمريكيين حذروا جاك شيراك من هذا الأمر ومن مغبته ومخالفته للديمقراطية.

الدكتور جعفر: لا يمكن أن نقول خالف الديمقراطية، حتى نحن، أنا في رأيي عندما نعترض على هذا، الكلام معهم على أساس أن هذا ليس ديمقراطية وكذا غير مقنع، نحن نقول لهم: أنتم تريدون مصلحة بلدكم وعندكم مصالح في العالم الإسلامي هذا هو المنطق الذي يفيد، تريدون مصلحة بلدكم وفي إمكانكم أن تصدروا قرارات ديمقراطية في مصلحة بلدكم ولا تتعارض مع ما يريد

المسلمون، هذه الحجة التي تنفع.

يمكن أيضًا المتشائم أن يقول وهي نجحت في العالم الإسلامي، ونحن موقفنا لو كنت فرنسيًا لقلت للمسلمين أنتم متناقضون، أنتم عندكم بلاد إسلامية سبقتنا إلى هذا ومنعت الحجاب ليس في المدارس فقط، منعت في القنوات الفضائية ومنعت الوظائف ومنعت أساتذة الجامعات، منعت في بعض البلاد حتى السير بالشارع، يعني فرنسا أحسن في مثل هذا ونحن سكتنا؛ لأن هؤلاء عرب، لو كنت فرنسيًا لقلت أنتم متناقضون، أخرجت قوانين أم لم تخرج المسلمون مهما كانوا هم أقلية، وابنتك يذهب إلى المدرسة وإذا عاد من المدرسة يلعب مع أطفال غير المسلمين ويشاهد التلفاز، ولذلك الاستمساك بالدين يكون بالجيل الأول، الجيل الثاني يكون أضعف، الجيل الثالث يكون ربما يذوب وهذا حدث في كل بلدان العالم.

في أستراليا أذكر أننا قابلنا بعض الناس أحفاد المسلمين الذين جاءوا إلى أستراليا، فواحد يقول لي: ماي فاذر موم يعني جدي اسمه محمد، يعني حتى الكلمة محمد إلى موم، فأنا في رأيي أنها تقريبًا معركة خاسرة ولا يمكن للمسلم أن يعيش في مجتمعات غير مسلمة، الآن في أمريكا مثلاً مشكلة كبيرة يعني البنات يأتين إلى المدرسة لا تكاد تلبس شيء ومدارس مختلطة وهؤلاء من حسنة هؤلاء المتعصبين دينيًا، أنهم الآن يقولون أنه يجب أن يسمح بالعزل، إذا كان الناس في منطقة معينة يريدون لأبنائهم أن لا يدرسوا مع البنات لماذا لا نعطيهم هذا الحق، الليبراليين يقولون لا.

سؤال: هل يمكن أن هذه الخطوة من فرنسا يمكن تعميمها في أوروبا؟

الدكتور جعفر: مجرد أن تخطو فرنسا هذه الخطوة هذا يشجع الآخرين، يعني ربما يكون بعض البلاد عندها نفس التفكير فإذا نجحت فرنسا فهذا يشجعها، أن يكون هنالك معارضون هذا أمر طبيعي في كل بلد من البلاد، بعض السياسات لها معارضون يعني في أمريكا الآن هناك معارضة شديدة لموقف أمريكا من حرب العراق أفغانستان كذا وكذا، فهذا ينبغي أن لا يخذعنا، أصلاً البشر عندهم هذا ضعف بشري الناس كما قلت لك لا يريدون المخالف يريدون أن يكون الإنسان معهم، ولولا الكلام الكثير عن الحرية، وحرية الدين وكذا وكذا لمشى هذا الأمر من غير معارضة.

سؤال: هل هناك انقسام في أوروبا تجاه الحجاب؟

الدكتور جعفر: أنا أقول إذا كان هناك في أوروبا انقسام فهذا انقسام طبيعي؛ لأن موقف الإنسان يعتمد على أفكاره وعلى أنه كيف يرى مصلحة بلده وعلى مدى إيمانه بالدين وبالحرية، المشكلة أن كثيراً من المتسامحين هو متسامح؛ لأنه لا يتناسب للدين حتى لو كان غير نصراني.

سؤال: وهل يخافون من توسع المسلمين في مطالبهم الإسلامية؟

أنت إذا قلت أنا دولة علمانية وأن أنا محايد بين الأديان، فيجب أن تعامل الأديان كلها معاملة واحدة؛ لأن هناك قوانين لا معنى لها إلا أن أصلها من دين نصراني، أنا الحقيقة كلام الأمير في مداخلته معنا جعلني أسأل سؤال هل هنالك مشكلة سياسية؟ لأن السياسي لا يتخذ قراره فقط في معزل؟ وهو لا يمكن أن يكون

معجود مبدأ أو كذا وكذا، يرى أنه ربما أن يكون الجماعات المتطرفة هذه يخشى منها أنها تسلبه بعض الأصوات؛ لأنه لا بُدَّ أن يفكر تفكيراً سياسياً بالنسبة لحزبه، بعدين هل غالبية المسلمين سيعارضون هذا سؤال أيضاً هو لو كان يعلم أن الخمسة ملايين من المسلمين سيعارضون ما أقدم على هذا لا يمكن، بل ربما لو كان يعلم أن نصف هؤلاء سيعترضون ما أقدم عليه.

الغريب إنني لاحظت في السويد أن هنالك عدم تسامح في الشارع، يعني يسخرون من النساء المتحجبات وهذا أمر لا تجده في بريطانيا ولا في أمريكا، والسويد أبعد بلاد الله عن الدين، ربما بالنسبة لهم حجاب أو غير حجاب لا يؤثر عليهم.

سؤال: ما أشار إليه الكاتب الفرنسي من أن مطالب المسلمين ربما لا تنتهي، ولذلك التوقف ضد هذه المطالب هو المهم في الدول الأوروبية حتى لا يفتح المجال، لذلك ليس القضية قضية حجاب، المطالب ستستمر أليس محققاً فيما يطلبه؟

الدكتور جعفر: أن هذا هو من أحد الأسباب نعم ممكن، بالمناسبة في أمريكا هنالك كتابات في هذا يعني الكونجرس هذا الذي كان زعيم الأغلبية في الكونجرس عنده كتاب يقول: إن الذي يأتينا يجب أن يتحول إلى أمريكي، وهكذا الكلام يقال في كندا، وكذا هذا الذي يسمونه يعني الذويان يعني إذا أتيت لا تكون شاذاً، وقالوا: أن مشكلة المسلمين هذه أن كثيراً من المسلمين يأتي ويجلس عشرات السنين وهو محتفظ بشخصيته، فهم يريدون منك إذا جئت إلى بلادهم هذه أن تتحول إلى

فرنسي وتذوب في المجتمع، هم ما يستعملون كلمة ذوبان، مثلاً أحد رؤساء بعض المدن قال: إن على المسلمين أن يدعوا إلى إسلام فرنسي ليس الحجاب فقط، يعني لا تأتوا وتدعون إلى إسلام العرب نحن نريد إسلام فرنسي.

سؤال: هل الإسلام بشكله الحالي يمكن أن يشكل خطراً على الغرب وبالتالي الغرب متوجس من الإسلام بشكله الحالي؟

الدكتور جعفر: هذه المشكلة في نظري نعم، وليس فقط بوجود المسلمين في الغرب، كثير منهم يقولون: إنه إذا كانت المعركة صارت المعركة فكرية فهي بيننا وبين المسلمين، وأنا قلت في مناسبات كثيرة إن فوكوياما لما كتب كتابه (نهاية التاريخ) قال: إن كل العالم ماشي في طريقنا هذا إلا فئة واحدة المسلمون، تقول إنها ما زالت ترى أن عندها بديل، ويقولون أيضاً: إن هؤلاء المسلمين هم وقفوا ضد الشيوعيين وفي ذلك الوقت طبعاً هم كان هذا يسرهم أن وقفوا، لكن أخافهم طبعاً الذين وقفوا ضد الشيوعيين هؤلاء يقفون أيضاً ضد الحضارة الغربية، فقوة المسلمين ليست قوة اقتصادية ولا قوة عسكرية وإنما هي قوة الدين، هذا خطرهم سواء كانوا ذهبوا إليها أم لم يذهبوا.

سؤال: كيف يمكن للمسلمين في الغرب أن يواجهوا مثل هذه القضايا والضعوط؟

الدكتور جعفر: هنالك عدة أشياء يمكن أن تعمل، أولاً لا تحصر نفسك في القضية الجزئية هذه، بل استغل هذه القضية للكلام عن الإسلام بصفة عامة، هم الآن مهتمون بقضية الحجاب يأتي المسلمون يقولون لماذا الحجاب هذا،

وأنه جزء من حياة متكاملة وأن السبب فيه كذا وكذا، مثلاً قال: لماذا الحجاب؟، قلنا له: أنتم لا تقيسون أو لا يكون معياركم الوحيد هو ثقافتكم، لأنك إذا قلت لماذا تتحجب المرأة وأنا أقول لك ولماذا تسير المرأة عندكم شبه عارية، لا لكن إذا أردت أن تناقشني ناقشني إما بالعقل أو من باب المصلحة، آنذاك أنا أناقشك أنا أقولك لك مثلاً إن من المعروف أن الناس تجذبهم أجساد النساء في العالم كله، الإسلام يريد من المرأة أنها إذا خرجت من بيتها أن تعامل على اعتبار أنها إنسان، وليس على اعتبار أنها جنس، وحتى إذا تكلمت فلا يخضعن القول فيطمع الذي في قلبه مرض فيمكن أن تنتقل من الحجاب إلى الأسرة، وهكذا.

سؤال: رسالة إلى المنظمات الإنسانية في الغرب أو المعنيين أو المجالس الإسلامية في الغرب.

الدكتور جعفر:

الرسالة الأولى: ذكرناها أن لا يحصرها أنفسهم في القضية الجزئية في الحجاب فقط.

المسألة الثانية: أننا نحاول أن نتحد أو نتعاون بقدر الإمكان، أما إذا صرنا متفرقين لا نستطيع أن نؤثر لا سياسياً ولا دينياً.

﴿ حوار في قناة طيبة الفضائية السودانية ﴾

بعنوان ذكرياتي

البطاقة التعريفية:

أنا جعفر شيخ إدريس محمد صالح، وجدنا الكبير اسمه بلبل، وأهلنا مشهورين بالبللال من الشايقية، الوالد هاجر وهو شاب إلى بورسودان وعمل بالسودان في الشرطة، فأنا ولدت في بورسودان سنة ١٩٣١م ونشأت فيها ودرست الدراسة كلها فيها لكن صلتنا لم تنقطع في كريمة، كان الوالد يذهب وكنا أحياناً نذهب معه، فمكثت في بورسودان وتعلمت فيها ثم ذهبت إلى مدرسة حنتوب وبعدها إلى جامعة الخرطوم.

سؤال: لعلك أنت تنزع أصلاً من الشمال ومولداً نحو الشرق المولد زمان علم ما ذكرت لنا لكن عمومًا العصر الذي ولدت فيها أنت ومنطقة شرق السودان والأحداث التي وجدتتها وأنت في بداية حياتك عموم العصر؟

الدكتور جعفر: ما أظن كان هناك شيء يميز بورسودان عن بقية مدن السودان، نعم كان هنالك شيء يميزها النظافة كانت مشهورة، مع الأسف الأمر تغير شوي لكن كانت مشهورة جدًا بأنها بلد في غاية النظافة حتى إن أحد أساتذتنا كان أستاذ إنجليزي جاء ليسافر عن طريق البحر لبلده فقابلته هنالك،

فأول ما قاله لي: أن هذه مدينة في غاية النظافة، الشيء الثاني: أن الناس الذين أحسوا بالحرب العالمية الثانية كان هم أهل بورسودان فقط من بين السودانيين؛ لأن الطائرات تأتي من شرق أفريقيا من الصومال؛ لأن الصومال كانت تحت الاحتلال الإيطالي.

كانت الطائرات تأتي من الصومال وتضرب مدينة بورسودان، وأذكر أن الناس ما كانوا يعرفون يتحركون، وأذكر جدًا وأنا صغير عندما جاءت أول طائرة واسقطت بعض القنابل، والناس تقول رمت قبلة وفرضوا علينا أن نحفر خنادق في داخل البيوت، أنا أذكر أن كان عندنا خندق في البيت وإذا ضربت سفارة الأنداز ندخل داخل الخندق؛ وكذلك كانت فيه خنادق في الشوارع، فأظن أن بورسودان ربما هي البلد الوحيدة ربما بلاد أخرى في شرق السودان هي التي كانت أحست بالحرب العالمية الثانية.

سؤال: ما السر في هجرة قبائل الشايقية؟

الدكتور جعفر: أظن أن هجرة الوالد لأن بلادهم كانت بلاد ضيقة، يعني أنا في أيام الشباب ذهبت إلى مصر وجدت أن عدد كبير جدًا من الشايقية كانوا في مدينة عين شمس، وأيضًا كانوا يعملون في الشرطة، ما السر في أنهم يعملون في الشرطة؟ والله لا أعلم ربما كانت هذه هي المهنة المتاحة، لكن أنا لا أذكر هذه الفترة التي عمل فيها الوالد جيدًا، والوالد خرج من الشرطة ولم يتقاعد وفتح الوالد دكان صغير وندم على الفترة قضائها في الشرطة، وكانت تجارته صغيرة ليس تجارة كبيرة لكن كانت بالنسبة له أحسن.

سؤال: كم كان عدد العائلة؟

الدكتور جعفر: عددنا نحن ما شاء الله ست أخوان وخمس أخوات كلنا من أم واحدة، وكنا أسرة مترابطة، والوالد والوالدة كانوا ينتمون إلى طائفة الختمية الاثني وكانوا ناس متدينين جداً محافظين، خصوصاً الوالدة كانت شديدة جداً في أمرنا بالصلاة، يعني تقريباً قامت بمهمة كبيرة في تربيتنا على الدين كانت لا تتلاعب في هذا أبداً كان، حتى إذا أحد نام تصحيه وتقول له صليت العشاء، كان لها أثر كبير جداً على تربيتنا وكنا نخاف من أمنا، كنا الأطفال الوحيدين الذين يخافون من أمهم، كان بقية الأطفال لا يخافون من أمهاتهم ما تغيروا إلا بعدين والحمد لله ربنا هداهم وصاروا سنين تغيروا.

سؤال: في فترة الطفولة هل هناك أحداث حصلت لك؟

الدكتور جعفر: أكثر شيء حصل في حياتي هو عندما كان الحركة السلفية بدأها في بورسودان جماعة بعضهم من أقاربنا، وأنا عمري ست سنين والوالد أخذني ليدخلني المدرسة، فقالوا له: الولد صغير خليه للسنة القادمة.

في أثناء هذه السنة كنت ألعب في سيارة قديمة فقفزت على مسمار فطعنني ويبدو أنه كسر العظم من الداخل، وكانوا يعالجوني من الخارج فتعبت جداً ومكثت على السرير حوالي ثلاث سنوات، فقرر الطبيب أن يقطع رجلي، طبيب سوداني وإلى الآن أذكر شكله وعنده قلم يضعه فوق أذنه، فقال للوالد: تنقطع من الساق، الوالدة رفضت وكانت في ذلك الوقت مازالوا على الختمية، فقالوا لها خلاص نسأل السيد علي، فقال السيد علي: قال أسمعوا كلام الطبيب

والوالدة لم تسمع كلام الطبيب ولا كلام السيد علي، فقال لها الطبيب: بعدين يصاب بالغرغرينه ويموت، فقالت: أحسن يموت برجليه ولا تقطع ويقعد في السرير، فصارت دائماً تذكرني بهذا الأمر كلما كلمتها مثلاً ذهبت إلى طبيب وتعالج في بعض أشياء أحفظ الله أنت كنت حتكون برجل واحدة.

كان عندنا أستاذ في جامعة الخرطوم سويدي درّسنا فلسفة، فكنت أنا أضرب لهم مثلاً كذا كان عنده تصور أن النسوان السودانيات المتلففات كذا أنهن مضطهدات، قلت له: يا أخي الكلام هذا غير صحيح هؤلاء عندهم شخصية وأنا أمي حصل منها كذا كذا، وهؤلاء ليس مساكين كما أنت متصور أو تفتكر. وبالنسبة لحادثة المسمار أخري كثيراً عن الدراسة، قالوا لي تأتي وعمرك سبع سنوات كما قلت لك وما دخلت المدرسة بعد الحادثة إلا بعد عمري عشر سنوات إلى المدرسة، لكن هل له نتائج حسنة؟ نعم، كان له نتائج حسنة.

أخي الذي أكبر مني ودخل المدرسة كان يقول لي: يا جعفر والله لولا رجلك هذه ما دخلت الجامعة، فكنت عندما دخلت المدرسة شعرت أنه أنا في سنة أولى، والناس الذي في عمري كانوا في سنة رابعة فاجتهدت اجتهداً شديداً؛ لأنني شايف الفرق كبير بيني وبين زملائي، فكنت أصحى الصباح أمشي إلى الخلوة قريبة من البيت فأدرس في الخلوة، والخلوة يعطونا فسحة لشراب الشاي كل الأطفال، ففي هذه الفترة أذهب للمدرسة وأرجع من المدرسة أمشي الخلوة مرة ثاني.

وفي المساء أرجع للخلوة واستمررت هكذا إلى إن بعض الجيران في رجل

عنده علم وكان رجل سني عمل درس في الخلوة في المساء، فكنت أذهب وأحضر دروسه وكان يُدرّس الأربعين النووية، وكان يُدرّس كتب المالكية كتاب (العزية).

سؤال: ما هو التحليل العقدي لما يحصل للأطفال من ابتلاءات؟

الدكتور جعفر: الغريب من الأشياء التي لاحظتها وأنا كبير لا أستطيع أن أقول لك، أنا في ذلك الوقت إنني لم أجد عقدة من الذي أصابني وأنا صغير ولاحظت هذا في طفل أمريكي نسيت الآن ما كانت مشكلته لكن وكان مرتاح جداً، الناس الآخرين هم الذين يسألون الأسئلة التشكيكية والرجل المصاب كان مرتاح جداً، وأظنني كنت من هذا النوع، لا أظن أن هذا له أثر علي من الناحية العقلية، يجب على الإنسان بعد ما يحصل الشيء لا يقول لو؛ لأن لو تفتح عمل الشيطان، لا يقول ياليت لو كنت عملت كذا أو عملت كذا فالقدر هنا شيء مهم جداً في حياة الإنسان وفي دينة وينفعه في الدنيا والآخرة، بدل ما يضيع وقته في الندم وفي التحسر بل ينظر إلى الجوانب الإيجابية التي حدثت بسبب هذا البلاء الذي أصابه.

سؤال: كيف كانت بداية الدعوة السلفية وكيف كان اتصالك بها؟

الدكتور جعفر: بالنسبة لظهور الحركة السلفية كانت بيننا ختمية قحة، وأذكر من الطوائف أنه حصلت مشكلة سياسية والشرطة ضربوا الناس حتى ضربوهم بالرصاص الحي، وجاء أحد إخواننا مستغرب في هذا وقال للوالد والوالد ختمي مثله: العساكر هؤلاء أليس من الطائفة الختمية فكيف يضربون الناس بهذه الطريقة؟

وكان مجيء السيد عليّ للمدينة حدث كبير جدًّا، يخرج مئات الناس إن لم يكون الآلاف ينتظرون فقط الفاتحة في هذه الفترة الغريبة - أنا لست مؤرخًا للأسف - ما أدري بالضبط متى بدأت الحركة السلفية لكنني من المؤكد إنني انضممت إليها قبل دخولي للثانوي في مدينة بورسودان.

سؤال: من هم رموز الدعوة السلفية؟

الدكتور جعفر: كان مصطفى ناجي من مدينة بورسودان وكان يأتي شيخ الهدية أذكره رغم أنه ليس من بورسودان، وواحد من أقاربنا اسمه الشيخ سيد أحمد حاج عثمان وهو خياط، لكن كان من الناس الذين عندهم علم بالسنة وكان عنده قرابة مع الوالدة فهذه أيضًا سهلة عليّ؛ لأن الوالدة كانت متشددة في البداية وما كانت راضية أبدًا أن أنضم إلى السلفية.

سؤال: ما الذي أعجبك في الدعوة السلفية؟

الدكتور جعفر: طبعًا ما قارنت بين السلفية والختمية، لكن بعض الذي قالوه والذي كان بعض الناس ينكروه أنا عرفت بالتجربة أنه كلام صحيح بالتجربة، يعني كان وأنا الوالدة تعالجنني في رجلي وأنا لم جدًّا وكان في صورة لواحد من رجال الختمية على الحائط، وكان الناس يقولون هذا مكان أستغاثه وكذا فقلت لهم أنا أستغيث فيه بقلبي؟ وكان أيضًا أنا قضيت فترة مع جدي وجدتي في مدينة كريمة السقاي، وكان يأخذني إلى مسجد أسمه مسجد ود حاج، يعني شيخ مدفون هناك وكان يدخل رجلي في التراب قبره عشان يشفيني يعني، فعندما

ذكروا السلفية أن هذا لا يجوز وكذا اقتنعت بسرعة، ولا زلت أذكر يوم جاءني هلوسة النوم كأن واحد يقول لي الشريفة الشريفة، وهذه كانت من نساء الختمية المشهورة محترمة جدًا، وأنا أقول لا أعبدوا إلا الله لا أعبدوا إلا الله، يعني ما كان مقارنة وكذا إنما دُعيت واستجبت للدعوة.

سؤال: ماهي بدايتك في دراسة العلوم الشرعية؟

الدكتور جعفر: كما قلت لك أننا في الخلوة كان معنا شيخ رجل فاضل، يعني ليس شيخ بالمعنى التقليدي هو رجل كان كما يقولون جناني، وكان رجل سُني يُدرّسنا في المساء الأربعين النووية وبعض الكتب المالكية هذا الذي بدأت به، لكن استفدت أكثر وكثير جدًا من عالم من أهل البحر الأحمر اسمه الشيخ أبو طاهر السواكني، هذا رجل متخرج من الأزهر وكان أيضًا على عكس ما كان يدرس الناس، كان ما يُدرّس إلا كتب السُنّة في المسجد الكبير، فكان يدرس بالطريقة التي رأيت في النهاية أنها هي الطريقة التي كان يدرس بها العلماء، فاستمعت إلى هذا سنة أو أكثر أنا والوالد كنا نذهب سمعنا البخاري كله وجزء كبير منه وأبو داود، وهو نفسه مؤلف كتيبات صغيرة في السُنّة عنده كتيب اسمه (صحيح السواكني)، مئة حديث أو كذا كنا نحفظه، قبل ما أذهب إلى الثانوي إخواننا أنصار السُنّة عرفوني بابن تيمية وابن القيم، وابن تيمية كان صعب علي كنت أحب ابن القيم أكثر وبعدين الأمور تغيرت يعني كبرت وكذا وعندما أقول وابن القيم أقصد الرسائل الصغيرة ما دخلت بالكتب الكبيرة إلا بعد مدة.

سؤال: و ماهي قصة الشناقيط؟

الدكتور جعفر: كان أهل شنتقيط يذهبون إلى الحج عن طريق السودان، يتعبون ويستقرون في بورسودان ومن بورسودان يركبون البحر، فجاء واحد منهم علامة من غرائب الدنيا رجل كبير الآن، أظن أنه ما زال حيًّا الآن في السعودية صار من العلماء الكبار في السعودية، أول رجل رأيته يحفظ آلاف الأحاديث ويحفظ القرآن كأنه معجم مفهرس، نقول له يا شيخ عيسى مذكور في أي الآيات فيذكرها كلها هذا شيء، الشيء الثاني جماعة أقل منه بكثير هؤلاء درسنا عليهم جماعة منهم كانوا يدرسون النحو، وأذكر واحد فيهم كان دائمًا كل شواهد من البردة درسنا عليهم شيء من النحو.

سؤال: ماهي نصيحتك في تعلم العلم الشرعي؟

الدكتور جعفر: اليوم كنا في المنتدى ناقشنا كنا نقرأ في كتاب (الموافقات) للشاطبي وهو نصح قال إن الإنسان لازم يدرس على عالم قال العلم ممكن تقرأ، لكن الأساس هو السماع تقرأ على شيخ ونصح في القراءة نفسها، تقرأ كتب الراسخين في العلم من العلماء حتى ذكرنا في الكلام حبذا لو كلمنا الشباب يقرأون كتب مثل (الأربعين النووية)، (رياض الصالحين) و(بلوغ المرام)، (من أدلة الأحكام) والكتب التي لا تدل على إن الإنسان ينتمي للجماعة هذه أو الجماعة هذه كتب لكل المسلمين يعني، أنا قلت لهم الواحد يحزن عندما يرى كثير من الشباب وهم إسلاميين ما عندهم شيوخ، أنا استغرب أنهم يتعلمون العلم كيف أصلاً الإنسان إذا ما تعلم العلم الصحيح يكون عرضة للزلل.

قال العلماء: ممكن إن الإنسان يكون عنده عبادة ويكفر وأنا أعرف شخص كان عنده عبادة سوداني ويمشي، كان في السعودية يمشي يعتمر كم مرة وبعدين الأحد بالمرة، أصبح ينكر وجود الخالق فلا بُدَّ مع العبادة من العلم قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا﴾، مما يساعد الإنسان على الاستمسك بالدين والبقاء في دائرته أن يكون له من يعينه على هذا.

سؤال: ماهي ملاحظات حول القراءة وكيف يستفيد من الكتب؟

الدكتور جعفر: أنا عندما ذهبت إلى بريطانيا في عام ١٩٦٢م، الكلية التي أنا فيها كانت تقدم خدمات للطلاب مالها علاقة في دراستهم، لكن كان من ضمن الخدمات أنهم أتونا بشخص متخصص في القراءة والقراءة السريعة، فذهب إليه البطيئون في القراءة وكنت منهم، بل كنت أبطأهم ربما؛ لأن اللغة الإنجليزية ليست لغتي، لكن قال لي: ما دام أنت بطيء في القراءة معناها أنت بطيء حتى في لغتك، وتعلمنا منه أشياء وزادت السرعة بعض الشيء لكن عرفت في النهاية أن سرعة القراءة، وهذا أقوله لإخواننا المستمعين هذا الشيء لا بُدَّ أن يتعلمه الطفل وهو صغير من بدري، وله قواعد سهلة جداً ممكن أن يتقنها الطفل؛ لأنهم يقولون البطء ليس من عدم الفهم ليس من العقل، البطء من العين؛ لأنه قال الإنسان يشوف الكلمة بعد ما يقف في القراءة، يعني البطيء يقرأ واحد اثنين ثلاثة يقف ستة سبع مرات في السطر، يزداد شوي يزداد شوي سرعة يقف ثلاث مرات، يزداد سرعة يقف مرتين، يزداد يقرأ السطر كله مرة واحدة، يزداد يقرأ ثلاثة سطور مرة

واحدة، وواحد أمريكي هذا كان يقرأ في الدقيقة ألفين كلمة، فيه أشياء أخرى ممكن يتعلمها الإنسان بعدما يكبر من الأشياء التي استغنتها.

مثلاً إنك قبل ما تقرأ الكتاب شوف كذا وقلبه هل تريد أن تقرأ هذا الكتاب أم لا تريد؟ لا تضع وقتك تبدأ تقرأ وبعدها تكتشف أن هذا الكتاب لا يستحق القراءة، وتعلم أيضاً أنك تفظ (تطمر) ليس من المهم قراءة كل سطر، تنظر بسرعة للأسطر وهكذا الواحد في أشياء يستفيد منها جداً، وربما يكون الآن في كتابات باللغة العربية فأنا أنصح إخواننا المشاهدين أنهم يعتنوا بهذا ويعلموا أولادهم، وهذه مسألة مهمة جداً ما تقرأه في ساعة ممكن تتعلم وتقرأه في عشر دقائق.

سؤال: ما هو تقبل الأسرة للتوجه الجديد مع أنصار السنة؟

الدكتور جعفر: بالنسبة لقصتي مع الوالدة والوالد والختمية وكيف انتهت، الوالدة ما كانت تقرأ كتب، والوالد ما كان يطلع على الكتب التي كنت أقرأها ما كان هناك مشكلة، زعلوا مرة زعل شديد خصوصاً الوالدة كان فيه حولة ما أعرف في الحلة، فالناس كلهم طلّعوا وأنا ما طلعت وكنت أقرأ، وقالت الوالدة: ليه ما تطلع؟ قلت لها: أنا مشغول بالدراسة ما رضت، قالت: لازم تطلع وما سمعت كلامها وهذا كبير عليها جداً ما كانت تتصور أن أرفض، فبدأت ما تتكلم معي قاطعتني لحد ما تدخل قريب لها الذي قلت لك عليه الشيخ سيد أحمد، وجاء وتكلم معها وقال لها أنتي تعرفي الدين أكثر ولا جعفر؟، قالت له: جعفر قال: طيب وتصالحنا، ويمكن كان عمري خمسة عشر أو ستة عشر ما اذكر،

وعمنا السيد أحمد هذا له قصة طريفة هو عنده علم بالسُّنة، فمرة محمود محمد طه جاء بورسودان وألقى محاضرة، ومحمود كان محاضراته مليئة بالأحاديث الموضوعية والتي لا أصل لها.

أذكر منها من أحاديثه: أن النار تفنى وينبت في مكانها الجرجير، فعمنا وقف وقال له: الحديث الفلاني موضوع، والحديث الفلاني ضعيف، والحديث الفلاني كذا، فسخر منه وقال: يأخذ التصحيح والتضعيف من الكتب، أما نحن عندنا نور نعرف به الحديث الصحيح من الحديث الضعيف، فعمنا السيد أحمد أستاذنا مرة أخرى، والله إن كان الحكاية بقت أنوار فأنا ذاتي عندي نور، فالوالد كان عنده كتاب ختمية اسمه (مسبعة) مقسم بالأسبوع أورد سبع مرات وأنا كنت أخشى الوالد ومؤدب معه، بعض إخواننا السلفيين عندهم فضاضة الحمد لله أنا لا خصوصاً مع الوالدين، والوالدي عنده سماحه ومرح وحافظ القرآن، فقلت: يا والدي أحسن تقرأ القرآن أم هذه (المسبعة)، والحمد لله في الآخر ربنا هداهم الاثنين، وحكى لي الشيخ هدية أن الختمية وخصومهم كانوا يسموننا أولاد الكلب، فقال: أنا البارحة كنت مع أولاد الكلب، وكانت العلاقة بين الختمية والسلفية حادة أبداً، ومرة أنا سافرت سفرة مع المدرسة رحلة رسمية، فلما رجع أبوي قال لي: والله ربنا نجاك جماعتك كل واحد أخذ علقه ضرب؛ وكذلك في الخرطوم كانوا يضربوهم وبعدها الأمور تغيرت. أنا من أكثر الأشياء أحمد الله عليها أن ربنا جعلني سبب للحكاية ذي بدعوة الأقارب والإحسان إليهم.

سؤال: كيف وضعكم في الثانوية؟

الدكتور جعفر: أنا كنت طالب مجتهد وقبلت بالثانوية بسرعه، وكانت المدارس الثانوية محدودة فقط ثلاث مدارس: خور طقت وحتتوب ووادي سيد، وكنت بمدرسة حتتوب وفي مدرسة كمبوني الذي حدث بالنسبة لي بالثانوي التطور الكبير الذي حدث أنه عندما ذهبت إلى الثانوي كنت مزود بكتب إخواننا السلفيين، وبالعلم الذي تعلمته منهم وفي بعض الكتب وكنت اقرأ في التفسير، نحن في ذلك الوقت كان علينا ضغط طوال الوقت لازم نقاش ونجاوب وكذا؛ وهذا أيضًا أفادنا لأننا كلما نخرج نرجع نقرأ ونبحث في المرحلة الثانوية أكبر تحدي كان التحدي الشيوعي، وكانت الشيوعية صارخة في ذلك الوقت طبعًا هم ندموا على هذا؛ لأنه أضرهم والزعم بأنه لا يوجد إله، طبعًا مستوى اللغة الإنجليزية كان عالي بشكل كبير أكثر من الآن بكثير، كان الطلبة يقرأون الكتب الإنجليزية المترجمة كتب الشيوعيين وكتب غير الشيوعيين، ومن الكتب التي قرأنا بالابتدائية جزء منها من الثقافة الأوروبية.

يعني نحن بالثانوي درسنا كثيرًا القصص الإنجليزية ولا بد أنها أثرت فينا بعض التأثير، وكنا نقارع الشيوعيين الآن كان معنا الجزولي دفع الله ومعنا عدد كبير مازال من إخواننا أحياء، وكان العدو واحد وكنا محتاجين نقف مع بعض ليس الكل يقرأ، بل بعضهم يقرأون الكتب الشيوعية ويردون على الشيوعيين ويناقشونهم، ولما دعانا أحد الشيوعيين رفعت يدي وناقشته، وعمره قريب من عمري وبحمد لله كثير ممن ما كانوا شيوعيين بالثانوي أو بالجامعة ما بقي أحد على الشيوعية بعد ما كبروا، وكان فيه تأثير بالدعوة وجزء منها التربية الأولى

هذه تأثر بالإنسان تأثير كبير، وواحد وهو صغير يشوف أمه وأبوه يصلوا ويذكروا الله فيبقى أثره وربما يزيد عليها الكلام الذي يسمعه من الدعاة فهذه مع هذه، لا يكاد يكون بقي منهم أحد على الإلحاد لكن هذا التحدي الذي كان وربما كان هذا السبب في مسألة الاهتمام بالعقل والردود وكذا؛ لأنك إذا جادلت إنساناً لا يؤمن بالله ويعتبر إن مذهبه هذا مذهب عقلائي، فلا بُدَّ أن ترد عليه بالعقل وأكثر ما فادني في هذا كتب ابن تيمية في مسألة الردود العقلانية، واذكر في كتاب واحد لكن لا أذكر من المؤلف، لازلت اذكر اسم الكتاب؛ لأنني كنت مهتم بهذا الموضوع اسمه (الدين من طريق العقل)، المودودي أيضاً كان عنده حجج أبو الأعلى، وعنده رسالة صغيرة كنا معجبين جداً بها اسمها (الدين القيم)، سنين ما رأيتهما ما أدري ماذا يكون رأي لو قرأتهما الآن؟، فكانت حررتنا تجمع بين كتابات إخواننا في باكستان وكتابات إخواننا في مصر، وأنا كنت أضيف إليها كتابات السلفيين، فالتحدي الذي حصل كما قلت لك إنني كنت مجتهد ودخلت الثانوي، الآن انشغلت بأشياء أخرى فصرت قليل القراءة والمذاكرة الذي أحفظه بالفصل أحفظه والذي لا أحفظه تأتي، القضية أكبر.

سؤال: ما أثر النقد على علاقاتك؟

الدكتور جعفر: بالمناسبة من الأشياء التي ساعدت على هذا إنني ناقد لما اقرأ أيضاً في الفكر الغربي كانوا يشجعوننا جداً على النقد، أنت تعرف أن الفكر الغربي كان فكر سائر على الدين وعلى كل مُسلمات، نحن الحمد لله كنا سائرين على المُسلمات لكن تعلمنا منهم مسألة النقد، وكانت الفلسفة إذاً في الاختبار، إذا سُئلت سؤال وذكرت المعلومات التي قيلت لك يمكن تمر، لكن إذا انتقدت

تأخذ درجة أكبر حتى كلام الأستاذ لو انتقدته تأخذ درجة أكبر، فإنصاف لهم نقول أنهم أسهموا في بناء العقلية النقدية، والحمد لله أننا عندما قرأنا كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية وجدنا العقل هذا شيء واحد، كان عندنا أستاذ في جامعة الخرطوم زميلنا في قسم الفلسفة قال وهو يستعد مغادرة السودان: إن أكثر شيء استفاده من صلته بنا في السودان أنه اقتنع أن العقل البشري هذا عقل واحد، ما في حاجة اسمها عقل غربي ولا عقل شرقي كما الناس يقولون الآن أن العقلية الغربية، ولذلك البشر ممكن أن يتناقشوا مع بعض لو أنت عقل شرقي وأنا عقل غربي كيف نتفاهم، لا يمكن أن يكون في تفاهم لا بد أن يكون في أسس مشتركة بيننا كي نستطيع أن نتفاهم مع بعض.

سؤال: كيف مارست نقد الذات؟

الدكتور جعفر: نقدي لنفسي لا أذكر، وبالنسبة لنقدي للجماعة الإسلامية سبب لي بعض المشكلات، وأنا لست نادماً على هذا؛ لأن مازالت أرى أن موقفني كان صحيحاً وناقشت فيه عدد حتى من كبار الدعاة منهم الأستاذ المودودي، وقلت له: إن هنالك أشياء نحن أخذناها من الشيوعيين تأثرنا بهم وهي الالتزام في الرأي بقول الأغلبية، وقلت له: أنا لا أعرف في هذا أصل في الدين الالتزام هو في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، لكن لو كنت أنا في جماعة تسعين بالمئة منهم قالوا كلام وعشرة بالمئة قالوا كلام، وأنا من العشر بالمئة لا يجوز لي أن أقف وأكذب على نفسي.

وأقول: والله أنا رأي هو رأي التسعين بالمئة، لكن يمكن أن يقال لي رأيك

هذا احتفظ به لا تعمل لنا فتنة، طيب ممكن أن أحتفظ به لكن لا أكذب على نفسي وأقول كلام غير صحيح وغير مقتنع به، لكن هذا في الشيوعية موجود هذا جزء من مبادئ الحزب الشيوعي، أن هنالك لجنة مركزية أنت حر في أنك تقول رأيك في داخل اللجنة هذه، وبعد أن يحصل التصويت تلتزم برأي بقول الأغلبية وتدافع عنه لازم، وأنا كنت أقول لإخواننا أنا ما يمكن أدافع عن شيء غير مقتنع فيه.

﴿ مقتطفات من حوار في جريدة الرياض ﴾

حاوره عبد الهي شاهين في ١٤ / ٦ / ٢٠٠٢ م

الرياض: يتحدث كثيرون عن صراع بين الإسلام والغرب، ما دوافع هذا الصراع؟

الدكتور جعفر: الصراع بمعنى أن يكون الإسلام مختلفاً عن الغرب في عقائده الأساسية فهذا أمر بديهي، فالعالم الإسلامي مبني على عقائد الدين الإسلامي، وهي إلا يعبد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يشهد أن محمداً رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، وأن القرآن حق وهكذا.

أما الغرب فتتقاسمه اعتقادات مختلفة، فهناك العقيدة النصرانية باختلاف طوائفها، ثم هناك العقيدة اليهودية، لكن الغالب على الغرب من الناحية العملية، بغض النظر عن الانتماءات الدينية، هو عدم أخذ الدين مأخذ الجد ووضعه في ركن من أركان الحياة، فلا يتدخل في السياسة ولا في الاقتصاد ولا يراعى في القرارات الديمقراطية، مثل القرار الذي أقره البرلمان البريطاني قبل أيام بالسماح للمشاذين جنسياً من الرجال بتبني الأطفال، فهم لا يراعون الناحية الدينية التي هي أساس الصراع.

وأجد نفسي متفقاً مع منتقون في رأيه أن لبّ الحضارة هو الدين، وإذا كنا مختلفين مع الغرب في لبّ الحضارة فينبينا خلاف حضاري بجانب ما بيننا من اختلافات في المصالح، وهنالك خلافات سببها الناحية التاريخية، والغربيون

والمسلمون لا ينسون الحروب الصليبية، وإن الغرب سيطر على العالم الإسلامي بقوة السلاح، وهتتغتون نفسه يعترف بذلك في كتابه حيث يقول: «لم نقنع الناس بفكرنا ولا غير، لكن هزمناهم بقوة السلاح، وإن المسلمين لم ينسوا هذا أبداً»، وكلامه في هذا صحيح، لكن هذا الصراع يمكن أن يحل بغير السلاح، باستخدام الحوار المباشر والفاعل، لكن تقسيم هتتغتون للحضارات بأنها الحضارة الإسلامية مع الكونفوشية ضد الغرب، هو تقسيم خاطئ، فلو أخذنا في الاعتبار كلامه السابق بأن لبّ الحضارة هو الدين.

فمن المؤكد أن الإسلام والنصرانية أقرب إلى بعضهما من الكونفوشية، فوضع الإسلام مع الكونفوشية من الناحية الدينية خطأ، أما من الناحية السياسية فمرد ذلك أن مشكلة الحضارة الغربية ممثلة في أمريكا خصوصاً - مع أنها دولة قوية وذات اقتصادي ضخمة - لكنها تعيش حالة هلع خشية أن تزول سيطرتها وقوتها، ولذلك لا تريد لأي دولة أخرى أن يكون لديها قوة، فربما هذا يجعل الحضارة الإسلامية فعلاً تتعاون مع الحضارات الأخرى التي تستهدف الغرب بقيادة الولايات المتحدة ويستهدفهم الغرب كذلك، ويحاول أن يكبتهم بمنعهم من التقدم أو يكبت لديهم أي نوع من القوة.

الرياض: في ظل هذا الصراع ماذا عن إمكانية الحوار؟

الدكتور جعفر: الحوار بالنسبة للمسلم لا ينقطع، ونحن مستعدون دائماً لكل من يريد أن يحاورنا حتى لو كان أكبر الأعداء، والله سبحانه وتعالى أمرنا بالدعوة والتي لا بُدّ لها من حوار، والذي يسميه القرآن المجادلة، فعندما تدعو

إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، أحياناً تشير هذه الدعوة عند من دعوته أسئلة واعتراضات فيحتاج إلى حوار، لذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، حتى إن بعض العلماء قالوا: إن من الخطأ أن يقال بأن الدعوة هي بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار، حيث إن هذين شيئان مختلفان، فيجب أن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد ذلك نجادلهم، أي «جادلهم» معطوفة على «ادع» وهما شيئان مختلفان، فكل من يستمع إلى الدعوة ويعرف شيئاً عن الإسلام ويريد أن يحاورنا فأهلاً به، حيث تكمن قوتنا الحقيقية في أن الحق معنا، فالحوار دائماً في مصلحتنا إن شاء الله، وإذا كنا الآن ضعفاء من الناحية الاقتصادية والإعلامية ومن ناحية السلاح المادي، فما نزال أقوىاء من ناحية الدين الذي نحمله، وهذا هو السبب في أن الناس في الغرب يسلمون، ولا أحد من العالم الإسلامي يتنصر أو يتحول عن دينه، بسبب امتلاكنا لقوة الحق.

وكثير من العقلاء إذا عرفوا الإسلام رأوا فيه أنه الدين الحق، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرنا بالدعوة قبل الأمر بالقتال وأمرنا بالجهاد بالقرآن قبل الجهاد بالسنان، وقال: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ، جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، حتى بعد أن أذن للمسلمين أن يقاتلوا وبعد أن أمروا بالقتال لم يتوقف الأمر بالدعوة بالتي هي أحسن ولا بالمجادلة، فالحوار واجب، وإذا طلب غير المسلم الحوار فيجب أن نراه واجباً شرعياً.

الرياض: الدين الإسلامي يدعو إلى الحوار والتسامح لكن من نحاوره

(الغرب) غير جاد في ذلك وخطابه غالبًا ما يكون استعلائيًا؟

الدكتور جعفر: نعم هناك استعلاء والغريون مغرورون فعلاً، والأمريكيون يقولون كما قال قوم عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ويقولون: ليس هناك دولة في التاريخ كان لها من القوة ما لنا، ويرون نظامهم السياسي هو النظام الأمثل، وإذا نظرت إلى العالم ورأيت كيف أن الناس في العالم كله معجبون بالديمقراطية، ولا أحد ينتقدها إلا الغريون أنفسهم، فكأن النظام السياسي الغربي صار حتى بالنسبة لأعداء الغرب هو النظام النموذجي الذي ينبغي أن يحتذى، وهذا يغرهم، ويدعون كذلك أن النظام الرأسمالي هو الذي جعلهم أقوياء من الناحية الاقتصادية، وإن جميع البشر يريدون أن يحتذوا بهم، فهم لديهم الأسباب التي تجعلهم مغرورين، لكن هنالك كثير من العقلاء منهم، ينظرون إلى ما وراء هذا، وإلى الأسئلة الأساسية في هذه الحياة عن الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وعن حقوقه.

وكثير ممن يسلمون - إن لم يكونوا جميعهم - فإن سبب انتقاليهم من النصرانية إلى الإسلام هو عدم اقتناعهم بأنه يمكن أن يكون للمخالق (ولد)، نعم هنالك كثير منهم يتحدث بغير موضوعية كالبيان الذي أخرجته مجموعة من المثقفين الأمريكيين، ورد عليه مجموعة من المثقفين العرب، وهو فعلاً فيه نوع من الاستعلاء، وقد رد عليه أيضاً مجموعة من المثقفين الألمان، وقالوا لهم: نحن نوافقكم في القيم الخلقية التي ذكرتموها، لكنكم لم تلتزموا بها في حرككم ضد المسلمين في أفغانستان، وليس هناك من فرق بين أن يقتل الأبرياء في نيويورك وأن يقتل الأبرياء في أفغانستان.

الرياض: هل تلاحظون دورًا للحركة الصهيونية في تعزيز هذا الصراع؟

الدكتور جعفر: بعض اليهود نصبوا أنفسهم متخصصين في كل ما له علاقة بالإسلام، وهم يخيفون الغربيين من المسلمين إخافة شديدة، ويقولون عن الإسلام والحركات الإسلامية كلامًا نحن نقول ليته كان صحيحًا.

وقد كتب أحدهم، وهو متخصص في شؤون العالم الإسلامي، بحثًا قال فيه: إن كل الحركات الإسلامية في الحقيقة حركة واحدة بأسماء مختلفة، وإن قيادتها العليا هو الدكتور حسن الترابي في السودان والشيخ حسن نصر الله في لبنان.

وبالإضافة إلى الحركة الصهيونية هنالك جماعات متعصبة من النصارى، وهم وراء تشويه الإسلام، ويعملون على إقناع الكونغرس وغيره من المؤسسات الأمريكية بأن السودان مثلاً أكثر بلد لا توجد فيه حرية للأديان، مع أني أظنه من أكثر البلاد تساهلاً في هذا الأمر مع النصارى، فهذه الجماعات هي التي تؤلب القيادات السياسية في أمريكا ضد بلد كالسودان والسبب هو الناحية الدينية.

الرياض: بعد ١١ سبتمبر دخلت مجموعات كبيرة في الإسلام، ألم تنزعج الحكومة الأمريكية من ذلك؟

الدكتور جعفر: حتى لو كان هناك انزعاج فهي لا تصرح بذلك، وحتى قبل ١١ سبتمبر فقد اعترفت مستشارة البيت الأبيض لشؤون الأمن القومي كوندوليزا رايس بأن الإسلام هو أسرع الأديان انتشاراً في الولايات المتحدة، وهذا صحيح، فلا بُدَّ أن يكون مصدر قلق بالنسبة لهم لكن ماذا يفعلون؟ وربما تكون حوادث سبتمبر أعطتهم فرصة للتضييق على المسلمين، وكنت أظن دائماً

أن التضييق قادم لا محالة، وقلت لبعض الدعاة أن ينتهزوا هذه الفرصة ويعملوا على نشر الدعوة، لأنهم يخافون أن تأتي الحضارة الإسلامية وتهاجمهم وتنافسهم من الداخل وهو ما لا يقبلونه أبداً.

الرياض: هلا عقدت لنا مقارنة بين حرية الدعوة في الغرب وبين العالم الإسلامي؟

الدكتور جعفر: في البلاد الغربية معروف أن هناك حرية كلمة للحق وللباطل، وهم يقولون لنا: نحن نسمح لكم بنشر دينكم، فلماذا لا تسمحون لنا بنشر ديننا، فرددنا بأنهم لا يفعلون ذلك تفضلاً منهم على المسلمين، هم يعتقدون أن هذا النظام يصلح لهم ويفيدهم، وكما يسمحون للمسلمين يسمحون للبوذيين والعرافة والشواذ والشيعيين حتى لمن يعبدون الشيطان، فهو ليس تفضلاً منهم على المسلمين، هذا نظامهم، وعلينا نحن أن نستغل هذا النظام في الدعوة إلى الحق. أما في العالم الإسلامي، وخاصة في البلاد التي فيها نوع من الاستمساك بالدين فلا يمكن أن تكون حرية الدعوة مفتوحة إلى كل الأديان بهذه الطريقة التي في الغرب، لكن هناك بعض البلاد المتسببة إلى الإسلام تحارب حتى الدعوة إلى الإسلام الصحيح، ومن المؤكد أنها في هذا أسوأ من الدول الغربية؛ لأن الغرب يسمح لمن يدعو إلى هذه الدعوة الصحيحة، كما يسمح لغيره أن يدعو إلى دعواه الباطلة لكن هنا السماح للدعوات الباطلة وتضييق على الدعوة الحق.

الرياض: هل هناك عدد كبير من الدعاة في أمريكا؟

الدكتور جعفر: عدد الدعاة الذين يعرفون دينهم ويتكلمون الإنجليزية بطلاقة فيه ندرة كبيرة، ونحن نعاني من ذلك معاناة شديدة.

الرياض: ألم يسبب ذلك إشكالات، خاصة وأن الإسلام يواجه حملة شديدة لتشويه صورته، الأمر الذي يستدعي الكثير من الجهود؟

الدكتور جعفر: نعم سبب الكثير، وقد لا يتمكن بعض الدعاة الذين كانوا يأتون في المواسم من القدوم، أو يقل عددهم في أحسن تقدير، وعلى العالم الإسلامي أن يعين المسلمين هناك، فلوركزنا جهودنا على المسلمين الأمريكيين الأصليين، سواء كانوا من البيض أم السود وفتحنا لهم أبواب التعليم في البلاد الإسلامية ودعمنا مؤسساتهم التعليمية واهتمنا بهم حينها يمكن أن نخرج منهم دعاة، وهناك فعلاً بعض الدعاة الممتازين منهم، لكن عددهم قليل جداً، فحبذا لو اهتم الناس بهم في العالم الإسلامي، فهم لا يدخلون في الإسلام فقط، بل سيكونون عوناً للمسلمين في قضاياهم السياسية الآن؛ لأن الجالية المسلمة دائماً ما تشتكي من اللوبي الصهيوني، فيمكن أن يصبح هؤلاء قوة ضغط كبيرة توازي اللوبي الصهيوني.

الرياض: في الغرب العديد من الطوائف والجماعات الإسلامية، وكل واحدة منها تعمل على نشر الإسلام بحسب تصورها، ألم يخلق ذلك خلطاً في أذهان الغربيين عن الإسلام؟

الدكتور جعفر: طبعاً يسبب خلطاً كبيراً، لكن هذه هي أمراض العالم الإسلامي تنقل إلى كل مكان يذهب إليه المسلمون، وفعلاً بعض هذه الجهات

عرفت الدعوة إلى الإسلام، فأنت تقول كلامًا، ويأتي غيرك فيقول كلامًا آخر مناقضًا لما قلت، لكنني أظن أن التيار العام هو تيار سُني.

الرياض: هل نأمل في أن تلقى الدعوة الإسلامية قبولًا كبيرًا في الغرب؟

الدكتور جعفر: في أمريكا خاصة، فإن معدل انتشار الإسلام يزيد سنويًا، وأنا متفائل جدًا بمستقبل الإسلام في أمريكا.

الرياض: هل تعتقدون أن الأقليات الإسلامية في الغرب في حاجة إلى فقه

جديد؟

الدكتور جعفر: غالبية المسلمين ذهبوا إلى الغرب لتأمين حياة معيشية أفضل وليس للدعوة، ومعظم هؤلاء يضيعون أو يضيع أبناؤهم، حتى إن بعضهم يقول: «لا ندري هل عدد الأطفال الذين نفقدهم أكبر أم عدد الأمريكيين الذين ندخلهم في الإسلام».

ولا يوجد فقه أمريكي أو أوروبي أو غيره، لكن هناك ما يسمى بفقه النوازل، بمعنى إذا كان هناك حالات لا يوجد لها مثيل في العالم الإسلامي، على الأقل في الوقت الراهن، وتحتاج إلى نظر، فهذا شيء مستمر بالنسبة للدين الإسلامي، والعلماء قالوا إن النصوص محدودة والحوادث والنوازل غير محدودة، سواء أكان في العالم الإسلامي أم الغربي، لذلك لا بُد من الاجتهاد دائمًا، فلا يجدد الإسلام إلا بالاجتهاد العلمي الصحيح الذي يتحرى الإجابات الأقرب للنصوص.

﴿ مقتطفات من حوار في مجلة الدعوة السعودية ﴾

في ١٤١٠/١/٣ بعنوان ندوة الحوار وأهميته في بناء المجتمع الإسلامي وشارك الدكتور جعفر شيخ إدريس كل من الدكتور حمد الصليفيج والدكتور إبراهيم القعيد والدكتور سعيد بن زعير وأدارها الدكتور عبد القادر طاش

الدعوة: ماهي أهمية الحوار والجدل في ميدان الدعوة إلى الإسلام
الدكتور جعفر: هناك فرق بين الدعوة والجدل قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالدعوة تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ولكن الداعية أيضًا يحتاج إلى الجدل والمحاورة بحسب الشخص الذي يوجه إليه الحديث. أما الجدل فلا يكون بالحكمة والموعظة الحسنة ولكنه شيء قائم بذاته رغم أنه قد يكون فرعًا من المحاوراة قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١].

أما أهميتها فتعود إلى أن الدعوة الإسلامية موجهة لكل البشر في كل زمان ومكان والبشر أنواع لهم اعتقادات وحضارات وأهواء مختلفة، لذا لا بُدَّ من المحاوراة حينًا والمجادلة حينًا آخر لإزالة الحواجز الفكرية وكشف الأهواء وتصحيح أخطاء الناس.

والجدل مع الشخص الذي لا يسلم قد يكون مهما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالذي

ظلم لا يريد الحق لذا قالوا إن الجدل قد لا يكون القصد منه أحياناً مجرد الإقناع، بل ضرورة الإقناع لذا قالوا إن الجدل قد يكون من الجهاد؛ لأن المجادل يريد أن يزيل عقبة فكرية من أمام الدعوة والذي لا يجادل أهل الباطل حتى يجمع باطلهم لم يوف للإسلام حقه.

الدعوة: هناك من يطرح فكرة الحوار بالمفهوم العالمي نعني حوار الحضارات فهل من الممكن أن يحدث ذلك بين الحضارتين الإسلامية العربية والغربية المسيحية في ظل هذه الظروف التي نعيشها؟

الدكتور جعفر: أنا أقول إنه لا بُدَّ أن يتحقق الحوار بين المسلمين أنفسهم أولاً، ثم بعد ذلك نتحاور مع الآخرين. والقضية الأهم هنا هي قضية غياب الحوار من الساحة الفكرية وظاهرة اختفاء الحوار ليست خاصة بالإسلاميين، بل هي ظاهرة عامة في العالم العربي حيث لا يوجد حوار في مناشط الفكر الإنساني، والسبب في هذا يعود إلى عوامل سياسية حيث اشترى أصحاب الحضارات الغالبة بأموالهم وسائل الإعلام حتى داخل البلاد الأخرى فأصبح الرأي الذي يتشر هو رأي صاحب المال.

الدعوة: هل يتوقف المسلمون عن الحوار الداخلي والخارجي إلى أن ينتهوا من بناء أنفسهم أولاً أم أنهم يستطيعون أن يتحاوروا في ظل الظروف التي تمر بهم؟
الدكتور جعفر: أنا أريد أن أتخفظ على بعض ما قاله الأخوة، إذ يوجد أفراد رأوا الحق مجرداً وأذعنوا له بالرغم من الظروف التي تحيط بهم ويعد هؤلاء من عظماء الناس والدليل على ذلك أن الإسلام عندما كان في مكة لم

يؤمن به خلال عشر سنوات إلا ٣٠٠ فردًا ومع هذا كانت هذه القلة مؤمنة أعظم ما يكون الايمان وسط مجتمع مشرك هذا أولاً.

وثانيًا: إن الحوار يعطينا فرصة للاتصال بالعالم الخارجي ويحسن صورتنا لدى الآخرين الذين يعتقدون أننا لسنا متخلفين اقتصاديًا فقط وإنما فكريًا وخلقياً أيضًا وربما بالحوار نستطيع تغيير الناحية الفكرية على الأقل.

الدعوة: ماهي الأسباب والوسائل التي ينبغي أن نسلکها لعلاج ظاهرة اختفاء الحوار ومن ثم توفير مناخ صحي للحوار بين المسلمين يساهم في بناء مجتمعاتهم؟

الدكتور جعفر: إن البناء يتطلب الدعوة النظرية إلى الحوار وبيان أهميته ومما يساعد على ذلك الاهتمام بكتب التراث الغنية بالحوار مثل كتب (الرسالة) للشافعي حيث يناقش فيه آراء بعض المنكرين للسنة وكتاب الإمام أحمد في الرد على الجهمية، وابن حزم في الرد على اليهود، والغزالي في الرد على الفلاسفة، وابن تيمية على كل المخالفين من الفلاسفة والنصارى وأصحاب الأهواء وابن القيم وغيرهم.

يجب أن يكون هناك قدوة يظهرون للناس بطريقة عملية أن الحوار ممكن بين الإخوة فيرون مقالاً للدكتور زيد ينتقد مقالاً للدكتور عمرو؛ ثم بعد أيام يرونهما يمشيان معًا وبالتالي يفهمان الناس أن الحوار ليس عداً، ويرسخان سلوكًا معينًا لديهم. كما يجب أن توجد مؤسسات قدوة تفتح بابها للحوار الرفيع ومن هذه المؤسسات تنشأ قلاع فكرية كبرى.

﴿ حوار صحيفة الاستجابة السودانية ﴾

صفر ١٤١٢ هـ

الاستجابة: في البدء نريد أن نتعرف على أهداف ونشاطات ومستقبل
معهد الدراسات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية؟

الدكتور جعفر: معهد الدراسات الإسلامية هو كلية تابعة لجامعة الإمام
محمد بن سعود والغرض منها تدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية للمسلمين
الأمريكان وأظن أن الاقتراح كان من بعض المسلمين في أمريكا؛ لأنهم جربوا
الدراسة في العالم الإسلامي فالاختلاف بين مجتمعهم والمجتمعات هناك
وبعض ما يلاقون من متاعب وعدم استطاعة كثير منهم السفر إلى البلاد
الإسلامية، اقترحوا أن تنشأ كلية في أمريكا يتلقون فيها هذه الدراسات ثم إذا
وجد الواحد منهم فرصة للمجيء إلى بلد عربي كالسودان أو مصر أو السعودية؛
ليجود لغته فأرأوا أن هذا أحسن. المعهد لم يبدأ بعد في التدريس وللمعهد
أهداف أخرى فهو يقوم الآن، وفي المستقبل بما يسمى بالدورات.

فكل مجموعة من المسلمين سواء كانوا من الأمريكان أو المسلمين العرب
أو الباكستان أو غيرهم متجمعون في منطقة من مناطق أمريكا ويريدون دورة
لمدة أسبوعين أو شهر، فالمعهد يقوم بهذا فيؤجر المكان، ويرسل الأساتذة،
ويقوم بكل المصاريف وغالبًا ما تكون هذه الدراسات مكثفة، ويراعي فيها مستوى

الدارسين، فإذا كانوا عربًا ومسلمين ويحتاجون مثلاً إلى دراسة يتوسع بعض الشيء في مسائل العقدية، أو أصول الفقه، أو التفسير فالمعهد يقوم بهذا، والمعهد ينوي في المستقبل أن يقدم دراسات صيفية باللغة الإنجليزية يؤمها الطلاب من المسلمين وغير المسلمين الذين يدرسون في جامعات أخرى فنريد أن نتصل بالجامعات الأخرى لتعترف بالمعهد فتقبل الساعات التي يدرسونها، للمعهد أيضًا طموح كبير في أن ينشئ مركزاً كبيراً للبحوث تقوم فيه مكتبة يرجى أن تكون أكبر مكتبة إسلامية في العالم الغربي، وفي هذه المرحلة الحاضرة وشخصي مسؤول عن جزء من هذا العمل وهو الإشراف على البحوث.

الاستجابة: من خلال تواجدكم في أمريكا ما هو تقييمكم للجماعات الإسلامية وسط الزوج المسلمين لأننا نسمع عن وجود حركات انحراف كثيرة كالحركة التابعة لمدعي المهدي وحركة (اليجا محمد)

الدكتور جعفر: نعم هذه معروفة وبحمد الله الآن الجماعات السنية والأفراد السنيون في ازدياد. وهم يعرفون هذه الجماعات، وما فيها من انحرافات، الحركة التي تدعي صلتها بمحمد أحمد المهدي هي أكثر هذه الحركات انحرافاً الآن، وهي في الحقيقة ليست لها أي علاقة بالمهدية؛ لأن صاحبها يأخذ من القرآن ويأخذ من التوراة ومن الإنجيل وكذا وكذا وفي الحقيقة أنها تسيء إلى المسلمين؛ لأنها تعتمد على التسول فيلبسوا ملابساً قريبة من الملابس السودانية ويقفون في الشوارع ويتسولون الناس، فهي دعاية سيئة للسودانيين وللإسلام وللمهدية بصفة خاصة أيضًا وإن كان كثير من الناس لا يعرفون المهدي، ولكنهم

يعرفون أن هؤلاء مسلمون أو سودانيون.

الحركة الثانية التي فيها انحراف شديد هي الحركة التي يقودها الأستاذ (فرقان) فهو يحتفظ بكثير من مبادئ وأفكار اليجا محمد المنحرفة، أقرب حركة من الحركات الكبيرة والتي حصل فيها كثير من التحصين هي الحركة التي يقودها (وارث الدين محمد) لكن هناك حركات أصغر من هذه منها جماعة انفصلت عن هذه الجماعة يقودها الأخ الشاب (سراج وهاج)، إذن فهناك حركات مستقيمة...!!

الاستجابة: ما هي معوقات وإشكالات الدعوة الإسلامية في الغرب؟

الدكتور جعفر: في رأيي أن أكبر مشكلة تواجه الدعوة الإسلامية في العالم الداخلي وفي العالم الخارجي هي قلة الدعاة، أفريقيا هذه تحتاج إلى مئات إن لم أقول إلى الآلاف الدعاة ودع عنك أمريكا وإنجلترا، فحتى البلاد الإسلامية الكبيرة أندونيسيا، الهند، ماليزيا كل هذه تحتاج إلى دعاة علماء ومع الأسف نحن حتى الدعاة منا معرفتهم بالإسلام معرفة عامة، وهذه من الأشياء التي نرجو أن تعتنوا بها، لا بُد أن يتخرج من هؤلاء الشباب علماء بالمعنى الحقيقي للكلمة، يكونون قد حفظوا القرآن الكريم ودرسوا تفسيره بدقة، علماء يعرفون السُّنة ومصطلح الحديث ويحفظون مئات أو آلاف من الأحاديث النبوية ويعرفون معانيها، علماء اطلعوا على تاريخ الإسلام وعلى الفقه الإسلامي والمذاهب وهكذا. حتى يستفيد منهم المسلمون بالنسبة للغرب تحتاج بالإضافة إلى هذا إلى علماء يجيدون اللغات ولا سيما اللغة الإنجليزية، الآن

اللغة الإنجليزية هي الأساس بالنسبة للدعوة، هناك مسلمون في فرنسا وفي ألمانيا ولكن عدد المسلمين الذين يتكلمون الإنجليزية الآن أكثر من الذين يتكلمون العربية في إنجلترا وأمريكا وأستراليا والهند وباكستان خصوصاً من المثقفين من الناس فلا تفصلوا بين الدين وتعلم هذه اللغات، هذه اللغة بالذات شجعوا كثيراً من الشباب ليتعلموها ويتقنوها حتى يكونوا دعاة بل حتى يكونوا دعاة في بلادهم لكي تطلع أنت الآن على ما يكتب عن الإسلام، وما يحاك ضد المسلمين ينبغي أن لا تعتمد فقط على ما يترجم أو ما تكتبه الصحف بطريقة مبتورة لا بُد أن يكون لنا بعض الشباب الذين يطلعون على هذه الأشياء يفهمونها بيسر، وهناك مشاكل أخرى المال فمعظم المسلمين فقراء في كل بلاد الدنيا بما في ذلك أمريكا لكن ركزت على النقطة الأساسية -الدعاة- ثم تأتي بعد ذلك مشكلة المال، من مزايا البلاد الغربية إن المجال فيها مفتوح، الديمقراطية تسمح بأن تدعوا وفي رأيي إن هذا شيء مؤقت، كثير من إخواننا يفرحون بأن هذا البلاد تعطيه من الحرية في الدعوة ما لا تعطيها بعض البلاد الإسلامية، لكن في رأيي إن هذا لأن المسلمين لا زالوا ضعفاء وليسوا مؤثرين، ولكن إذا أصبحنا قوة يمكن أن تصل إلى الحكم فسيغير الوضع، فينبغي أن ننتهز هذه الفرصة الآن قبل فوات الأوان.

الاستجابة: كثيراً ما نسمع عن اعتزازك بالتأثير السلفي أو تأثير بعض السلفين على شخصيتك فإلى أي حد هذا التأثير السلفي؟

الدكتور جعفر: هذا منذ الطفولة فلقد كان من أوائل الذين بدأوا حركة

جماعة أنصار السنة المحمدية بعض أقاربنا ببورسودان وتقريباً كنت في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة وانضمت إليها، ومن عرفت في تلك السن الباكورة الأخ مصطفى ناجي فأحمد الله سبحانه وتعالى منذ ذلك الوقت الباكر في سن الطفولة تخلصت من المخرافات الطائفية... ومسائل الشرك وكذا واتصلت قبل الثامنة عشر بكتب ابن القيم وكنت أفضلها على كتب ابن تيمية؛ لأنها أيسر وأسهل.

وقرأت بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن كبرت في السن وصارت عندي مقدرة أكثر على الاستيعاب، وأحمد الله إنني قد اهتممت بوالدي وكاننا ينتميان إلى طائفة الختمية رغم أن الوالد عليه رحمة الله كان يحفظ القرآن الكريم، كان يقرأ بعض هذه الأشياء التي فيها شرك فكنت أناقشه حتى هداه الله تعالى، والوالدة أيضاً كانت إذا جلست أو قامت يا سيدي الحسن ويا سيدي علي فتأبت، فصارت حتى إذا قالت شيء من هذا الكلام استغفرت الله العظيم فهذه مسألة أحمد الله سبحانه وتعالى عليها.

الاستجابة: إلى أي حد استفدت من فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز؟

الدكتور جعفر: تأثرت منذ الطفولة بأنصار السنة وما تتلمذت على شيخ مثل تتلمذي على الشيخ عبد العزيز بن باز، فالشيخ عبد العزيز بن باز اعتبره شيخاً ما أظن إنني تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه، وإن كان ذلك بعد الخمسين ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلاً أعلم منه، ولا لقيت في كل من عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير

المسلمين رجالاً في ورعه وتواضعه.

ومن العيوب المنتشرة جداً بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين أو علماء الدنيا إنهم لا يعترفون بأقرانهم ويقدمون فيهم وينتقدونهم، ما رأيت رجالاً عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبد العزيز بن باز لا يذكر رجالاً من العلماء المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب، ثم إن خالفه يقول لكن أخطأ في الشيء الفلاني وكذا وكذا، ثم يعتذر له إن هذه المسائل يخطئ فيها كبار العلماء قبله، وهو رجل كريم وما أعرف علي وجه الأرض رجل يعرف من أحوال المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأهم من أبناء بلده مثل الشيخ عبد العزيز، لذلك حزنت حزناً شديداً عندما كنت أسمع إن بعض الناس يتكلمون عنه ويصورونه كأنه مجرد رجل من (تنابله) السلطان، أو أنه يضغط عليه ليقول كلاماً لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا يؤمن به أبداً، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه، إما أن يخطئ، فهو بشر كل العلماء يخطئون. ربنا مُبَحَّثَةٌ وَقَعَالِي مَا كَتَبَ الْعَصْمَةُ إِلَّا لِلرَّسُولِ ﷺ.

الاستجابة: فضيلة الدكتور لو سمحتم تتكلم بشيء من الصراحة بموضوع يتعلق بزيارتكم للسودان، هنالك كثير من الآراء والتحليلات في الشارع السوداني وسط الإسلاميين لأسباب زيارتكم للسودان في الوقت الراهن، بعضهم يقول الزيارة سببها هدم شخصية معينة وتصحيح مسار العمل، وبعضهم يقول بأنها باتفاق بين جماعات الإخوان المسلمين بأن يتولى الدكتور جعفر شيخ إدريس قيادة الإخوان المسلمين والخروج بهم من المأزق الذي دخلوا فيه، كخيار

مقبول بين الإخوان المسلمين، بعضهم يقول هو جاء للوساطة في موضوع المركز الإسلامي الأفريقي وتطوراته وكذا فما أدري هل هي أم غيرها؟ أم هي ريادة عادية؟

الدكتور جعفر: أبداً أنا أزور السودان في العام مرتين أو ثلاثة كل الذي أدى لهذه التأويلات إنه حدث أن الأخ الدكتور التيجاني عبد القادر قابلني وقال لي: إذا ممكن أن تلقي لنا محاضرة وليس بتدبير بيني وبينه، أظنه بالنسبة له كان عملاً روتينياً، فقلت له: إن الموضوع الذي يشغلني هو كذا فاتفقنا على أن يكون هذا الموضوع، هذا الذي أدى لكل هذه التأويلات وإلا لو جلست ولم ألقى المحاضرة لما عرف بوجودي كثير من الناس ولخرجت كما دخلت. الشخصية المعنية التي يتكلمون عنها عهدي بنقدها ليس بقريب وما أحتاج إلى أن أجيء في زيارة لبضعة أيام ولا فعل هذا، هذا بالنسبة لي موقف ثابت وإما أنها اتفاق فهذا ليس بصحيح، فليس عندي طمع في زعامة كل الذي أريده إذا رجعت إلى السودان أن أثبت هذا الحق الذي أؤمن به بقدر ما أستطيع، وأن يكون موجهاً إلى كل الشباب من الشباب الذين كانوا يهتمون إلى الجبهة أو الإخوان المسلمين أو أنصار السنة أو جماعة التبليغ، وكذا أرجوا إن شاء الله أن لا أفرق... بينهم.

المهم إن من الأشياء التي تعلمتها من وجودي خارج البلاد إن الذي يجمع الناس حقاً ليس هو التنظيمات وإنما الذي يوحد قلوبهم - هذا الشيء في القرآن الكريم وثُمَّ عرفنا بالتجربة - في الحقيقة هو استمساكهم بالحق فكلما التقينا وتعاوننا على نشر هذا الحق وعلى فهمه وعلى العمل به كلما كان إن شاء

الله أجمع للقلوب؛ بل إن بعضاً من الإخوان قبل أن يفصلوا عرضوا عليّ أن يبايعوني فرفضت، وقلت لهم أن المهم ليس هو أن نكون جماعة جديدة ولكن المهم هو أن نكونها على أساس وما زلت أرى الآن هذا الموضوع وأنا متفائل، كنت متفائل وازداد تفاؤلي بعد زيارتي للسودان.

وأرجو بإذن الله تعالى أن تتطور الحركات التي في السودان إلى حركة سنية جامعة إن لم تكن تنظيمًا واحدًا، حتى لو كانت تنظيمات مختلفة لكنها تكون حركة سنية بمعنى أنها حركة ملتزمة بالعقيدة السليمة كما هي في القرآن الكريم، وكما بينها أهل السنة والجماعة حركة تلتزم بالعبادات الصحيحة التي لا بدع فيها ولا خرافات، حركة أيضًا تهتم بالعمل السياسي وبالتصور الصحيح للدولة وموقف المسلمين منها، تهتم بشؤون المسلمين بالعالم بل بالعالم كله العلاقات بين المسلمين وبين غيرهم، وتؤسس كل هذا على القرآن الكريم والسنة النبوية في ضوء منهج أهل السنة والجماعة، وأنا أرى في السودان الآن بذور لهذا فأريد بأذن الله تعالى أن أساعد في هذا الاتجاه فقط، فأنا واحد من الناس وليس بأكثرهم علمًا ولا بأجدرهم بأن أكون قائدًا - فليطمئنوا زعماء الجماعات فلا أريد أن أنافس أحدًا منهم أو أكون جماعة جديدة.

حوار مجلة منارات العدد (٢٢)

أجرى الحوار الدكتور محمد الخرعان

لعلنا نبدأ حقيقة بالحديث في هذا اللقاء حول المحاضرة التي ألقاها فضيلتكم في السودان، ربما كانت مرتبطة ببعض الأحداث والقضايا التي أثّرت في الآونة الأخيرة، لو تكرمت بإعطائنا شيئاً عن عنوان المحاضرة وموضوعها.

سؤال: عنوان المحاضرة (فرقة دجال) ماذا يعني هذا العنوان؟

الدكتور جعفر: عندنا في السودان يستعملون كلمة (فرقة) يعني اضطرب، ويستعمل أكثر ما يستعمل في البهيمّة عندما تذبح وتتحرك وهذه الحركة فرقة، فهي فرقة مقتول، فأنا قلت: فرقة الدجال، ثمّ أردت أن أتأكد أن كلمة (فرقة) هذه كلمة عربية فرجعت إلى القاموس فوجدت أكثر مما قلت فقال: فرقة يعني تحرك بالمعنى السوداني، وفرقة: سارع إلى الحماقة، وفرقة: أكثر وخطأ.

فقلت في المحاضرة: إن صاحب القاموس ما كان يظن أن كل هذه الثلاث تجتمع في شخص واحد، فأنا كان قصدي فعلاً أنه فقد كل شيء وهذه فرقة مقتول أو منتهى.

سؤال: هل كانت القضايا التي أثّرت عن الترابي جديدة أم كانت قديمة؟

الدكتور جعفر: أنا قلت للناس هذه ليست القضايا المهمة أو الخطيرة بالنسبة له، وسوف أتحدث عن مسؤولية ما يُسمى بالحركة الإسلامية عن

ضلالات الترابي؛ لأنها كانت معروفة لكثير من الإخوان والدعاة، روي عنه أنه قال كذا وقال كذا، وأنا من الناس الذين تكلموا كثيرًا، وكنا في حركة واحدة وكان فيه شيء اسمه مجلس الشورى، وأذكر أنه في يوم من الأيام أنا وقفت وهو كان بجانبني وقلت لهم يا إخواني هذا الرجل ليس عنده دين، ولكن بعد ذلك لم يحصل شيء، والمفروض إما تحاسبوني أو تحاسبوه هو، لكن لم يحدث شيء من ذلك!، ثم إنه كلما قال كلامًا فيه ضلال يسمونه اجتهدات. ثم هو رجل مراوغ، كان يقول الكلام في بعض الجلسات الخاصة وسمعوا منه بعض الناس فإذا قيل عنه أنه قال كذا وكذا ينكر، فأهم ضلال له وقاله من زمن بعيد جدًا، أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ.

سؤال: لكن قبل هذا فضيلة الشيخ، إلى أي شيء يرجع التساهل في هذه الشذوذات أو هذه الانحرافات وهي قديمة كما تقول منذ الستينات الميلادية؟

الدكتور جعفر: معظم الناس لا يعرف عنه شيئًا، ويحسنون به الظن، والقيادات أيضًا عدد كبير منهم لا يعرفون عنه ذلك، وينكرون عليك إذا قلت لهم عنه مثل هذا الكلام، والبعض سمع، لكن عيب الذين لم يسمعوا أنهم لا يريدون أن يسمعوا، أقول لهم يا أخوة نحن قلنا كذا أسألوه، عندهم احترام له لدرجة أنه ما فيه واحد منهم يستطيع أن يقول له يا أخي قيل عنك كذا، فهل هذا الكلام صحيح أم لا، استسلام عجيب!!

سؤال: ذكرت أن من أهم الشذوذات أو الأخطاء التي عنده أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ، ماذا كان يقول؟

الدكتور جعفر: نعم التي عرفت عنه من زمان أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ، ويعتبر أن النبي ﷺ يمكن أن يروى عنه حديث صحيح من ناحية السند، وأن النبي ﷺ قاله فعلاً، لكن الكلام خطأ، وكان أكثر ما يتكلم فيه حديث الذبابة، ويقول: أنا في مسائل الطب أقدم رأي الطبيب الكافر على حديث النبي ﷺ، وكان أيضاً من الضلالات المعروفة عنه ولها علاقة بعدم احترامه للسنة النبوية، أنه كان يجيز الردة، أنا قلت في محاضرة من قبل، قلت: أن المشكلة الآن أننا لا نتكلم عن حكم المرتد ولكن نتكلم عن حكم الردة، فالترابي يقول في محاضرة له: لا بأس على الإنسان أن يبدل دينه، مع أنه من الثابت عن النبي ﷺ قوله: «من بدل دينه فاقتلوه»، ونقلت عنه جريدة اسمها (المستقلة) أنه قال: «إن الحديث هذا كان خاصاً بجماعة من المسلمين ارتدوا، وذهبوا وانضموا إلى الكفار، وجاءوا مع الكفار لقتال المسلمين، فالمسلمون تخرجوا هل يقتلوه، وهم كانوا بالأمس إخوانهم؟؟» أنا قلت هذه القصة مخترعة، وليس هناك أحد قال من قبل إن هذا هو سبب الحديث، ثم إنها أيضاً قصة سخيفة، فالناس لا يتخرجون من قتل من كان معهم ثم صار ضدهم، بل بالعكس يتحمسون لقتله أكثر من الكافر الأصلي، وأما الموضوع الآخر الذي قاله وقاله ناس قبله، وصار الآن تقريباً رأي شائع، أن المرتد لا يقتل إلا إذا حارب، وأنا أكاد أعرف أول من قال هذا الكلام.

سؤال: لكن هل لهذا الكلام قيمة، فمن حارب المسلمين حتى ولو بقي

على إسلامه إلا يقاتل لحمله السلاح عليهم؟

الدكتور جعفر: نعم، هذا صحيح، ومعروف.

سؤال: من أول من قال بهذا الكلام؟

الدكتور جعفر: نحن كنا طلاب في جامعة الخرطوم، في الخمسينات، وكانت الثقافة الإنجليزية قوية في ذلك الوقت، وكان كثير من إخواننا الذين بدءوا الحركة الإسلامية في السودان يقرؤون باللغة الإنجليزية، وكان من ضمن ما قرءوا ترجمة محمد علي القادياني للقرآن الكريم، وهي من أوائل الترجمات، محمد علي هذا كان عنده علم، وهو غير يوسف علي، فمن ضمن ما قاله تعليقاً على باب في كتاب البخاري عنوانه (قتل المرتدين والمحاريين)، فهو رجل عجمي اعتبر المحاريين وصف للمرتدين، واستدل بتبويب البخاري هذا، فكأن البخاري قال: قتل المرتدين المحاريين، مع أنه معروف في اللغة العربية أنه ما يفصل بين الشيء وصفته بالواو، فما تقول: محمد والأحمر، إذا كنت تقصد محمد الأحمر، فهو قال هذا وقلده التراخي فيه، والحقيقة أن معظم ضلالاته هو مقلد فيها. ومن الأشياء الكبيرة التي صرح بها أنه ينكر أشياء واضحة جداً في القرآن، مثل موضوع أن آدم أول البشر، فهو ينكر ذلك ويقول أن أول البشر امرأة، وأن الحور العين لسن نساء خاصة بالجنة، وإنما هن نساء الدنيا.

سؤال: بماذا نفسر بعد كل هذا ارتباطه بالحركة الإسلامية، هل لأنه يطلب الزعامة وجعل الدين مطية له؟

الدكتور جعفر: أنا أظن ذلك، أنا أعرف ذلك عنه في الستينات وهو في أوج شبابه، وتلبس بالدين لأغراض دنيوية، حتى ولتعرّفهم في لحن القول، مرة كنا في محاضرة في بورسودان، اشتركت فيها وهو، فقال للناس إن الإنسان إذا أراد أن

يجمع السودانيين على شيء لا بُدَّ أن يأتيهم عن طريق الدين، وبعد المحاضرة قلت له: كأنك تقول للناس نحن نريد أن نستغلّكم؟ فهو جاء يريد الدنيا باسم الدين، وربنا سبحانه مكر به، كلما أوْشك أن يصل إلى غايته ضربه حتى يسقط.

من الأشياء التي ما ذكرتها في المحاضرة، ولم يصرح بها بشكل علني إلى الآن، لكن رواها عدد من الإخوان عنه وكانوا قرييين منه جدًا، قال في جلسة من الجلسات أنا أعلم من النبي ﷺ.

سؤال: بماذا أعلم من النبي ﷺ؟

الدكتور جعفر: لما سألوه بعد ذلك قال لهم: أنا قلت لكم أنا أعلم من أبي!، ضحكت من ذلك وقلت: ما فيه سوداني يقول: (أبي)، السوداني يقول: (أبوي)، كرر الكلام نفسه مع شخص آخر، عندما أنكر عليه، قال: أقصد في المسائل الدينية. قلت: ما أدراه أنه أعلم من النبي ﷺ، كيف تعرف أنك أعلم من النبي ﷺ، قال أنا أعرف اللغات الفرنسية، قلت له: يا أخي النبي ﷺ كان يتكلم مع الجمادات والحيوانات ومع الجن، ومن الأشياء التي شاعت عنه، وذكرها لي أحد المقربين منه قال: إنه تستفزه الصلاة على النبي ﷺ، يقول: لماذا عندما نقول (الله) لا نقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعندما نقول النبي نقول ﷺ، قال: قلت له: لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، نحن نضع جبهتنا في الأرض سجودًا وذلا لله عزَّ وجلَّ، هل رأيتنا في يوم من الأيام سجدنا للنبي ﷺ؟ فأنا استغربت من هذا الكلام، وكلمت فيما بعد الصادق عبد الماجد فالصادق قال لي: أنا سمعت هذا الكلام في الستينات، يقول كنا في مسجد

ذاهبين للدعوة فجاءت مناسبة، الناس صلوا على النبي ﷺ، فقال لهم هذا الكلام، فكثير من المصلين أخذوا أحذيتهم وخرجوا!

سؤال: يعني هو سبق الدانمارك في الإساءة للنبي ﷺ؟

الدكتور جعفر: نعم... ثم هو عنده شك في الأحاديث النبوية، أنا جئت السعودية سنة ١٩٧٤م، جاء وعمل محاضرة هنا، والدكتور أحمد العسال كان أستاذ في قسم الثقافة، قال له: أنت تدعو إلى ماذا؟ إذا كان عندك شك في الأحاديث النبوية فما هي الدعوة التي تدعو إليها، اجلس في الأرض وتأكد من دينك هذا ما هو؟ ثم بعد ذلك ادع... هذا كان سنة ١٣٩٥هـ، أي قبل ٣٠ سنة، ثم شهد عدد كبير من الناس أنه لا يحافظ على الصلاة.

سؤال: يصلي في غير وقتها؟

الدكتور جعفر: لا ما يصلي... يأتي الوقت ولا يصلي، واحد من إخواننا يقول أيام الدعوة إلى الدستور الإسلامي كنا نذهب إلى القرى، وبعض الناس موسرين، يكون عنده أسرة للنوم، فالتناس يبيتون عندهم في البيت، فيقول إن واحداً من الجماعة قال: بات عندنا ولم يصل الفجر، وعندما استيقظ أخذ فرشاة الأسنان، ثم جاء يشرب الشاي، فقال له: يا شيخ أنت ما صليت، قال له: خرج الوقت، فقال صاحب البيت: والله ما تشرب الشاي!

سؤال: الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ هل تعرف له رأي يتعلق بالترابي؟

الدكتور جعفر: أنا ما سمعت، لكن أنا بلغت الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذا الكلام،

ولم أقل له من فعله، لكن الشيخ كان يعرف بعض الأشياء، وما تكلمت معه في هذا الموضوع أبداً.

سؤال: أثار الترابي أخيراً قضية حجاب المرأة، وقال بأن الحجاب هو تغطية الصدر، هل تعد هذه مرحلة من مراحل تطور الفتوى لديه حيث لم يسبق لذلك من قبل؟

الدكتور جعفر: هذا أيضاً من الاستكبار والغرور، كيف تعتقد أن الناس ما فهموا حتى أتى هو، أنا أقول بأنه من البلادة أن يعتقد الإنسان أنه ما فيه أحد يفهم غيره، الإنسان العاقل يعتقد أن للناس عقولاً.

سؤال: في مثل هذه القضايا التي تتعلق بمبادئ الدعوة التي تدعو لها الجماعة، من هو الشخص الذي يستطيع أن يحسم مثل هذا الموضوع؟

الدكتور جعفر: الناس لأنهم معجبين به لا يهتمون بهذا الأمر كثيراً، أحد إخواننا قال إن الترابي في سفراته للبلاد العربية، يقول للإخوان إن المسألة مسألة شخصية بيني وبين جعفر، وهذه من الأشياء التي غلبني بها، لأننا كلما تناقشنا في موضوع يحوله إلى مسألة يمكن أن يتكلم فيها أي واحد في الشارع، لا تحتاج إلى علم ولا إلى شيء... حسد، أو تنافس على المناصب، والذين عندهم شيء من العلم يقول هذا حسد الأقران، لكن مع الوقت ظهر للناس أن ما كنت أقوله حقاً، أحدهم قال بأن جعفر كان زرقاء اليمامة، قلت له أنا لست زرقاء اليمامة، لكن أنتم كنتم عميان!!، ثم هو الآن لم يترك فرصة لإنسان يكون معه، ومثل هذه الأمور لا تحصل في الجماعات السلفية التي تجتمع على الكتاب والسنة؛ لأنها تجتمع

على مبادئ واضحة، من وافقها وافق الحق، ومن خالفها خالف الحق، بخلاف غيرها ممن يجمعها التنظيم أكثر من غيره.

سؤال: يظهر أن المعجبين بالترابي قد لا يكونون معجبين بمعنى الإعجاب، الترابي في الفترة الماضية ما كانت تعرف عنه هذه الأقوال خارج السودان، وكان الناس ينظرون إلى الترابي باعتباره زعيمًا للحركة الإسلامية، وكانت الحركة الإسلامية في العالم العربي أو في غيره تتبنى الترابي وتعدّه واحدًا منها، وهذا أعطاه دعاية واسعة. أليس كذلك؟

الدكتور جعفر: لا... لكن كان فيه إعجاب به شخصيًا، يعني ما كل من كان رئيس للحركة في بلد ما أنه كان يزين للناس الفكر الغربي.

سؤال: الناس ما كانت تعرف هذا عنه، كانوا يقيسون الترابي بما يعرفونه عنده من العلماء وأنه كان واحدًا من هؤلاء؟

الدكتور جعفر: كيف يا أخي، لا لا، في الأشياء الأخرى، كان هو مثلاً يتحدث عن حرية المرأة، من زمان، وحتى كان من المعجبين به وعنده موقف مني أنا القرضاوي، وأنا رأيت بعيني كلام كتبه لبعض الشباب السودانيّين في التعبير عن الإعجاب به.

سؤال: هل للنجاحات السياسية التي حققها أثر في هذا الإعجاب؟

الدكتور جعفر: هذي جزء منها، وإن كان كثير من الناس الذين يزورون السودان عرف ما عنده، فيه أشياء أصلها موجودة في حركتنا في السودان قبل ما يكون الترابي، لكن الناس عزوا كل ميزة في الحركة الإسلامية في السودان

للترابي، مع أنه في بعض الأشياء كان هو ضدها، لكن عزوها له.

سؤال: محمد أحمد الراشد تكلم عن الترابي، وذكر جانباً من صفات الداعية والزعيم المسلم، واستدل بكتابين، الإيمان وأثره في حياة الإنسان، والصلاة عماد الدين، وذكر الترابي في قضية الإيمان وفي قضية الصلاة، والمحافظة عليها. الدكتور جعفر: أنا ما قرأت الكتابين، ولا أستطيع أن أقرأ له مقال، وهو كذلك.

سؤال: هذه قضية شخصية يا شيخ؟

الدكتور جعفر: نعم هو لا يطيقني وأنا لا أطيقه..

سؤال: قضية تاريخية النص من القضايا التي أثارها الترابي في بعض كتبه، ما أبعاد هذه القضية؟ ولا سيما أن هناك من يقول بهذا القول؟

الدكتور جعفر: نعم... مثل هذه الأشياء الناس يعجبون بها، أن النص قيل في ظرف معين، وتاريخ معين، فلا يمكن أن تعممه.

سؤال: الحق والصواب في هذه القضية، ما هو؟

هذه ليست حقيقة إطلاقاً ولا حتى في الأمور الدنيوية، يمكن واحد في ظروف معينة ظروف جغرافية ومناخية تاريخية ثقافية يقول كلاماً حقاً، بغض النظر عن الظرف الذي قاله فيه؛ ولأنه إذا صارت الحقائق نسبية ما يكون فيه علم لا في الدين ولا في الدنيا، أنا أقول الأرض كرة، قلتها في قبل مائة عام، هل يعني أنها الآن يجب أن تكون مكعبة وألا يكون الكلام فيه خطأ.

سؤال: لكن ما الخطورة في هذا؟

الدكتور جعفر: قلت لك أنه ما يكون فيه علم أصلاً لا في الدين ولا في الدنيا، وأنه لا تكون فيه رسالة، وبالمناسبة هذا الكلام قاله الصادق المهدي على قناة الجزيرة، والصادق في رأيي مفكر أكثر من الترابي، ولكن ليس في الفكر الإسلامي... قال: إن ربنا مُبْحَثَةٌ وَتَعَالَى الذي أوحى هذا القرآن كان يعلم أن الظروف ستتغير، فلا يمكن أن يكون قصد أن المعاني تظل كما هي رغم تغير الظروف، ولذلك نحن محتاجون إلى أن نحرك هذه النصوص من داخلها!!! أنا قلت للجماعة: هو عمل مقدمة وانتهى إلى عكسها، مادام أن الله هو الذي أنزل الكتاب، ويعلم أن الدنيا ستتغير، وما قال لنا غيروا المعنى معناه أن هذا المعنى ما يتغير، أو إذا كان يتغير كان يقول لنا أنه سيأتيكم في آخر الزمان واحد اسمه صادق المهدي يعطيكم معاني جديدة اسمعوها منه، وإلا يتركنا كل واحد فينا يعطي النصوص المعنى الذي يريد؟

سؤال: البعض يقول نحن نقول نقدر نصوص الكتاب والسنة، لكن فهم العلماء لها مرتبط بظروفهم التاريخية والاجتماعية والسياسية؟.

الدكتور جعفر: أيضاً هذا يرجع إلى مسألة النسبية، وهذا ليس خاصاً بالدين، لذلك كل ما قيل عن الفلسفة اليونانية، أفلاطون قال وأرسطو قال واليونان قالوا كذا نرفضه؛ لأن الظروف تختلف، وكلما قيل حتى لو واحد قال كلاماً بالأمس والناس فهموه، أقول لهم هذا الكلام قيل أمس، قبل ٢٤ ساعة، والظروف الآن تغيرت، ثم في كثير من الأحيان الناس يظنون أو يفترضون أن

الظروف ما تغيرت من زمن النبي إلا في القرن العشرين... لماذا؟؟ لم لم تتغير من خمسين سنة بعد موت النبي ﷺ؟ وبعد مائة سنة؟ وبالمناسبة هذا الكلام قاله ملحدون مصريون، النص مقدس لكن الفهم متغير، حتى فيه جماعة من الأمريكان قالوا مثل هذا، قلت لهم لا بأس، طبقوا هذا على القوانين، أنا أقف أمام القاضي، ويقول لي حكمنا عليك بكذا وكذا، أقول له والله هذا بحسب فهمك، أنا فهمي للقانون إنني بريء، فلم تحاكمني بفهمك؟ ولو كان الأمر كذلك ما يكون فيه قانون، ولا محاكم؛ لأن أصلاً اللغة القصد منها التفاهم بين الناس، فإذا صار كل واحد يفهم اللغة فهماً مختلفاً عن الثاني، فقدت اللغة وظيفتها.

سؤال: ما رأيك بما يثار من الفقه الصحراوي والفقه البهدي؟

الدكتور جعفر: نفس الكلام؛ لأن هذا الذي قال الفقه الصحراوي، إذا كان الناس الآن بدو كان في زمن النبي ﷺ أكثر بدواة، أليس كذلك؟ وإذا كانوا في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدو، فإذا في زمن النبي ﷺ أكثر بدواة كذلك، فإذا رفضت هذا الكلام؛ لأنه جاء من البدو يلزمك أن ترفض الأحاديث النبوية أيضاً، ثم كل هذا له علاقة بمسألة النسبية هذه، يعني من الأشياء التي ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تفضل بها على الناس أن الإنسان يمكن أن يعرف الحق بغض النظر عن الظروف التي هو فيها؛ لأن هذا الحق ربنا بناه على شيء لا يتغير ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فما دام هذه الفطرة موجودة فالإنسان عنده مقدرة أنه يرى الحق حقاً بغض

النظر عن الظروف التي يعيش فيها، وهذا عندنا عليه أدلة من الواقع، ناس يقرءون القرآن في أفريقيا ويؤمنون، أناس يقرءون القرآن في أستراليا ويؤمنون، وهكذا، ويسمعه العامي الذي لا يقرأ ولا يكتب فيؤمن كذلك... أنا أعرف واحد شاب أسلم، قال بأنه أسلم بسبب ترجمة لسورة الفاتحة، والكتاب الذي اعتمد عليه ترجمه واحد غير مسلم، كان يتكلم عن الأديان، ويأتي من كل دين ببعض النصوص، فهو قرأ الأديان هذي، لما جاء إلى الإسلام ترجم سورة الفاتحة، يقول هذا الشاب: أنا في العادة أتأثر فكريًا بالكلام، أما هذا الكلام أثر في قلبي، وما أحد دعاه، قرر أن يسلم، ثم سأل عن الإسلام.

سؤال: ما يتعلق بنصوص مثل بعض أحكام أهل الذمة، مثل ما ورد من اضطرارهم إلى أضيق الطريق، وما شابهه، كيف يمكن فهم هذا النص في ظل واقعنا اليوم؟

الدكتور جعفر: كل نص له شروط في تطبيقه، الدين ما قال إذا ما فيه شارع مثل هذا الشارع تضطروه، أو إذا كنت أنت في بلدهم، واحد قال إذا كنت في (أو كسفورد استريت) كيف اضطره؟ قلت يا أخي: تضطره وهو في بلده؟!! هو يضطرك؟ ثم كيف تضطره إلى أضيق الطريق أو أقصى الطريق؟ قال: أسد على سيارته. قلت: تأتي الشرطة ويجروا سيارتك ويغرموك.

سؤال: ما معنى اضطروهم؟ البعض يظن أن ذلك يعني إيذاءهم، مع أنها وردت نصوص تدعو إلى منع إيذائهم؟

الدكتور جعفر: لا، يعني أن تمشي أنت وتتركه، ثم الآن نحن الذين هم

يضطروننا حتى خارج الطريق.

سؤال: لو خرجنا يا شيخ إلى قضية دارفور، الجانب السياسي فيها،
والحملة الغربية...

أولاً: ما تقويمك لقضية دارفور كقضية سياسية داخلية؟

الدكتور جعفر: أنا أقول لك بعض الحقائق، المشكلة أصلاً بين الذين
يسمون بالعرب والذين يسمون بالأفارقة، المشكلة تاريخياً دائماً أن العرب
رحل، أصحاب جمال ومراعي والأفارقة مزارعون، فأحياناً يحصل شح في
الأمطار، والعرب لا يجدون مراعي فيهجمون على مزارع الأفارقة، وتكون
مناوشات، ويقتل عدد من الناس، حتى عندما جاء الإنجليز كان هذا موجوداً،
ثم استغل هذا سياسياً، من الذي زود الأفارقة أو العرب بالسلاح؟ الحكومة
متهمه بأنها زودت العرب بالسلاح، في مقابل السلاح الذي أعطي للأفارقة،
وأعطتهم إياه دول من الخارج، وكلهم مسلمون، وما هناك فرق كبير في الألوان؛
لأنهم امتزجوا ببعضهم، وتزوجوا من بعض، حتى حكومة السودان لما جاء
باول ضحكوا عليه، قال أريد زعيم من العرب، وزعيم من الأفارقة، فأتوا له
بزعيم من العرب أسود من الزعيم الأفريقي، فجلسوا، حتى هو قال فيما بعد:
يبدو إنني الرجل الوحيد الأبيض فيكم! والأفارقة هؤلاء كانوا متدينين أكثر من
العرب، فالعرب هم في الواقع أعراب، بينما الأفارقة فيهم من يحفظ القرآن..
من الأشياء التي قالها الرئيس -وهو كلام كان مؤثر ومحزن- قال: نحن
الحكومة الوحيدة التي اهتمت بمنطقة دارفور، عندما جئت إلى الحكومة،

كانت فيه مدرستان، والآن فيه مئتا مدرسة. لم يكن فيها مطارات، الآن فيها ثلاث مطارات، ما كان فيها جامعات الآن فيها أكثر من جامعة، وما بدأت المشكلة إلا بعد أن بدأنا نهتم بها.

التفسير الذي يقال: هو أن الغرب يعرف أن السودان هذا بلد كبير، فيه الآن بترول، وفيه كذلك إمكانات زراعية هائلة، وبالتالي لا يمكن أن يترك هذا البلد للمسلمين.

سؤال: البعض يذهب إلى أبعد من هذا، وهو أن أمريكا تريد أن يكون لها وجود عسكري في أفريقيا.

الدكتور جعفر: الآن أنا قرأت أن لديها قواعد في أثيوبيا والصومال؛ لأن أمريكا صار همها الأكبر الآن أنه فيه شح في البترول، وأن الشح يزداد مع الأيام، فأمریکا عندها سعر الآن لتحافظ على أي قطرة بترول في العالم وأن تسيطر عليها وتضمن وصولها إليها، تريد أن تضمن آبار البترول، وتضمن تصديره إليها.

سؤال: وتضمن أن يكون بأسعار مناسبة لها؟

الأسعار ليست مهمة الآن، المهم أن البترول بالنسبة لها أصبح حياة أو موت، والسودان صار فيه بترول الآن، وفيه غاز طبيعي في شرق السودان، فلا بُدَّ أن تسيطر عليه، أنا لا أريد أن أدافع عن الحكومة، أنه ما فيه أخطاء، أو أنها سلحت الجنجويد هؤلاء، لكن لو كنت أنا في الأفارقة، وبعضهم أيضًا: بالمناسبة الجماعات المسلحة لا تمثل كل الأفارقة، بل هي جماعات أقلية،

لكن صارت قوية لأنه لديها سلاح، وإلا الناس هؤلاء يعرفون أنهم لا يمكنهم أن يعتمدوا على إنسان كافر، وأن علاقتهم بإخوانهم في الشمال علاقة دين، ثم إن الأمور تسير نحو الاختلاط، يعني الآن الخرطوم أكثر أفريقية بكثير جداً مما كانت عندما كنت في الجامعة، كثير من إخواننا الذين يسمون بالأفارقة في جنوب السودان وفي غرب السودان يملؤون الخرطوم الآن، في الماضي كانت الخرطوم فعلاً للقبائل العربية، لكن هذا كله الآن تغير، والتزاوج في تزايد، ففكرة أن هناك منطقة معزولة أو قبيلة، كل هذا ما له مستقبل، مجرد فتنة.

﴿حوار مع مجلة الأمل التي تصدرها رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا﴾

وأجرى الحوار الدكتور أحمد سيف الدين تركستاني عام ١٩٨٦م

سؤال: لو حصلنا على تعريف بالشيخ...

الدكتور جعفر: أنا من السودان من مواليد ١٩٣١م درست بالسودان بجامعة الخرطوم ودرست في بريطانيا، عملت في الحركة الإسلامية اشتركت في النشاط السياسي مع طلبة الجامعة، ثم لخلاف مع حكومة نميري تركت السودان واستقر بي المقام في مدينة الرياض في جامعة الرياض كانت تُسمى آنذاك في قسم الثقافة الإسلامية، ثم انتقلت الآن إلى كلية الدعوة والإعلام في جامعة الإمام محمد بن سعود.

سؤال: أنت درست في الغرب ورأيت التجربة الغربية في الجانب الأكاديمي وكثير من شبابنا المسلم اليوم يعيش هذه التجربة يعيش في الغرب، في رأيك ماهي النظرة التي يمكن أن تنظر بها إلى العلوم في الغرب، وكيف يمكن أن نسخر هذه المعرفة التي نتلقاها في بلاد الغرب إلى توظيفها في النهضة الإسلامية في بلاد المسلمين؟

الدكتور جعفر: أقول وبالله العون إنني لم أدرس في بلاد الغرب فقط، بل إنني حتى في السودان درست على أيدي غربيين منذ أن كنت بالمرحلة الثانوية أساتذتنا في العلوم الطبيعية وفي التاريخ والجغرافيا وفي كل العلوم كان معظمهم من الإنجليز، وكذا في جامعة الخرطوم درسنا الجغرافيا والاقتصاد والفلسفة

على أيدي غربيين فالذي أقوله نصيحتي لإخواننا وأقولها عن تجربة، ثم عن بعض معرفة سبب تخصصي بالفلسفة لا سيما ما يسمى فلسفة العلوم أنصحهم بأن ينظروا إلى هذه العلوم نظرة نقدية، مع الأسف الذي يحدث الآن في العالم الإسلامي سواء في المدارس أو الجامعات أن الأمر يعني انقلب فصار الطلاب ينظرون إلى العلوم الإسلامية نظرة نقدية، فلا يسلمون بما يقوله أستاذ العلوم الدينية في المدارس.

وكثيراً ما يشكو الأساتذة من كثرة أسئلة الطلبة وكثرة اعتراضاتهم، وأما إذا دخل عليهم أستاذ الجغرافيا أو التاريخ أو الطبيعة الفيزياء وكذا فكل ما ما يقوله لهم يسلموا به، بل حتى أساتذة ما يسمى العلوم الاجتماعية ونفس هذا الاتجاه في الجامعات أصبح اتجاهًا تلقينيًا، يأتي الأستاذ ويقول لهم إن علم النفس الحديث أصبح كذا وإن الفيزياء يقول كذا.

وأضرب لكم مثلاً كنت أدرس في قسم الثقافة الإسلامية مادة لها علاقة بهذا الموضوع، فكنت أقول للطلاب بأن القول أن المادة لا تستحدث ولا تفتنى هذا قول مخالف للدين، ثم إنه ليس قولاً علمياً فكنت أجدهم معارضة شديدة مع أن الواقع الذي يقوله العلماء في الغرب أنفسهم أن هذا ليس جزءاً من الفيزياء، يعني ليس شيئاً عرف بالتجربة ولا بالمشاهدة ولا هناك دليل عليه رياضي ولا شيء من هذا، لكنه من الفروض التي يفترضه العلماء وكثير من العلماء أنتقد هذا.

وقال الأحسن أن نقول إن كمية المادة ثابتة ولا ندخل في مسألة فلسفية،

هل هي تحدث أو تفنى لكن كان كثير من الطلاب يعترضون على هذا ويظنون أن هذا الكلام معناه رفض الفيزياء، فالناس أصبحوا يخشون جداً من نقد أي جانب من العلوم الطبيعية أو حتى الاجتماعية خوفاً من أن يقال إن هذا يعني إضعاف لموقف المسلمين من العلوم هذه، فرجائي أن ينظر طلابنا سيما أقول للمتدينين منهم أن ينظروا إلى هذه العلوم نظرة نقدية، وهذا سيفيدهم حتى في معرفة هذه العلوم وفي أن يكونوا أصلاء فيها؛ لأنهم إذا نظروا الآن إلى الغربيين سيجدون أن كثيراً من النظريات التي يقول بها بعض الناس في فترة من الفترات يأتي وينتقدها آخرون، فلولا أن هؤلاء كانوا ينظرون نظره نقدية إلى ما يقوله أصحابهم لما أتوا بشيء أصيل.

فنحن ما دام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَعْطَانَا معرفة ليست عندهم، ويمكن أن ننظر إلى هذه الأشياء من زاوية لم يعطوا هم الفرصة لأن ينظروا من خلالها، فلتنظر إلى هذه العلوم مهما كنا ننظر إليها من عدة نواحي مثلاً إلى أي مدى هذا الكلام فعلاً مطابق للواقع، وإلى أي مدى هذا الكلام متناسق في نفسه وليس متناقضاً، وإلى أي مدى هذا الكلام متفق مع ما يقوله الشرع الإسلامي، وهذا في نظري يعني هذا تدريب رياضي لعقل الإنسان ولا يأتي إن شاء الله إلا بخير، فملخص النصيحة أن لا تكونوا متلقين فقط.

ويعجبني في هذا المجال أن أذكر كلاماً، قاله الشهيد -إن شاء الله- إسماعيل الفاروقي سمعته يقول في بعض الاجتماعات التي حضرها أنه يريد للطلاب المسلمين أن لا يكتفوا في علم من العلوم بأن يكونوا مثل أساتذتهم؛ بل

يريدهم أن يكون أحسن منهم في ذلك العلم، يعني أن تعرف ما عرف فلا يتهمك بالجهل، ثم أن تمضي أكثر من هذا فتتظر إلى هذا الذي عرفته من نظره إسلامية وتتقده، وتأتي بما يفتح الله سبحانه وتعالى عليك من رأي وفكر.

سؤال: هناك مشكلة أظنها تواجه كثيرًا من الشباب المسلم وهي أنه يريد التفوق العلمي، يريد أن ينصرف إلى هذا الجانب ويبرز فيه ولكنه في الوقت نفسه منشغل بالعمل الإسلامي، فكيف تظنه حقًا يمكن أن يوفق بين العمل الإسلامي من جهة والذي يطلب منه وقتًا كثيرًا لقضائه مع الشباب وقضائه بالأنشطة الإسلامية في المسجد إلى آخره، وبين أن يبرز علميًا حيث يكون ملتصقًا بمادته وأستاذه ومدرسته؟

الدكتور جعفر: هذا موضوع مهم والذي أراه أنه لا بُدَّ أولاً من ناحية القاعدة العامة أنه ينبغي لكل طالب أن يحاول التوفيق بين هذين الأمرين فلا يتطرف في ناحية على حساب الناحية الأخرى، يعني هذه قاعدة عامة وهذه كانت تجربة كثيرًا من إخوانهم الذين سبقوهم في الدراسة والذين مكنهم الله سبحانه وتعالى أن يكون في قيادة الحركة الإسلامية، فلولا أنهم نالوا نصيبًا جيدًا من هذه العلوم ومن تخصصاتهم وبرزوا فيها لما كانت لهم هذه المكانة التي هي لهم الآن سواء كانت مكانة في الحركة الإسلامية، أو مكانة في بلادهم تمكنهم من المساعدة في أسامة المؤسسات، هذه القاعدة العامة، لكن الذي أراه أعرف أن بعض القادة الدعاة يخالفوني هذا الذي أراه أن الحركة الإسلامية بحاجة إلى علماء أكثر من حاجتها إلى أناس يتحركون من هنا إلى هناك ويتكلمون كلامًا عامًا.

وعندما أقول: علماء أعني أناس نالوا نصيبًا جيدًا من العلوم الشرعية مع توسعهم في تخصصاتهم، ولا أعني بهذا أن يكونوا من خريجي الكليات الإسلامية؛ بل أرى أن من واجب كل شاب أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المقدرة على الدرس والتحصيل أن يعتبر أن من واجبه أن يلم إلمامًا جيدًا عامًا بالعلوم الإسلامية من تفسير وحديث وكذا، وأن يركز على ما يتصل بعلمه من هذه العلوم، لأننا الآن في العالم الإسلامي نواجه مشكلات كثيرة تحتاج إلى اجتهاد وتحتاج إلى حلول، فتحتاج إلى عقول كبيرة فلا يمكن كما تعرفون من شروط الاجتهاد أن يعرف الإنسان طبيعة المشكلة لا يكفي العلم الشرعي؛ بل لا بُدَّ أن يعرف المشكلة وقد تعقدت الحياة بحيث أنه لم يعد من الممكن لعالم من العلماء مهما كان متبحرًا في العلوم الإسلامية أن يلم بكل جوانب الحياة الآن من اقتصادية وقانونية فتعقدت جدًّا، فلا بُدَّ من تخصص فالذي أراه أن أننا محتاجون إلى ما يسمى بالاجتهاد الجزئي، هذا كان يقول به العلماء ومعظم الاجتهاد كان به هكذا يعني أن يختص الإنسان بمسألة من المسائل، ويعرف كل ما يتصل بها من الآيات والأحاديث ويقرأ ما قاله العلماء في هذا الموضوع، ثُمَّ يكون هو أهلاً لأن يجتهد في هذا الجانب الذي تخصص فيه، وعلماءنا يقولون العلم إمام العمل فلا يمكن العمل الإسلامي أن يكون عمل على هدى، ولا يمكن لأسامة العالم الإسلامي أن تسير على هدى إلا بأن تكون لنا عقول كبيرة وعلماء، فأرجوا أن يعتقد الأخ الطالب أو الابن الطالب أن هذه التحصيل العلمي هو أيضًا عمل إسلامي، ولا يكون مفهومه للعمل الإسلامي ضيقًا وهو أن يلقي محاضرة هنا أو حديثًا عامًا هنا أو أن يحضر جلسة هنا أو هنالك، فمن أعطاه الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْمَقْدَرَةُ عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهَا نَصِيحًا أَكْبَرَ مِنَ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِ، وَمَنْ كَانَ لَا يَمِيلُ إِلَى الدِّرَاسَةِ الْأَكَادِمِيَّةِ مِيلًا كَبِيرًا وَإِنَّمَا يُرِيدُ فَقَطْ إِلَّا تَكُونَ لَهُ الشَّهَادَةُ فَقَطْ، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ مَقْدَرَةً أَكْثَرَ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِالنَّاسِ وَالتَّأْثِيرِ فِيهِمْ فَلْيَرْكَزْ عَلَى هَذَا، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ لَا نَقُولَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا أَنْصَرَفُوا عَنِ الْعِلْمِ أَوْ نَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا نَوْعًا مِنَ التَّقْصِيرِ مِنْ جَانِبِهِ هُوَ، هَذِهِ مَسْأَلَةٌ أَنَا أَرَى خُصُوصًا عِنْدَنَا فِي السُّودَانِ بِجَامِعَةِ الْخَرْطومِ وَسَاءَ فِي فِعْلًا أَنْ أَجِدَ مِنَ الشَّبَابِ لَا يَكَادُونَ يَحْضُرُونَ مُحَاضِرَاتٍ، حَتَّى بَعْضُهُمْ لَا يَعْرِفُ مَنْ أَسَاتِذَةُ الْقِسْمِ، فَقُلْتُ لَهُمْ نَحْنُ مَا كُنَّا كَذَلِكَ وَأَنْتُمْ إِذَا تَخَرَّجْتُمْ وَصَرْتُمْ وَكَبِرْتُمْ سَتَلُومُونَنَا، سَتَلَا حُظُونَ أَثَرِ هَذَا، سَتَلُومُونَنَا سَتَقُولُونَ نَحْنُ شَغَلْنَاكُمْ بِهَذِهِ الْمَسَائِلِ عَنِ الْعِلْمِ وَهَذِهِ حَالُكُمْ الْآنَ لَا تَسِرْ، لَا نُرِيدُ هَذَا نُرِيدُ لَهُمْ مَا أَرَدْنَا لَأَنْفُسِنَا.

سؤال: قبل أن نبحث مسألة الإعلامية التطبيقية أو النظرية التي لمحننا إليها في السؤال السابق، أود أن تؤكد على هذه الناحية؛ لأنها تهمنا كطلاب مسلمين في هذه البلد، يهمننا معرفتها معرفة جيدة أقول هل العلوم التطبيقية أو الطبيعية التي تُدرّس اليوم في الغرب وفي مناهج التعليم علوم محايدة أي ليس ورائها مُسلمات أو فرضيات فلسفية أو فكرية معينة؟

الدكتور جعفر: هي ليست محايدة وهذا الكلام يعني كلامًا أصبح من المسلمات عند المشتغلين بما يُسمى بفلسفة العلوم؛ بل هناك كتب في هذا والآن كنت أقرأ في كتاب يقول إن العالم يمكن أن ينتقد مسلماته الميتافيزيقية، لكنه لا يمكن أن يتخلى عن كل المُسلمات الميتافيزيقية، فكل هذه العلوم تقوم على مُسلمات ميتافيزيقية يعني ما وراء الطبيعة، يعني أشياء لا علاقة لها مباشرة،

يعني أشياء لا يستطيع أن يقيم الدليل عليها من خلال علمه؛ بل يبنى عليها العلم، مثلاً كالمسألة التي كنت أقولها: «أن المادة لا تستحدث ولا تفتنى» هذه مسألة ما وصل إليها العالم الطبيعي بالمنهج التجريبي؛ لأنه لا يمكن لكن هي فرض يقوم عليه العلم وهم يتحدثون عن فروض كثيرة أخرى، لكن أنا في رأيي أن من الفروض التي يقوم عليها الآن كل العلوم سواء كان من العلوم الطبيعية أو غير الطبيعية، هي أن هذا العالم مكتفي بنفسه معنى ذلك أنك إذا أردت أن تبحث عن علة لأي شيء في هذا العالم فابحث عن هذه العلة من داخل هذا العالم كل كلام عن علة أو سبب أو فاعل خارج هذا العالم يعتبر شيء غير علمي، فإذا أصبح الإلحاد جزءاً من مفهوم العلم هذا الكلام لا يقال لطالب الفيزياء أو الأحياء، ولا يقال في مقدمة الكتاب؛ بل قد لا يشعر فيه الأستاذ نفسه وهذا مما يقوله علماء فلاسفة العلوم يقولون ذلك.

وآينشتاين له عبارة يحبها فلاسفة العلوم قال: «لا تسأل العالم الطبيعي عن منهجه ولكن أنظر ماذا يفعل» لأنه كثيراً ما يكون تصويره للمنهج غير مطابق لواقع المنهج الذي يسير عليه، فمن باب أولى أيضاً وهنالك رجل اسمه (كون) كتب كتاباً عن الأطر، وملخص هذا الرأي أنه في كل عصر من العصور تكون هنالك مُسلمات يأتي بها أولاً بعض القادة الرواد، ثم تكون إلى كثير من العلماء الآخرين من المُسلمات، ويشتغلون كل عملهم يكون مبنياً عليها، ثم بعد قليل تحدث ثورة أخرى فيتغير المُسلم الأولى ويأتي الآخر أصبح هذا شيء مُسلماً به عندهم، فالذي نستطيعه نحن كما كان يقول أحد فلاسفة العلوم يقول: إن مهمة فيلسوف العلوم هي كمهمة عالم النفس، وهي أن يكتشف ما في اللا شعور؛ لأن

المريض النفسي حسب النظرية يكون سبب مرضه شيء ليس في شعوره الواعي، ولكن في اللاشعور وكذلك يقول إن العالم الطبيعي هنالك أشياء لا يشعر بها، فمهمة الفيلسوف يبحث عن هذه الأشياء وينقب عنها ويكون علمه مبنى على هذا، فإذا غيرت هذا يحصل كذا في العلم، إذا كانت هذه مهمة فلاسفة العلوم في الغرب فمهمتنا نحن أيضًا أقول بأننا ننظر من زاوية لا تنهياً لهم فنستطيع أن نكتشف من هذه المُسلمات ما لا يكتشف فيلسوف العلوم الغربي، وأظن أن أي طالب إذا فكر في علومه بهذه الطريقة ولم يحصر نفسه فقط في الجزئيات التي تلقى عليه في المحاضرات أو في الكتب المدرسية، وإنما فكر في علمه بهذه الطريقة.

أنا لا أقول فقط أن هذه العلوم ستقرب من الإسلام ولكن سيكون هو رجل أصيلاً في علمه وسيأتي - إن شاء الله - بنظريات وكذا يحترمها الغربيون، فأنا لا أريد للطلاب ولا أريد للعالم الإسلامي أن تظل حياتنا كلها تلاميذ للغربيين، لكن الآن الغربيون تجد الفرنسي يستفيد من الإنجليزي، والإنجليزي يستفيد من الأمريكي، وكلهم يحترم بعض؛ لأن كل واحد منهم له نظريات وله نقد وله اكتشافات هذا الذي نريده لإخواننا المختصين بهذه العلوم سواء كانت طبيعية أو اجتماعية.

سؤال: لعلنا نحن نقرب من نهاية هذا اللقاء نود أن نتحدث عن قضية نظنها في أهمية لدى الشباب المسلم، وهو أنه توجد الاختلافات دائماً بين الشباب المسلم بحسب نشأته وإتيانهم من بلاد مختلفة خصوصاً في بلاد الغرب وتكون هذه الخلافات أحياناً سيّياً في وجود الاختلاف بينهم، إلى أي حد يمكن أن يقبل

الاختلاف بين الشباب المسلم، مثلاً أولئك الذي لا يرون بأساً في الصوفية، أولئك الذي لا يرون بأساً بالاحتفال بالمولد النبوي بطريقة أو بأخرى، أولئك الذي يتعاملون مثلاً مع المرأة بطريقة فيها كثيراً من التسامح أو سمة التحرر أكثر من غيرهم وغير ذلك من أوجه الاختلاف، إلى أي حد يمكن أن يقبل هذا في سبيل تجميع كلمة المسلمين والشباب المسلم وأن يتألف فيما بينهم دون أن يضحى بشيء من مبادئ الإسلام؟

الدكتور جعفر: القاعدة هي إنما المؤمنون إخوة هذه الرابطة الأخوية وهي في الأصل رابطة في القلب لا بُدَّ أن يتج عنها تعاون بين المسلمين؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وهذا التعاون يقتضي أن يكون المسلمون حيث ما كانوا في جماعة منظمة.

ولذلك قال الرسول ﷺ: «ألزم جماعة المسلمين وإمامهم» فهذه هي القاعدة أن المسلمين ينبغي أن يجتمعوا وأن تكون العلاقة بينهم علاقة أخوية، وأن يتعاونوا على البر والتقوى فسواء كنتم في الولايات المتحدة أو في كندا أو كذا أنا أرى أن كل من يقول لا إله إلا الله ينبغي أن يتعاون مع الذي يقول هذه الكلمة، والوضع الأمثل كان هو أن يكون لكل المسلمين في هذا البلد أو في غيره من البلاد قيادة واحدة، لكن هذا لم يحدث، إذا كانت هنالك جماعات مثلاً من الطلاب في جامعة واحدة وهنالك أشياء كثيرة يمكن أن يتعاونوا فيها فلا بُدَّ لهم من أن ينظموا أنفسهم، وأن تكون لهم قيادة واحدة وأن يتعاونوا في الأشياء التي يتفقون عليها، ولا أقول يعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه؛ لأن ما اختلفوا فيه قد يمكن مما لا يعذر الإنسان الآخر فيه لا أعذر إنساناً، في مسألة من مسائل

العقيدة أرى أنها تخرجه عن الملة لكن إذا كان جاهلاً نبصره ونكلمه وكذا، لكن لا أمره بالخروج من هذه الجماعة إذا كنت أنا في مركز القيادة لا أسمح له بأن يفعل أشياء في المسجد، أو في أماكن بعض الاجتماعات أرى أنها بدعة مخالفة للدين إذا كنت أنا أستطيع أن أفعل هذا إذا لم أستطع وكنت أنا في الأقلية فلا أخرج عن هذه الجماعة بسبب ما يرتكبون من بدع؛ لأن بقائي معهم وهم يرتكبون هذه البدع خير من أن أعيش فرداً في مجتمع كافر، يعني بعد ما أخرج من جماعة المسلمين مهما كانت منحرفة وذهبت إلى جماعة الكفار فلا أفعل هذا.

وأكرر إن كنت أنا في موضع الأغلبية والقوة فلا أسمح بأشياء أراها مخالفة للشرع، وإن كنت في موضع الضعف أتعاون معهم فيما أرى أنه الخير ولا أقرهم على ما أرى أنه باطل، وهذه المشكلة واجهتها في كثير من بلاد العالم الإسلامي كثيراً وفي بعض الأماكن لا أرى لها من حل؛ لأن الذين يختلفون هم من عوام المسلمين الشخص الذي لا يفرق بين القرآن والحديث وبين مذهبه أو ما كان الناس عليه في بلده، فهؤلاء يعني تكاد تكون ميؤوس منهم؛ بل في بعض الأماكن اختلفوا حتى صار لكل جماعة منهم مسجد، فالذي يأتي من تركيا يريد أن يُصلي بطريقة معينة لا يفرق فيها بين الواجب والمندوب، ولا حتى في مذهبه فالذي لا يضع غطاء على رأسه كأن صلاته في رأيه باطلة، مع أن هذا شيء لا يوجد له لا في الكتاب ولا في السنة ولا في أي شيء، يعني غاية ما يقوله مذهبه أن هذا مندوب، لكن بسبب الثقافة التي عاش فيها يصبح هذا من أركان الدين، لكن أرجو أن لا يكون هذا هو حال الطلاب الذين أعطاهم الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَقْدَرَةُ عَلَى أَنْ يَحْلُوا هَذِهِ الْمَشْكَلاتِ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي قَالَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا قَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْتَلَفُوا وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَنَازَعُوا، وَأَنَّهُ إِذَا تَنَازَعُوا هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿فَإِنْ لَنُزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الاسراء: ٣٥].

فادعوا إخوانكم إلى هذا وقول لهم يا إخوان نحن ملتزمون بدين واحد وهذا الدين مصادره هذه هي الكتاب والسنة، فإن تنازعنا فليكن محاولتنا لحل النزاع محاولة علمية وإسلامية بحسب ما وجهنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن شاء الله يكون هذا نفسه يكون نوعاً من التثقيف والتعليم لإخواننا لأنني أرى أنه خصوصاً بالنسبة للطلاب أن كثيراً منهم يستفيد، يعني يكون جاء من مكان أصبحت بعض العقائد الفاسدة من المُسَلِّمات عندهم ولا ينكرها عالماً، ولا يعرف أنها منكر فإذا جاء هنا واتصل ببعض إخوانه كان من حظهم أنهم عاشوا في بلد ينكر هذا فيستفيد منهم.

سؤال: هل من كلمة أخيرة للشباب المسلم في الغرب عدا ما تعرضنا إليه؟

الدكتور جعفر: أنصحهم بما نصح الله للناس قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، والرسول ﷺ يقول: «اتق الله حيث ما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»، وأنا كتبت مرة أن هذا الحديث ينبغي أن يكون دستوراً لإخواننا خصوصاً في الغرب، اتق الله حيثما كنت فالتقوى ليست مرتبطة بمكة والمدينة والقاهرة وإنما تقوى الله حيثما

كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها؛ لأن الإنسان يتعرض هنا ربما لانحرافات ويقع في بعض المحظورات فليتذكر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ هَذَا، أَتَبِعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَلَا يَأْتِيكَ الشَّيْطَانُ فَيَغْرِيكَ أَوْ لَا بِالْوَقْعِ، فَإِذَا وَقَعْتَ يَجْبِسُكَ مِنَ النَّهْوِ فَأَنْتَ تَقَاوِمُهُ فَلَا تَقَعُ وَإِذَا وَقَعْتَ تَخَالِفُهُ فَتَنْهَضُ، وَخَالِقُ النَّاسِ بِخَلْقِ حَسَنٍ مَا قَالَ خَالِقُ الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ، وَإِنَّمَا خَالِقُ النَّاسِ بِخُلُقِ حَسَنٍ.

فَأَرْجُو أَيْضًا أَنْ تَخَالِقُوا كُلَّ النَّاسِ بِخُلُقِ حَسَنٍ، وَأَنْ يَكُونَ خُلُقُكُمْ هَذَا وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الْخَيْرِ، وَأَنْ يَكُونَ بَقَاؤُكُمْ هُنَا اسْتِعْدَادًا إِذَا كُنْتُمْ قَدْ أُتِيتُمْ مِنْ بِلَادِ إِسْلَامِيَّةٍ أَنْ يَكُونَ اسْتِعْدَادًا وَإِعْدَادًا لِلْقُوَّةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَعِينُكُمْ عَلَى الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ فِي بِلَادِكُمْ، وَأَنْ يَكُونَ هَمُّ الْإِنْسَانِ هُوَ فَعَلًا إِعْلَاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا إِرْضَاءَ الْجَمَاهِيرِ وَلَا إِرْضَاءَ الْحُكَّامِ، يَعْنِي بَعْضُ النَّاسِ لَا يَرِيدُ أَنْ يَرْضَى الْحُكَّامَ لَكِنْ يَرْضَى الْجَمَاهِيرَ وَبَعْضُ النَّاسِ يَسْقُطُ الْجَمَاهِيرُ وَيَرْضَى الْحُكَّامَ، فَتَحْنُ نَرِيدُ الْإِنْسَانَ يَرُدُّ إِرْضَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَوْ كَانَ هَذَا بِسَخَطِ الْجَمَاهِيرِ أَوْ سَخَطِ الْحُكَّامِ.

كما كانت هناك حوارات أخرى نشير إلى عناوينها:

١- حوار مع مجلة البيان حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣هـ - الموافق سبتمبر ١٩٩٢م، والعدد (٥٦)، ربيع الآخر ١٤١٣هـ - الموافق أكتوبر ١٩٩٢م.

٢- حوار مع مجلة الإمامة العدد (١٣٧٩)، ٨ جمادى الآخرة ١٤١٦هـ - الموافق ١ نوفمبر ١٩٩٥م.

٣- حوار مع مجلة العصر الإلكترونية بعنوان هذه تجربتي وهذه شهادتي
عام ١٤٢١هـ.

٤- حوار مع مجلة الدعوة العدد (١٨٤٠) في ١٩ صفر ١٤٢٣هـ -
الموافق ٢٠٠٢م عن الإرهاب... لن يفهم إلا بنصوص الكتاب والسنة.

٥- حوار مع مجلة البيان العدد (١٩٧)، محرم ١٤٢٥هـ - عن الخوف
من الإسلام وأثر في توجه السياسة الأمريكية

٦- حوار مراجعات مع الأستاذ الطاهر حسن التوم في ١٨ / ٣ / ٢٠١٠م.

٧- حوارات مركز نما للبحوث والدراسات وقد طبعت في كتاب
(حوارات ما بعد الثورة) عام ١٤٣٣هـ - الموافق ٢٠١٢م ضمن حوارات أخرى
عن الثورات العربية.

حوار حول صراع الحضارات مع مجلة الفيصل السعودية العدد (٢٥٧).

﴿فوائد مقالات الدعوة﴾

فائدة: العبودية هي جوهر الإنسانية:

فطر الله تعالى الناس على العبودية له، وجعل هذه العبودية جوهر إنسانيتهم، فكلما ارتقى الإنسان في درجاتها كان أكثر اقتراباً من جوهره الذي فطره الله عليه، وكلما بعد عنها وتردى في حماة الشرك كان كالأنعام؛ بل أضلّ سبيلاً.

وبما أن العبودية هي جوهر الإنسانية فإنها المحور الذي يدور حوله والمعين الذي يستقى منه كل ما فطر الله تعالى الإنسان عليه من فضائل خلقية وأحاسيس جمالية وقوى عقلية، فكلما كان الإنسان أكثر تحقيقاً للعبودية كان أحسن خلقاً وأرقى ذوقاً وأجود عقلاً، فإذا رأيت ذا دين هابطاً في ذوق أو ضعيفاً في عقل فاعلم أن مرد ذلك إلى خلل في دينه، وخلل في تصوره له والتزامه به، وإذا أعجبك من غير ذي دين شيئاً من رفعة في ذوق أو جودة في عقل فاعلم أنه مازال محتفظاً بشيء من فطرته، فلا تقطعن الأمل في هدايته، ثم إن الدين الذي أنزله الله من السماء موافقاً لذلك الدين الفطري، يأتي بالهدى الذي يكمل الفطرة فيزيد الإيمان قوة والذوق رفعة والعقل جودة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

أرأيت إلى هذا الجمع البديع بين الهداية والعقلانية، بل أرأيت كيف حصرت الآية العقلانية في المهتدين؟ إن أولي الأبواب هم أولو العقول، فلا

يغرنك بعد ذلك وصف بعض الإسلاميين لبعض الضالين بالعقلانيين فحاشا العقل - وهو نصير الدين - أن يكون سبباً في ضلال الضالين بل الذين لا يعقلون هم الذين لا يهتدون، ﴿أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءُ وَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، إن الضلال هوى لا عقل فسيم هؤلاء بأهل الأهواء كما كان يسميهم سلفك الصالحون العالمون، الإيمان نور للعقل تزداد به قدرته على التمييز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وتزداد به قدرته على الاعتبار؛ بل تزداد به كفاؤه في رؤية الفروق الدقيقة بين المعاني، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَقُولُوا اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: ٢٩].

وإن كان الإيمان دعاية للذوق الرفيع والعقل السليم، فإن الكفر مفسد للذوق مضعف لقدرة العقل؛ بل لقدرات الحواس. ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ليس المقصود - بداهة - أنهم لا يدركون الأشكال والأصوات والألوان بلى إنهم ليدركون كل هذه الظواهر كما تدركها الحيوانات ويستفيدون منها - بعقولهم - فائدة عظيمة في حياتهم الدنيوية، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧]، لكن الغفلة التي يسببها الكفر تحجب عقولهم عن رؤية الدلالات العلوية لهذه الظواهر الأرضية، ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا فِيهَا مِطْرًا سَوِيًّا أَفْكَتُمْ بِعُكُوثِكُمْ بِرُؤْسِكُمْ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ فُتُوراً﴾ [الفرقان: ٤٠] أفلم يكونوا يرونها بل كانوا يرونها، يرونها الرؤية الحسية التي يراها المؤمنون لكنهم يقفون عند حدود هذه الرؤية فلا يتساءلون: لم حدث لهؤلاء الناس ما حدث، وإن هم تساءلوا

لا يهتدون إلى الجواب الصحيح؛ لأن كفرهم - لا يرجون نشورًا - حصرهم في دائرة ضيقة من الوجود، لا يتجاوزونها؛ بل يحاولون أن يفسروا كل شيء في حدودها وهيئات إن الكافر قد يكون من أذكى الأذكىاء، لكن مرض الكفر والنفاق يذهب ببركة الذكاء، فيكون صاحبه ذكيًا غير عاقل، يدل ذلك على عدم اعتبار الذين مروا على هذه القرية راجع إلى نقص في عقولهم قوله تعالى عن هذه القرية في سورة أخرى ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣٥] (١).

فائدة: كيف فصل للمجتمع الإنساني في التصور الإسلامي؟

منبع القيم وأساس التدين إنما هو الفطرة، فالإنسان مفطور، فطره الله على الاعتراف بحسن الشكر والصدق والأمانة والكرم، وقبح الجحود والكذب والخيانة والبعث.

لكن الفطرة وحدها لا تكفي لأنها قد تنحرف وقد تضعف، وقد تقوى عليها الإغراءات فلا بُدَّ من فكرة تؤيد هذه الفطرة وتكملها وتشد من أزرها، فإن اهتدى الإنسان إلى مثل هذه الفكرة قوي على الالتزام بتلك المبادئ الخلقية، وإلا فإن مقتضيات فكرته قد تتصادم مع دواعي فطرته، فيحدث الانفصام وتعتقد المشاكل النفسية والخارجية كما هو حادث في عالم اليوم، ثم يأتي دور

(١) الإسلام عقل وإيمان، جريدة المسلمون، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ١٥٩).

البيئة: التربية، والأوضاع الاقتصادية والنظم السياسية والعلاقات بين الجنسين،
والصلات الاجتماعية الخ، كل هذه إذا كانت متمشية مع الفطرة سهلت على
الإنسان أن يعيش إنساناً متوافق الشخصية، وإلا عاش في فتنة نتيجة التنازع بين
دواعي فطرته ومقتضيات فكرته، وواقع بيئته، في مجال أن الإنسان مفطور على
الخير يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝٢﴾ [النفس: ٧-١١].

ونفس وما سواها فالنفس إذن أساساً سوية خيرة، فلا هي محايدة بين
الخير والشر منتظرة؛ لأن تكيفها البيئة والأفكار كيف شاءت ولا هي مريدة
للشر بطبيعتها، فألهمها فجورها وتقواها عرفها ما يفسد تلك الفطرة السوية وما
يقيها ويحافظ عليها، قد أفلح فصار إنساناً حقيقياً من نَمَى هذه الفطرة السوية
وأدام تنقيتها مما يعلق بها من شوائب، وقد خاب فصار من الأنعام؛ بل أضل من
كبت هذه الفطرة وحرمها من النمو والازدهار.

بالإضافة إلى كلمة «سواها» التي تدل على دلالة صريحة على أصالة الخير
في الإنسان، فإن لكلمات -الفجور والتقوى والتزكية والدس- أيضاً تستلزم هذه
النتيجة، فالفجور: هو الإفساد والعدول والميل عن الأمر الطبيعي والتقوى من
الوقاية، والتزكية: تعني النمو وتعني التنظيف والتقية، والدس: يعني الإخفاء
والدفن، فالذي يفجر ويفسد، والذي يُحمى ويحافظ عليه، والذي يزكو وينمو،
والذي يدس فيمنع من النمو إنما هو الشيء الصالح السوي المستقيم، ومعنى
هذه الآية يزيد بَيَّاناً قول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تُحسّون فيها من جدعاء.

فالإنسان يولد سالمًا صحيحًا غير مشوه أو منحرف كما تولد البهيمة سليمة من العيوب، هي فطرته وهي دين الإسلام أو التوحيد والتشويه والانحراف، إنما يأتيه من الخارج من الأفكار والعقائد والتربية المنحرفة، وفي القرآن والسنة دلائل كثيرة على هذا المعنى الذي أوجزناه؛ لأنه لا مجال هنا للإفاضة فيه، فالإسلام إذن لا يتلجلج تلجلج الماركسية في القول بأن للإنسان فطرة وإن هذه الفطرة خيرة^(١).

فائدة: ما هو الشرط أو السبب الذي إذا ما حققناه كان التزامًا بالإيثار والصدق والأمانة وسائر القيم لأنه نتيجة طبيعية له؟

بما أن حسن هذه القيم والميل إليها أمر فطر الله النفوس عليه فهي ليست بحاجة إلى عامل خارجي يغرسه فيها، ولكننا قلنا أن هذه الفطرة قد تفسد وقد تنحرف فهي محتاج إلى عامل يقويها وينمي بذرة الخير فيها ويكملها، وقلنا أن هذا العامل هو الفكرة، هو معرفة حقائق من شأن العلم بها والإيمان بصحتها أن يفجر الإنسان طاقات الخير، فما هي هذه الحقائق؟ أهى حقائق الفيزياء، أم الأحياء أهى حقائق التاريخ أم الجغرافيا أم الاجتماع، أهى الادب أم الفلسفة؟

(١) الإسلام عقل وإيمان، جريدة المسلمون، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ١٦١).

إن الذي يتحدثون عن أهمية الثقافة التي تهذب الإنسان يتركون الأمر غامضاً فيوهمون السامع بأن مجرد الاستزادة من هذه العلوم والآداب يرقى الإنسان ويهذبه وهو أمر يكذبه الواقع ولا يدل عليه النظر، مرة أخرى ما هي هذه الحقائق التي تثمر معرفتها والإيمان بها سلوكاً إنسانياً ولماذا تفعل هذا؟ إنها حقيقة واحدة وإنها لأكبر حقيقة عن الكون والإنسان أنها العلم اليقيني والإيمان بأن الإنسان وسائر الكون مخلوق لإله واحد هو الذي أوجده، وهو الذي يرعاه ويحفظه ويصرفه أمره وإليها مصيره.

ما الدليل على هذه الحقيقة؟ ولما يكون لها هذا الأثر؟ أما الدليل بل البرهان المنطقي الجازم على صحتها فهو ميسور وأن كنت لا أستطيع الدخول في تفاصيله هنا، ولكم هذه الآية تكفيننا هذا المجال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلُقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[النور: ٣٥-٣٦]. فكان هذا الدليل القرآني يقول للإنسان تأمل نفسك - أأنت تعرف أنك كفرد حادث وجدت بعد أن لم تكن، وإنك كنوع حادث أيضاً ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١]، فهل الذي أوجدك هو العدم المحض ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ مستحيل أم أنك الذي أوجدت نفسك؟ وهذا مستحيل عقلاً فإن الأثر لا يكون سبباً لنفسه فالشيء لكي يكون مؤثراً لا بُدَّ أن يكون موجوداً، ولكنه إذا كان موجوداً فهو غير محتاج إلى ما يوجده.

وهناك في الوجود أشياء غيرك يقال عنها ما قيل عنك، فهي حادثة ولم توجد نفسها ولم توجد من غير شيء فهل أنت الذي أوجدتها؟ كلا وإذن فلا بُدَّ

لك ولها من موجد، فمن هو هذا الموجد؟ أن معظم القرآن الكريم يمكن أن يعتبر تفصيلاً للإجابة على هذا السؤال، وكل مفهوم لهذا الموجود يخالف القرآن كان يقال أنه النجوم أو الكواكب أو يقال أنه المادة الأولية، ويمكن إقامة الدليل العقلي على قصوره وتناقضه وعدم إيفائه بالمطلوب.

إن القرآن الكريم يقدم الأدلة على أن هذا الخالق لا بُدَّ أن يكون أزلياً لا بداية له أبدياً لا نهاية له - هو الأول والآخر - ويمكننا أن نشب أن المادة في أي شكل من أشكالها لا يمكن أن تكون كذلك فهي بالصورة حادثة، فإذا كانت حادثة فيستحيل أن تكون موجودة وخالقة، بل هي مفتقرة إلى من يوجدها وقيمها والقرآن يقيم الأدلة العقلية على أن هذا الخالق لا بُدَّ أن يكون واحداً ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولا بُدَّ أن يكون حياً عالمًا مريدًا حكيمًا رحيماً إلى آخر الصفات الإلهية المعروفة والمادة لا يمكن أن تكون كذلك، فيستحيل إذن أن تكون الخالق الذي نبحت عنه^(١).

فائدة: التفاضل بين المجتمعات لا يكون بقدر ما فيها من حرية،

التفاضل بين المجتمعات لا يكون بقدر ما فيها من حرية، والا لكان أفضلها مجتمع لا قوانين فيه؛ لأن كل قانون يأمر أو ينهى يمثل قيداً على الحرية الفردية، التفاضل يكون إذن بنوع ما يبيحه المجتمع وما يحرمه أو يوجبه، المجتمع الذي

(١) الإسلام وتحقيق المجتمع الإنساني، مجلة المجتمع الكويتية، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)، رجب ١٤٣٩ هـ، يوليو ١٩٧٣ م، (ص: ١٦٩).

يبيح شرب الخمر والزنا والشذوذ يعطي الأفراد حرية أكبر من الذي يمنعها، فهل يكون المبيح لها أفضل من الذي يحرمها لمجرد إباحته؟

إذا قلت: نعم، فيلزمك أن تقول إن المجتمع الذي يبيح المخدرات، والاعتصاب والتشهير أفضل من الذي يمنعها، تتفاضل المجتمعات إذن بنوع ما تبيح وما تمنع، ومعيّار الأفضلية هو مدى النفع الذي يعود على المجتمع من الإباحة أو المنع أو الإيجاب، فكل أوامر ونواه تساعد على تماسك المجتمع، وأمنه وقوته ورقية الروحي والمادي أوامر ونواه حسنة، وكل ما أدى إلى عكس ذلك فأمّر سيئ، في المجتمع الذي يريده الإسلام كما في غيره من المجتمعات أوامر ونواه تبيح وتمنع وتوجب، لكن فضله عليها هو في نوعها بالمعايير التي ذكرناها، المجتمع الذي يريده الإسلام هو مجتمع من أفراد متآخين، فهو يأمر أمر إيجاب أو ندب بكل ما من شأنه أن يرسخ هذه الإخوة، وينهى نهى تحريم أو كراهة عن كل ما من شأنه أن يوهنها.

ولما كان التعبير - سواء كان باللسان أو باليد أو بحركات الوجه، وسواء كان كتابة أو رسماً أو غير ذلك - هو من أكثر تصرفات الناس تأثيراً في العلاقات بينهم فقد عني به الإسلام عناية خاصة، فجعل القاعدة هي الإباحة ثم نهى عن كل ما هو ضار منه وأوجب كل ما هو ضروري منه، ففي التشريع الإسلامي قواعد عامة لما يقال وما لا يقال، بأي من هذه الوسائل، وفيه أيضاً تفصيل للأمر بأشياء معينة والنهي عن أخرى، من القواعد العامة قوله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، فهذا كله يقتضي تعبيراً، ويقول تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالشُّوْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨]، ويقول الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» وهذا معناه أن يعتقد أن ما يقوله خير لا أن يكون خيراً في نفس الأمر، لأننا نعلم أن كثيراً مما قاله الصحابة ولا سيما في أمور الشورى لم يكن صواباً.

من أمثلة ذلك: تحفظ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على صلح الحديبية ومنها أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قرر بعد مشاورة بعض الصحابة ألا يدخل الشام بالصحابة لما علم أن بها وباء، وأن أبا عبيدة اعترض على القرار قائلاً: «أفراراً من قدر الله؟» فبين له عمر خطأه وأوضح له أن الفرار هو من قدر الله إلى قدر الله، وكما ذكر التعبير باللسان فقد ذكر التعبير بغيره في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، من ذلك قول تعالى: ﴿وَلَيْكُلُ هُمْزٍ لَمَزَةٍ﴾.

ونهي الرسول ﷺ عن محاكاة الناس على سبيل التهكم، إن دينا يأمر بالدعوة وبالإصلاح بين الناس وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالشورى وبالتعليم لا يمكن أن يكون ديناً لا حرية للأفراد فيه، ولا يمكن أن يكون ديناً يعاقب كل فرد على كل خطأ تعبيرى ارتكبه، إن كل حد لحرية التعبير في الإسلام هو بمثابة الحدود التي توضع على طرفي الجسور لتقي السيارات والمشاة من الوقوع في البحار أو الهاويات، إنها (وهي من العليم القدير الرحيم) ليست مجرد تسلط كتسلط الحكام من البشر، وليست مبنية على نظريات باطلة

كما هو شأن كثير من النظريات البشرية المسوغة لما يؤمر به وينهى عنه^(١).

فائدة: الحوار وشروطه:

الحوارات تتعدد بتعدد أغراضها؛ فمنها ما يكون هدف المحاور إقناع الآخر بأن اعتقاده أو رأيه أو موقفه هو الأحق بأن يتبع، ومنها ما يكون هدفه مجرد معرفة ما عنده؛ كي لا يكون هنالك سوء تفاهم بأن ينسب إليه ما لا يرى أو يعتقد، ومنها ما يكون الغرض منه إمكانية الوصول إلى آراء أو أهداف مشتركة تساعد على التعايش والتعاون وهكذا، والمسلم يرى كل هذه أهدافاً مشروعة، ولا يتردد في المشاركة فيها، ما لم يتصل بها ما يجعل ضررها أكبر من نفعها، لكن الحوار لا يكون ناجحاً ولا يحقق شيئاً من تلك الأهداف التي وصفناها بالمشروعة إلا إذا توفرت فيه بعض الشروط، وإلا إذا خلا من بعض المفسدات.

فشرطه الأول: أن يكون المتحاورون صادقين مخلصين في الوصول إلى ما أعلنوا من أهداف، لا أن يكون الحوار مجرد وسيلة إلى أغراض أخرى يضممرها أحد المتحاورين أو كلاهما.

شرط الحوار الثاني: أن يستند إلى معايير يؤمن بها الطرفان؛ فإذا كان حواراً بين مؤمنين وملحدين كان المعيار هو العقل والحقائق العلمية المتفق على التسليم بها، وإذا كان بين مؤمنين بوجود الخالق أضيف هذا إلى تلك المعايير وأضيف إليه أيضاً المحاكمة إلى حقائق دينية يؤمن بها كل من

(١) الحرية، جريدة الميثاق الإسلامي، عدد ١٦ شوال ١٣٨٧هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)، ١٤٣٩هـ (ص: ١٨٨).

الفريقين، وإذا كان بين متسبين إلى دين واحد كالإسلام مثلاً كانت المعايير مراجع دينهم الذي يؤمنون به^(١).

فائدة، مشكلة في الحوار مع العلمانيين في العالم الإسلامي:

العلمانيون، بل الملحدون في أوروبا يعلنون عن آرائهم بصراحة ويدافعون عنها، وإخوانهم في العالم الإسلامي يودون أن لو استطاعوا أن يفعلوا ذلك، لكنهم لا يستطيعون؛ لأن المجتمع لا يقبل مثل هذا التصريح بالكفر، وربما تعرض قائله للأذى فماذا يفعلون؟ يلجؤون إلى النفاق: يتظاهر أحدهم بأنه مسلم ولو لم تكن في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ويحاول أن يجد لكفره سنداً من الدين - وهيهات - فتأتي حججه المعلنة واهية لا تنطلي إلا على بعض الجهلاء أو ضعيفي الإيمان، لكن هؤلاء لا يفيدونه بشيء.

أما طلاب العلم وصادقو الإيمان فيرون نفاقه في فلتات لسانه ويجزمون به ﴿فَلَقَرَفَنَّهُمْ بِسَمْنِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [عمد: ٣٠]، والحوار العلني مع العلمانيين من منكري الدين لا فائدة إذن فيه، إلا إذا كان القصد منه كشفهم وإحراجهم بإخراج مكنون معتقدتهم، أما إذا كان القصد هدايتهم فالأحسن أن يدعوا إلى حوارات خاصة يستطيعون أن يصرحوا فيها بحقيقة ما يعتقدون، لقد

(١) الحوار مجادلة جادة لا مهادنة، الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس، (ص: ٢٠١ - ٢٠٤)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ - ٢٠١٧ (ص: ٢٣٦).

جربنا هذا حتى مع الملحدين، وجربه من سبقنا من علماء المسلمين.

فشيخ الإسلام مثلاً يذكر أنه كان يأتيه جماعة من أهل الأهواء ويطلبون منه مجادلتهم بهذه الطريقة، يشترطون عليه أن لا يستند في جداله معهم على النصوص؛ بل يحاجّهم بالعقل وحده، وعلّل الشيخ قبوله لشرطهم بأنهم قوم سلّموا بأصول ظنوها عقلية، فمهما أتيتهم بحجج عقلية تخالفها لم يقتنعوا؛ لأنهم - وهو صادقون في إيمانهم بالإسلام - ينزهون الله تعالى أن يقول كلاماً مخالفاً للعقل، يرى ابن تيمية أنّ هذا الاعتقاد بمثابة المرض، فيجب أن تشفيهم منه أولاً بالأدلة العقلية على بطلانه فيتهيئون بعد ذلك لقبول النصوص^(١).

فائدة: أشكال المداينة في الحوار،

من أشكال المداينة في الحوار اللجوء إلى دعوى نسبية الحق، فخصمك المخالف لك على حق من وجهة نظره، وأنت على حق من وجهة نظرك؛ فلا داعي لأن تخطئه أو تجهّله. هذه دعوى باطلة، وهي فوق ذلك مضرّة بالمجتمع غاية الضرر، ثمّ هي بعد ذلك مما لا يمكن لأحد أن يلتزم به، سمعت أحدهم قريباً في ندوة تلفازية يقول إنه إذا قال لي أحد: أريد أن أبين الحق، أقول له: لا داعي للحوار إذن، هيأت نفسي للاتصال لأقول له: لكنك أنت الآن بقولك هذا تريد أن تبين لنا ما تراه حقاً بالنسبة للحوار؛ وإلا فلماذا قلت ما قلت؟

(١) الحوار مجادلة جادة لا مداينة، الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس، (ص: ٢٠٢-٢٠٣)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨-٢٠١٧ (ص: ٢٣٦).

وقد وجدتُ شبهة نسبة الحق هذه مؤثرة حتى في بعض الشباب المتدينين، قال لي أحدهم: إذا كنا نحن نرى أنفسنا على حق؛ فهم أيضًا يرون أنهم على حق، قلت له: وماذا في هذا؟ إن الحق واحد، سواء كان حقًا متعلقًا بدين أو بدنيا؛ لأنه وصف لواقع، ولا يمكن أن يكون الواقع على صفتين متضادتين، فإذا اختلفنا اختلاف تضاد، فيستحيل أن يكون كلانا على حق، هب أن إنسانًا قال إنه ما يزال يرى أن الأرض مسطحة وأنت تعتقد أنها مكورة، ماذا تقول له؟ هل تقول له: أنت على حق من وجهة نظرك، وأنا على حق من وجهة نظري؟ إن الاختلاف في الحق لا يعني نسبيته، إن صاحب الحق لا بُدَّ أن يكون له دليل على صحة دعواه؛ فمن حقه أن يقول لمخالفه إنني لا أطلب منك إلا أن تكون عاقلًا تخضع للدليل إذا تبين لك.

ما أجمل وأصدق ما قال الإمام الشاطبي في موافقاته: «الشرعية كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف، كما أنها في أصولها كذلك، ولا يصح فيها غير ذلك، والدليل على ذلك أمور» ومن أشكال المداينة أن يكون الحوار بين أبناء الوطن الواحد دعوة إلى العلمانية. كيف؟ يقولون: إذا كنا جميعًا أبناء وطن واحد؛ فيجب أن تكون العلاقة الأساس بيننا هي علاقة المواطنة التي تفترض أن يكون كل مواطن مخلص في حرصه على مصلحة وطنه، وعليه يكون الحوار بيننا حوارًا بين مواطنين متساوين؛ لا العلاقة الدينية التي تميز بين المواطنين، وهذه مغالطة سخيفة؛ لأن تصور الإنسان لما يعده مصلحة له أو لبلده تؤثر فيه معتقداته دينية كانت أو غير دينية، فإذا كان المواطن

شيوعيًا مثلاً فقد يكون مخلصًا في اعتقاده بأن النظام الشيوعي هو الذي يحقق مصلحة بلده، ولذلك يرى أن الذين يقفون في طريق تحقيقها هم أعداء الوطن؛ وكذلك قل عمن يعتقد في العلمانية الغربية، أو من يعتقد في الإسلام، إنهم جميعًا مواطنون لكن معتقداتهم مختلفة، إلى درجة أن ما يراه أحدهم مصلحة في بعض جوانب الحياة يراه الآخر أكبر خطر على الوطن، رأيت أحد إخواننا يستغرب أسفًا لموقف ينم عن شيء من خيانة، وقفة بعض العرب من قضية عربية كبيرة، فقلت له: هوّن عليك ولا تستغربين.

إن غزوة بدر الكبرى لم تكن بين عرب ويونان، إنما كانت بين عرب أقحاح أقارب ينتمون إلى أشرف قبيلة عربية، ولم يكن اختلافهم في أن بعضهم كان محبًا لوطنه والآخر كاره له، إنما كان الخلاف بينهم في الحق والباطل والخير والشر؛ وكذلك سيظل إلى يوم القيامة، سواء كان الناس أبناء وطن واحد أو أوطان مختلفة^(١).

فائدة: المقصود بالآخر والاعتراف به:

كثر الكلام في أيامنا هذه عما يسمى بالآخر، عن الاعتراف به وعن قبوله، فما المقصود بالآخر؟ يدل اللفظ على أن المقصود به من ليس مثلك، من هو مختلف عنك، فأنت شيء وهو شيء آخر، فإذا كان الواحد أبيض اللون فأسود

(١) الحوار مجادلة جادة لا مدهانة، الإسلام لعصرتنا، (ص: ٢٠٤-٢٠٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨-٢٠١٧ (ص: ٢٣٦).

اللون آخر، أو كان الواحد مسلماً فالنصراني أو اليهودي بالنسبة له آخر.

ما المقصود بالاعتراف به؟ إن كان المقصود الاعتراف بوجوده فهذا تحصيل حاصل؛ لأنه لو لم يكن موجوداً لما سمي بآخر، أما إن كان المقصود به حقه في الوجود وعدم تطهير العالم من أمثاله، فإعطاء هذا الحق يعتمد على نوع العقيدة التي يؤمن بها كل من الأول والآخر، أما صاحب العقيدة الإسلامية، فإنه يعطي الآخر هذا الحق في الوجود والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ما المقصود بقبول الآخر؟ إن كان المقصود به أن تقول مثلي ولا فرق بيننا البتة، فهذه مغالطة؛ لأنه لولا وجود الفارق لما سُمي آخر، فاليهودي ليس كالنصراني، والملحد ليس كالمؤمن بوجود الخالق، والعربي ليس كالأعجمي، فلا بد أن يكون للقبول معنى آخر إذن، والمعنى المتبادر إلى الذهن هو أن تعدّه مثلك في أمر هو أهم عندك من الأمر الذي أنتم مختلفون فيه، فإذا كنت مسلماً فستأخذ بمعيار التقوى الذي قرره الرسول ﷺ والذي يقتضي أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، فأنت هنا لم تعترف بالوجود الحسي للآخر وبحقه في هذا الوجود فحسب، بل اعترفت بأن فارق اللغة أو اللون لا تأثير له في قيمة الإنسان، فقد يكون الأبيض خيراً من الأسود أو العكس، وقد يكون الأعجمي خيراً من العربي أو العكس.

وإذا كنت مسؤولاً عن دولة علمانية فقد تجعل القيمة العليا هي المواطنة، فلا تفرق بين المواطنين بسبب لونهم أو دينهم، فقبول الآخر يعتمد إذن على نوع

القيمة أو المعيار الأعلى الذي تؤمن به، لكن هذا معناه أن الآخر إذا كان مختلفاً بذلك المعيار فلن يقبل ولن يعامل معاملة الأول.

فالمسؤول في الدولة العلمانية لا يعامل الأجانب معاملة المواطنين، والمسلم الذي يجعل القيمة العليا للتقوى لا يسوي بين المسلم والنصراني أو اليهودي أو الملحّد، فالذي يسوي بينهم إذا كان متسبباً إلى الإسلام مثلاً فكأنه يقول أنا أعتقد أن الله لم يلد ولم يولد، لكنني أعتقد كذلك أنه لا فرق بيني وبين الآخر الذي يقول إن عيسى ابن الله، هذا تناقض، ليس هنالك إذن قبول للآخر بإطلاق وإنما هو أمر نسبي، والذي يقول بغير هذا لا يتصور حقيقة ما يقول^(١).

فائدة: الله تعالى لم يحرم الخمر لمجرد أنها تقود إلى الاعتداء الحسي؛

إن الله تعالى لم يحرم الخمر لمجرد أنها تقود إلى الاعتداء الحسي، وإنما قال في تعليل تحريمها ومعاقبة شاربيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَهْوَاجُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿

[المائدة: ٩٠-٩١] (٢).

(١) الآخر، شبكة المشكاة الإسلامية، ذو القعدة ١٤٢٧هـ - يناير ٢٠٠٥م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ١٨٣).

(٢) الخمر والعدوان، شبكة مشكاة الإسلامية، صفر ١٤٢٧هـ - مارس ٢٠٠٦م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ١٧٦).

فائدة: دعوى أهل الشذوذ أن ميلهم هذا أمر ولدوا به فهو في

(جيناتهم) وطبعهم:

من دعاوى أصحاب هذا الانحراف أن ميلهم هذا أمر ولدوا به فهو في (جيناتهم) وطبعهم، لكن القرآن يكذب هذا لأنه يخبرنا بأن قوم لوط كانوا أول من اخترع هذه الفاحشة، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ [يس: ١٩]، فلو كانت أمراً طبعياً لما ذمهم الله تعالى على فعله، حتى لو كان أصل الميل طبعياً فلا يعني ضرورة أن المجاهرة بفعله هو أمر طبعي^(١).

فائدة: مطالبة أهل الشذوذ السماح لهم بالاستعلان إنما هي مرحلة تليها

مرحلة الاستعلاء:

إن حال قوم لوط - كما قصه علينا ربنا - يدلنا على أنه حتى هذا الاستعلان بالفاحشة ليس هو نهاية الطريق، وإنما هو مرحلة أولى، تليها - إذا لم يجدوا من يردعهم - مرحلة الاستعلاء، وإذا صار المنحرفون هم الأعلون في المجتمع ضاقوا بالصالحين من الناس ولم يسمحوا لهم بأن يشاركوهم السكن في بلد واحد، ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لَّوْطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَظْهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] (٢).

(١) أضواء قرآنية على ظاهرة الشذوذ الجنسي، جريدة منار السبيل، ذو القعدة ١٤٠٣هـ - للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢١٤).

(٢) أضواء قرآنية على ظاهرة الشذوذ الجنسي، جريدة منار السبيل، ذو القعدة ١٤٠٣هـ - للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢١٤).

فائدة، من طبيعة فاحشة الشذوذ الاباحية المطلقة، وعدم التقيد بقرين

واحد، أو عدد محدود من القراء؛

إن أصحاب الشذوذ الجنسي يطالبون اليوم بأن يعد القانون علاقة أحدهما بالآخر علاقة زواج، وأن يعطيهم كل الحقوق التي يعطيها للمتزوجين، لكن الذي نعرفه من حال قوم لوط أن هذه الفاحشة من طبيعتها الإباحية المطلقة وعدم التقيد بقرين واحد، أو عدد محدود من القراء؛ بل إن أحدهم إذا استمكن منه هذا الانحراف لا يعود يعرف لممارسته حد، إنه حين يسمع بما يثير شهوته يصيبه نوع من الجنون، فيندفع لارتكابها مع أي إنسان رضي بذلك أم لم يرض، تأمل قوله تعالى في وصف حالهم وهم مقبلون على أضياف لوط عَلَيْهِ السَّلَام ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [مود: ٧٨]، إنها فاحشة من طبيعتها الإسراف ومجاوزة الحد: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ ﴿[يس: ١٩]، فأصحابها لا يكتفون بممارستها ممارسة فردية، بل إن متعتهم بها لا تتم إلا إذا تعاطوها تعاطيًا جماعيًا^(١).

فائدة، المقارنة بين الإسلام والنظريات الأخرى حول الإنسان؛

أود أن اختتم هذه الكلمة ببعض الملاحظات في المقارنة بين الإسلام والنظريات الأخرى، فالماركسية تعتبر الملكية الفردية السبب الأساسي

(١) أضواء قرآنية على ظاهرة الشذوذ الجنسي، جريدة منار النبيل، ذو القعدة ١٤١٣ هـ، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢١٥).

لاغتراب الإنسان عن ذاته ولكنها تعتبر هذه الملكية الفردية أمراً محتوماً على الإنسان في الفترة ما بين المشاعية البدائية والشيوعية الحقيقية، وإذن فاغتراب الإنسان أمر مفروض عليه غير خاضع لإرادته، ولا أمل له في وجدان نفسه إلا حين تنهياً الظروف التاريخية لذلك.

أما في الإسلام فإن الإنسان يولد حين يولد إنساناً حقيقياً وإن حادت به عن هذه الفطرة أفكار نشأ عليها، أو بيئة نشأ فيها فهو قادر بإرادته على اعتناق الفكرة الصحيحة التي تعيده لذاته، فالاغتراب ليس أمراً مفروضاً على الإنسان. وبينما تعتبر الماركسية الأوضاع الاقتصادية شرطاً ضرورياً لاكتشاف الإنسان لذاته وعودته من الاغتراب، فإن الإسلام يعتبره وسائر المؤسسات الاجتماعية عوامل مساعدة لا شروطاً ضرورية.

وإذا كان الشائع في فلسفات اليوم وفي افتراضات علمائه هو مقابلة الطبيعة بما وراءها أو الفيزية بالميتافيزية، فالميتافيزية عندهم إنما يتحدث عنها الناس بمجرد التأمل المجرد المنفصم عن حقائق الطبيعة، والطبيعة ينبغي لكي نتعامل معها تعاملاً علمياً أن نغض النظر عن أصلها وسبب وجودها وأن نأخذها كما هي، فالإسلام كما قلت لا يعرف هذا الانفصام المفتعل ذي النتائج البالغة الضرر، إن حقيقة ما وراء الطبيعة إنما يتوصل إليها بالتأمل في الطبيعة نفسها، والصفة المشتركة بين كل مظاهر الطبيعة هو كونها حادثة وإذن فإن الطبيعة نفسها تشير إلى ما وراءها، تقول إنها ما دامت حادثة فلا بُدَّ لها من موجد أزلي غير حادث، وطبيعتها - كأثر من آثار هذا الخالق - تدل على صفاته،

وتجاهل هذه الحقيقة التي تدل عليها الطبيعة نفسها أمر تعسفي لا يقتضيه علم ولا عقل، ثم إذا كانت الطبيعة تدل على أن لها خالق وهو الذي أوجدها وهو الذي بيده أمرها فيكف يمكن أن نفترضها مستقلة عن هذا الخالق^(١)

فائدة: الصلة بين ظاهر الإنسان وباطنه:

جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِكُلِّ إنسان باطنًا وظاهرًا، باطنه هو قلبه وعقله، وما في هذا القلب من معتقدات وتصورات، وما تنتجها هذه المعتقدات والتصورات من مشاعر وميول ورغبات، وظاهره هو هذا الجسم وتصرفاته، لكن ظاهر الإنسان وباطنه ليسا عالمين مستقلين مفترقين؛ بل إن بينهما اتصالاً وثيقاً، وتأثيراً متبادلاً، فالباطن هو الأساس، وهو المحرك للظاهر والمتحكم في تصرفاته، وهو الذي يتقرر به صلاح الإنسان وفساده، جزاؤه عند الله أو عقابه؛ لأن الباطن هو المقرر.

وأما الظاهر فإنما هو منفذ ومعبر، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ قُلُوبَ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠]، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، «إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى»، لكن حكمة الله اقتضت أن لا يكون هذا الظاهر منفعلاً فحسب؛ بل قد يكون أيضاً فاعلاً، فهو

(١) الإسلام وتحقيق المجتمع الإنساني، مجلة المجتمع الكويتية، رجب ١٣٩٣ هـ - يناير ١٩٧٣ هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)، ١٤٣٩ هـ (ص: ١٦٩).

حين ينفذ ويعبر تعود تصرفاته هذه فتؤثر على الباطن، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولذلك فإذا كان الباطن منطوياً على خير عام لا يعرف تفاصيله، فلا يفلح في أن يرسل إلى الظاهر رسالة واضحة به، أو يرسل إليه رسالة لا تتناسب مع الخير العام الذي هو مجبول عليه، فإن الظاهر قد يكون على حال تناقض الباطن، ثم تعود فتؤثر فيه تأثيراً سيئاً، ولهذا فإن صلاح الإنسان لا يكتمل إلا بقلب مريد للخير، متصور له.

فالإرادة وحدها لا تجدي كما أن التصور وحده لا يجدي، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿[المُلْك: ١-٣].

فقال العلماء العارفون: إن حسن العمل لا يتم إلا بشرطي الإخلاص والصواب، ثم قالوا: الإخلاص أن يكون مبتغى به وجه الله، والصواب أن يكون على سنة رسول الله ﷺ، وهذا الذي قالوه مأخوذ من عدد من نصوص الكتاب والسنة، فالله تعالى يقول مثلاً: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، فجعل شرط سعي الآخرة المشكور إرادة للآخرة وإيماناً، وهما مسألتان قليتان، وسعيًا مناسبًا للآخرة وهو عمل ظاهر، أو على الأقل لا بد فيه من عمل ظاهر (١).

(١) الصلة بين ظاهر الإنسان وباطنه، مجلة منار السبيل، محرم ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)، ١٤٣٩ هـ، (ص: ١٨٠).

فائدة: الصيام وتفاضل الأزمان:

خلق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى الخلق وجعله متفاضلاً فالمخلوقات الحية متفاضله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَفَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، والبشر متفاضلون ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، والأنبياء متفاضلون ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، والجمادات متفاضله «أُحُد جَبَل يَحِينَا وَنَحْبُهُ» والأماكن متفاضله ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، والأزمان متفاضله.

فخير العصور عصر النبي ﷺ، وخير أيام الأسبوع يوم الجمعة، وخير أيام السنة يوم عرفة، وخير لياليها ليلة القدر، وخير الشهور شهر رمضان، والأفضلية كلها كما ترى مرتبطة بأسباب دينية، فالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يختار الحي أو الجماد أو الزمان أو المكان لفضل جعله فيه، قد نعلمه نحن وربما لا نعلمه، ثُمَّ يكرمه بسبب ذلك الفضل فيجعله مكاناً لخير ديني، ثُمَّ يجعله بسبب ذلك الخير الديني القلدي محلاً أو مناسبة أو أهلاً لخير ديني شرعي.

اختار الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى شهر رمضان لفضل علمه فيه، فجعله وقتاً لنزول خاتم رسالاته، ثُمَّ دعانا لصيامه وعلل صيامه بأنه الشهر الذي ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ولما كانت ليلة القدر منه خاصة هي الليلة التي نزل فيها القرآن، فقد زادها تشريقاً على سائر لياليه، ثُمَّ دعانا لقيامها وجعل ذلك القيام خيراً من عبادة ألف شهر؛ وكذلك ما من يوم أو أيام

دُعينا لصيامها نفلاً إلا كان تخصيصها بذلك الصيام راجعاً إلى فضل فيها.

فعاشوراء يوم نجى الله فيه موسى وأغرق فرعون، وشعبان شهر ترفع فيه الأعمال، وتاسع ذي الحجة هو يوم عرفة وخير أيام العام، ويوما الاثنين والخميس يومان ترفع فيهما الأعمال، وهكذا يعقب على التشريع المدني البحث بهذا التوجيه الوجداني البحث؛ ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق، المؤلف من الخوف والرجاء في مالك الأرض والسماء، فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية... وهي الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام في قلوب المسلمين في المجتمع المسلم... وهي والتشريع في الإسلام متكاملان.

فالإسلام يصنع القلوب التي يشرع لها؛ ويصنع المجتمع الذي يقنن له، صنعة إلهية متكاملة متناسقة، تربية وتشريع، وتقوى وسلطان... ومنهج للإنسان من صنّع خالق الإنسان، فإنّ تذهب شرائع الأرض. وقوانين الأرض، ومناهج الأرض، إنّ تذهب نظرة إنسان قاصر، محدود العمر، محدود المعرفة، محدود الرؤية، يتقلب هواه هنا وهناك، فلا يستقر على حال، ولا يكاد يجتمع اثنان منه على رأي، ولا على رؤية، ولا على إدراك؟ وإنّ تذهب البشرية شاردة عن ربها، ربها الذي خلق، والذي يعلم من خلق، والذي يعلم ما يصلح لخلقه، في كل حالة وفي كل آن؟^(١)

(١) الصيام وتفاضل الأزمان، شبكة مشكاة الإسلامية، رمضان ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدریس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ١٥٧).

فائدة: الله تعالى حبا للبشر بخصائص تجعلهم أعلى درجة من سائر

المخلوقات:

فأولاً: أن أباهم آدم خلق بطريقة خاصة. فالله تعالى يخبرنا أنه سبحانه خلقه بيديه.

ثانياً: ويخبرنا أنه أمر ملائكته بأن تسجد له.

ثالثاً: أنه تعالى خصه من بين سائر الحيوانات بأن نفخ فيه روحاً شرفها الله بأن نسبها إلى نفسه. (٣٧: ٧١-٢).

رابعاً: سخر له كل ما في الأرض. (٢: ٢٩).

خامساً: جعله مخلوقاً كريماً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

سادساً: أعطاه علماً لم يعطه الملائكة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢١) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢) ﴿قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِئَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَكْبَرُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (١) [البقرة: ٣١-٣٣].

(١) إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير، موقع الشيخ جعفر، يناير ٢٠٠٦ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٢٧).

فائدة: الجسم والروح كائنان مختلفان لكل منهما خصائص ووظائف غير

خصائص الآخر ووظائفه. لكنهما متصلان ومتماضدان من عدة وجوه:

أما اختلافهما فتدل عليه نصوص كثيرة منها:

أولاً: أنه في خلق آدم كان النفخ بالروح في جسم قد سبق أن خلق. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْتُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٧-٢٩].

ثانياً: عندما يموت الإنسان فإن روحه تفارق جسده.

ثالثاً: إذا سعد الإنسان بدخول الجنة فإنه يمنح جسداً جديداً يتناسب مع نعيمها، وكذلك إذا شقي بدخول النار^(١).

فائدة: الإنسان يولد خيراً:

وخيريته هذه صفة لروحه، وهي تتمثل فيما يلي:

(أ) أنه يولد بقدرة طبيعية على أنه عبد لله، الخالق الأحد الذي يجب لذلك أن يعبد وحده، كل خواص الإنسان الخيرة الأخرى مرتبطة بهذا الخير الأساس، أعني خاصيات المعرفة والإرادة، وحسن الخلق والتدبير، والعقلانية والدوق الرفيع، وغيرها. إنها مرتبطة بها من حيث كونها تتقوى بها، ومن حيث

(١) إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير، موقع الشيخ جعفر، يناير ٢٠٠٦ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٢٧-٢٢٨).

كونها تسوغ بها، ومن حيث كونها قنوات تؤدي إليها، ولذلك فإنها تستعمل في القرآن الكريم معايير يبنى عليها حججه في دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى .

(ب) أن الروح تخلق سالمة من العيوب.

(ج) أن الإنسان يستطيع لذلك أن يميز بفطرته بين ما هو من مكارم الأخلاق وما هو من مساوئها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿فَأَلَمَتْهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

(د) كل ما في كتاب الله من الأوامر والنواهي له أصل في هذه الفطرة. ولذلك فإن الدين الحق الذي جاء به الأنبياء يسمى دين الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولذلك فإن الأوامر والنواهي الإلهية تسوغ بكونها موافقة لهذه الفطرة، فالخمر والميسر منهي عنهما؛ لأن الشيطان عدو الإنسان، الأول يستغلها لإيقاع العداوة والبغضاء بين عباد الله الذين تقتضي فطرتهم الخيرة أن يكونوا إخوة متحابين، وليصدهم عن الصلاة التي هي عماد فطرتهم وغداؤها، والقصاص يسوغ بكونه يحفظ الحياة، وحق أقرباء المقتول في العفو أو أخذ الدية أدعى لحفظ الحياة، والصلاة مأمور بها؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ ولأن ما فيها من ذكر الله يمنح القلوب اطمئناناً وسلامة.

(هـ) لكن الله تعالى منح الإنسان إرادة يخير بها بين أن تكون حياته الواقعية

تعبيراً عن حقيقته الإنسانية الفطرية الخيرة، أو خروجاً عليها واختياراً للحياة غريبة عنها^(١).

فائدة، الله تعالى يرضى للناس أن يختاروا حياة الفطرة المتمثلة في عبادته ويعينهم بوسائل شتى ليكون هذا خيارهم:

١- فهو لا يخلقهم محايدين بين هذين الخيارين، بل يجعل هذا هو الخيار الطبيعي الذي تميل إليه فطرتهم، والذي يجعلهم لذلك يعيشون في سلام مع أنفسهم.

٢- ويجعل مخلوقاته كلها آيات (علامات ودلائل) على وجوده سبحانه وعلى صفاته الحسنى، ويجعل فيها أدلة على صدق من يرسل من رسله، وصدق الرسالات التي يأتون بها.

٣- يجعل الإيمان بالله العقيدة الوحيدة التي تتوافق مع كل ما فطر عليه الإنسان من صفات الكمال: العقل، ومكارم الأخلاق، والعدل، والرحمة، والحكمة وغيرها.

٤- يرسل لهم رسلاً يبينون لهم تفاصيل الحياة التي تلائم تلك الفطرة، ويعطيهم أدلة على ذلك، ويزودهم بحجج تبين زيف حياة الاغتراب عن الفطرة، وعن الخالق سبحانه.

(١) إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير، موقع الشيخ جعفر، يناير ٢٠٠٦ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٢٩).

٥- وإذا ما اختاروا الخيار الخطأ، فإن فطرتهم الجوهرية لا تتغير مهما كانت حياتهم الواقعية ضالة منحرفة، وعليه فإنهم مهما بعدوا في حياتهم الواقعية عن إنسانيتهم الجوهرية فإنهم يستطيعون الرجوع إليها في أي وقت يختارون ما داموا على قيد الحياة، وإذا ما عادوا وآبوا فسيجدون رباً يحب التوابين، يبدو من هذا أنه لا شيء خارجي يستطيع أن يغير الروح الإنسانية أو يفسدها ويعمرها من خواصها الحسنة كلها أو بعضها ﴿لَا يُدْرِكُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠]، بل الإنسان وحده لا مخلوق غيره هو الذي يستطيع باختياره أن يفسد نفسه^(١).

فائدة: الجسم البشري والهندسة الجينية:

إن طبيعة الروح تختلف عن طبيعة الجسم، لكن الروح بحاجة إلى جسم لتجعل حياة الإنسان الواقعية تعبيراً عن إنسانيته الروحية، لكن الجسم الذي تحتاج إليه ليؤدي هذه الوظيفة ليس أي جسم كان، وإنما هو جسم خاص مصمم ليتناسب مع هذه المهمة.

١) إن جسم الإنسان يشبه إلى حد كبير أجسام سائر الحيوانات لكنه أحسنها تقويماً كما يخبرنا القرآن الكريم.

٢) ولأنه جسم خاص فإنه يجب أن يعامل باحترام حتى عندما يصير ميتاً، فالرسول ﷺ يخبرنا أن قطع جزء من إنسان ميت كقطعه من جسم إنسان حي.

(١) إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير، موقع الشيخ جعفر، يناير ٢٠١٦م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٢٢٩).

(٣) عندما يموت الإنسان ويصبح جسماً بلا روح، فإن هذا الجسم الميت يجب أن يغسل وينقى، ويلف في ثوب نظيف، ثم يجب أن يدفن. والمؤمنون مأمورون بأن يقفوا للجنائز إذا مرت بهم.

(٤) يحرم التمثيل بالأجسام البشرية حتى في حالة الحرب.

(٥) ولأن الروح تستعمل الجسم فإن كثيراً من أعمالها تنسب إلى أجزاء منه ولا سيما القلب. لكن اللغة المستعملة للتعبير عن هذه النسبة تجعلنا نقطع بأن المقصود ليس هو الجسم الحسى.

(٦) الناس مأمورون بأن لا يحطوا من أقدارهم البشرية بأن يتصرفوا تصرف الحيوان ولا سيما في أدائهم للعبادة، فنحن مأمورون بأن نغض من أصواتنا ولا نجعلها منكراً كأصوات الحمير، رأي النبي ﷺ رجلاً يقود آخر بحبل، فقطع الحبل وأمره أن يقوده بيده، وهو يأمرنا بأن لا نتشبه بأي حيوان في أدائنا لحركات الصلاة، فلا نهوي إلى الأرض هوي البعير، ولا يكون سجودنا كنقر الغراب، ولا يكون جلوسنا كجلسة الكلاب. بل نحن مأمورون بأن لا نلبس جلود الوحوش حتى لا نشبهها، ليس المقصود من هذا ازدراء الحيوان وإنما المقصود منه أن يتصرف الإنسان التصرف اللائق به المناسب مع فطرته الإنسانية؛ لأن الإنسان مأمور مع هذا أن يعامل الحيوانات معاملة حسنة ويرحمها، فالرسول ﷺ يخبرنا عن امرأة بغى أدخلها الله الجنة؛ لأنها نزلت بئراً وحملت منها ماء في خفها لتسقى كلباً كاد يموت ظمأً.

ويخبرنا في المقابل بامرأة دخلت النار بسبب هرة حبستها حتى ماتت

جوعاً، فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض، ونحن مأمورون بأن لا نمثل بأجساد الحيوانات، ولا أن نسمها ولا سيّما في وجوها، فقد رأى ﷺ حمّاراً على وجهه وسم فلحن من وسمه.

في الإسلام موجهات عامة تهدينا إلى الطريقة التي نتعامل بها مع مخلوقات الله تعالى، والتي تصلح لذلك أن تكون هادية لنا في الموقف الذي نتخذه من قضية الهندسة الجينية، من هذه الموجهات:

(أ) أن الله تعالى أحسن كل شيء خلقه.

(ب) أن المخلوقات مسخرة للإنسان.

(ج) وعليه فإن هذا الخلق يجب أن لا يغير.

(د) هنالك علاقات وروابط ليس بين مكونات المخلوق الواحد وأجزائه وإنما بين المخلوقات كلها.

(هـ) التجربة تشهد بأن مثل هذه التغييرات لا ينتج عنها إلا الضرر. قد تقول إنه لا مفر لنا من أن نحرق الأرض، ونبذر الحب، ونذبح الحيوان، ونحفر الآبار ونشق القنوات، أجل إننا نفعل هذا كله لكن فعلنا له هو تصرف في إطار النظام الطبيعي لا خروجاً عليه، إننا نفعل الشيء نفسه عندما نصلح شيئاً قد فسد، إننا نبحث عن دواء لأمراضنا وأمراض حيواناتنا، وقد نحتاج حتى لبت أجزاء من أجسامنا، هذا لأن إتقان الخلق لا يعني أن له كمالاً كخالقه^(١).

(١) إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير، موقع الشيخ جعفر، يناير ٢٠٠٦ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٣١).

فائدة: تأثير الإعلام الغربي على عقيدة المسلم:

عقيدة التوحيد هي جوهر الدين وأساسه، فالتأثير فيها سلباً أو إيجاباً هو أخطر التأثيرات على دين المسلم، ولما كان الإعلام من أقوى المؤثرات - إن لم يكن أقوىها - في عصرنا هذا على حياة الناس الفكرية والسلوكية؛ كان البحث في تأثير الإعلام الغربي على عقيدة المسلم المتعرض له، من أهم ما ينبغي أن يشغل به الباحثون؛ ولما كان البحث في هذا التأثير لا يتم إلا ببيان المكانة العظيمة التي تحتلها العقيدة في الهدي الإسلامي، وبالتالي في حياة المسلم الملتزم به، فقد كان من التوفيق أيضاً أن يطلب من الناظر فيه البدء ببيان هذه المكانة العظيمة.

أقول إذن مستعيناً بالله ومبتدئاً حديثي هذا بسؤال: لماذا جعلت العقيدة أساس الدين وركنه الأول؟ ربما تبادر إلى أذهان بعض الناس - ولا سيما أناس في عصرنا هذا الذي يرفع من قدر الظاهر المحسوس - أن الجدير بهذه المكانة هو الأعمال الصالحة الظاهرة، كالانفاق، وحسن معاملة الناس، والجهاد لرفع راية الدين، فلماذا جعل الله هذه المكانة السامية غاية السمو لشيء باطني غير عملي؟ مع أننا إنما نقوم الناس بحركات جوارحهم، لا بحركات قلوبهم وما يكمن في ضمائرهم؟

الجواب الموجز: هو أن ما في الباطن مُقدَّم على ما في الظاهر؛ لأنه هو أساسه ومصدره. فما من عمل ظاهري حسناً كان أم سيئاً إلا وله أساس باطني، هذه حقيقة يعلمها كل إنسان من نفسه، ولو كان يعلم ما في نفوس الآخرين كما يعلم

نفسه؛ لكان تقويمه لأعمالهم بأساسها الباطني هذا لا بشكلها الخارجي. تصوّر لو أن إنساناً أهدي إليك هدية قيمة، لكنك شاهدته في قلبه يقول لك: «ما أحقرك! والله إنك لا تستحقها ولا تستحق أقل منها، ولولا أني أطمع منك في أكثر منها لما أعطيتك إياها». هذا علم غيبي الله عنا، فلم يبق لنا إلا الحكم بالظاهر، والاستدلال به أحياناً على ما في الباطن. أما الخالق سبحانه فإنه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ولهذا كان تقويمه سبحانه للناس بهذا الباطن الذي هو أساس الظاهر.

إن أصل تكريم الباطن هو أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الإنسان من عنصرين من مخلوقاته: عنصر الطين وعنصر الروح. فجعل الله المكوّن من الطين هو صورته المرئية، وجعل العنصر الروحي حقيقته الخفية. لكنه سبحانه جعل بين ظاهر الإنسان وباطنه صلةً ونسباً. فالروح إنما تسكن في الجسد، وإنما تبدو تصرفاتها وتأثيراتها عليه وبوساطته؛ وربما كان هذا هو السر في أن بعض أعمال الروح تُنسب إلى أعضاء جسدية لصلتها الخاصة بها.

إن القلب الجسدي ليس هو الذي يعقل كما يحدثنا شيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه فإن السلامة والمرض المنسوبين إليه في الكتاب والسنة ليستا أحوالاً جسدية كما هو المشاهد، وإنما هي أحوال روحية تُسبب إلى ما يلائمها من أعضاء الجسد، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الإنسان إنساناً بجوهره الروحي الداخلي الخفي لا بشكله الجسدي الخارجي، فالروح هي محل الإدراك والإيمان والتصورات والإرادات والمشاعر، والإنسان إنما يتحرك ويتصرف بما يعتقد، حقاً كان أو باطلاً، وبما يتصور واقعاً كان أم وهمًا، وإذا

كان الأمر كذلك كان ما يظهر لنا من صلاح الإنسان أو فساد السلوكي راجعاً بالضرورة إلى صلاح معتقداته وتصوراته أو فسادها؛ إذن فالجانب الذي نسميه عملياً في حياة الإنسان والذي قد نخطئ فنظنه أهم جانبيه، إنما هو أثر وناتج عن جانبه الداخلي الذي قد نجح إلى التقليل من أهميته؛ فنصفه بالنظري أو المثالي. كلا، إنه لهو الجانب الفعال الذي يحدد مصير الإنسان والذي ينبغي لذلك أن تكون العناية به أكبر.

وكما جعل الله تعالى غذاء الجسد وبقائه في بعض المطاعم والمشارب، وجعل مرضه أو موته في غيرها، فقد جعل غذاء الروح وبقائها في بعض العلوم، وجعل مرضها وموتها في حرمانها منها، وجعل حياته الروحية هي حياته الحقيقية، وموتها هو موته الحقيقي، والحقائق التي يمكن للإنسان أن يعلمها كثيرة، والعلوم النافعة كثيرة، لكن أشرف العلوم وأجلها نفعاً هو العلم بالله رباً لا رب سواه، وإلها لا معبود بحق إلا إياه. هذا هو العلم الذي لا تحيا القلوب إلا به، ولا يكون الإنسان مخلوقاً كريماً إلا بمعرفته، والاعتراف به. نعم، الاعتراف؛ لأن هذا العلم لا يؤتي ثماره إلا إذا اختار من علمه أن يعترف بما علم ويؤمن به. فالروح لا تحيا بالمعرفة وحدها، بل لا بد أن تنضم إليها الإرادة، إرادة الإيمان، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فتأثير هذا العلم معتمد على قبوله أو رفضه لا على مجرد اكتسابه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَيَنْهَرُ مِنْ يَقُولِ أَيْحُكُمْ زَادَتْهُ هِذَاهُ آيَةً فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٦٦) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فإذا ما عرف الإنسان ربه وآمن به تفجرت ينابيع الخير في قلبه، ثُمَّ فاضت على جوارحه بمقدار علمه وقوة إيمانه. لماذا؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا جَعَلَ الرُّوحَ جَوْهَرِ الْإِنْسَانِ، فقد جعل الإيمان به منبع كل خير فيه، ولذلك كانت الدعوة إليه والتذكير به مفتاح كل دعوة إلى فكر قويم وسلوك مستقيم، وكانت الدواء الذي لا غناء عنه لكل أنواع الانحرافات السلوكية، ولذلك كانت البداية به في جهود الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لإصلاح المجتمعات التي بُعثوا إليها، يدعو أحدهم قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبودية ثُمَّ يدعوهم بعد ذلك إلى تفاصيل الشريعة وإلى ترك ما هم عليه من أنواع الانحرافات السلوكية، خلقية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية.

فالإيمان هو الذي يهيئ النفوس لعبادة الله وينشط الجوارح لها، وكما يقول الشاعر:

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

وهو الذي يهيئها لقبول تفاصيل الشريعة، قالت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لقد نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل لا تزنا لقالوا لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»، وهو السبب الأساس لحل المشكلات الاقتصادية

والسياسية والخلقية. أقول إنه الأساس ولا أقول إنه يغني عن التفاصيل التشريعية المبنية عليه، ولا عن الأسباب الطبيعية والاجتماعية التي جعلها الله أسباباً مؤثرة، وهو السبب الأساس لبقاء النعم المادية وزيادتها. والكفر والإخلال به هو السبب الأساس لنقصانها وزوالها. والمتبع لمنهج القرآن يجد هذه السيرة.

فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ٢٦ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿[هود: ٢٥-٢٦].

ثم يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١١ وَيُمْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَتَجْرُلُ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴿[نوح: ١٠-١١].

ويقول: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ٥٠﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتِرُونَ ﴿[هود: ٥٠].

ثم يقول: ﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ٥٢﴾ ﴿[هود: ٥٢].

ويقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ٦٥﴾ أَتَشَاكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿[هود: ٦٥].

ويقول: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ٨٥﴾

ثم يقول: ولا تنقصوا المكيال والميزان، ويقول: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ١٢٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِوَنَ ١٢١ إِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٢ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

﴿١٧٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء: ١٦٠-١٦٤﴾.

ويقول: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿الشعراء: ١٦٥-١٦٦﴾.

ويقول: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْيَرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ إِنْ فِي

ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ١٧٢-١٧٥﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ

سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآدْخُلَتْهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا

يَعْمَلُونَ ﴿المائدة: ٦٥-٦٦﴾.

وأهم من هذا كله أن عقيدة التوحيد هي سبب السعادة النفسية، يقول

تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾؛ بل هي سبب السعادة الأبدية؛ لأنها

هي السبب الأساس لدخول الجنة وللنجاة من النار، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا

بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿الشعراء: ٨٨-٨٩﴾^(١).

(١) أهمية العقيدة واسبقيتها على الأفعال، موقع المختار الإسلامي، جمادي الآخرة ١٤٣٦ هـ،

وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا

للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ١٣٢).

فائدة: المقصود بالمرجعية:

المقصود بالمرجعية الطريقة التي يحسم بها الخلاف في قضية من القضايا. والمرجعية بهذا المعنى أمر ضروري لكل أناس يكونون أمة، لو أن الناس كانوا أفرادًا لا علاقة بينهم لما احتاجوا إلى مرجعية؛ بل لاكتفى كل إنسان بقول أو عمل ما يراه مناسبًا، أما إذا صاروا أمة فإنهم يحاولون أن يتصرفوا وكأنهم جسد واحد، لكن الأمة تتكون من أفراد، ومن شأن الأفراد أن يختلفوا في ما يرونه صالحًا لأنفسهم أو لأمتهم، وبما أنه من المستحيل عليهم أن يعملوا بكل الآراء الفردية المختلفة، كان من الضروري أن يتفقوا على مرجعية تحسم الخلاف بينهم وتكون هي الممثلة لأمتهم.

المرجعية بهذا المعنى لها جانبان، جانب يُسمى بلغة العصر ثقافيًا هو مجموعة المعتقدات والقيم التي تكون الأمة، وهي معتقدات قد تكون في صورة تقاليد متوارثة، وقد تكون في صورة كتب كما هو الحال بالنسبة لبعض الأديان، وبالنسبة للمجتمعات الحديثة التي تجعلها في شكل دساتير وقوانين، المرجعية الثقافية هذه هي الأساس، لكن الأفراد قد يختلفون حتى في تفسيرهم لمبادئ ثقافتهم، فهم محتاجون إذن إلى مرجعية بشرية تنوب عنهم في تفسير مبادئ المرجعية الثقافية وتحسم الخلاف فيها بينهم.

المسلمون أمة ذات كتاب هو الذي يمثل مرجعيتها الثقافية الأولى، ولهم كما لغيرهم مرجعية بشرية هي التي يسميها القرآن الكريم أولي الأمر وهم علماء الأمة وأمرؤها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَنَزَعْنَاهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

العلماء هم الذين يمثلون المرجعية الأولى، مرجعية الكتاب. والأمراء يمثلون المرجعية الثانية، مرجعية التنفيذ. فأولو الأمر لا يطاعون طاعة مطلقة كما هو الحال في الحكومات الدكتاتورية؛ لأنهم لا يملكون حق التشريع. فإذا حدث خلاف بينهم وبين المحكومين كان لا بُدَّ من رد الأمر إلى المرجعية الأولى، مرجعية الكتاب التي يمثلها العلماء.

قرر الإمام البخاري هذه القاعدة تقريراً موجزاً في عنوان أحد أبواب جامعه الصحيح فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد. (أي إن حكمه مردود غير مقبول) والخلاف له جانبان، جانب عملي القرار النهائي فيه للسلطة السياسية ما دام قراراً لا يخالف ما يراه العلماء شرعاً. وجانب نظري لا يلزم الإنسان فيه بقرار حاكم ولا برأي غيره من العلماء ما دام أمراً يسوغ فيه الاجتهاد، لا إلزام فيه إلا بالإجماع.

هذا هو الوضع الأمثل. فإذا لم يكن من الممكن تحقيقه لظرف من الظروف كان الواجب الاقتراب منه بقدر الإمكان. فإذا لم يكن للناس سلطة سياسية أمرها نافذ، وكان من الممكن لهم أن يكونوا لجائاً أو هيئات من العلماء يأتَمرون بأمرهم تطوعاً في الجوانب العملية، كما كان الحال بالنسبة لمقاطعة البضائع الدنماركية، لجؤوا إلى هذا الخيار الثاني. لكن هذا لا يمنع - لا شرعاً ولا واقعاً - بعض العلماء من أن يخالفوا ما تراه تلك الهيئة المرجعية، بيد أن

الأقرب إلى الوضع المثالي هو إما أن لا يصرحوا برأيهم المخالف، أو أن يقولوا إنهم مع مخالفتهم ملتزمون برأي الهيئة المرجعية سيما إذا كان التصريح بالخلاف من غير هذا القيد سيؤدي إلى إفساد القرار إذا كان قرارًا يحتاج تنفيذه إلى إجماع أو شبه إجماع... (١).

فائدة: غايات نبيلة ندب الله المسلمين إليها،

من الغايات النبيلة التي ندب الله المسلمين إليها أن تكون صورتهم حتى عند أعدائهم صورة خلقية جميلة، ولذلك منعهم من الإقدام على أي عمل يشين هذه الصورة في أذهان الأعداء، من ذلك أن الله تعالى ذكر من حكمته في عقد الصلح مع كفار مكة وعدم قتالهم أنه لو حدث قتال لقتل المسلمون إخوانًا لهم بمكة لا يعلمون أنهم أسلموا، لكن الذين يعلمون ذلك كانوا سيعيرونهم بفعلهم ويشيعون الدعايات عنهم ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنَّ تَحْطُوهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَزَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]، وقد حدث شيء من هذه المعرة لنا عند مشاهدة الناس لصور تلك الجثث تقطع وتحرق. إن كثيرًا من الناس - حتى في الولايات المتحدة - يرون أن جنودهم هم المعتدين، وأن من حق العراقيين اللجوء إلى حمل السلاح دفاعًا عن وطنهم، لكنهم جميعًا يستبشعون بفطرتهم ذلك المنظر، وهذا من شأنه أن يقلل من تعاطفهم معنا ومن نقدهم لحكوماتهم المعتدية. وأكبر ضرر ينتج عن مثل هذا العمل أنه يؤخر نصر الله تعالى إذ أن الله تعالى إنما ينصر من ينصره، وإنما ينصره الناس بطاعتهم له

(١) إين المرجعية، الشبكة العنكبوتية، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ١٩٩).

سبحانه، فكلما قلت الطاعة وكثرت التجاوزات قلت فرص النصر، وإذا كان الذين ارتكبوا تلك الأفعال أناسًا من عوام المسلمين لا علم لهم بهذا الذي نتحدث عنه، فإن من حق من يعلمون أن يرفعوا أصواتهم بإنكاره رفعًا يسمعه غير المسلمين. إن الدفاع عن الوطن واجب وهو من الجهاد في سبيل الله، لكنه لا يكون بالإساءة إلى دين الله وصد الناس عنه^(١).

فائدة: أثر دراسة العلوم الدينية منعزلة عن المعارف والأفكار والمؤسسات

العصرية:

إننا نقول إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، لكن أتى يكون كذلك في الواقع إذا لم يكن العالمون به عارفين بزمانهم ومكانهم جغرافية وسياسة واقتصادًا، وفكرًا ولغة وغير ذلك كما كان إسلافهم بالنسبة لزمانهم ومكانهم؟ وليس المطلوب هنا معرفة المختص، فذلك أمر فوق طاقة البشر، وإنما هو معرفة المثقف الذي يلم من كل شيء مهم بطرف، إلمامًا يمكنه من التواصل مع أبناء عصره، ويعينه على عرض بضاعته عرضًا مغريًا ومؤثرًا؛ بل ويجعله قادرًا كسائر زملائه المختصين بالعلوم الأخرى على معرفة مؤسسات عصره وحسن تسييرها واستغلالها، لماذا يكون بعض الأطباء أو المهندسين -ودعك من علماء الاجتماع والسياسة- قادرين على أن يكونوا وزراء داخلية أو خارجية أو إعلام، ولا يكون كذلك المختصون بالعلوم الإسلامية؟

(١) بشاعة التمثيل بالبحث، موقع الشيخ جعفر، صفر ١٤٢٥هـ - إبريل ٢٠٠٤م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٢١).

السبب في ذلك هو المناهج الدراسية الني تجعل دراسة العلوم الدينية منعزلة عن المعارف والأفكار والمؤسسات العصرية فالعلة ليست إذن في طبيعة دين الإسلام، حاشاء، ولكنها في مناهج المؤسسات التعليمية الإسلامية، وهي علة يمكن علاجها، ولي بعض اقتراحات بشأنها، ليس هذا مكان تفصيلها، إنه لا أمل في أن تكون ثوابت الماضي حاضرة وفعالة وموجهة لمتغيرات المستقبل إذا لم يكن العالمون بها حاضرين وفاعلين في مؤسسات الدولة الحديثة^(١).

فائدة: الدعوة إلى تقليد الغرب:

الدعوة إلى تقليد الغرب والجمود على ما هو عليه لا تقدم للأجيال على حقيقتها؛ وإنما تعرض على أنها هي الوسيلة الوحيدة لنا؛ لكي نعيش عصرنا ولأن نتقدم ببلادنا كما تقدم الغربيون، ومن من الناس يرضى بأن يعيش خارج عصره، أو أن يبقى على تخلفه؟! لكن هذه الدعوة إلى الجمود والتقليد مبنية على أوهام وأباطيل ليس من العسير كشفها، ولكن ليس هذا مكان تحليلها والرد عليها، لكن مما يمكن أن يقال في عجالة إنها دعوة تحمل جرثومة موتها؛ لأن المقلد للغرب لا يمكن أن يكون حرًا وأصيلًا، مع أن الحرية والأصالة من القيم التي يعتز بها الغربيون ويشجعونها، ثم إن من أكبر أباطيلها عدم التمييز بين ما كان من ملابسات ثقافية وعادات وتقاليد غربية صاحبت هذا التقدم.

إن دعاة التقليد يدعون بأن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وأنها بكل

(١) بل ليس في الإمكان إبداع، مجلة المعرفة السعودية، العدد (١٢)، ذو القعدة ١٤١٨ هـ، يناير ٢٠٠٦ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢١١).

مكوناتها العلمية والتقنية والفلسفية والأدبية والفنية وبكل تقاليدھا الاجتماعية ونظمھا السياسية هي حضارة العصر لمن أراد من المجتمعات أن يكون معاصراً، فإما أن تؤخذ جملة فيكون الأخذ بها معاصراً متقدماً، وإما أن تترك جملة فيكون تاركها ضعيفاً متخلفاً، ألم يقل الأستاذ زكي نجيب محمود إنه مرّ عليه زمان كان يرى مثل هذا الرأي، وكان لذلك يعتقد أننا لكي نتقدم فيجب علينا أن... وأن نكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون؟

وقد سبقه إلى قول شبيه بهذا الدكتور طه حسين وسبقهما إليه أتاتورك الذي دعا قومه إلى أن يأخذوا من الغربيين كل شيء حتى الديدان التي في بطونهم! ثمّ هذا الاعتقاد ساد وانتشر حتى كاد أن يكون بديهة من بدهيات العقل العربي، فأقعد الناس أو كاد عن التفكير المستقل، وجعلهم يتخرجون من كل ماله صلة بتاريخهم، اللهم إلا إذا كان من النوع الذي ترضى عنه الحضارة الغربية وتعظمه.

وكان من نتائج ذلك أن رضي كثير من المفكرين لأنفسهم -حتى أساتذة الفلسفة منهم، كالـدكتور زكي نجيب محمود أن يظلوا طوال حياتهم دارسين ومترجمين وشارحين للإنتاج الغربي ومدافعين عنه، وكما دعت هذه الفئة إلى أخذ الحضارة الغربية كلها من غير تمييز بين مكوناتها فقد رفضوا التراث كله بكل مكوناته، واعتبروا الدعوة إلى الرجوع إلى شيء منه صنو الدعوة إلى التخلف، وكان هذا سبباً في انقسام الأمة انقساماً حاداً حال بينها وبين أن تكون أمة واحدة، والأمة لا تستطيع أن تنهض إذا هي انقسمت إلى أمتين متعارضتين متعاديتين

﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَإِنْ شِئْتُمْ لَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾^(١) [الأنفال: ٤٦].

فائدة، المخرج من الدعوة إلى التقليد الغبي لكل ما هو غربي،

إذا كانت الدعوة إلى التقليد الغبي لكل ما هو غربي معتمدة على دعاوى باطلة عن أسباب التقدم الغربي العلمي التقني، فإن العتبة الأولى في باب المخرج:

١- كشف هذه الدعاوى كشفاً مفصلاً بأدلة علمية وحجج منطقية قوية، ويحسن أن يستعان في هذا بما يقوله العلماء والمفكرون الغربيون أنفسهم، فقد كتبوا كثيراً في هذا المجال.

٢- تقويم الحضارة الغربية تقويماً علمياً منصفاً، يستعان فيه أيضاً بما يقوله الغربيون أنفسهم عن مزايا حضارتهم ومثالبها.

٣- ثم إشاعة هذه المعرفة بين الناس إشاعة تراعي مختلف المستويات العلمية والعقلية.

٤- العمل على توطين العلم والتقنية توطيئاً يجعلنا من أهل الكشف والاختراع، وينهض بنا عن مستوى التلمذة الدائمة التي أوقعتنا فيها تلك الدعوة إلى التقليد.

(١) بل ليس في الإمكان إبداع، مجلة المعرفة السعودية، العدد (١٢)، ذو القعدة ١٤١٨ هـ، يناير ٢٠١٦ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢١٢).

- ٥- وفي مجال التدريس سواء كان على المستوى الجامعي أو المدرسي:
- تقديم المادة العلمية - أيًا كانت - بطريقة تعتمد على الأدلة والابتعاد قدر المستطاع عن الطرائق التقليدية البحتة.
 - في المسائل النظرية يحسن أن يعرض الأستاذ على الدارسين أكثر من رأي أو أكثر من مدرسة، وأن يطلعهم على الخلافات بين المدارس في علم الاجتماع أو علم النفس مثلاً، وعلى نقد المختصين بعضهم لبعض.
 - وأن يعبر لهم الأستاذ عن رأيه هو فيما عرض عليهم، ثم يشجعهم على إبداء آرائهم ويعطي درجات أكبر لمن ينتقد منهم حتى لو كان نقده غير مقبول عنده.
 - أن يتجنب الأستاذ تمجيد الشخصيات - مهما كان إعجابه بها - تمجيذاً يخيف الطلاب من نقدهم أو الاعتراض عليهم^(١).

فائدة: شبهات المكذابين بعذاب القبر:

كون بعض الناس يعذبون في قبورهم أمر جاء به أحاديث متواترة عن النبي ﷺ، والتواتر يدل دلالة قاطعة على نسبة الحديث إلى النبي ﷺ... فالذي ينكر عذاب القبر مكذب له ﷺ، إلا أن يكون جاهلاً بهذا التواتر، أو جاهلاً بأمر عقلي وهو أن التواتر يدل دلالة قاطعة على نسبة القول أو الفعل إلى من نسب

(١) بل ليس في الإمكان إبداع، مجلة المعرفة السعودية، العدد (١٢)، ذو القعدة ١٤١٨ هـ يناير ٢٠١٦ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٢١٣).

إليه... ومن كان مكذباً للنبي في أمر يعلم أنه قاله فلا يكون مؤمناً به، ولا برئته الذي أرسله، وإن كرر النطق بالشهادتين ألف مرة أو زاد.

وكل حجة يتشبه بها من ينكر أمراً جاء به كتاب الله، أو قاله رسول الله لا بُدَّ أن تكون باطلة عقلاً؛ كما هي باطلة شرعاً... بل إنها لتدل على ضيق أفق صاحبها؛ لأنها كثيراً ما تعتمد على الخلط بين الممكن والمألوف... أعني أن أحدهم ينكر إمكان حدوث شيء ما لمجرد أنه أمر غير مألوف؛ فهو يخلط بين المستحيل وغير المعهود... هكذا فعل العرب الجاهليون في إنكارهم للبعث... كانوا يرون أنه من المستحيل أن تبعث أجسادهم بعد أن يصيروا عظاماً نخرة... فكان الرد القرآني العقلي عليهم: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنَا أَوْنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١١) ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الإسراء: ٤٩-٥١)... أي إذا كنتم مؤمنين بأن الله تعالى هو الذي خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئاً - وقد كانوا مؤمنين بذلك - فكيف يستحيل عليه أن يعيد خلقكم مرة ثانية؟!... أليست الإعادة أهون من البداية؟!... كذلك الأمر بالنسبة لعذاب القبر؛ أنكره بعض الزنادقة في الماضي، ويقلدهم في إنكارهم بعض الزنادقة المحدثين.. لكن الزنادقة الذين أنكروا عذاب القبر قديماً كانوا أذكي من زنادقتنا المحدثين؛ ولذلك أثاروا من الشبهات أعظم مما يثير هؤلاء المقلدون لهم... ولم ير أهل السنة بأساً في رواية شبهاتهم؛ لأنهم كانوا موقنين بأنها حجة باطلة؛ يسهل محققها... نذكر في ما يلي مثلاً لهذه الردود السنية:

رد ابن القيم على الزنادقة:

ذكر الإمام ابن القيم في كتابه الروح كثيرًا من هذه الشبهات، وفصل فيها، وكان مما ذكر عنهم قولهم: «ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل، ولا يجيب، ولا يتحرك، ولا يتوقد جسمه نارا، ومن افترسته السباع، ونهشته الطيور، وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع، وحواصل الطيور، وبطن الحيتان، ومدراج الرياح كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها؟!...» ثم بدأ رَحِمَهُ اللهُ في الرد عليهم ردًا استغرق أكثر من عشر صفحات؛ لكننا نلخصه في هذه الكلمات:

- أن الرسل لم يخبروا بما تقطع العقول باستحالته.

- أن يفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير؛ فلا يُحْمَل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان... إن سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد.

- أن الله تعالى جعل الدور ثلاثًا: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار... وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها... جعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعًا لها... وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعًا لها... تجري أحكام البرزخ على الأرواح؛ فتسري إلى أبدانها نعيمًا أو عذابًا، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيمًا أو عذابًا... فأحط بهذا الموضع علمًا، واعرفه كما ينبغي يزل عنك كل إشكال يرد عليك. فإذا كان يوم حشر الأجساد، وقيام الناس من قبورهم صار الحكم، والنعيم، والعذاب

على الأرواح والأجساد ظاهراً باديّاً...

- أن الله تعالى جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيباً؛ فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر، وتجلس قريباً منه، ويشاهدهم عيائاً، ويتحدثون عنده؛ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٢) وَأَنْتَ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُحْرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥]...

- أن النار التي في القبر والعنصرة ليست من نار الدنيا؛ وإنما هي من نار الآخرة وخضرتها؛ وهي أشد من نار الدنيا؛ فلا يحس بها أهل الدنيا... وقدره الربّ تعالى أوسع، وأعجب من ذلك... وقد أَرانا الله من آيات قدرته في هذه الدنيا ما هو أعجب من ذلك بكثير؛ ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً إلا من وفقه الله وعصمه... فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ، ويتمثل له رجلاً؛ فيكلمه بكلام يسمعه؛ ومن إلى جانب النبي لا يراه، ولا يسمعه... وهؤلاء الجن يتحدثون، ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم.

- ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو (يعني البرزخ) ما بين الدنيا والآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه باعتبار غالب الخلق؛ فالمصلوب، والمحروق، والغرق، وأكيل السباع والطيور لهم من عذاب القبر ونعيمه قسطهم الذي تقتضيه أعمالهم.

وزيادة من عندنا:

- يقال لمن ينكر عذاب القبر بحجة أن بعض الناس يموتون غرقاً أو

حرقاً: أنت من المؤمنين بالبعث؟ إن كنت مؤمناً به فأنت تعتقد أن الله تعالى سيبعث الذين ماتوا حرقاً؛ حتى ولو تفتت أجسادهم وذرت في الهواء... فما الذي يمنعه سبحانه إذاً من أن يجمعها، ويجعلها جسداً كما كانت فور تفتتها؟ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

- إن ما قلته عن الذين يحترقون أو يغرقون يقال مثله عن الذين يقبرون؛ ذلك أن المقبور لا يلبث - إن لم يكن نبياً - أن يتفتت، ويصير عظاماً نعرة؛ كما قال المشركون؛ بل حتى عظامه ستفتت وتتحول إلى المواد الأولية التي خلق منها الجسد؛ فكيف إذا يسأل أو يعذب؟!.

- أننا نعلم حتى في هذه الحياة الدنيا أن الإنسان إنما هو إنسان بروحه؛ لا بجسده؛ وذلك أننا نرى الجسم يتغير؛ فيزداد وزن الإنسان بضع أربال أو ينقص، وتبتر بعض أجزاء جسمه، ويصح بعضها أو يمرض، ويظل الإنسان مع ذلك هو الشخص الذي نعرفه...

- بل نزيد على ذلك أمراً ربما لم يكن معروفاً للأقدمين؛ بل ولكثير من المحدثين؛ وهو أن جسم الإنسان في تغير مستمر؛ حتى إنه لا يبقى من خلاياه شيء كان قبل بضع سنوات ما عدا خلايا الدماغ التي يقال إنها إذا فقدت لا تعوض، وإن كانت بعض الخلايا الباقية تقوم بمهمتها...

والجسم إنما هو وسيلة لعذاب الروح؛ قال تعالى عن المعذبين في النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا يُصْلَوْنَ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

- ثم نضيف إلى ما ذكره الإمام بعض ما نعرف الآن من عجائب خلق الله في هذه الدنيا؛ مما يتصل بهذا الأمر؛ مما لم يكن بعضه معروفاً في زمنه رَحِمَهُ اللهُ... فنحن نعرف الآن أنه كما أن هنالك حدّاً أدنى لما يسمعه الإنسان من أصوات؛ فهنالك أيضاً حد أعلى!!... أعني أنه كما أن هنالك أصواتاً لا تسمعها الأذن البشرية لخفوتها وقد تسمعها بعض الحيوانات؛ فهنالك أيضاً أصوات لا تسمعها هذه الأذن لشدة علوها؛ وقد يسمعها حيوان مثل الكلب!!... وهذا يعني أنه قد توجد الآن في المكان الذي أنت فيه أصوات أعلى بكثير من أصوات الطائرات التي تصك الأذان لكننا لا نسمعها، بينما تسمعها بعض الحيوانات^(١).

فائدة: عالم النبوة:

يتسع عالم الإنسان الذي يعيش فيه أو يضيق بحسب سعة علمه وضيقه، فقد يسكن شخصان في بلد واحد، بل قرية واحدة، ثم يكونان عاشرين بعلمهما في عالمين مختلفين غاية الاختلاف في نوعهما وسعتهما بسبب ما بينهما من الاختلاف في نوع العلم وسعته، يولد الإنسان جاهلاً ثم ييسر الله تعالى له أسباباً للعلم كلما توفر له قدر منها أكبر كان علمه أكثر، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَفْرَحَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أَمْهَلَتْكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. لكن هذا الإنسان يولد ومعه بذور العلم التي تنمو في

(١) رد شبهات المكذّبين بعذاب القبر، شبكة المشكاة الإسلامية، ربيع الأول ١٤٢٧ هـ، مايو

٢٠٠٦ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز

إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ١٨٤).

داخله بنمو عقله ولا تحتاج لأن تكتسب من خارجه لأن «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل تحسون فيها من جدعاء؟» فكل ما أنزل الله على رسوله من علم له أصل وجذور في هذه الفطرة.

﴿ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]. وهو علم يشمل أصول الدين وأصول المبادئ العقلية والخلقية والذوقية، فكل من احتفظ بفطرته هذه نقية لم تكدرها عوامل خارجية كان حفظه من هذا العلم الفطري أكثر وأشد رسوخاً، ثم إن الإنسان يكتسب العلم بالوسائل المذكورة في هذه الآية، الحواس والعقل، ومن العلم وأشرفه ما هو وحي من الله تعالى، يعلمه الأنبياء علماً مباشراً من خالقهم أو بوساطة ملائكته، ويعلمه سائر الناس بتبليغ الأنبياء. ومنه ما هو مستخرج من ذلك الفطري والمكتسب والمنزل من عند الله تعالى، يستخرجه الإنسان بكثرة التفكير والتأمل، كان رسل الله أحب خلق الله إلى الله، فلا جرم آتاهم من العلم بنفسه تعالى وبخلقه ما لم يؤت أحداً، وآتاهم من أسباب العلم ووسائله ما لم يؤت أحداً من سائر خلقه، ومحمد ﷺ هو أحب رسل الله إلى الله، فلا جرم كان أعلمهم به وبخلقه، ولا جرم كان عالمه الذي يعيش فيه أرحب عالم^(١).

(١) عالم النبوة الرحيب، شبكة مشكاة الإسلامية، ذو القعدة ١٤١٨ هـ، نوفمبر ٢٠٠٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشقيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢١٠).

فائدة: هل من حق الأديب والفنان أن ينتقد قيم المجتمع ومعتقداته

ويدعو إلى نبذها؟

في عالمنا الإسلامي - العربي منه وغير العربي - مخلوقات غريبة تريد أن تجمع بين المتناقضات ولا تريد مع ذلك أن يعترض على تناقضها معترض. يريدون أن يقولوا لإخوانهم الذين كفروا من أهل الغرب إنما نحن مثلكم نتقد الدين كما تنتقدون، ولا نلتزم به كما أنكم لا تلتزمون، ولا نترك فرصة للسخرية منه ومن المستمسكين به إلا اهتبلناها كما تهتلون، ونرى كما ترون أن من حق الأديب والفنان أن ينتقد قيم المجتمع ومعتقداته ويدعو إلى نبذها؛ لأنه لا يكون أديباً أو فناناً مبدعاً إلا إذا فعل كل هذا بحرية كاملة كما تفعلون، لكن الفرق بين مخلوقائنا الغربية الممسوخة المقلدة هذه، وبين من هم أسوة لهم من إخوانهم الذين كفروا في الغرب، أن أولئك إذا قيل للواحد منهم إنك كافر بالمسيحية أو اليهودية اعترف بهذا وعده من تحصيل الحاصل. لكن مخلوقنا الممسوخ يرتجف ويولول ويطلب النجدة إذا قيل عن كلام كتبه هو أو أحد من شاكلته إنه كفر وخروج عن دين الإسلام.

إنه يريد أن يكون كافراً حقاً، لكنه يرتعد حين يوصف بالكفر المعبر عن تلك الحقيقة. يريد أن يكون كافراً لكنه يريد أن يعيش في أمن، وأن يكون ذا سمعة حسنة في المجتمع الذي يتنكر لأحسن ما فيه من معتقدات وقيم، ويريد - شأن كل منافق - أن يتخذ من انتمائه للإسلام حصناً لهدمه، وهيهات. وهو حين يواجه هذا الخطر على نفسه وعلى سمعته يتحول إلى واعظ يذكر من رموه

بتهمة الكفر بقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وهي الآية التي لا يكاد الواحد منهم يحفظ من كتاب الله تعالى غيرها. يحفظها ليحتمي بها بعد أن يحرف معناها ويؤولها على غير تأويلها.

نعم، نحن مأمورون بأن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، لكن الذي نحن مأمورون بالدعوة إليه هو سبيل ربنا، وهو أمر واضح المعالم، بين الحدود. فنحن لا نفهم من الدعوة بالحكمة وبالتي هي أحسن أن نبيع حقائق هذا الدين، أو أن نطمس معالمه، أو نزيل الحدود التي تميزه عن غيره. فيكون شيئاً هلامياً لا يعرف أوله من آخره، ولا يعثر فيه على ما يميزه عن غيره، فلا يمكن لذلك أن يُحكّم على إنسان بأنه داخل فيه أو خارج عنه. وما هكذا يكون الدين المنزل من عند الله، بل ما هكذا يكون أي مذهب حقا كان أم باطلا. لا بد لكل مذهب من معالم تحدد هويته، وتميزه عن غيره، حتى يقال عن إنسان إنه متمم إليه أو ليس بمنتتم، وأنه مؤمن به أو كافر به. إن المذهب الذي ليس فيه ما يميزه عن غيره ليس بمذهب. والإسلام دين منزل من عند الله مركّز على مجموعة من الحقائق، من آمن بها كان مسلماً، ومن أنكرها أو سخر منها أو استهزأ بها كان كافراً. فإمكانية الحكم على إنسان بالكفر أمر لازم لهوية الدين. فالدين الذي لا إكفار فيه ليس بدين، لأنه لا هوية له.

إذا لم تكن للدين هوية ولم تكن له معالم، فإلى أي شيء تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؟ والآية الكريمة التي يستدل بها هؤلاء الممسوخون

تبطل دعواهم، وتدل على تحريفهم؛ وذلك أنها تبدأ كما قلنا بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] وسبيل الله هو مجموعة الحقائق والقيم المبيّنة في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ. إنها دعوة إلى توحيد الله تعالى وعدم الاشرار به، دعوة إلى حبه وتقديره حق قدره، دعوة إلى الايمان برسوله وتعزيزه وتوقيره، دعوة إلى الايمان بأن ما قرره الإسلام حق لا ريب فيه، وما أمر به فعدل لا ظلم فيه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. فكل قول أو فعل يتناقض مع هذا فهو كفر، وكل قائل به وعامل به على بصيرة فهو كافر خارج عن ملة الإسلام، روائيًا كان أم ممثلًا أم فنانًا، ناطقًا بالشهادتين أو غير ناطق. لكن المخلوقات الممسوخة تريد أن تتستر بكفرها وراء الأدب والفن، فتزعم تارة أننا لم نفهم ما قيل على أنه عمل أدبي فني. هكذا قال المدافعون عن سلمان رشدي في آياته الشيطانية في البلاد الغربية، وهكذا يقول المدافعون عن حيدر في وليمته لأعشاب البحر.

وإن المرء ليعجب إذا كان جماهير الناس؛ بل خاصتهم لا يفهمون القصص والروايات، فيا ليت شعري ما ذا يفهمون؟ ثم هل يعقل أن يكتب كاتب قصة لا تفهمها الجماهير؟ إذن من الذي سيشتريها، ومن ذا الذي يقرأها؟ وتزعم أخرى بأن الفنان لا يحاكم بالمعايير نفسها التي يحاكم بها سائر عباد الله. أي إنه من حقه - وليس من حق السياسي مثلاً - أن يظهر الكفر ويدعو إلى التهلك مادام يعرض علينا كفره وتهتكه في صورة أدبية أو فنية، ومادام الكلام ليس صادراً منه هو مباشرة وإنما يقال على لسان شخصيات روايته أو قصته.

فهنيئاً إذن لكل فاحش بذىء. إذ ما عليه -لكي ينجو من كل محاسبة- إلا أن يضع شتمه وبذاته على لسان شخصية يخترعها، في قصة أو رواية أو قصيدة يكتبها.

ماذا يعني هذا؟ أعني أن الأعمال الفنية إنما هي أشكال لا محتوى لها؟ وأنها إنما يُحكم عليها لذلك بشكلها لا بمضمونها؟ هل هذا صحيح؟ هل هذا هو الذي يفعله النقاد في تقويمهم للأعمال الفنية؟ وهل الشكل وحده هو الذي يتغيه متعاطو هذه الأعمال؟ وهل معنى هذا أنه إذا كان كاتب ذو مواهب فنية رائعة أنه يجوز له أن يكتب قصة فحواها الاستسلام لإسرائيل، وأنه لا يحق للفلسطينيين ولا غيرهم أن يعترضوا على ما فيها لأنها عمل فني؟ أم أن المحتوى الوحيد الذي لا يجوز الاعتراض عليه هو الاستهزاء بدين الله وتنقص أنبياء الله؟ وإذا كان بعض الناس يضعون الجمال الفني فوق الحق وفوق القيم، فما هكذا يرى المسلم المتهدي بكتاب ربه الذي يعلي من قدر الصدق والعدل، ويدم الكذب والجور في شكل جاء هذا أو ذاك. ولهذا حكم على الشعر بمحتواه لا بمجرد شكله. ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٢٢٥) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْنَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧] (١).

(١) فإنه منهم، الشبكة العنكبوتية، ٣/ ٨ / ٢٠١٥ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ١٩٦).

فائدة: الإعلام والعولمة ضد الهوية والخصوصية:

وسائل الإعلام ليست قاصرة - كما هو معروف - على الصحف والمجلات والراديو والتلفاز، بل تشمل الكتب العامة والسينما، وربما المسرح، وتشمل الآن الشبكة العالمية (الإنترنت)؛ لكنني أريد أن أضيف في هذا المقال إليها حتى الكتب المدرسية؛ لعظم تأثيرها على الآلاف المؤلفة من أبناء المسلمين. وإذا استثنينا الإعلام الكنسي بكل وسائله - وهو إعلام لا يكاد يتعرض له المسلم - فربما استطعنا أن نقول بأن الإعلام الغربي نادرًا ما يتعرض للمسائل الدينية بطريقة مباشرة.

فكيف يكون له إذن تأثير إيجابي أو سلبي على الدين؟ نعم إن له تأثيرًا أيما تأثير؛ لأنه ليس من شرط التأثير أن يكون مباشرًا؛ بل إن التأثير غير المباشر قد يكون أعظم من التأثير المباشر كما سنرى، وهو في غالبه تأثير سعي، وإن كان لا يخلو من بعض التأثيرات الحسنة. ونعني بالتأثير غير المباشر هنا تلك المعتقدات العلمانية الإلحادية المادية الشائعة في الغرب، والتي يفترض صحتها، والتي تكمن وراء تفسيراتهم للحوادث الطبيعية والاجتماعية والنفسية، وإن كان لا يُصرَّح بها إلا نادرًا، وهذه التفسيرات تتسرَّب في مقولاتهم وتفسيراتهم التي تصل إلينا عبر الكتاب أو الخبر أو المواد الدرامية، وغيرها الكثير.

وتأثيرات الإعلام الغربي السلبية على عقيدة المسلم كثيرة، نذكر منها فيما يلي بعض ما يحضرنا ونراه مهمًا:

أولاً: من التأثيرات الشديدة الخفاء، البالغة الضرر، الاعتقاد السائد بين كثير من علماء الطبيعة والاجتماع - وبالتالي بين عامة المفكرين والصحفيين والمحللين في الغرب - أن التفسير العلمي للحوادث، سواء كانت طبيعية أو اجتماعية، هو ذلك التفسير القائم على افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه، وأن تفسير حوادثه ينبغي لذلك أن يكون من داخله، أعني أن الظواهر يجب أن تفسر بظواهر أخرى، وأن كل تفسير لشيء من حوادث الكون بإرجاعها إلى سبب خارج عنه هو تفسير خرافي غير علمي.

هذا هو المبدأ المفترض، لكنه لا يقرر في وسائل الإعلام التي نستوردها بهذه الطريقة الصريحة التي ذكرتها، وإنما يفترض افتراضاً، وقد يفترضه ويلتزم به حتى من لم يفكر فيه من العلماء الطبيعيين وسائر المفكرين، والصحافيين. ومن مظاهر افتراضهم له أنهم يقفون في تفسيرهم للحوادث عند أسبابها الدنيوية، ظاهرة كانت أم خفية، ولا يتجاوزونها. وما ذلك إلا للاعتقاد بأنها هي الأسباب الحقيقية الكافية.

لكن المسلم مع اعتقاده بفاعلية الأسباب الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية، لا يقف عند حدودها، بل يذكر نفسه بأنها إنما صارت أسباباً بجعل الله لها أسباباً، وأن الفاعل الحقيقي إنما هو الخالق سبحانه.

قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله: «أرأيت أدوية تداوى بها، ورقى نسترقى بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟» قال: «هي من قدر الله».

قلت: إن هذا المبدأ الإلحادي قليلاً ما يصرح به، وأقول إن التزامه في الواقع قد لا يبدو فيه ما يخالف عقيدة المسلم، ما دام المسلم معترفاً بتأثير الأسباب المخلوقة وفاعليتها، لكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك. إن المتلقي إذا كان لا يسمع لله ذكرًا أبدًا في كل ما يخبر به من حوادث طبيعية واجتماعية يوشك أن يتأثر بذلك المبدأ فينسى هو الآخر ذكر الله تعالى، وينحو نحو أصحابه في تفسيره للحوادث، فلا تكون له فيها عبرة.

المبدأ الغربي الثاني: الذي أراه أيضًا ذا أثر سيئ، والذي أراه قد بدأ ينتشر حتى بين المسلمين في العالم الإسلامي بسبب التأثير بالثقافة الغربية التي تنقل عن طريق وسائل الإعلام، هو مبدأ النسبية، أعني نسبية الحقائق والقيم.

لقد أصبح من المسلمات عند كثير من الناس في الغرب أنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولا قيمة مطلقة، وإنما الحقائق والقيم نسبية، أي: أنها منسوبة وتابعة لزمانها أو مكانها أو الحضارة والثقافة التي ظهرت فيها، وهكذا. فما قاله الناس في عصر معين، أو اعتقدوه في مكان معين، أو رأوه حسنًا في حضارة معينة، كل هذا صحيح أو معقول بالنسبة لهذه الحضارات والأزمنة والأمكنة فقط، وإن كنا نراه نحن في ظروفنا أو زماننا أو حضارتنا على غير ما رأوه.

وما دام الأمر كذلك فليس من حق أحد أن يقول: «إن فهمه لنص من النصوص هو الفهم الصحيح، أو إن فهم خصمه خطأ، وإننا ينبغي لذلك أن نكون سلفيين في فهمنا للنصوص، فللسلف زمانهم ولنا زماننا، ولهم ظروفهم

ولنا ظروفنا!!! بل قد رأيت بعضهم غلا في هذا الأمر حتى قال: إن الرسول ﷺ لا يمكن أن يفسر القرآن لعصرنا؛ لأنه لا يعرفه.

ثالثًا: الاعتقاد في المفهوم السلبي للحرية: وإذا كان الاعتقادان السابقان مما يُفترض ولا يُذكر، فإن هذا مما يكثر ترداده والتصريح به، والدعوة إليه، والتفاخر به، في كل أجهزة الإعلام، وقد أثر لذلك في الناس تأثيرًا بالغًا حتى صار من المسلمات حتى عند كثير من المسلمين. إن الحرية تعني أن الله تعالى أعطى الإنسان المقدرة على الاختيار كما أعطاه المقدرة على العمل، وهذا أمر لا شك فيه، بل ربما كان هو مما يتميز به الإنسان.

وقد شاء الله تعالى أن يجعل الإنسان شائيًا، ومسؤولًا عن مشيئته، حيث قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. فالمنازعة ليست إذن في كون الإنسان ذا إرادة ومشئته واختيار، وإنما هي في الطريقة التي تُستعمل بها هذه المشئته أو الحرية التي منحها الله تعالى للإنسان.

المفهوم السلبي للحرية يجعلها غاية في ذاتها، بمعنى أن كرامة الإنسان تزداد بازدياد استقلاله في اتخاذ قراره، أيًا كان ذلك القرار. أي إن العبرة في الاختيار لا فيما يختار. وعليه؛ فكلما تمكن الإنسان من أن يفعل ما يشاء كان هذا أكرم له وأكثر تحقيقًا لإنسانيته.

هذا المفهوم السلبي للحرية مفهوم قديم وإن ارتدى زياً حديثاً. إنه المفهوم

المرتبطة بالاستكبار والكفر. وهو المفهوم الذي لجأ إليه قوم شعيب في احتجاجهم على أمره لهم بعبادة الله وعدم الظلم في المعاملات المالية، حيث قال الله تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، وهو المفهوم الذي ذمه الله تعالى في قوله: «أيحسب الإنسان أن يترك سدى»، أي لا يؤمر ولا ينهى.

فالإسلام يعلمنا أن كرامة الإنسان لا تتحقق بمجرد الاختيار؛ لأن هلكة الإنسان قد تكون فيما يختار، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْإِثْمِ فَأَخَذْتَهُمْ صَيعَةً الْعَذَابِ أَمْوِنٌ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وإنما تتحقق باختياره للحق والخير، ولما يختاره له ربه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

رابعاً: في الإعلام الغربي هجوم على المسلمين ولا سيما العرب، هجوم قال عنه الأستاذ (إدوارد سعيد): «إنه من النوع الذي لم يعد مقبولاً في الغرب حين يوجه لليهود أو السود أو الآسيويين أو الأفارقة. حيث يُتهم العرب بعدم الأصالة وبالمحافظة وبعدم القدرة على التحضر، وبالإرهاب؛ بل وبالتواكل وبالقدارة، ثم يُقال إن سبب هذا كله هو الإسلام.

هذا كلام يبدو لأمثالنا سخيلاً لا يستحق حتى أن يُرد عليه، لكن ينبغي إلا نقل من تأثيره على شاب في مقتبل عمره، وُلد في بلد غربي وترعرع فيه. فعندما ظهر كتاب الآيات الشيطانية لمؤلفه الإيراني طلب مني إخواننا في مجلة Impact

أن أكتب نقدًا له. فعندما قرأته قلت لهم كلامًا فحواه أنه كتاب سخيّف ثقيل ما أظن أحدًا سيكمل قراءته، فأرى لذلك أن لا تهتموا به، بل اتركوه ليموت. لا زلت أذكر ردهم. قالوا إن الكاتب معروف في أوساط الشباب ذوي الأصول الهندية الباكستانية، وأنهم قارئوه لا محالة.

خامسًا: يكثر في الإعلام الغربي الحديث عن الدين بطريقة هازلة، ولإثارة الضحك، حتى فيما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى. ويكثر فيه وصف الخالق بكلمات لا احترام فيها، كما نرى ذلك مثلاً في عنوان الكتاب الذي دخل ضمن أكثر الكتب بيعًا في أمريكا. إن اسمه: (سيرة الله)، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. إن كثيراً من المسلمين المعاصرين لا يدرون أن الكلام عن الخالق بمثل هذه الطريقة يخرج صاحبه عن ملة الإسلام.

ألم يقل الله تعالى عن بعض أمثال هؤلاء: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَقْذِرُوا قُلُوبَكُمْ يَوْمَ الْكُفْرِ تُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

سادسًا: ومما يتصل بهذا أنهم لم يعودوا يأخذون الدين مأخذ الجد، ويصورون هذا بأنه تسامح، وسعة أفق، ويصفون كل من يبدو منه استمساكًا شديدًا بالدين بالتطرف أو ضيق الأفق والتعصب وعدم العقلانية، وهكذا، لذلك تعجب كثير من الغربيين من الضجة التي أثارها المسلمون بسبب ما قاله مؤلف الآيات الشيطانية عن الله تعالى. وقد تأثر الإعلام في البلاد العربية والإسلامية بهذا الانحراف، فعاد هو الآخر يطبقه على كل من يبدو منه شدة استمساك بنصوص

الكتاب والسُّنة، وعاد يمدح كل منتسب للعلم يبدو منه هذا النوع من التحلّل. سابعاً: الإعلام الغربي - التلفاز والمجلات والقصص والأفلام والإنترنت - كلها مليئة بما يثير الشهوات الجنسية، ويحفّل قدر كبير منها بكل نوع من أنواع الإثارة، بالكلمة والصورة، بالشعر والقصة، بأخبار المنحرفين وينشر الفضائح. قد يُقال: لكن ما علاقة هذا بالعتيدة التي هي موضوع بحثنا؟ وأقول إن له علاقة وثيقة. إن الإنسان قد يقع في المعاصي الجنسية ويظل مع ذلك محتفظاً بإيمانه وصفاء عقيدته. لكن من هنالك تنبت الصلة بين الشهوات والشبهات كما نبهنا إلى ذلك علماء السلف، فالذي يشتد ضعفه أمام الشهوات يضعف قلبه، فيكون مهياً للتأثر بالشبهات المتعلقة بالعتيدة، كتلك التي ذكرناها آنفاً.

ثامناً: وهنالك شبهات مباشرة وجدت في الإنترنت مرتعاً خصباً لها، شبهات يثيرها خصوم الإسلام المختصون بمحاربته على صعيد الفكر، ويثيرها أهل الأهواء من المنتسبين إلى الإسلام من مفكري الفرق الضالة. كلاهما أصبح يتستر وراء هذه الشبكة، ويعلن فيها ما قد يتردد من التصريح به في وسائل الإعلام الأخرى. وقد رأيت بعض الشباب يتابعون ما يُنشر في أمثال هذه الصفحات، ثمّ يأتون ليسألوا عن كيفية الرد عليها؛ لأن علمهم بالدين قليل، والشبهات قوية مضلة.

تاسعاً: وربما كان سبب هذا كله أن في الغرب عدم أطمئنان إلى المتدينين الشائعين فيه، وعدم ثقة برجال الدين، بل وشكاً في إمكانية الاستقامة، وهذا داء في الغرب قديم أكثر ما يظهر في الأدب، حتى لقد قال أحد نقادهم - أظنه ألدوس

هكسلي - إنه لا يوجد في أبطال روايات شكسبير رجل خير، وأنت تلاحظ هذا في القصص التي يقرأها الناس بشغف، إن الشخصية المستقيمة أو المتدينة في القصة كثيرًا ما تصور بأنها شخصية منافقة تفعل في الخفاء ما يخالف مسلكها الظاهري، حتى لقد أصبحت المجاهرة بالسوء نوعًا من الصدق مع النفس والصراحة، وبما أن الغربيين لا يعرفون دينًا غير دينهم فإنهم لا يتحدثون عن اليهودية والنصرانية بخصوصهما، وإنما يتحدثون عن الدين بصفة عامة، ومن هنا يأتي خطر كلامهم على الطفل أو الشاب المسلم الذي يعيش بين ظهرانهم؛ بل حتى الذي يتعرض في بلده الإسلامي لإعلامهم وثقافتهم^(١).

فائدة: المنهج الديني الصحيح في معاملة غير المسلمين:

ديننا يحثنا على أن نعامل المسالمين لنا من غير المسلمين معاملة حسنة؛ بل وأن نتعاون معهم في كل أمر نرى فيه خيرًا، لكن الحد الديني الفاصل بيننا وبينهم يظل قائمًا لا تمحوه مواطنة ولا يمحوه أي إحسان يسدونه إلينا أو نسديه إليهم مهما كان عظيمًا، فإذا علمنا عن إنسان أنه قد بلغته الرسالة المحمدية ولم يؤمن بها، بل أنكر أن يكون محمد رسول الله، أو أن القرآن كلام الله، فإنه لا يحق لنا أن نعامله وكأنه مؤمن بالله ورسوله، هذا من التناقض الذي لا نقدم عليه في حياتنا الدنيوية فما بال بعضنا يتجاهلونه في حياتهم الدينية؟ إنك لا تعطي كل

(١) فكيف يهدم الإسلام العقيدة، شبكة المشكاة الإسلامية، شعبان ١٤٢٤ هـ - أكتوبر ٢٠٠٣ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ١٣٧).

حقوق السوداني لشخص تعلم أنه ليس سودانياً مهما كان فضله على السودانيين. وأهل الرياضة لا يقبلون في نادي هلالهم شخصاً يعرفون أنه من كبار أنصار المريخ حتى لو كان هو المهندس الذي بنى لهم أستاذهم.

وكذلك بل أعظم من ذلك ينبغي أن يكون الأمر بالنسبة للدين، إن الدين ينبغي أن يؤخذ مأخذ جد وحزم لا مجاملة فيه ولا مDAHنة. لقد كان أبو طالب عمّاً للنبي ﷺ، وكان من أكثر الناس حباً له، ومدحه مدحاً رائعاً في قصائد هي من عيون الشعر العربي، بل كان يحوطه ويدافع عنه ويضحى في سبيل أمنه، لكنه لم يكن يؤمن بأنه رسول الله، ولذلك فإن شيئاً من ذلك لم ينقذه من عذاب النار؛ بل كل ما استفاده من إحسانه للنبي أن كان أقل أهل النار عذاباً.

إن الذي يموت منكراً لرسالة محمد ﷺ لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط. لا يغير مصيره هذا حتى استغفار النبي ﷺ له ﴿اسْتَغْفَرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ولا تغيرها صلة قرابة حتى بيعض أولي العزم من الرسل، فابن سيدنا نوح غرق فيمن غرق من أهل الكفر ولم تنقله صلة النبوة إلى سفينة النجاة، وامرأة لوط ظلت مع الغابرين الذين قلب الله بهم الأرض، وإبراهيم كف عن الاستغفار لوالده لما تبين له أنه من أصحاب الجحيم.

ونبينا محمد ﷺ قيل له: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَى أَبَدًا وَلَا نَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وقيل لسائرنا: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ

وَمَنْ يَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾، لذلك عجبت وعجب الآلاف من المسلمين في العالم من إطلاق بعض الناس صفة الشهيد على جون قرنق، ولسؤال بعضهم له الرحمة، بل قيل لي إن بعضهم بلغت به الوقاحة أن سأل الله تعالى أن يسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. أيعسب هؤلاء الجهلة أن الله تعالى يكتب هذا المصير لإنسان؛ لأنه كان رئيس حركة حاربت المسلمين أكثر من عشرين عامًا ثم سألتمهم؟ أيعسبون أنه يكتبه لإنسان لأنه عين نائبًا أول لرئيس جمهورية السودان؟ أيعسبون أنه يكتبه أرضاء لبعض السياسيين؟ كلا والله.

كيف يكون النبيون رفقاء لمن يكفر بخيرهم وخاتمهم؟ وإذا أمكن لرجل ينكر نبوة محمد ﷺ أن يكون مع الأنبياء والشهداء والصديقين فليكن معهم أيضًا أبو لهب وفرعون، وليكن معهم ستالين ولينين وأمثال بوش وسائر أئمة الكفر. وليكن الإسلام دينًا لا معنى له ولا تمييز فيه بين من كان من أهله أو كان من أعدائه؟ هل بلغ جهلنا بالدين واستخفافنا به إلى هذا الحد؟

إننا أمة تأخذ دينها مأخذ الجد فمن ظهر لنا من كلامه وتصرفاته أنه مسلم سألنا له المغفرة ورجونا أن يدخله الله الجنة، لكننا لا نجزم بذلك؛ لأن الشخص ربما كان منافقًا يظهر لنا غير ما يبطن، ومن ظهر لنا من أقواله وأفعاله أنه كافر عاملناه معاملة الكافر وحسيناه من أهل النار^(١).

(١) لا مدهانة في دين الله، شبكة المشكاة الإسلامية، رجب ١٤٢٦ هـ - أغسطس ٢٠٠٥ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ١٤٤).

فائدة: أهمية المحافظة على حسن سمعة المسلمين:

ما زالت أفئدة الخيرين من البشر في أنحاء الأرض كلها تهوي إلى الإسلام؛ لأنها تجده دين الحق والعدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، ولذلك كان من حكمة الله تعالى أن يسد في تشريعه كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها شبهة تشكك في امتياز دينه بهاتين الخصلتين، فتجعله يبدو للناس كأنه دين يتضمن باطلاً أو ينصر ظلمًا، ولتأكيد الاهتمام بحسن صورة هذا الدين في أذهان الناس، كان من قواعده المهمة أن يمنع كل قول أو عمل يؤدي - في حالة من الأحوال - إلى تشويه هذه الصورة حتى لو كان العمل في نفسه مشروعًا!!، لكن أناسًا من المتسيبين إلى الإسلام جعلوا التدين ضيقًا في العطن وتبليدًا في الإحساس وعدم اكتراث بما يقوله أو يشعر به غير المؤمنين من الناس؛ بل ربما ظنوا هذا التبليد وعدم الاكتراث دلالة على قوة الاستمسك بالدين، مع إنه في حقيقته عدم فقه به؛ بل وصد للناس عنه.

ماذا يقول أمثال هؤلاء في قول الله تعالى لعبادة المؤمنين من أصحاب رسوله الكريم ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَفِisَاءٌ مُّؤْمِنَتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، في هذه الآية الكريمة يبين الله لعباده العلة في منعهم من دخول المسجد الحرام لمقاتلة أعدائهم المعتدين من المشركين.

العلة هي أنه كان بمكة آنذاك أناس قد آمنوا ولم يكن المسلمون يعرفون ذلك عنهم، فلو أنهم دخلوا على الكفار ربما قتلوا بعض إخوانهم هؤلاء ماذا كان سيجد حينئذ؟ سيعير الكفار المسلمين بأنهم لا يبالون حتى بقتل إخوانهم، وربما شاع هذا بين الناس فصدقة بعضهم ولثلا يحدث هذا الأمر الشنيع منع الله المؤمنين

من عمل هو في أصله مشروع؛ لأنه كان سيؤدي في تلك الحال إلى أن تصيب المسلمين بسببه معرة، وكيف يفهم أمثال هؤلاء قول الرسول ﷺ: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»؟ قال ﷺ هذا عندما اقترح عليه بعض أصحابه قتل بعض المنافقين، فالرسول ﷺ لم يعلل عدم أخذه برأيهم بأن أولئك المنافقين لا يستحقون القتل، وإنما علله بأن قتلهم يشوه صورة الإسلام في أذهان الناس، فالمنافقون في الظاهر للناس هم من أصحاب محمد ﷺ فقتله لهم هو فيما يبدو لهم قتل لأصحابه. لكن قتل الأصحاب ليس مما يتناسب مع دين يقوم على الحق والعدل لو كان الحكم في هذا إلى بعض ضيقي الأفق عديمي الفقه أولئك، لقال قائلهم ما دامت الحقيقة أنهم منافقون فسأقتلهم ولا يهمني ما يقول الناس^(١).

فائدة: المنهج الصحيح للدعوة إلى الله:

الدعوة إلى الله أشرف مهمة يقوم بها إنسان، لذلك اصطفى الله تعالى لها أكرم خلقه فجعلهم رسلاً إلى الناس، والداعية المسلم داع إلى الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وهو نائب عن الرسول ﷺ في هذه المهمة؛ لذلك كان من الطبيعي أن تكون دعوته على بصيرة، أي عن علم بما يقول الله تعالى، وما يقوله رسوله ﷺ، وكان من الطبيعي أن يكون ملتزماً في دعوته أشد الالتزام بما أوحى الله إلى رسوله ﷺ، لا يحيد عنه قيد أنملة، وإلا لم

(١) من قواعد الدين المحافظة على حسن سمعة المسلمين، جريدة الميثاق الإسلامي، ربيع الثاني ١٤٢٥هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ١٩٥).

تكن دعوته إلى الله؛ بل كانت إلى ما يراه هو وما يهواه ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، لكن ما أصعب أن يلتزم الداعية - حتى لو كان مخلصاً - بمثل هذا الالتزام، في بيئة تكون فيها شرائع الإسلام التي يدعو إليها غريبة غير مألوفة!

ما أسهل أن ينزلق الداعية فيحيد عما أوحى الله، وهو يحسب أنه يدعو إلى الله! لقد كان سبب العزلة التي سقط فيها بعض الناس - وهم من الدعاة - أنهم في سبيل جعل الحكم الإسلامي مقبولا للعقلية الغربية أو المستغربة، بدؤوا يضيّقون ذرعاً بكل ما لا تقبله هذه العقلية من تعاليم هذا الدين، وإن كان مما جاءت به النصوص الصريحة، وإن كان محل إجماع بين علماء المسلمين، تراهم لذلك يهرعون إلى تلقّف كل رأي يخلّصهم من هذه التعاليم ويسمونّه اجتهاداً، لكنني وجدت في مؤتمر إسلامي نظمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة.

إن هذا الانحراف أدى عند بعض الناس إلى انحراف آخر أخطر منه، فقد بدا لي من أقوال بعض الذين شاركوا في هذا المؤتمر أنهم - في سبيل قبول بعض التقاليد الغربية السياسية - بدؤوا يقبلون معها ما يرونه لازماً لها من الأفكار والمعتقدات الغربية، ومن ذلك أنهم - في سبيل إيجاد مكان للتعددية السياسية في الدولة الإسلامية - صاروا يذمون كل من يظهر استمساكاً شديداً بما يعتقد أنه الحق ويقولون لا أحد غير الله تعالى - الذي يسميه بعضهم بالمطلق - يمتلك الحقيقة. فكأنهم يقولون إنك لكي تعترف بالآخر لا بُدَّ أن تعتقد أنه قد يكون

على صواب وتكون أنت على خطأ.

قلت لهؤلاء الإخوة: إن هذا يمكن أن يقال في مجال الأمور الدينية الاجتهادية، والأمور الدنيوية المبنية على الرأي، أما إذا قام الدليل القاطع على أمر ما أنه الحق، فلا مجال للتشكيك فيه سواء كان من الأمور الدين أو من أمور الدنيا، وإلا كان معنى هذا القول الاعتقاد بنسبية الحقيقة، والقول بنسبية الحقيقة -في غير مجال العلوم الطبيعية- هو من أمراض الحضارة الغربية الخطيرة التي تعدُّ كثيرٌ من مشكلاتها الاجتماعية أعراضاً لها.

إن القول بنسبية الحقيقة هو الذي يجعل القيم الخلقية قيماً نسبية، فلا يجيز لذلك لإنسان أن يقول عن سلوك إنسان آخر إنه خطأ أو غير خُلقي أو يذمه بأي نوع من أنواع الذم، ولذلك صاروا الآن يستبدلون بعبارة (الشذوذ الجنسي) عبارة (الميل الجنسي)، أي إن الرجل الذي يكون ميله إلى الرجال أو المرأة التي يكون ميلها إلى النساء هما كالرجال والنساء الذين يكون ميلهم إلى الجنس الآخر، لا فرق بين الميلين، لذلك ينبغي ألا يكون هنالك تفرقة في المعاملة.

وقلت لهم هل معنى ذلك إنني في سبيل قبول ما يسمونه بالآخر ينبغي ألا أجزم بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله، وأن الشرك باطل ومذموم؟ هل يقول بهذا عاقل؟ ولكن هذا هو الذي يؤدي إليه القول بعدم امتلاك الحقيقة. نعم إنه لا أحد غير الله تعالى يعرف كل الحقائق، لكن من نعمة الله علينا أن جعل لنا نحن البشر الناقصين سبيلاً إلى معرفة بعض الحقائق التي

تهمنا والتي تعتمد عليها حياتنا، وجعل العلم بها والإيمان اليقيني بصوابها شرطاً في نيل مرضاته سبحانه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، بل جعل اليقين بها شرطاً للدعوة إليه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِثَابِتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقلت: إن تحملي للآخر وتسامحي معه لا يلزم أن يكون مبنياً على شكّي وارتياحي فيما عندي؛ بل يمكن أن أتحمّل وأُحسِنَ إلى من يخالفني وأنا موقنٌ إنني على الحق وأنه على باطل، ألم يقل الله تعالى عن بعض الكفار: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَيِّلُكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُغْرِجُكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْطِعُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْطِئِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]؟^(١)

فائدة: من المنهج الصحيح الموازنة بين آثار الشيء الحسنة والسيئة:

بما أن أعمال الناس حسنة كانت أم سيئة إنما تنتج عن تصوراتهم، فإن أنجع وسيلة لعلاج ميولهم إلى الأعمال الشريرة هو إقناعهم بخطأ التصورات التي أدت إليها. لكن هذا الأمر لا يتيسر دائماً لأسباب كثيرة:

- ١ - منها أن العمل الذي نراه شراً ويراه فاعله خيراً قد يكون من النوع الذي يحتاج إلى سرية شديدة كأعمال التفجير.
- ٢ - ومنها أن المستعد للإقدام على مثل هذا العمل يكون قد سجن نفسه

(١) من مزالق الدعاة، شبكة المشكاة الإسلامية، شعبان ١٤٢٤ هـ - أكتوبر ٢٠٠٣ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٢٠١).

في جماعة ضيقة صارت تمثل بالنسبة له العالم كله، فما رآته خيرًا فهو خير وما رآته شرًا فهو شر رغم أنف المعترضين من خارجها.

٣- ومنها أن الذي ينضم إلى مثل هذه الجماعة ويأتمر بأوامرها أمرًا مطلقًا يكون في العادة من شبان فيهم إخلاص وإقدام لكن يغلب عليهم الجهل وقلة التجربة.

فما العمل إذن؟

عدم معرفة أعيانهم لا تمنع من مخاطبتهم مخاطبة عامة تصلح لكل إنسان عاقل ولا سيّما إذا كان مسلمًا وهذا ما يقوم به الآن كثير من السياسيين والكتاب والفقهاء، لكن هذه المخاطبة العامة لا تغني عن مخاطبتهم مخاطبة خاصة تتناول الحجج التي يعتمدون عليها في تسويقهم لعملهم.

أين نجد هذه الحجج؟

نجدها أحيانًا عند بعض من يرون رأيهم ويدافعون عنهم ممن قد يكونون أو لا يكونون معهم. وقد قدّر لي أن أعرف بعض هذه الحجج بسبب الأسئلة التي تعقب المحاضرات العامة، أقول بعضها ولا أقول كلها ولا أهمها.

سألني أحد الشباب الصغار عقب محاضرة ألقيتها بمسجد بالخرطوم عن رأيي في حوادث لندن، فلم يعجبه جوابي فرد علي قائلاً: إن هؤلاء الغربيين فعلوا كذا وكذا وقتلوا الآلاف من الأبرياء في أفغانستان والعراق. قلت: نعم وهم في هذا مجرمون وظالمون، فنحن لا ندافع عنهم ولا نبحث عن مسوغات لجرمهم.

قال فماذا نعمل إذن؟ هل نضل ساكتين وهم يفعلون ما يفعلون. قلت: لا.

قال لكن ليس لنا وسيلة غير هذه التفجيرات نرد بها عليهم.

أقول أولاً: إن هذا ليس بصحيح. فالناس في أفغانستان والعراق ما زالوا

يقاتلون المحتلين. وهذا من حقهم.

وثانياً: إنك لا تنصدين الله بعمل يبغضه الله. والله تعالى نهانا عن قتل

الأبرياء، إن إقدام عدوك على جرائم يجرمها عليك دينك لا يحل لك هذه

الجرائم. هل ترى أن نعمل بأسراهم ما فعلوا هم بأسرانا في أبي غريب؟ هل ترى

أن تركب الفواحش مع رجالهم إذا ارتكبوها هم مع الأسرى من رجالنا؟

يستدل بعضهم بمشروعية هذه الأعمال بما يراه من نتائج حسنة أدت

إليها. لكن اعتبار النتائج الحسنة دون النظر إلى السيئة، أو السيئة دون النظر إلى

الحسنة ليس من شأن العقلاء، لأنك تستطيع بمثل هذا المنطق أن تسوغ كثيراً

من أنواع الظلم أو تعترض على كثير من وسائل الخير، إن المنهج الصحيح هو

أن توازن بين آثار الشيء الحسنة والسيئة فما غلب حسنه على سوءه كان في

جملته حسناً، وما غلب سوءه على حسنه كان ممنوعاً.

كما قال الله تعالى في تعليقه لتحريم الخمر والميسر ﴿وَأْتَاهُمَا أَكْثَرُ مِنْ

فَنَعِيمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وكما قال في نهيه عن سب آلهة المشركين ﴿وَلَا تَسُبُّوا

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، لو أن حكومة

ما ضاقت ذرعاً بالكذابين فقررت أن تقطع لسان كل من ثبت عليه كذب لأدى

ذلك إلى تقليل عدد الكذابين ما في ذلك شك، لكن الأضرار الناتجة عنه ستكون أكبر.

يتصل بهذه المسألة مسألة أخرى تتعلق بسمعة الإسلام والمسلمين. إن أعظم مهمة يقوم بها إنسان هي الدعوة إلى الله. وهذه الدعوة تقتضي أن تبلغ دين الله إلى الناس كما هو فلا تحرفه بقول أو عمل، وإلا كنا من الذين يصدون عن سبيل الله بدلاً من أن نكون من الداعين إليه.

إن الإساءة إلى سمعة المسلمين هي من نوع الصد عن سبيل الله، ولذلك فإن الله تعالى علل منعه للمسلمين من مهاجمة عدوهم بمكة بقوله سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُكُمُ الْفَجْأَةَ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرَ عِلْمٍ وَكَيْدٍ لِلَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، هذا الذي فعله كفار مكة كان عملاً عدوانياً حتى بمقاييس التقاليد العربية التي لم تكن تبيح صد إنسان يريد زيارة بيت الله الحرام، فكان من حق المؤمنين إذن أن يهاجموهم دفاعاً عن حقهم هذا، لكن الله تعالى منعهم وعلل منعه لهم بأن العرب ستعيرهم بقولهم إنهم قتلوا إخوانهم مع أنهم لو قتلوهم في من قتلوا لكانوا معذورين لعدم علمهم بوجودهم.

فكيف يُقدم مسلم على قتل أناس يعلم أنه قد يكون فيهم بعض إخوانه المسلمين، ويعلم أن أغلبهم بل ربما كانوا جميعاً من الأبرياء الذين لا مشاركة لهم في قتل المسلمين بقول أو فعل، بل ربما كان بعضهم من الذين اعترضوا على

ذلك؟ إن أكثر الناس فرحا بهذه الأعمال هم أعداء الإسلام الحقيقيون الذين يغيظهم سرعة انتشاره بين ذويهم. إنهم يعلمون أن مثل هذا العمل هو أحسن وسيلة لصيد الناس عن الإسلام. من ذا الذي يقدم على اعتناق دين يرى أن أهله لا يبالون بقتل الأبرياء حتى لو كانوا من إخوانهم في الدين؟^(١)

فائدة: الداعية وهداية الناس:

الله تعالى قد حصر مهمة الرسول ﷺ في البلاغ فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وكرر الله هذا المعنى في آيات كثيرة وكما أنه سبحانه وتعالى بيّن للرسول ﷺ مهمته فقد بيّن له أيضا نتائج هذه المهمة وما لا يتصل بهذه المهمة كي لا يشغل نفسه بها، وأريد أن أتكلم لكم في كلمات موجزة عن بعض هذه المهام التي تتصل بمهمة البلاغ كما ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

فأولاً: ما دامت مهمة الرسول ﷺ وبالتالي مهمة كل داعية يتبع خطى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما دامت هذه المهمة محصورة في البلاغ، فينبغي على الداعية أن يبلغ الرسالة كما هي وألا يزيد فيها ولا ينقص منها وأن يستمسك بها كما أنزلها الله سبحانه وتعالى.

(١) مناقشة شبهات المفكرين، موقع الشيخ جعفري، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٢٢).

وينبغي عليه ثانياً: أن لا يظن أن من مهمته أن يدخل الإيمان في قلوب الناس، فذلك أمر قد تكفل الله سبحانه وتعالى به ولم يتركه لنبي أو لداعية أو لأحد من البشر، ولكن هذا مما يصعب على الإنسان جداً فالإنسان عجول يريد أن يرى نتائج عمله، والناس كما قيل كأسراب القطا مجبولون على حب التقليد والموافقة، فالإنسان يحب إذا قال للناس كلاماً أن يقبلوا منه هذا الكلام وأن يعيدوه لكي يكونوا مثله، فإذا لم يفعلوا هذا غره شياطين الإنس والجن على أن يغير هو في دعوته كي تناسب ما عندهم هم.

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حذر رسوله ﷺ من أمثال هؤلاء فقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيََا إِلَيْكَ لِغَتَرَىٰ عَلَيْنَا غِثْرَةٌ وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا ۚ﴾ ﴿٧٣﴾ ولولا أن تبنتك لقد كدت تركن إيتهم شيئاً قليلاً ﴿٧٤﴾ إذا لأذقنك ضعف الحيوة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴿[الاسراء: ٧٣-٧٥]﴾، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا﴾.

هذا كلام في غاية الأهمية؛ وذلك لأن دعة الباطل والكفار ليغرون الداعية بأنه إذا غير هنا أو غير هناك أو أول الدين أو فسر به بما يناسب أهواءهم، فإنهم يحبونه ويعظمونه وهذا ما يحدث الآن في واقعنا، فإن المستشرقين وأمثالهم من الشيوعيين وغيرهم كثيراً ما يمدحون الدعاة أو المنتسبين إلى الإسلام، الذين يعمدون إلى مثل هذا التغير فيصفونهم بسعة الأفق وفهم العصر، ويصفونهم بأنهم يجعلون الدين للناس يسراً ويصفونهم بأنهم أذكاء وبأنهم متحررون وبأنهم كذا وكذا، وهذا يغر الإنسان فيتمادى في التحريف وهم لا يريدون لهذا

التحريف أن يقف عند حد، فكل ما وجدوا إنساناً أكثر تحريفاً عظموه عمن هو أقل منه تحريفاً؛ لأنهم لم يرضوا عنه ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، هذه الغاية التي يريدون للإنسان الداعية أن يصل إليها.

وإذا كان هذا قد حدث في زمان الرسول ﷺ فإنه موجود عندنا الآن، إن المجتمع وإن المنحرفين فيه كثيراً ما يضغظون على الدعاة بأن يفسروا الدين وأن يؤولوه بما يناسب أهواءهم، والداعية المخلص يظن أنه إذا استجاب لكلامهم فإن هذا مما يدعونه؛ لأن يقبلوا كلام الله سُبحانه وتعالى ويقبلوا دعوته، ولكن الله سُبحانه وتعالى يحذر الرسول ﷺ ويبين له أن الإنسان الصالح الذي يريد الهدى يكفيه هذا الذي أنزلناه إليه، وأما الذي يقترح عليه بأن يغير هنا أو يبدل هناك لكي يستجيب لدعوتك فإنه لن يستجيب أبداً.

ولهذا يقول الله سُبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ﴿فَإِنْ أَسْطَظَعْتَ أَنْ تَبْنِيَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ولذلك كما قلت في عصرنا هذا رأينا كثيراً من الناس يضيّقون صبراً بكثير من أحكام الإسلام التي لا تتمشى مع أهواء العصر، فهم يضيّقون بتعدد الزوجات وبرجم الزاني المحصن؛ لأن الغربيين يرون أن هذا من القسوة؛ بل كل الحدود يرون أنها من القسوة ويضيّقون صدرًا بالربا؛ لأن البنوك كلها تتعامل به ويظنون أن الحياة لا يمكن أن تسير إلا به، ويضيّقون صدرًا بقتل المرتد؛ لأن هذا لا يتناسب مع التسامح الديني كما هو مفهوم في الغرب؛ بل إن هذا الضيق قد يصل إلى بعض العقائد فإن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام

أصبحوا يضيّقون صدرًا بالمعجزات لما فيها من خوارق العادات.

وقد قرأت قريبًا في كتاب ترجمة لمعاني القرآن باللغة الإنجليزية، وتعليقًا عليها لم يكد الكاتب يترك معجزة من المعجزات التي وردت في القرآن الكريم إلا أولها تأويلًا يصرفها عن معناها، فقال مثلاً في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، إن هذا كان زلزلاً وقال في قوله تعالى: ﴿الْقَلْبَ تَرَكَّ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، إن هذا كان وباء وهكذا وكما قلت قد يصل الأمر إلى بعض العقائد، فيضيّق الداعية صدرًا بكل ما يجد في القرآن مما يتناسب مع أهواء العصر؛ بل هذا قد يقع فيه بعض الموحدين فيبالغون في التنزيه وفي البعد عن الخرافات، حتى إنهم ليضيّقون بكل ما ليس مناسبًا كما قلت مع أهواء العصر، مثل: تقبيل الحجر الأسود، ومثل: رمي الجمرات وهكذا، فعلينا أيها الإخوة الكرام ونحن نرسم خطى الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه أن نحذر من كل هذا، وأن نستمسك استمسكًا شديدًا بما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنْ لَا نَلْتَفِتَ إِلَى أَهْوَاءِ الْعَصْرِ^(١).

فائدة: الداعية لا يحزن ولا ييأس من عدم استجابة الناس لدعوته:

حذرا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرسول ﷺ من الحزن؛ لأنه إذا كانت مهمتك أيها الرسول أن تبلغ فينبغي أن لا تحزن مهما كان رد فعل الناس ومهما أعرضوا،

(١) وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٠٣).

قال الله تعالى للرسول ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ تَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ هَذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

والداعية لا ييأس أبدًا؛ لأن الإنسان الذي ييأس هو الذي يظن أن عليه أن
يهدي الناس وأن يحملهم على أن يقبلوا دعوة الله سبحانه وتعالى، أما الذي يتذكر
أن مهمته هي البلاغ فيستمر في هذا التبليغ حتى ولو أعطاه الله سبحانه عمرًا
كعمر نوح عليه السلام ولا ييأس أبدًا؛ لأنه يعلم أن مهمته إنما هي أن يوصل هذا
الحق للناس لا أن يحملهم عليه حملاً، والله سبحانه وتعالى يقول للرسول ﷺ
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٠-٢١]، ﴿أَفَأَنْتَ تَكْذِبُهُ
النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، إن هدى الله ليس من مهمة الرسول،
وليس من مهمة أي بشر أو أي داعية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] (١).

فائدة: محمد ﷺ نبي الرحمة:

أرسل الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، رحمته بشخصه:
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ
وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي
الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ورحمته

(١) مهمة الداعية البلاغ، مجلة التوعية الإسلامية في الحج، العدد ١٨، ذو الحجة ١٤٠٢ هـ. وانظر
كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)، ١٤٣٩ هـ (ص: ٢٠٣).

برسالته: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرَىٰ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] (١).

فائدة: رحمة رسالة محمد ﷺ بقلوب العباد:

إن كل ما يزيل عن الإنسان أسباب الضيق والعنت والضرر والشقاء ويسر له ما يجعل حياته أطيب هو من رحمة الله تعالى بعباده، ورحمة الله تعالى بهذا المعنى وسعت كل شيء، وهي نوعان رحمة قدرية ورحمة تشريعية. وفي كتاب الله تعالى عشرات الأمثلة التي تدل على أنواع الرحمة قدرية كانت أم شرعية. من ذلك قوله تعالى على لسان عبده نوح موجه الكلام إلى ابنه: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، عندما أبى أن يركب معه في السفينة وظن أنه سينجو من شقاء الغرق بأن يأوي إلى جبل يعصمه من الماء.

وشفاء أمراض النفوس مما تأمر به من أنواع السوء هو من رحمة الله

(١) نبي الرحمة الإيمانية، شبكة المشكاة الإسلامية، ذو الحجة ١٤٣١ هـ - أكتوبر ٢٠١٠ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشقيلبا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ١٤٦).

تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشَّوْءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[يوسف: ٥٣].

والفوز العظيم يوم القيامة إنما يكون برحمة من الله تقي الإنسان من سيئاتها ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَوَلَّى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩]، والنجاة من العذاب رحمة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُحْيِي الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨]، وكشف الضر رحمة ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

من أنواع الرحمة التي يذهل عنها كثير من الناس ما نسميه اليوم بالمنجزات المادية التي تيسر الحياة.

فهذا ذو القرنين يقول عن السد الذي وفقه الله تعالى لبنائه. ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، وهذا صاحب موسى يقول عن كشفه لكنز الغلامين بأمر من الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئِكَ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

جاء هذا الكتاب هادياً إلى كل أنواع الرحمة التي يسعد بها الإنسان في حياته وبعد مماته، جاء بالرحمة النفسية التي هي أصل كل رحمة. ثم جاء بالرحمة العملية التي هي من لوازم تلك الرحمة النفسية ومكملاتها. لكن

تركيزنا في هذا المقال إنما هو كما ذكرنا على الرحمة المتعلقة بالقلوب، على الرحمة الايمانية.

فنقول: إن الإنسان يسعد وتطيب نفسه إذا ما كانت حالته النفسية الواقعية من معتقدات وتصورات مناسبة مع الحالة النفسية التي فطره الله عليها، فكلما اقترب حاله الواقعي من حال الفطرة ومقتضياتها كانت حياته النفسية أسعد وأطيب، وكلما ازداد بعده عنها ازداد شقاؤه النفسي مهما عاش في أنواع من النعم الخارجية.

وقد أرسل الله تعالى محمداً ﷺ كما أرسل سائر إخوانه الرسل برسالة مبناها على فطرته التي فطر الناس عليها: ﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، فالدين الحنيف يأتي مقراً لهذه الفطرة ومبنيًا عليها، ومفصلاً لمقتضيات الإيمان بحقائقها، ومعطياً الأدلة على صدق تلك الحقائق، والأدلة على زيف ما يخالفها من أنواع الدعاوى والشبهات، وفي هذا كله رحمة واسعة بالمؤمن بما يدعوه إليه رسل الله؛ لأنه يكون حينئذ ذا قلب سليم وعلم وأدلة وحجج يقهر بها الخصوم.

الإنسان مخلوق لله فهو مفطور على الاعتراف بهذه الحقيقة كما هو المشاهد على مر الزمان، وكما تشهد به الدراسات الانثروبولوجية الحديثة التي درست ثقافات معظم الشعوب، لكن إذا كان هذا الأصل الإيماني بالاعتراف بوجود الخالق هو الغالب على معظم البشر، فإن أكثر الناس يحيدون عن لوائمه

ومقتضياته، فيأتي رسل الله تعالى ليهدوهم إلى هذه المقتضيات ويدعوهم إلى الإيمان بها ليكون إيمانهم كاملاً. يؤمن الإنسان حتى قبل مجيء الرسول بأن له خالقاً، لكنه قد لا يذكر هذا الخالق إلا قليلاً وقد لا يعرف من صفاته ما يؤثر في حياته، فتكون حياته في الواقع كحياة الذين ينكرون وجوده سبحانه.

كتب أحد الإنجليز المعاصرين كتاباً يدعو فيه إلى الإلحاد، وكان مما ذكره في كتابه أن بعض الدراسات أثبتت أن المؤمنين ليسوا بأكثر استمساكاً بمكارم الأخلاق من الملحدين. شاركت بورقة في أحد المؤتمرات كانت رداً على بعض دعاوى هذا الملحد فقلت للناس فيما يتعلق بهذه المسألة: إن كلامه قد يكون صحيحاً؛ لأن ذلك يعتمد على نوع الذين عدّهم من المؤمنين.

ثم ذكرت لهم أن مجرد الإيمان بوجود الخالق لم يعصم العرب الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ من أن يعبدوا معه غيره من كل أنواع الأصنام والأوثان. بل أقول الآن وإنه لم يعصم الغربيين المتدينين من مثل هذا الشرك.

يأتي الرسول ليقول للناس إنكم على حق في إيمانكم بوجود الخالق وربوبيته، ويهديه إلى حجج تؤيد هذا الإيمان الفطري وترد على منكبيه، من ذلك قوله تعالى في كتابه رداً على منكري وجوده سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، ثم يقول له إن هذا الإله الذي تؤمن بأنه هو وحده الذي خلقك وهو وحده الذي يرزقك والذي بيده حياتك ومماتك، هو أيضاً هو وحده الذي ينبغي لك أن تعبد، ويعطيه أدلة كثيرة على ذلك منها قوله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَمَقُّونَ ۝﴾^(١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢١-٢٢]، ﴿وَأِذْ هَبْنَا إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْفِقُوا ذُرِّيَّتُكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾^(٢) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[المنكبوت: ١٦-١٧]، في هذه الآيات وغيرها كثير يرشد الله تعالى عباده إلى أنه بما أن العبادة إنما هي في أصلها شكر، فإن هذا الشكر ينبغي أن يكون لصاحب النعمة لا لغيره. إذا استجاب الإنسان لهذا الأمر الإلهي فعبد الله تعالى وحده ولم يشرك معه شيئاً في هذه العبادة يكون قد استحق بفضل الله تعالى أكبر رحمة يرحم بها بشر؛ لأن توحيد الله تعالى هو لب كل خير؛ ولأن الشرك به هو أساس كل شر، وهي رحمة يشعر بها الإنسان في قلبه ويجد لها حلاوة لا تدانيها حلاوة، وتجعله يعيش حياة لا حياة أطيب منها^(١).

فائدة: الإيمان بالخالق سبحانه لا يكتمل إلا بالإيمان بحقائق أخرى هي

من لوازم الإيمان بربوبيته وألوهيته:

الحقيقة الأولى: من هذه الحقائق معرفة صفات هذا الخالق وأسمائه الحسنى؛

(١) نبي الرحمة الإيمانية، شبكة المشكاة الإسلامية، ذو الحجة ١٤٣١ هـ - نوفمبر ٢٠١٠ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ١٤٧).

وذلك لأن الإنسان كلما ازدادت معرفته بربه ازدادت خشيته له وازداد قربه منه فازدادت بذلك سعادته، وكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت كذلك معرفته بمقتضيات تلك الصفات، فازداد فقهه لكلام الله، وازداد تفكره في آيات الله الكونية والكلامية وعلمه بها وبمقتضياتها، كتاب الرحمة الذي أنزله الله تعالى على عبده محمد ﷺ مليء بذكر هذه الصفات، فالرب الذي جرد عبادته له هو المتصف بكل صفات الكمال المنزه عن كل صفات النقص، فمن صفات كماله أنه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٣ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، ومنها أنه ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٢٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الحقيقة الثانية: التي هي من مكملات الإيمان بالله تعالى الإيقان بأنه سبحانه لا بُدَّ أن يرسل إلى عباده رسلاً وينزل عليهم كتباً تتضمن هدايته لهم، كيف يمد الله تعالى عباده بكل ما يحتاجون إليه من أنواع الرزق المادي الذي لا تقوم حياتهم الجسدية إلا به، ثم لا يمدهم بما يحتاجون إليه من أنواع الهداية التي هي قوام حياتهم الروحية التي هي الحياة الحقيقية؟ فالإيمان بضرورة إرساله

سبحانه للرسول وإنزاله للكتب هو من لوازم معرفة الإنسان بصفات ربه سبحانه. لذلك ذم الله تعالى أقوامًا أنكروا رسالات السماء ووصفهم بأنهم لا يقدرُونَ الله حق قدره إذ ينكرون بعض ما هو من لوازم صفاته. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، وكما يهديه سبحانه إلى هذه الحقيقة فإنه يهديه إلى مقتضياتها، فمن ذلك أنه يهديه إلى الدليل الذي يدل على أن الرسالة هي حقًا من الله تعالى وهو أن لا يكون فيها تناقض واختلاف ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وأن يكون فيها ما يدل على هدايتها ولا سيما إذا ما قورنت بغيرها من الكتب البشرية: ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتُبِ مَنْ عِندَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

وإذا كانت الرسالة السماوية أكبر رحمة يرحم الله تعالى بها عباده فلا بُدَّ أن تكون موجودة في كل زمان ومكان، وأن يكون بإمكان البشر أن يطلعوا عليها ويهتدوا بها كما يوجد الهواء اللازم لحياتهم الحسية في كل زمان ومكان، بل أكثر من ذلك. ينظر الإنسان العاقل حوله باحثًا عن هذه الرسالة في عصره هذا فيكتشف أنه لم يبق من رسالات السماء إلا الرسالة التي أنزلت على محمد بن عبد الله، ولم يبق من رسل الله رسول تعرف سيرته ليقترن به إلا محمد بن عبد الله. فيقول في نفسه هذا والله إذن هو خاتم رسل الله، إن الإنسان لا يعيش فردًا منبت الصلة بغيره من البشر لا يتأثر بهم في طريقة أكل أو شرب أو لبس أو سلوك أو عبادة؛ بل إن بعض الناس ليتأثر ببعض في كل ذلك ويحذو حذوهم.

فمن رحمة الله تعالى بالإنسان المؤمن أن يدلّه على رجل شهد له سبحانه بالسير على صراطه المستقيم وجعله قدوة لغيره من الذين يبتغون الوصول إلى الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فمن أراد الوصول إلى الله تعالى بذل جهده في الاقتداء برسوله في عبادته وفي خلقه وفي معاملاته.

فالذين يحاولون التنقص من قدر هذا النبي لا يعادونه أو يعادون المسلمين فحسب، وإنما يعادون البشرية كلها إذا يحاولون أن يسدوا عليها الطريق الموصل إلى الرحمة التي جاء بها محمد بن عبد الله. وإذا آمن الإنسان برسول الله وبالرسالة التي أنزلت عليه فإن الله تعالى يرحمه رحمة ثانية بأن يهديه إلى الطريقة التي يتعامل بها مع هذه الرسالة السماوية ومع الرسول الذي أنزلت عليه، فلا يقدم على كلام الله أو كلام رسوله شيئاً من رأي أو ظن أو أمر لمخلوق، بل ويتجنب حتى رفع صوته على صوت الرسول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاقْنُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۚ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَقْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَاثَةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ١-٣].

وإذا كانت رسالة كالرسالة المحمدية موجهة إلى البشر جميعاً، بل وحتى إلى الجن، فإنه يلزم من ذلك أن تكون رسالة واحدة تفهم على حقيقتها في كل زمان ومكان بعد نزولها، لمن أراد فهمها وحقق شروط ذلك الفهم. أعني أنها لا

يمكن أن تكون في طبيعتها قابلة لأن تفهم بأوجه مختلفة متناقضة بحسب زمان القارئ ومكانه كما يقول بعض الجاهلاء اليوم؛ لأنها إذا كانت كذلك لم تكن رسالة واحدة، بل كانت رسائل متعددة، وسبحان الله عن مثل هذا العبث.

الحقيقة الثالثة: التي لا يكتمل الإيمان إلا بها والتي هي من لوازم صفاته، ومن لوازم طبيعة مخلوقاته لمن تأملها هي أن بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يلقي فيها المطيع لله جزاء إحسانه ويعاقب فيها الكافر على إساءته، وفي القرآن الكريم أدلة كثيرة على ضرورة وجود هذه الدار وكونها أمر تقتضيه صفات الخالق وطبيعة مخلوقاته.

فالله تعالى حكيم لا يمكن أن يفعل شيئاً عبثاً. وإرسال الرسل ثم عدم التفريق بين من آمن منهم بالرسالة التي أرسل بها رسله ومن كفر بها وأنكرها نوع من العبث الذي يتنزه الله تعالى عنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كُنُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ (٢٦) ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الفلم: ٣٣-٣٦]، بل إن وجود السماوات والأرض وغيرها من أنواع الخلق هو من الأدلة على وجود تلك الدار الآخرة؛ لأن الله تعالى إنما خلق هذه المخلوقات الدنيوية وسخرها لمنافع الناس مسلمهم وكافرهم، فكيف يكون مصير النوعين واحداً بعد انقضاء هذه الحياة الدنيا وما فيها؟ ولذلك فكثيراً ما نجد القرآن يقرن بين البعث وخلق السموات والأرض بالحق: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا يَنْتَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٢٢٠﴾
[الروم: ٨٠]، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ وَمَنْهُمْ سَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَالْحَقَّ وَلِشَجَرَيَّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢٢﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢].

وللإمام ابن كثير كلام نفيس في هذا الصدد قال رحمه الله تعالى، قَالَ
تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ
كَالْفُجَّارِ﴾، أَيُّ لَا نَفْعَلْ ذَلِكَ وَلَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ
دَارٍ أُخْرَى يُنَابِ فِيهَا هَذَا الْمُطِيعُ وَيُعَاقَبُ فِيهَا هَذَا الْفَاجِرُ، وَهَذَا الْإِرْشَادُ يَدُلُّ
الْعُقُولَ السَّلِيمَةَ وَالْفِطَرَ الْمُسْتَقِيمَةَ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَعَادٍ وَجَزَاءٍ فَإِنَّا نَرَى الظَّالِمَ
الْبَاقِيَ يَزْدَادُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَنَعِيمَهُ وَيَمُوتُ كَذَلِكَ، وَنَرَى الْمُطِيعَ الْمَظْلُومَ يَمُوتُ
بِكَمَدِهِ فَلَا بُدَّ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْعَادِلِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ
إِنْصَافٍ هَذَا مِنْ هَذَا وَإِذَا لَمْ يَقَعْ هَذَا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى
لِهَذَا الْجَزَاءِ وَالْمُؤَاسَاةِ وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ يُرْشِدُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَأْخِذِ
الْعَقْلِيَّةِ الصَّرِيحَةِ. وكما أن مجرد الإيمان بوجود الخالق، بل حتى بربوبيته من
غير معرفة بأسمائه وصفاته سبحانه وما تقتضيه هذه الصفات لا يكفي لإصلاح
حال الإنسان وتعرضه لرحمة الله تعالى، فكذلك مجرد الإيمان بوجود دار آخرة
لا يؤثر في حياة الإنسان ويصلحها إذا لم تكن له معرفة بتلك الدار وتصور
صحيح لها.

ولذلك نجد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ وصفا مفصلاً للجنة

التي يجازى بها المتقون والنار التي يعاقب بها الكافرون حتى كأنهما رأي عين. ويبين الله تعالى أن أكبر نعمة ينعم بها على عباده في دار جزائه هي تمكينهم من رؤيته تعالى .

قال النبي ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزَّجَلَّ ثُمَّ تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، وإذا كانت رؤية الله تعالى هي أرقى أنواع النعم في الجنة فهنالك نعم نفسية أخرى منها كون أهل الجنة إخوة متحابون أزال الله تعالى عن قلوبهم كل أثر لغل.

ومع النعيم المادي هنالك رزق يشبه في شكله وأسمائه ما يعرفون من أحسن أرزاق الدنيا من المأكول والمشارب والمساكن والملابس والمناخ، لكنه مختلف عنه في حقيقته وإن شابهه في اسمه.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وكما بين سبحانه تفاصيل وصف الجنة وما فيها من أنواع النعيم فقد بين كذلك بين تفاصيل وصف النار وما فيها من أنواع العذاب. بين سبحانه أنه إذا كان أكبر نعيم ينعم به أهل الجنة هو رؤيتهم لربهم، فإن أكبر عذاب يعذب به أهل النار هو حجبهم عن تلك الرؤية.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿المطففين: ١٥-١٦﴾، وإذا كان مما ينعم به أهل الجنة كونهم إخوة متحابين فإن من أشد ما يشقى به أهل الجحيم كونهم أعداء متباغضين يلعن بعضهم بعضاً، ثُمَّ يضاف إلى ذلك أنواع العذاب الأليم من نار وحر وسموم وزمهرير وأكل يقطع البطون ولباس يحرق الجسم.

يذكر الله تعالى عباده بحقيقة مهمة تتعلق بالدار الآخرة هي كونها دار خلود وأن الحياة الدنيوية دار مؤقتة لا تساوي مدة بقائها شيئاً بالنسبة للدار الآخرة، ولذلك فإن الإنسان العاقل لا يغتر بنعيمها وإن أخذ بحظ وافر منه ويصبر على أذاها وإن ناله ما ناله شدائدها، بَيَّنَّ رسول الله ﷺ الحقيقة التي تدعو إلى ذلك بصورة مؤثرة، فعن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَارَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَارَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»، رواه أحمد ومسلم.

ومن تمام الإيمان بالله أن يعرف الإنسان شيئاً عن ملائكة الله تعالى وما كلفوا به من أعمال تتعلق بصلة العبد بربه، فأعظم رسالة يؤديها هؤلاء العبيد الذين يفعلون ما يؤمرون هي حملهم لرسالة الله إلى رسله. ثُمَّ إِنَّهُمْ هُمُ

الموكلون بكل ما يتعلق بحياة الإنسان من أكل وشرب ونعيم وبؤس، وحياة وموت، وغير ذلك.

وكما هو ضروري للإنسان أن يعرف ملائكة الله المطيعين له ويؤمن بهم، فإنه من الضروري له كذلك أن يعرف أعدى أعداء الله ويكفر به، ويحذر من طاعته فيما يأمره به من أنواع الكفر والذنوب وما يلقيه في قلبه من أنواع الشهوات والشبهات، وإذا كان هذا الإيمان هو جوهر الرحمة التي جاء بها رسول الله ﷺ، فإنه إيمان تلزم عنه أعمال ظاهرة وباطنة يرحم الله تعالى عباده المؤمنين بهدايتهم إليها وإعانتهم عليها فيزدادون بها سعادة وحياة طيبة، فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تعبير باللسان عن إيمان استقر في القلب.

والصلاة هي أهم العبادات التي تنهى المؤمن عن الفحشاء والمنكر وتجعله دائم الصلة بالله: ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّكَ الصَّالِحُونَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ثم بقية العبادات من صوم وزكاة وحج كلها مما يقي الإنسان من عذاب الله ويعينه على رضوانه ودخول جنانه. ثم مكارم الأخلاق التي بعث الرسول بتمامها والتي هي من لوازم الإيمان وما يتبعه من عبادات.

فالمؤمن بالله تعالى والعامل لتلك الأعمال الصالحة يجد في نفسه ميلاً إلى الاستمسك بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة ورحمة بالناس وعدل بينهم. وإذا ما

تهياً للناس بإيمانهم وعبادتهم ومكارم أخلاقهم ليحسنوا التعامل بينهم جاءهم هذا الدين بكل ما يصلح حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية من أنواع التشريعات التي هي أيضاً رحمة بهم^(١).

فائدة: الفساد الحسي في الطبيعة سببه الفساد السلوكي في حياة الناس:

الفساد المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]، هو فساد في الطبيعة برها وبحرها سببه فساد في سلوك الناس... ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١]. ليس من شرط ذلك الفساد الحسي المترتب على هذا الفساد السلوكي أن يحدث بطريقة خارقة لسنن الطبيعة المعروفة؛ بل قد يحدث بأسباب كثيرة وسيطة بينه وبين السلوك الفاسد؛ يؤدي السلوك الفاسد إلى نتيجة، وتؤدي تلك النتيجة إلى أخرى إلى أن تؤدي الأخيرة إلى الفساد.

من أعظم أمثلة هذا الفساد في الطبيعة في عصرنا، فساد صار اليوم موضع اهتمام كبير بين العلماء تعقد له المؤتمرات وتبرم بشأنه الاتفاقات، إنه الفساد المتعلق بزيادة درجة الحرارة في الكرة الأرضية، ملخص ما يقوله العلماء المختصون في تفسيرهم لهذه الظاهرة هو أن أشعة الشمس التي تصل إلى أرضنا تتحول إلى حرارة، وأن الأرض تعكس هذه الحرارة إلى خارجها، لكنها لا

(١) نبي الرحمة الإيمانية، شبكة المشكاة الإسلامية، ذو الحجة ١٤٣١هـ - أكتوبر ٢٠١٠م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ١٥٥).

تعكسها كلها، بل تحبس جزءاً منها، وأنها لو عكستها كلها لتجمدت كل البحار ولم تعد الأرض صالحة للحياة، وأنها تحبس ما تحبسه من حرارة بفعل الغازات المتصاعدة منها وأهمها بخار الماء وثاني أكسيد الكربون والميثان. تكون هذه الغازات طبقة حول الأرض فتكون شبيهة بذلك البيت الزجاجي الذي تزرع بداخله بعض النباتات، ولهذا تُسمى بغازات البيت الأخضر.

مشكلتنا الآن هي أن كمية هذه الغازات بدأت تزداد بازدياد ما يتصاعد من الماكينات التي تحرق الوقود الحيوي كالفحم والبتروول والأخشاب. كانت حرارة الأرض ١٥ درجة مئوية، لكنها الآن ازدادت قليلاً (أقل من درجة). لكن المختصين يقولون إنها مع قلتها قد تسببت في إثارة العواصف العنيفة وارتفاع مستوى البحار واضمحلال البيئات الحيوانية. وأن من شأن هذه الزيادة إذا ما استمرت أن تؤدي إلى ذوبان الجليد، وبالتالي إلى ارتفاع مستوى البحار التي ستفيض حيثئذ على الشواطئ وتغمر بعض الجزر.

لا حل لهذه المشكلة إلا بالتقليل من استهلاك ذلك النوع من الوقود، ولكن مع أن الولايات المتحدة هي المسؤولة عن ربع ما يتصاعد من تلك الغازات فهي التي تتباطأ في التقليل من ذلك الاستهلاك.

اجتمع في السابع من شهر ديسمبر في (بوناس آيرس) كبريات المنظمات العالمية المعنية بحماية البيئة لمناقشة هذه المشكلة والضغط على الحكومات للحد من ذلك الاستهلاك، ولكي تلفت النظر إلى خطورة الأمر فقد صنعت فلماً ضخماً يشبه سفينة نوح حسب ما جاء وصفها في كتبهم، وأسموها بذلك الاسم.

لكنهم نسوا أن الذي أنجا نوحًا ومن معه لم يكن الفلك وإنما كان الفلك وسيلة أمر الله نوحًا أن يصنعها لكي ينجيه ومن معه من المؤمنين. ثم إنه بعد أن أغرق الله من يستحق الإغراق من الكافرين أمر السماء بأن تقلع وأمر الأرض بأن تبلع ماءها فاستقر الفلك على أرض يابسة.

فما الذي سيحدث لأرضنا يا ترى؟ إنهم يبحثون عن بدائل نظيفة لذلك النوع من الوقود منها البديل النووي الذي لا ندرى ما إذا ستكون نتائجه هو الآخر. وماذا إذا لم يوجد هذا البديل أو لم يكن كافيًا؟ إما أن تقلل الدول من استعمالها لذلك الوقود، وبالتالي يقل إنتاجها المادي والخدمي، وإما أن تصر على الاستمرار في استعماله فيحدث ما يخشى منه حماية البيئة: تفيض البحار، وتثور الأعاصير العنيفة، وتموت البيئات التي تعيش فيها الحيوانات الآن، ويزداد معدل الأمطار في البلاد ذات الأمطار القليلة الآن ويزداد معه تصحرها؛ لأن شدة الحرارة تقضي على النباتات في فترات الجفاف^(١).

هائدة: التدهور في الحياة الأخلاقية سببه البعد عن القيم الدينية:

من الحقائق التي لا يزال العقلاء من المفكرين الغربيين يكررون التذكير بها ويحذرون من مغبتها، والتي يراها المعاش لهم والمتبع لأخبارهم في إعلانهم، أنه قد صاحب بعدهم عن القيم الدينية تدهور في الحياة الأخلاقية، فالمخدرات

(١) ازدياد حرارة الأرض، شبكة المشكاة الإسلامية، ذو الحجة ١٤٢٥ هـ - أكتوبر ٢٠٠٥ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ ٢٠١٧ م (ص: ٢٣٢).

والإباحية الجنسية، تزداد انتشارًا حتى بين الصغار من طلاب المدارس، ويزداد معها اللجوء إلى العنف والقسوة، وقد اعتبر بعض المسلمين بهذا فرجعوا إلى دينهم بعد أن كانوا قد بعدوا عنه. سُئل أحدهم: ما الذي أعادك إلى دينك؟ فأجاب: قلت في نفسي: إذا كانت هذه هي نتيجة الطريق الذي أنا سالكة فإنها نهاية لا أريدها، بل إن كثيرًا من الآباء والأمهات في أمريكا صاروا يفرحون بإسلام أبنائهم وبناتهم حين يرون التغيير الذي طرأ عليهم. لقد صار الغرب في هذا المجال عبرة لكل عاقل معتبر. نسأل الله تعالى أن يهديهم للدين الحق، ويقيهم من مصائر هذا الطريق الذي هم سالكوه^(١).

فائدة: فوائد الشبكة العالمية للإسلام:

بالرغم مما في الشبكة العالمية من العيوب، فإنها أتاحت للمسلمين فرصة لم تُتاح لهم من قبل في وسائل الإعلام الأخرى لتعريف الغربين بالإسلام وللرد على الشبهات التي تثار حوله، ولتكون منبراً مفتوحاً للحوار بين المسلمين أنفسهم وللرد على أسئلة السائلين منهم ومن غيرهم.

ونحن - وإن لم نكن قد استفدنا من هذه الوسيلة الجديدة الفائدة التي تبيحها لنا - فإن الشباب المتابعين لما ينشر في صفحاتها الإسلامية - وما أكثرهم - قد انتفعوا بها، وشغلوا بها عن المداومة على مشاهدة التلفاز. ولم يقتصر نفعها على

(١) مزايا حقيقة ثورة الاتصالات، الشبكة العنكبوتية، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٢١٦).

المسلمين؛ بل إن بعض المشاركين من غير المسلمين يطلع عليها ويتفاعل مع أصحابها، ويكتب لهم فيها مستفسراً أو طالباً المزيد من المعرفة؛ بل لقد كانت سبباً لهداية بعضهم إلى الإسلام^(١).

فائدة: ما المقصود بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان؟

إذا كانت صلاحية الكلام لكل زمان ومكان تعني أن تُغيّر معانيه لتناسب أهواء الناس في كل زمان ومكان، فإن كل كلام حتى لو كان لأبلى الناس يمكن أن يكون له هذه الميزة. كيف؟ هب أن رجلاً اسمه (حمار) وضع مذهباً من عشر مسائل فقال: على من يقبل مذهبي: أن يفعل في الاقتصاد كذا، وفي السياسة كذا، وفي التربية كذا، إلى آخر المسألة التاسعة، ثم قال في العاشرة: «لكل من يتبع مذهبي الحماري هذا أن يفسر مسائله التسع السابقة بما يراه مناسباً لبيئته الثقافية»، أظنك توافقني القول على أنه لن يمرّ إلا وقت قليل حتى لا يبقى من مسائل حمار هذا - بحسب ما كتبها - إلا المسألة العاشرة. لكن أصحابه سيظلون يتمنون إلى هذا المذهب، وسيظلون يتفاخرون بأنهم حماريون، وأن مذهبه الحماري صالح لكل زمان ومكان؟ فهل تريد للإسلام أن يكون كذلك؟ فما معنى كون الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان إذن؟

معناه أنه كما أنزله الله - ومن غير تحريف ولا تبديل - صالح لكل من يريد

(١) مزايا حقيقة ثورة الاتصالات، الشبكة العنكبوتية، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢١٦).

الهداية من الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان. والسرف في هذا أنه تنزِيل من حكيمٍ عليم، علم ما هو صالح لعباده بما هم به بشر، لا بما هم به أهل هذا العصر أو ذاك، ولا بما هم به عرب أو عجم، أو أصحاب زراعة أو صناعة، أو في شرق الأرض أو غربها، أو غير ذلك من الاختلافات التي لا تؤثر في بشريتهم، فأنزل عليهم كتابًا غير مقيد بشيء من هذا كله^(١).

فائدة: بعض الدروس المستفادة من صلح الحديبية:

أن الدعاة إذا وجدوا أنفسهم في حال كهذه الحال (صلح المسلمين مع كفار قريش) فينبغي عليهم أن يحافظوا عليها؛ بل ينبغي عليهم أن يسعوا؛ لأن تكون حالهم مع من يدعوهم مثل هذه الحال، وأن يبينوا لهم بإخلاص أن القتال والعنف ليس هدفًا من أهدافهم؛ بل إن كل ما يريدونه هو أن يُعطوا حرية الدعوة إلى دين يرونه حقًا ويرون فيه مصلحة للمدعوين دينية ودنيوية. وهم حين يفعلون هذا سيكونون مقتنين سنة نبيهم ﷺ، انظر إلى الكلمات الرقيقة العازمة التي خاطب بها قريشًا، والتي كانت من أسباب عقد الهدنة، قال لهم ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم؛ فإن شاءوا مآدناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل

(١) الإسلام لعصرنا، لماذا وكيف، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المتندي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ١١-١٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٣٤).

فيه الناس فعلوا والا فقد جمّوا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولننفذن الله أمره».

يبدو لي أن الحال في كثير من البلاد الديمقراطية - ولا سيما الغربية - شبيه إلى حد كبير بحال المسلمين مع المشركين في سنتي الهدنة، فهي حال يستطيع فيها الدعاة الاختلاط بغير المسلمين، ودعوتهم ومجادلتهم؛ بل قد ثبت بالتجربة في بلد كالولايات المتحدة أن عدد الداخلين في الإسلام في ازدياد مطرد بسبب هذا الجو السلمي.

وعلى الدعاة في تلك البلاد إذن أن يحافظوا على هذا الجو السلمي حتى لو كانوا في مثل قوة النبي ﷺ وأصحابه حين عقدوا صلح الحديبية، فكيف وهم في حال ضعف؟ إن أكثر ما يحرص عليه أعداء الإسلام في الغرب هو أن يصوروا المسلمين على أنهم وحوش إرهابية لا غاية لها إلا تحطيم الحضارة الغربية، وقد استغلوا وسائل الإعلام لإبراز هذه الصورة للمسلمين ونجحوا في ذلك إلى حد ما. ولا يفرح هؤلاء بشيء فرحهم بتصريحات يطلقها إنسان أهوج يدعو فيها إلى العنف أو القتال في داخل تلك البلاد؛ لأنها تصدق دعواهم تلك، وتساعد على تنفير الناس من الدعاة المسلمين؛ لأنهم يعلمون أن الذي يرى فيك خطراً على نفسه وأهله لن يستمع إليك ولن يثق فيما تقول^(١).

(١) السلام وانتشار الإسلام، كتاب الإسلام نعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ١٥-١٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٣٤).

فائدة: من الخطأ العظيم أن تُحصَر الدعوة إلى الله تعالى في قلة من

المختصين؛

من الخطأ الشائع الظن بأن دعوة الله -تعالى- لا يُبلغها إلا الدعوة من العلماء الذين نالوا حظاً من كل علم من العلوم الشرعية. وإنه لخطأ عظيم أن تُحصَر الدعوة إلى الله تعالى في قلة من المختصين، وأن يعتقد غيرهم من المسلمين أنه لا حق لهم في نيل شيء من هذا الشرف العظيم، وإن كانوا من أحسن المثقفين.

إن هذا التصور الغالط للدعاة كان من أسباب عدم انتشار العلم انتشاراً واسعاً بين جماهير الناس، وكان أيضاً من أسباب عدم وصول دعوة الإسلام إلى السواد الأعظم من غير المسلمين؛ وذلك لأن عدد العلماء المختصين لا يمكن أن يسعوا بدعوتهم خَلَقَ الله أجمعين. لكن الحق أن الدعوة إلى الله شرف عظيم، قمين بكل مسلم أن يحرص على نيل نصيبه منه، كيف لا؛ والله تعالى يقول: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، والرسول ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية»!

إن المهم في الداعية -عالمًا مختصًا كان أو غير مختص- أن لا يدخل فيما لا يعلم؛ بل عليه أن يبلغ الآية أو الحديث الذي يعلم، فإذا سئل عما لا يعلم لم يتردد في أن يقول: لا أعلم، وأحال السائل إلى من يظن أنه يعلم^(١).

(١) الإسلام لعصرنا، لماذا وكيف، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المتندي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٣٢-٣٣)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٢٣٤).

فائدة: آيات الصيام ومنهج الدعوة إلى الله :

الله تعالى أعلم بطبيعة النفوس التي خلقها، وبأحسن الطرق إلى هدايتها وعطفها على قبول الحق والعمل به. لذلك نراه سبحانه لا يأمر عباده بالصيام أمراً مجرداً بل يسوق كل الحقائق التي من شأنها أن تعطف قلوبهم إلى الخير الذي يأمرهم به. يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فيخاطبهم بأحب أوصافهم إليهم. وهذا الخطاب وإن كان خطاباً عاماً إلا أنه يجعل المستمع الفرد يُؤمّل في الدخول في سلك هؤلاء الذين شهد الله تعالى لهم بالإيمان، وهل بعد الشهادة الإلهية من شهادة؟ وإذا كان يرجو أن يكون مؤمناً حقاً بعمله بما كتب الله عليه، فما أقل الصيام من ثمن لهذا الاكرام!

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] بما أن الإنسان قد يتردد في الإقدام على أمر يراه صعباً ولا يرى له فيه سلفاً، فإذا تبين له أن الأمر قد جربه أناس قبله، فأغلب الظن أنه سيقول لنفسه: إذا كان الصيام قد كتب على من قبلنا فصاموا، فما الذي يمنعنا نحن من أن نصوم؟ وإذا لم نكن أول من جرب الصيام بل جربه أناس قبلنا ونجحوا في التجربة، فما الذي يمنعنا نحن من أن ننجح كما نجحوا؟

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فالغاية من الصيام ليست تعذيب الإنسان بمنعه من الطعام والشراب والنكاح، وإنما أتى هذا المنع وسيلة ضرورية لغاية شريفة هي التقوى، والتقوى هي سبيل النجاة من عذاب الله؛ وهي من ثمّ سبيل الفوز بجزائه ومَرْضاته، ولهذا كانت التقوى هي الغاية التي تحققها كل عبادة من العبادات التي أمرنا الله تعالى بها. ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ لم يكلفنا الله تعالى بصيام السنة كلها ولا بأكثرها،

وإنما هي ثلاثون يوماً من أيام العام التي تبلغ أكثر من ثلاثمائة وخمسين يوماً. وكلمة معدودات تعبر عن قلة هذه الأيام. والمؤمن يقول لنفسه: ولماذا لا أصوم أياماً معدودات وأكسب التقوى التي وعد الله بمنحها لمن يصومها؟

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ ولأن الغرض من الصيام هو التقوى لا مجرد تعذيب البدن؛ فإن الله تعالى قد أعفى من صيام هذه الأيام المعدودات من كان مريضاً أو على سفر؛ لما قد تسببه هاتان الحالتان من مشقة زائدة على الأمر العادي.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ والأيام المعدودات التي أمرنا الله بصيامها هي أيام شهر لا كسائر الشهور؛ إنه شهر رمضان الذي شرفه الله تعالى بأن أنزل فيه القرآن؛ وذلك أنه كما أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته بالنسبة للبشر، فهو سبحانه أعلم حيث ينزل رسالته بالنسبة للأزمنة؛ لأنه كما أن بعض البشر أفضل من بعض فإن بعض الأزمنة والأمكنة أفضل من بعض ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [الفصل: ٦٨]. ولهذه المناسبة القوية بين القرآن وشهر رمضان، فإن النبي ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل في كل رمضان، ثم إنه عرضه عليه مرتين في العام الذي توفي فيه ﷺ. ولهذه المناسبة أيضاً فإنه يستحب لنا الإكثار من تلاوة القرآن ولا سيما في صلاة التراويح.

﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ هذه أهم خصائص القرآن، الكتاب الذي أنزله الله في شهر رمضان. إنه هدى للناس، وإنه بينات، بينات من الهدى والفرقان.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ إنها لحكمة بالغة أن تنزل هذه الآية الكريمة ضمن آيات الصيام. إن في الصيام شيئاً من المشقة، ما في ذلك من شك؛ لكن الآية تؤكد لنا أن هذه المشقة ليست مرادة لذاتها، وإنما هي مشقة قليلة محتملة تجلب تيسيراً روحياً كبيراً، هو نيل التقوى؛ فهي إذن ثمن قليل يدفعه الصائم لنيل عوض كبير. ولما كان المراد من أوامر الله ونواهيه كلها هو اليسر لا العسر؛ فقد أذن تعالى بالفطر لمن كان في حال يكون الصيام فيه عليه عسيراً^(١).

فائدة: الأقرب إلى الحق هو الأقرب إلى اليسر؛

اليسر ليس شيئاً متروكاً لأهواء الناس الذين لا يحيط علمهم بكل عواقب الأعمال والتروك، وإنما ينظرون إلى بعض جوانبها دون بعض، ولا فلو ترك أمر اليسر لتقديرات الناس لقال أكثرهم: إن الصيام عسر لا يسر، وما دام الأمر كذلك وما دامت أوامر الله تعالى ونواهيه مبنية كلها على اليسر، فإن المنهج الصحيح للاختيار بين آراء المجتهدين هو أن يختار ما دل الدليل على أنه أقرب للحق؛ لأن ما كان أقرب إلى الحق فهو الأقرب إلى اليسر.

أعني أنه لا ينبغي للعالم أن يجعل ما يعتقده يسراً هو المعيار الذي يفضل به اجتهاداً على اجتهاد؛ لأن ما يظنه يسراً قد يكون في الحقيقة عسراً، بل عليه أن يبذل

(١) الدعوة ووسائل الاتصال الحديثة، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المتدي، ط١، ١٤٣٥ هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص ٢٣٤).

جهده في النظر في أدلة المجتهدين ليفضل ما كان منها أقرب للحق موقناً بأن ما كان أقرب للحق؛ فهو الأقرب إلى اليسر^(١).

فائدة: وسائل الاتصال بالحديث آية دالة على صدق النبوة المحمدية:

إن وسائل الاتصال بالحديث آية دالة على صدق النبوة المحمدية لأنها جعلت بلدان العالم كلها بمثابة البلد الواحد الذي كان يرسل إليه كل نبي قبل محمد ﷺ، وفي هذا دلالة علي أن الذي أرسل محمدًا رسولاً للناس كافة لا لقومه خاصة هو الخالق سبحانه الذي كان يعلم أن العالم كله سيصير بمثابة القرية الواحدة، فلا يحتاج إلى تعدد المرسلين، ولا يحتاج إلى رسول بعد الرسول الذي تعم دعوته شعوب العالم أجمعين.

لقد كان هذا التقارب بين بلاد العالم قد بدأ مع مبعث النبي الخاتم ﷺ، لكنه ظل يزداد ويزداد مع تطور وسائل المواصلات والاتصالات، حتى وصل إلى ما وصل إليه في عصرنا، وربما تشهد العصور التي تلينا تقارباً أكبر، بسبب تطور أكثر في مجال الاتصالات.

فمن غير الخالق سبحانه كان يعلم آنذاك أن هذا سيكون؟ إن الترابط بين شعوب العالم الذي أحدثه هذا التطور الكبير في وسائل الاتصال ليس إذن مجرد أمر دنيوي بالنسبة للمسلم، وإنما هو أمر يتصل بصميم عقيدته؛ لأن فيه دليلاً

(١) الدعوة ووسائل الاتصال بالحديث، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص ٢٣٤).

يضاف إلى الأدلة المشيرة إلى صدق رسوله ﷺ^(١).

الفائدة: وسائل الاتصال الحديثة فرصة لنشر الدعوة:

إن وسائل الاتصال الحديثة فرصة لنشر الدعوة وهو أمر لا يكاد يحتاج إلى بيان. إن الكتب تطبع الآن بأسرع مما كانت تطبع به في الماضي، وتنتشر على نطاق أوسع مما كانت تنتشر به، والكلمات لم تعد تقتصر كتابتها بحبر على ورق، وإنما صارت الملايين منها تكتب في أقراص مدمجة يسهل حملها، ويسهل الوصول إلى المادة المكتوبة فيها.

والكلمة المنطوقة لم يعد ينتهي صوتها بانتهاء النطق بها، وإنما صارت تسجل على أشرطة مسموعة وأخرى مرئية مسموعة، والرسائل لم تعد تحتاج إلى بريد بالجمال أو بالسيارة أو الطائرة أو القطار، وإنما صارت ترسل في لحظات عبر الفاكس والبريد الإلكتروني.

ثم الشبكة العالمية (الإنترنت) التي تجمع لك هذا كله، أعني: الكتابة والصوت والصورة والارسال السريع والحفظ.

وقد استفاد الدعوة بحمد الله تعالى من كل هذه الوسائل، فسُجِّل كتاب ربنا بأصوات عدد من كبار قرائنا، وسجلت بعض أحاديث الرسول ﷺ، وها نحن

(١) الدعوة ووسائل الاتصال الحديثة، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٥٠-٥١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٣٤).

اليوم نستمع إلى دروس كبار شيوخنا ومحاضراتهم حتى بعد وفاتهم، وأما الشبكة العالمية فقد استفادوا منها هي الأخرى أيما فائدة، وما تزال المواقع الإسلامية تفتح فيها يوماً بعد يوم، وما تزال المادة الإسلامية المعروضة فيها في ازدياد مطرد. وقد سمعت عن أناس ورأيت أناساً هداهم الله تعالى عن طريق هذه الوسيلة.

وقد كان المسلمون في البلاد الغربية يشكون من أن الصحف والمجلات لا تفتح لهم مجالاً للنشر فيها حتى عندما يكون المقال ردّاً على افتراء على الإسلام، فإذا هم اليوم يكتبون ما يشاؤون على صفحات هذه الشبكة، لكنني ما زلت أرجو أن يزداد اهتمامنا بها واستفادتنا منها.

وأرجو أن يأتي يوم قريب تكون فيه كل المراجع الإسلامية متيسرة فيها، وأرجو أن أرى فيها مقررات في شتى الفنون الإسلامية تأخذ بيد الراغب من المستوى الابتدائي وتدرج به حتى توصله إلى المستوى الجامعي، وأرجو أن يأتي يوم تتحول فيه جامعتنا الأمريكية المفتوحة، وأختها كلية لندن المفتوحة، إلى جامعة إسلامية عالمية تضاهي الجامعات المفتوحة الكبرى كالجامعة البريطانية التي يبلغ عدد طلابها أكثر من مئتي ألف، أرجو أن يدرك المحسنون.

وأن تدرك المنظمات الإسلامية في عالمنا الإسلامي أهمية مثل هذا التعليم الذي يُسمى بـ(التعليم عن بعد)، والذي يصفه بعض رجال التربية الغربيين بأنه نظام المستقبل، فيولونه عنايتهم ودعمهم حتى تكون الدراسة في

جامعته مجاناً، وحتى يوفر العلم الشرعي للراغبين فيه أتى كانوا على وجه الكرة الأرضية^(١).

فائدة: وسائل الاتصال الحديثة تمثل تحد لل دعوة الإسلامية:

وأما كونها تحدياً عظيماً:

فأولاً: لأنها كما يسرت لنا إيصال دعوة الإسلام إلى غير المسلمين، فقد سهلت لغير المسلمين - ولا سيما الغربيين - إيصال دعوتهم إلينا، وبما أن إمكاناتهم المادية هي اليوم أكبر من إمكاناتنا، وبما أن إدراكهم لأهمية هذه الوسائل الحديثة أكبر من إدراكنا فإن ما يوصلونه إلينا يفوق كثيراً ما نوصله إليهم، بل إنهم لا يحتاجون إلى الاقتصار على الخطاب المباشر من الغرب إلى الشرق الإسلامي؛ لأن لهم عملاء في بلادنا هم من بنى جلدتنا ويعربون بألسنتنا، ويكتبون في صحفنا، ويتكلمون في إذاعاتنا ويظهرون في قنواتنا، ولا هم لهم إلا دعوتنا للمسير في ركاب الغرب، في نظمنا السياسية، وأوضاعنا الاقتصادية، وقيمنا الخلقية، ونظرياتنا التربوية، وأساليبنا الأدبية، ونظرتنا التاريخية، بل وتصوراتنا الدينية، يعطون الكلمات العربية والمصطلحات الإسلامية - مثل الأصولية - معاني كلمات غريبة ثم يكررونها - بذلك المعنى الغربي - على مسامعنا ليل نهار، واصفين بها كل

(١) الدعوة ووسائل الاتصال الحديثة، كتاب الإسلام نعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٥٠-٥١)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٤).

مستمسك بدينه من الأفراد والدول والجماعات ليُدخلوا في رُوع الناس أن مسلك هؤلاء وطريقهم هو الطريق الشاذ، وأن المسلم المعتدل إنما هو ذلك الشخص الذي يأخذ دينه مأخذ الغربي الليبرالي - أو حتى العلماني - للدين.

وثانيًا: لأنها لا تفنأ تذكر المسلم بأن أكثر الناس على وجه الأرض ليسوا مسلمين، وأن أقوى دول الأرض سلاحًا واقتصادًا وأكثرها لذلك تأثيرًا ليست دولة مسلمة، بل وأن معظم الدول الإسلامية قد نهجت نهجها العلماني في نظمها السياسية وقوانينها، وكثير من نواحي حياتها الأخرى.

وفي البشر ضعف يجعل من الشاق عليهم مخالفة الأمر الشائع حتى لو كان في نطاق قرية، أو مجموعة محدودة من الناس كما كان الأمر في الماضي، فكيف إذا أصبح مخالفة لأكثر سكان العالم وأكثر دوله؟ إن هذا الضعف قد يصل بالإنسان إلى مجارة الأكثرية في إنكار أمر هو موقن بأنه حقيقة لا ريب فيها؛ ألم يقل الله تعالى لرسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]، والإنسان قد يدفعه هذا الضعف إلى الضيق بما يعلم أنه الحق إذا رأى الناس يعترضون عليه باعتراضات مهما كانت واهية.

ألم يقل الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، إن الله تعالى لا يرسل رسولًا تصده أهواء الناس عما أوحى إليه ربه، أو تحمله اعتراضاتهم على الكف عن تبليغ بعض ما أنزل الله إليه،

لكن في تذكير الرسل بعد الوقوع في مثل هذا النوع من الضعف دليل على أنه يقع من غيرهم، حتى لو كان من أتباعهم، وإذا كان الله تعالى يذكر رسله بعدم الاستسلام لمثل هذا الضعف فإن غيرهم أولى بأن يذكر ويذكر^(١).

فائدة: وسائل الاتصال الحديثة وسيلة يتخذها غير المسلمين ولا سيما الغربيين لنشر معتقداتهم وتصوراتهم المخالفة للإسلام:

قلت: إن وسائل الاتصال الحديثة كما أنها فرصة كبيرة لتبليغ الرسالة المحمدية، فهي أيضاً وسيلة يتخذها غير المسلمين ولا سيما الغربيين لنشر معتقداتهم وتصوراتهم المخالفة لتلك الرسالة. وهذه فتنة، لكن لا حيلة لنا الآن في ردها، فماذا نفعل؟ وهل وصول هذه الثقافات شر كله على المسلمين، أم أنه قد ينطوي على بعض الخير؟

لا شك أن في وصولها بعض الخير. ومن هذا الخير:

أولاً: أن معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم ولمجادلتهم؛ لأن الدعوة تكون أوقع في نفس المدعو إذا كانت مرتبطة بمحيطه الثقافي، ناقدة ومقومة له. نعم! إن في ما يقوله ويعتقده غير المسلم ما هو قبيح ومؤذ للمسلم، لكن معرفته مع ذلك مهمة. وهذا كتاب ربنا مليء بحكاية

(١) الدعوة ووسائل الاتصال الحديثة، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ١٤٣٥هـ (ص: ٥١-٥٢)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٣٤).

أقوالهم القبيحة، والرد عليها، وتسلية الرسل والمسلمين الذين يتعرضون لسماعها.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٨ نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَذْرُو الْأَرْضُ وَخُزُرُ الْجِبَالِ هَذَا ۝٨٩ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُبْغَىٰ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٠ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَخَصَّكُمْ وَعَدَّكُمْ عَدًّا ۝٩١ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٢﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].
 ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۝﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۚ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٢٨]. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٢٣]. ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۚ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۝٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ۝﴾ [هود: ٧٨-٧٩].

ثانياً: إن في العالم الآن مئات المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية، وكلها تتلقى أسئلة عن الإسلام كما تتلقى نقداً له، أو شبهات تثار حوله، وكل هذا يعطى الدعاة فرصاً ثمينة لتبليغ الدعوة الإسلامية، وقد اهتدى بحمد الله تعالى عن هذا الطريق، وما تزال تهتدي أعداد كبيرة من الناس في شتى بقاع العالم.

ثالثاً: إن أخبار المهتدين هؤلاء سواء كانت هدايتهم عن طريق الشبكة

أو عن طريق آخر مما يسر المسلم ويزيده إيماناً بدينه وثقة به، ولا سيما حين يستمع إلى الأسباب التي أخذت بأيديهم للدخول في الإسلام وتفضيله على ما كانوا ينتمون إليه من معتقدات وقيم وثقافات، والتحول الكبير الذي حدث في نفوسهم وسلوكهم بعد اعتناقهم الإسلام.

رابعاً: بل إن الاطلاع على الحضارة الغربية، ومعرفة حقيقتها كان سبباً في عودة بعض المسلمين إلى دينهم، بعد أن كانوا مغترين ببريق تلك الحضارة، ومبتعدين عن الإسلام. سألت أحدهم وكان سودانياً بمدينة لندن عن سبب عودته، فقال: إنه قال لنفسه كلاماً فحواه: أنه إذا كان هذا الذي يراه هو نهاية مطاف الحضارة الغربية فإنه مصير لا يريده لنفسه ولا لبلده.

وحدثني آخر وكان شاباً من بنغلاديش التقيت به في كاليفورنيا فقال: إنه اكتشف أنه كان مخدوعاً في هذه الحضارة وأنه كان يتصورها على غير حقيقتها التي اكتشفها في أمريكا، وأنه كان قبل مجيئه إلى الولايات المتحدة يسخر من تقاليد بلده ولا سيما في الزي ويقلد الزي ويقلد كل ما هو أمريكي، لكنه الآن غير رأيه. والآن ما أكثر المسلمين الذين يريدون الفرار من أمريكا أو أوروبا إلى أي بلد مسلم، خوفاً على أخلاق أبنائهم وعلى دينهم! هذا مع أن الذين لا يعرفون الغرب معرفة هؤلاء يكون أكبر همهم أن يهاجروا إليه، وأن يربوا أبنائهم في مدارسهم.

خامساً: لكن الثقافات الأخرى مهما كانت لا تخلو من بعض الخير، فمعرفة على حقيقتها تصحح الصورة القاتمة التي يرسمها لها بعض المتدينين

عندنا من الذين لم يطلعوا عليها. وجوانب الخير هذه التي لا يكاد يخلو منها مجتمع بشري هي من بقايا الفطرة الخيرة التي فطر الله عليها العباد، وهي التي تمكنهم من رؤية الحق حين يعرض عليهم، وتساعدهم على قبوله حين يعرفونه، وإلا لو كان كل الناس من غير المسلمين لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا لما اهتدى أحد منهم إلى الإسلام ولا عرف قيمته؛ فكما أن الصورة المثالية للحضارة الغربية تفتن بعض الناس فإن الصورة المشوهة لها قد تئس بعض الناس من هدايتهم.

سادسًا: لكن وجود هذا الخير في حضارة كالحضارة الغربية شيء، وتصويرها على أنها المثال الذي ينبغي أن يحتذى في هذا العصر شيء آخر. أذكر إنني نقلت لمجموعة من الأمريكان في أحد المؤتمرات العلمية ما يقوله بعض المفكرين العرب عنهم، وكان مما قلت لهم: إنهم يقولون إنكم تختارون ناخبكم على أسس علمية موضوعية، وعلى أساس البرامج التي يقدمونها لكم، فضحكوا حتى ضجت بهم القاعة، كأنني أسمعهم نكتة من أطرف النكات. وذلك لأنه في الوقت الذي كان يقول فيه بعض المفكرين العرب ما ذكرت، كان هنالك معلق سياسى أمريكى مشهور يقول عن الانتخابات: إنها موسم ترويح أو تسلية.

والمعروف أن من بين أسباب اختيار الرئيس: شكله، ونكاته، وجمال زوجته، ولذلك كان أنصار كليتون يقولون للناخبين ما يقول أصحاب البضائع: اشتر واحدًا وخذا اثنين. لكن مما لا شك فيه أن لدخول الثقافات الأخرى إلى بلادنا أضرارًا كثيرة؛ وذلك أن ما ذكرنا من خيرات الاطلاع عليها ومعرفتها لا يشمل كل

مطلع عليها من المسلمين، بل قد يكون تأثيرها ضاراً على أغلبهم، ولا سيما صغار السن وقليلي العلم منهم. ومما يساعد على تأثيرها الضار كونها هي الآن الحضارة القوية اقتصادياً وتقنياً، وعسكرياً، والناس كما قيل مولعون بتقليد الغالب. ومما يساعد على التأثير كون إعلامها القوي المتطور يعرضها بصورة جذابة تغري بها.

كيف العمل؟

هذا سؤال كبير، لكن نختصر الإجابة عنه فيما يلي:

يجب أولاً أن نعمل ما استطعنا للتقليل من فرص وصول جوانبها الضارة إلينا، وهي الجوانب المتمثلة في كثير من الأفلام والقصص، والجرائد والمجلات كما يجب أن نسعى للتقليل من شرها بنقد أباطيلها والرد عليها مقتدين في ذلك بكتاب ربنا كما رأينا في الآيات التي أوردناها. والرد يكون ردّاً مباشراً على أباطيل معينة، كما يكون وذلك هو المهم بتزويد الناس بقواعد وأصول وأدوات وسائل الإعلام العامة. وأما الرد المباشر فيجب أن يكون عملاً يومياً تقوم به المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية، كما تشارك فيه الصحف والمجلات التي تروي لنا أخبار الغرب وأقواله. وتكون الوقاية منها أيضاً بتقديم البديل الذي يغني عنها:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] (١).

(١) وسائل الاتصال وعلاقتنا بالثقافات الأخرى، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٥٤-٥٨)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٤) ..

فائدة: معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم

ومجادلتهم:

إن معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم ولمجادلتهم؛ لأن الدعوة تكون أوقع في نفس المدعو إذا كانت مرتبطة بمحيطه الثقافي، ناقدة ومقومة له. نعم! إن في ما يقوله ويعتقده غير المسلم ما هو قبيح ومؤذ للمسلم، لكن معرفته مع ذلك مهمة.

وهذا كتاب ربنا مليء بحكاية أقوالهم القبيحة، والرد عليها، وتسلية الرسل والمسلمين الذين يتعرضون لسماعها. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ تَتَنَسَّقُ الْأَرْضُ وَتُخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُبْغَىٰ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ ۝٩١ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ ۝٩٢ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۚ﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۖ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفْقَهُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۚ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۚ﴾ [٧٨] قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعَامُ مَا تَرِيدُ ۚ﴾ [هود: ٧٨-٧٩].

ثانيًا: إن في العالم الآن مئات المواقع الإسلامية على الشبكة العالمية، وكلها تتلقى أسئلة عن الإسلام كما تتلقى نقدًا له، أو شبهات تثار حوله، وكل هذا يعطي الدعاة فرصًا ثمينة لتبليغ الدعوة الإسلامية، وقد اهتدى بحمد الله تعالى عن هذا الطريق، وما تزال تهتدي أعداد كبيرة من الناس في شتى بقاع العالم^(١).

فائدة: الثقافات الأخرى غير الإسلامية مهما كانت لا تخلو من بعض

الخير؛

الثقافات الأخرى مهما كانت لا تخلو من بعض الخير، فمعرفتها على حقيقتها تصحح الصورة القاتمة التي يرسمها لها بعض المتدينين عندنا من الذين لم يطلعوا عليها. وجوانب الخير هذه التي لا يكاد يخلو منها مجتمع بشري هي من بقايا الفطرة الخيرة التي فطر الله عليها العباد، وهي التي تمكنهم من رؤية الحق حين يعرض عليهم، وتساعدهم على قبوله حين يعرفونه، وإلا لو كان كل الناس من غير المسلمين لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا لما اهتدى أحد منهم إلى الإسلام ولا عرف قيمته؛ فكما أن الصورة المثالية للحضارة الغربية تفتن بعض الناس فإن الصورة المشوهة لها قد تيش بعض الناس من هدايتهم.

ولكن وجود هذا الخير في حضارة كالحضارة الغربية شيء، وتصويرها على

(١) وسائل الاتصال وعلاقتنا بالثقافات الأخرى، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٥٤-٥٥)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ-٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٥).

أنها المثال الذي ينبغي أن يحتذى في هذا العصر شيء آخر^(١).

فائدة: لماذا الإسلام دين الحق والخير والجمال؟

الإسلام دين الحق والخير والجمال؛ لأنه حق كله، وخير كله، وجمال كله؛ فلا باطل فيه، ولا شر فيه، ولا قبح فيه. وأما ما عداه فيختلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر، والجميل بالقبيح. وهو دين الحق والخير والجمال؛ لأنه يوائم بين هذه القيم الثلاث، ويجعل كلًّا منها كما ينبغي أن يكون معاضدًا للآخر ومعينًا عليه، بينما يجعلها غيره من المذاهب والحضارات والنحل متشاكسة متضاربة، يهدم بعضها بعضًا. يرون في جمال الفنون مسوغًا لاتخاذها وسيلة إلى قول الزور، وهدم الفضيلة؛ وفي جمال التعبير شعرًا كان أم رواية ما يجعل من حق القائل أن يختلق الأباطيل ويروج للشور، ويجاهر بالفسوق.

والإسلام دين الحق والخير والجمال؛ لأن المعبود الذي يدعونا إليه هو الحق، وهو فاعل الخير، وهو الجميل الذي لا يضاهي جماله جمال. فالله تعالى هو الحق الأعلى الذي لا يقارب أحقيقته حق؛ فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الخالق لكل شيء. وربنا تعالى خير مَحْض؛ فالخير كله بيديه، والشر ليس إليه. وربنا تعالى جميل يحب الجمال.

(١) وسائل الاتصال وعلاقتنا بالثقافات الأخرى، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٥٦-٥٧)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٥).

والرسول الذي أرسله إلينا حق، نعرف نسبه، ومولده، ونشأته، وصفاته، بل نعرف عنه ما لا يعرف أحد عن بشر سواه؛ فهو ليس كأولئك الذين يعتقد بعض أصحاب الديانات فيهم، وهم لا يملكون دليلاً تاريخياً حتى على وجودهم، دعك من سيرتهم. وكان رسولنا متصفاً بكل صفات الخير، حتى قال عنه ربنا سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وحتى قالت عنه زوجته التي عرفت مداخلة ومخارجه: كان خلقه القرآن. كان صادقاً، أميناً، وفياً، كريماً، رحيماً، شجاعاً، صبوراً، دؤباً مع الحق حيث دار، لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان جميل الصورة، جميل الروح، جميل الحديث، وكان لذلك رجلاً مهيباً.

والقرآن الكريم الذي أنزله تعالى كتاب يقول الحق، ويهدي إليه، ويأمر بالخير وينهى عن الشر، ويعبر عن كل ذلك بلغة هي الذروة العليا من الجمال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾، ﴿الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، صدق في الأخبار وعدل في الأوامر والنواهي ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فهو ليس كالكتب الدينية التي يشك أصحابها في أصولها، وفي ترجماتها، وفي معانيها^(١).

(١) دين الحق والخير والجمال، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتشدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ،

(ص: ٦٧-٦٩)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته -

بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ-٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٤).

فائدة: متى يكون الجمال محموداً؟

الجمال محمود ومرغوب فيه، وهو قرين الحق والخير. ولكن حين يكون مَظَنَّةً لأن يُتَّخَذَ وسيلة لهدم المكارم فإن الإسلام يمنع الاستمتاع به، ولذلك فإنه يحرم النظر إلى بعض الصور الجميلة، والاستماع إلى بعض الأصوات الجميلة حين يكون ما فيها من جمال ذريعة إلى شرك أو هدم مكارم. ولهذا حرم النظر إلى زينة النساء لغير محرم أو زوج؛ لأن الاستمتاع بجمالهن قد يكون وسيلة إلى هدم الفضيلة. وإباحة للمحارم؛ لأن هذه العلة متفية في حقهم، وأباحه للأزواج، بل ودعاهم إليه؛ لأنه استمتاعٌ حلال، وقد يكون وسيلة إلى الامتناع عن الحرام. وكذلك الأصوات الجميلة قد يرتبط جمالها بخاصة فيها، أو في المستمتع بها، تثير مشاعر الرذيلة، أو تكون ملهية عن فضيلة.

فخضوع النساء بالقول قد يشير الطمع فيهن وإن كن أزواج نبي، ولذلك مُنِعَ منه: ﴿يَلْبَسَ النِّبِيُّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، وقل مثل ذلك عن المعازف وأنواع من الغناء. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو والله الغناء. فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وسهّل لنا سبيل الخير، ومتعنا بجمال الكلام، وجمال الخلق، وجمال المعاني^(١).

(١) دين الحق والخير والجمال، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٧٢-٧٣)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٣٤).

فائدة: مفهوم الحرية في عصرنا:

إن الحر حرية كاملة هو الذي لا قيود على تصرفه ألبته هو الذي يفعل كل ما يريد. لكن الفعل يحتاج إلى علم وإلى إرادة وقدرة. فالحر حرية كاملة يجب أن يكون ذا علم كامل وقدرة كاملة وإرادة نافذة. ولا يمكن أن يكون للفاعل علم كامل وقدرة كاملة وإرادة نافذة إلا إذا كان مستغنياً عن غيره استغناء كاملاً لا يحتاج إلى أن يتعلم منه شيئاً، ولا أن يكتسب منه مقدرة؛ لأن الحاجة إلى علم الغير أو مقدرته قيد يتنافى مع كمال الحرية. فما يقوله المدافعون عن الديمقراطية من أن الإنسان لا يكون حرّاً إذا هو أطاع قانوناً ليس من صنعه كلام صحيح. لكنهم معترفون بأن الإنسان لا بُدّ له من أن يعيش في جماعة، وأن العيش في الجماعة يتطلب وجود سلطة تأمر وتنهى وتعاقب، وأن القوانين التي بمقتضاها تفعل هذا لا يمكن أن تكون كلها من صنع كل الأفراد الذين يكونون المجتمع، وأن مشاركة الأفراد وإن كانت في النظام الديمقراطي أكثر منها في غيره، إلا أن صنع القوانين حتى في هذا النظام هو في النهاية من صنع قلة من أفراد المجتمع متمثلة في أعضاء المجالس التشريعية.

وعليه، فإذا كانت المشاركة في وضع القوانين هي معيار الحرية؛ فإن الناس ليسوا أحراراً إلا بقدر يسير حتى في الديمقراطية؛ بل نقول إنه حتى صنع القوانين ليس ضماناً للحرية حتى لو كان الفرد يتصرف كيف شاء. لماذا؟ لأنه قد يُتبع نفسه هواها، فيفعل كل ما تأمره وتريده شهواته من إسراف في الأكل، وشرب للخمر، وتعاط للمخدرات، وارتكاب للفواحش، وهكذا. مثل هذا الإنسان ومثله اليوم

كثير في الغرب ليس حرًا. نعم إنه ليس عبدًا لبشر مثله! ولكنه عبد لهواه^(١).

فائدة: لا مجال للتخلص من العبودية للبشر إلا بالعبودية لخالق البشر:

فالإنسان ليس إذن مخيرًا بأن يكون حرًا أو يكون عبدًا، بل هو مخير بين عبوديتين. ولهذا كانت الدعوة إلى أن تكون للإنسان حرية التشريع مرتبطة دائمًا بالدعوة إلى التمرد على شرع الله؛ لأنها في حقيقتها دعوة إلى أن يكون المخلوق العبد المملوك فردًا أو جماعة إلهاً مشرعاً لنفسه أو لغيره.

وكان الرد الإلهي دائماً أن الإنسان المخلوق ليس من حقه أن يضع من القوانين ما شاء فيحل ويحرم ويأمر وينهى، حتى لو كانت القوانين خاصة بشخصه، وأن الخالق هو الذي من حقه حقاً لا ينازعه فيه غيره أن يشرع وأن يطاع.

المتخذون دون الله آلهة من الأهواء يقولون: ﴿أَصَلَوْتُكَ فَأَمْرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧]. ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، لكن الرب الخالق يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يترك سدى أي يهمل فلا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يحاسب، ويقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ءَلِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ولكن بما أن للإنسان إرادة مهما كانت

(١) الحرية والعبودية، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتشدي، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ١٧٣ - ١٧٤)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٣٤).

محدودة، وبما أن له قدرة مهما كانت أيضًا محدودة، فإن له حرية في حدود قدرته وإرادته. لكنه قد يفقد قدرًا من هذه الحرية العادية المحدودة حين يُسْتَرْقُ فيكون عبدًا يملكه ويبيعه ويشتره بشر مثله. فإذا ما أُعْتِقَ قلنا إنه قد صار حرًا، أي رجع إلى الحرية المعتادة التي وهبها الله تعالى لكل الناس. وقد يُحبس ويُعتقل فتحد من حريته؛ فإذا ما خرج من الحبس قلنا إنه قد أطلق سراحه.

وقد تتسلط أمة على أمة أخرى فتحكمها، فإذا ما تخلصت منها قلنا إنها قد نالت حريتها، وقد يتسلط حاكم ظالم على أمة فيفرض عليها أحكامًا بهواه كما كان فرعون يقول لشعبه: ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. وقد يمنعونهم من بعض ما أباح الله أو أوجب من الكلام والحركة والاجتماع، فإذا ما تخلصوا منه قلنا إنهم صاروا أحرارًا. لكن أسوأ أنواع العبودية أن يكون الإنسان باختياره عبدًا لمخلوق مثله، عبدًا له يدعوّه ويرجوه ويتوكل عليه ويستغيث به، أو يرضى له بحق التشريع والطاعة فيجعله في مقام المولى سبحانه. ولا فرق في هذا بين أن يكون الحكم دكتاتورية أو وصائية أو ديمقراطية ما دام حكم بشر مخالفًا لحكم الله تعالى؛ بل إن الإنسان ليكون عبدًا حتى لو كان هو المشرع لنفسه؛ لأنه يكون حيثئذ متبعًا لهواه متخذًا إياه إلهاً ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ وذلك أنه إما أن يكون الإنسان عبدًا لله أو عبدًا لهواه ولا واسطة بين الأمرين ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وعليه، فلا سبيل إلى التحرر من العبودية للبشر إلا بإخلاص العبودية لخالق البشر، فالقول بأن الإنسان حر أو أنه ينبغي أن يكون حرًا بالمعنى الغربي الشائع

كلام يكذبه الواقع، ثم إنه مخالف للإيمان بأن الإنسان عبد لله ياتمر بأوامره، وقد أدرك هذا بعض الكتاب النصاري، منهم كاتبهم الإنجليزي المشهور لويس الذي قال كلاماً فحواه: إنني لم أولد لأكون حراً، وإنما ولدت لأسمع وأطيع^(١).

**هائدة: غير المسلمين في عصرنا هذا - وإن كانوا جميعاً غير مسلمين -
لكنهم ليسوا سواء في قريبتهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في
معاملتهم للمسلمين:**

الحقائق المشهودة التي يخبرنا بها ربنا أو نشاهدها بأنفسنا عن غير المسلمين ممن يسكنوننا هذه الأرض في عصرنا هذا أول ما نتعلمه من ديننا ويؤكد له لنا واقعنا أنهم وإن كانوا جميعاً غير مسلمين لكنهم ليسوا سواء في قريبتهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين. وإذا كانت هذه حقيقة فيجب أن لا نغفلها في تعاملنا معهم. يجب أن نعامل كل فرد أو جماعة منهم بحسب ما نعرفه من حالهم. وهذا ليس إنصافاً لهم فحسب لكنه أمر ضروري لتحصيل كثير من المصالح ودفع كثير من المفاسد. لكننا كثيراً ما نجنح إلى التعميم حيث يكون التمييز هو الأنسب، وكثيراً ما نذكر آيات تدل على هذا العموم ونغفل الآيات التي تخصصه أو تقيده. فمن القريب منا ومن البعيد من اليهود والنصارى وسائر المشركين؟ سيسارع بعضنا إلى تذكيرنا بمثل

(١) الحرية والعبودية، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المستدي، ط١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ١٧٥ -

١٧٧)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)

دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٤).

قول الله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَوْنَ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَلْبِغَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ويريد أن يستدل بهذا على أن ما قال ربنا سبحانه ينطبق على كل فرد فرد منهم، وأن معاملتنا لهم يجب إذن أن تكون كلها مرتكزة على هذه الحقيقة. لكن كتاب ربنا نفسه يدلنا على خطأ هذا الفهم. إن صيغة الآية صيغة عموم ما في ذلك شك، لكنها مخصوصة بآيات أخرى، وبواقع نشأته. فكتاب ربنا يخبرنا أن بعض النصاري يسلمون. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ قَرَأَتْ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. فهؤلاء نصاري لكنهم لم يكونوا من النوع الذي لا يرضى عنا إلا إذا اتبعنا ملته، بل اعترف بأن ملتنا هي الحق، وهداه ربه إلى قبول هذا الحق. وما أخبرنا به ربنا في القرآن الكريم ما نزال نشاهده في أفراد من النصاري يسلمون ويبكون حين يسلمون.

وما يقال عن النصاري يقال أيضًا عن اليهود، فإن منهم أيضًا من هداه الله تعالى إلى الإسلام من أمثال الصحابي الجليل عبد الله بن سلام الذي شهد له الرسول ﷺ بأنه من أهل الجنة، وما يقال عن تلك الآية يقال أيضًا عن آيات أخرى عمومها الظاهري مخصوص. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

كنت أفهم هذه الآية الكريمة على عمومها الظاهري هذا، فكتبت كتيبًا باللغة الإنجليزية منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا استدلت فيه بها على أن اليهود يؤلهون عزيرًا كما النصاري يؤلهون عيسى. فعجبت عندما أخبرني الإخوة الناشرون بأنه

جاءتهم احتجاجات من بعض اليهود على ما نسبته إليهم، وطالبوني بالدليل. ولم يكن لدي من دليل غير القرآن الكريم. لكن أحد إخواننا السودانيين ممن درسوا العبرية وتاريخ اليهودية، أخبرني أن أستاذه اليهودي نفسه كان قد استغرب مما ذكره القرآن الكريم، لكنه ذهب وراجع كتب تاريخهم، ثم جاء ليقول للأخ إنه كان بالفعل هنالك جماعة من اليهود في المدينة في ذلك الوقت يؤمنون بأن عزيزاً ابن الله. وعندما راجعت كتب التفسير وجدت ما فيها مطابقاً لما قال. فابن كثير مثلاً يقول بعدما ذكر عن السدي قصة طويلة عن عزيز: «فقال بعض جهلتهم إنما صنع ذلك لأنه ابن الله».

ويقول صاحب (التحرير والتنوير): «والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة وتبعهم كثير من عامتهم». كل هذا يدل على أنه من الخطأ أن تفهم الآية الكريمة على عمومها الظاهري فيظن أنها تنطبق على كل فرد ينسب إلى اليهودية؛ لأن من اليهود المحدثين من لا يعلم أن بعضاً من سلفه كان يقول هذا. فكيف ينسب إليه قولهم؟

وقد أعجبني في هذا الصدد إنصاف شيخ الإسلام ابن تيمية حين فرق بين من حرف ومن لم يحرف من أهل الكتاب فقال: «وعلى هذا فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب، وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك فهم مجتهدون في اتباع ما جاء به الرسول، لم يجب أن يجعل هؤلاء من المستوجبين للوعيد؛ بل إن في واقعنا اليوم ما هو أغرب من هذا.

فهناك اليوم آلاف مؤلفة ممن ينتسبون إلى النصرانية في أمريكا لكنهم لا يؤمنون بأن عيسى ابن الله! أسوق كل هذا لأقول إننا يجب أن نعامل الناس بحسب الحقائق التي نعرفها عنهم، ولا نلزمهم باعتقاد ينكرونه مستدلين على ذلك بالقرآن الكريم^(١).

فائدة: الاعتبار بالواقع طبيعياً كان أم اجتماعياً منهج إسلامي أصيل:

إن الاعتبار بالواقع طبيعياً كان أم اجتماعياً منهج إسلامي أصيل ترشد إليه كثير من نصوص الكتاب والسنة في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]؛ وذلك أن المصالح التي وضعت الشريعة لتحقيقها والمفاسد التي وضعت للتحذير منها ما هو أمر ظاهر يمكن مشاهدته، ويسهل لذلك الاعتبار به، ولذلك ندب الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاعتبار بأحوال الكفار ومصائرهم، ونحن نعيش في عصر عمت فيه بلوى البعد عن شرع الله في مجتمعات كاملة كالمجتمعات الغربية. لذلك أرى أنه من واجبنا وخدمة لديننا وتحقيقاً لمصالحنا أن نعنى بمالات معاصيهم وندرسها وتدبرها ونشرها بين الناس مسلمين وغير مسلمين، بل أن نجعل هذا الاعتبار بتجارب الغربيين الكفار علماً قائماً بذاته نحشد له جهودنا جمعاً لمواده وتصنيفاً، وتفسيراً علمياً لها،

(١) الانصاف في معاملة غير المسلمين، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٦).

ودعوة إلى الاعتاض والاعتبار بها. ونحن لا نحتاج لتحقيق ذلك أن نقوم بإجراء بحوث ميدانية في المجتمعات الغربية؛ فقد كفونا هم مؤونة ذلك.

فمن حسنات منهجهم العلمي في مجال الدراسات الاجتماعية أنهم يبحثون في الآثار المترتبة على أعمالهم، ويحاول علماؤهم أن يكونوا في ذلك محايدين لا تصدهم آراؤهم الشخصية عن نشر نتائج ما وصلوا إليه من دراسة وتجارب.

فحياة الغربيين التي يمارس فيها ما حرم الله تعالى ينبغي أن تكون بالنسبة لنا كما ذكرت في مناسبة سابقة كالتجربة التي يسميها العلماء الطبيعيون التجربة الحاكمة Experiment Control ما أكثر المادة العلمية المتعلقة بتأثير المعاصي على حياة الغربيين، معاصي الزنا والشذوذ وشرب الخمر وتعاطي المخدرات واختلاط الرجال بالنساء والسفور؛ بل وحتى تولي المرأة لعمل الرجال، وتولي الرجال لأعمال النساء.

ولكي يفي هذا العلم المقترح بشروط العلم فينبغي أن يكون اعتماده على الحقائق التي اكتشفها الغربيون بالوسائل العلمية، وأن توثق هذه الحقائق بذكر مراجعها، وأن لا يخلط بينها وبين الآراء التي يعبر عنها بعض الغربيين لمجرد أنها موافقة لديننا؛ لأن الرأي ليس له سلطان الحقيقة العلمية.

والحقائق العلمية التي أعنيها تشمل كل أنواع العلوم الطبيعية والاجتماعية والنفسية، ولذلك فإنه لا بُدَّ من أن تتضافر على جمعها جهود كل المختصين أو المهتمين بهذه العلوم، وهذا يقتضي أن يكون هنالك مركز ترسل إليه هذه

الحقائق لجمعها وتصنيفها ثم نشرها، ولما كانت هذه الاكتشافات مستمرة فلا بُدَّ أن يكون جمعها وتصنيفها ونشرها أيضًا مستمرًا ولهذا ربما كان الأنسب لنشرها هو المجلات، أو الكتيبات الشهرية^(١).

فائدة: كيف يكون الحوار بين أبناء الوطن الواحد دعوة إلى العلمانية؟

يقولون: إذا كنا جميعًا أبناء وطن واحد فيجب أن تكون العلاقة الأساس بيننا هي علاقة المواطنة التي تفترض أن كل مواطن مخلص في حرصه على مصلحة وطنه، وعليه يكون الحوار بيننا حوارًا بين مواطنين متساوين؛ لا العلاقة الدينية التي تميز بين المواطنين. وهذه مغالطة سخيفة؛ لأن تصور الإنسان لما يعده مصلحة له أو لبلده تؤثر فيه معتقداته دينية كانت أم غير دينية.

فإذا كان المواطن شيعيًا مثلاً فقد يكون مخلصًا في اعتقاده بأن النظام الشيعي هو الذي يحقق مصلحة بلده، ولذلك يرى أن الذين يقفون في طريق تحقيقها هم أعداء للوطن؛ وكذلك قل عمن يعتقد في العلمانية الغربية، أو من يعتقد في الإسلام. إنهم جميعًا مواطنون لكن معتقداتهم مختلفة إلى درجة أن ما يراه أحدهم مصلحة في بعض جوانب الحياة يراه الآخر أكبر خطر على الوطن.

رأيت أحد إخواننا يستغرب أسفًا لموقف ينم عن شيء من خيانة وقوف بعض العرب من قضية عربية كبيرة، فقلت له: هوّن عليك ولا تستعربن. إن غزوة

(١) الاعتبار بمآلات معاصي الكفار، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ١٧٠-١٧١)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٦).

بدر الكبرى لم تكن بين عرب ويونان، إنما كانت بين عرب أقحاح أقارب يتسمون إلى أشرف قبيلة عربية، ولم يكن اختلافهم في أن بعضهم كان محباً لوطنه والآخر كاره له، إنما كان الخلاف بينهم في الحق والباطل والخير والشر؛ وكذلك سيظل إلى يوم القيامة، سواء كان الناس أبناء وطن واحد أو أوطان مختلفة^(١).

فائدة: دعوى أن الله تكفل بحفظ القرآن الكريم ولم يعد بتكفله

بحفظ السنة المطهرة:

أصحاب هذه الدعوى يقولون إنهم ليسوا ممن ينكر السنة، وإنما هم من الذين يشكون في ثبوتها كلها لأن الله تكفل بحفظ القرآن الكريم ولم يعد بتكفله بحفظ السنة المطهرة، ولذلك فإنهم يعطون أنفسهم حق النظر فيها والحكم عليها بأهوائهم (لا أقول بعقولهم)، فما رأوه موافقاً للكتاب قبلوه، وما رأوه مخالفاً له أنكروه مهما كانت قوة سنده، وسواء كان في الصحيحين أو في غيرهما.

نقول لهؤلاء وغيرهم: إن على كل من يؤمن بأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، وأنه مرسل إلى الناس كافة إلى قيام الساعة، أن يعلم أن من لوازم هذا الإيمان الاعتقاد في حفظ السنة. عليه أن يعتقد هذا سواء علم كيف حفظت أو لم يعلم، وسواء كان من العلماء أو من العامة. لماذا؟ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

(١) الحوار مجادلة لا مهادنة، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص ٢٠٥-٢٠٦)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٦).

ومع أن المعنى الشائع لكلمة الذكر في هذه الآية أنه القرآن الكريم؛ فقد قال بعض العلماء إنها تشمل السُّنة أيضًا والذي أريد بيانه هنا أنه حتى لو لم تكن كلمة الذكر شاملة للسُّنة، إلا أنها تستلزمها. كيف؟ إن كلمة الذكر تدل على أن المحفوظ ليس مجرد كلمات أو نصوص يمكن أن تبقى مصونة في متحف من المتاحف الأثرية؛ وذلك لأن حفظ الذكر يقتضي فهم المعنى؛ لأن الكلام لا يكون ذكرًا إلا إذا فهم. وهل يفهم القرآن الكريم حتى فهمًا أوليًا إلا إذا عرفت لغته.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

فالقرآن إذن لا يُعقل معناه ولا يُفهم إلا إذا فهمت اللغة العربية؛ فحفظه يستلزم حفظها. وهذا هو الذي حدث بحمد الله تعالى وفضله. فاللغة العربية حُفظت كما لم تحفظ لغة غيرها، فما زالت الملايين من الناس تتحدث بها وتكتب، وما زالوا يتذوقون أدبها وما زال التعمق فيها أمراً ميسوراً.

وقد استخدم الله تعالى لهذا الحفظ رجالاً جباهم بجمع ألفاظها، وحفظ نحوها وصرفها، وجمع شعرها ونثرها، لكن الكتاب المحفوظ نفسه كان أهم سبب في حفظها لقراءة المؤمنين المستمرة له ودراستهم لتفسيره وتمعنهم في بلاغته وإعجازه. وقال الله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. ولحكمة ما استعمل الله كلمة الذكر هنا كما استعملها في الآية الكريمة التي هي موضع دراستنا. فكما أن الذكر لا يفهم

إلا يفهم لغته، فإنه لا يتبين إلا ببيان الرسول له؛ فحفظ الذكر يستلزم لا جرم حفظ بيانه.

إن واحداً من عامة عقلاء البشر لا يكتب كتاباً يقول إنه لا يفهم فهمًا كاملاً إلا بالحواشي المصاحبة له، ثم ينشر الكتاب من غير تلك الحواشي. فكيف يُظن بالحكيم العليم أن يرسل رسولاً تكون مهمته أن يبين كتابه، ثم يحفظ الكتاب ولا يحفظ ذلك البيان؟ والله سبحانه وتعالى يشير في أكثر من أربعين موضعاً في كتابه إلى سنة رسوله، فيأمر باتباعه وعدم تقليد كلام بشر على كلامه، ويبين ضرورة هذا الاتباع وفضله، وأنه أمر يقتضيه حب المؤمن لربه، ويحذر سبحانه من مخالفة هذه السنة.

يذكر كل هذا في مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، هل يتصور عاقل يقدر ربه حق قدره أن يشير في أمثال هذه
الآيات إلى معدوم بالنسبة لمن هم في عصورنا هذه المتأخرة؟

كيف يكون الناس في عهده ﷺ بحاجة إلى سسته وهم الذين نزل القرآن
الكريم بلغتهم، ولا نكون نحن بحاجة إليها؟ كيف يشير إلى معدوم بالنسبة لنا وقد
أرسل رسوله ﷺ للناس كافة إلى قيام الساعة وجعله خاتماً لأنبيائه؟ وإذا كان

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ حَاجَتَنَا إِلَيْهَا عَظِيمَةٌ؛ فَكَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنَّ لَا يَحْفَظُهَا لَنَا وَيَنْعَمُ عَلَيْنَا بِهَدَايَتِهَا كَمَا أَنْعَمَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلُنَا؟

إِنَّ الْقَوْلَ بِعَدَمِ حِفْظِ السُّنَّةِ لَهُ خَبِيءٌ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ هُوَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنَّمَا أُرْسِلَ لِمَعَاصِرِهِ. وَخَبِيءٌ آخَرُ هُوَ أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا مُحَقِّقِينَ فِي إِنْكَارِهِمْ لِإِرْسَالِ الرِّسْلِ فِي زَعْمِهِمْ بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُؤَهَّلٌ لِأَنْ يُؤْتَى مِثْلُ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ؛ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صَحْفًا مَنَشْرَةً: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صَحْفًا مَنَشْرَةً﴾ [المدثر: ٢٥٢]. كَيْفَ يَشْكُ إِنْسَانٌ فِي حِفْظِ السُّنَّةِ ثُمَّ يَشْهَدُ بِلِسَانِهِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ مَاذَا تَعْنِي هَذِهِ الشَّهَادَةُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ؟ إِنَّهُ لَا فَرْقَ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ بَيْنَ إِنْكَارِ السُّنَّةِ وَإِنْكَارِ حِفْظِهَا؛ فَكَلَّا الْأَمْرَيْنِ يُوْدِي إِلَى عَدَمِ الْاهْتِدَاءِ بِهَا^(١).

فائدة: دعوى تأويل النصوص لتتناسب مع ثقافة العصر:

يقول بعضهم أَنَّ النَّصَّ بِحَسَبِ مَعْنَاهِ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ أَلْفَاظُهُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُهُ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ ثَقَافَةِ الْعَصْرِ، فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنْ تَأْوِيلِهِ لِجَعْلِهِ مُنَاسِبًا مَعَهَا. لَكِنْ أَلَيْسَتْ هَذِهِ دَعْوَةٌ إِلَى خِدَاعِ النَّفْسِ؟ أَنْتِ تَقْرَأُ نَصًّا تَقُولُ إِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَتَفْهَمُهُ عَلَى وَجْهِهِ الصَّحِيحِ، ثُمَّ تَقُولُ إِنَّ هَذَا الَّذِي فَهَمْتَهُ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ مَا أُرِيدُ، لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ أُغَيِّرَهُ لِكَيْ أَجْعَلَهُ مُنَاسِبًا مَعَ مَا أَهْوَى، ثُمَّ تَقُولُ إِنَّ هَذَا الَّذِي هَوَيْتَ هُوَ مَا عَنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَلَامِهِ. هَلْ يَقُولُ هَذَا إِنْسَانٌ مُؤْمِنٌ؟ بَلْ هَلْ يَقُولُ هَذَا إِنْسَانٌ أَمِينٌ يَحْتَرِمُ نَفْسَهُ؟

(١) الاعتقاد في حفظ السنة، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتلدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٢١٣-٢١٥)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٧).

إنك إما أن تعتقد أن ما يقوله الله هو الحق كما قاله، وإما أن تعتقد أنه ليس بالحق أو ليس بالعدل فتقول إنه لا يمكن أن يكون كلام الله، فتكفر بالكتاب الذي كنت تظن أنه كلام الله. أما أن تجمع بين الفهم الصحيح والتحريف فلا.

وهذا الأمر المنكر خُلِقاً ودينًا هو الذي حذرنا الله تعالى من الاطمئنان إلى ممارسيه ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، تأمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي إنهم فهموا ما قال الله تعالى وتصوروه على وجهه الصحيح، ثم عمدوا إلى تحريفه وهم يعلمون أنهم محرفون له. ثم نقول إن الدين الحق إنما جاء لنفع الناس في دنياهم وآخرتهم فلا يمكن أن يكون فيه ما يمنع من الأخذ بشيء هو من ضرورات العصر، أما أهواء العصر وما يشيع فيه من قيم وأفكار وعادات وتقاليد فإن الدين لم يأت لموافقتها بل جاء لإقرار ما فيها من حق وإنكار ما فيها من باطل. فالمعيار هو كلام الله لا أهواء البشر. ثم إن كثيرًا مما يسمى بثقافة العصر مما يخالف الدين الحق، ليس هو في حقيقته بالأمر الجديد الذي يُقال إنه مما امتاز به عصرنا، وإنما هو الثقافة التي اتسمت بها الجاهلية على مر العصور.

خذ مثلاً استبشاعهم للحدود ولا سيما حد الزنا ودعوتهم إلى تغييره. هذا الحد موجود في التوراة، لكن اليهود غيروه حتى قبل مجيء النبي محمد ﷺ، وكان الذي دعاهم إلى ذلك هو فشو الزنا بينهم ولا سيما في أشرافهم. وهذا هو عين السبب الذي يدعو الغربيين وأمثالهم إلى استبشاع هذا الحد. إن الناس إذا فشت

فيهم الفاحشة واعتادوها، مات فيهم الشعور بأنها فاحشة، ودعك أن تكون جريمة تستحق هذه العقاب الأليم^(١).

هائدة: الدين دينان:

الدين دينان ينبغي أن لا نخلط بينهما فنحكم بأحدهما على الآخر، أو نستنتج من أحدهما نتائج ونسحبها على الآخر، أو نبني سياسة عملية على أحدهما حقها أن تبني على الآخر.

الدين بالمعنى الأول: هو الدين المنزل من السماء، المبلغ للناس عن طريق رسل الله. والدين بالمعنى الثاني: هو ما يدين به الناس في الواقع فيما يعتقدون من عقائد، أو يلتزمون به من قيم، أو يمارسون من سلوك.

الدين بالمعنى الأول: هو الحق كله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأما الثاني: فيكون حقاً بقدر مطابقته للأول وباطلاً بقدر مخالفته له. وما يترتب عليه من نتائج يكون بقدر تلك الموافقة أو المخالفة.

هذا الدين هو المشار إليه في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]. وأما الدين بالمعنى الثاني فهو أيضاً أنواع:

(١) الاعتقاد في حفظ السنة، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٢٥٣)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٦).

نوع هو الممارسة البشرية للدين الحق المنزل من السماء: وهو المشار إليه في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبَهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

المثل الأعلى لهذا الدين هو ما كان يدين به الرسول ﷺ الذي كانت حياته المباركة بأبي هو وأمي كلها ترجمة عملية للدين الحق، مَنْ غيرُ الرسول ﷺ يمكن أن يُقال عنه: (كان خلقه القرآن)؟ الرسول هو الذي شهد الله له بأنه على صراط مستقيم، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وأن من أطاعه اهتدى، ومن عصاه غوى. وأما غيره ﷺ فيفتربون من هذا المثل الأعلى، ويتعدون بقدر ما آتاهم الله من علم بالدين الحق، وصدق في القصد.

وقد يؤدي الجهل ببعضهم إلى أن يتركوا من الدين جزئيات لا يعلمون أنها منه، أو لا يقوون على ممارستها، وقد يزيدون عليه جزئيات يظنون أنها منه، لكنه نقصان وزيادة لا تخرجهم عن أصل الدين، أو تجعلهم من الكفار أو المبتدعين. والمثل الأعلى لهؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ، ثُمَّ مَنْ سار على نهجهم، وامتن بسنتهم من أئمة أهل السنة والجماعة.

ونوع هو خليط من الدين الحق والدين الباطل: ولعله هو المشار إليه في مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسْكَنَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]، ﴿يَتَّأَهَّلُ الْكَاتِبُ لَا تَلَوْا فِي دِينِكُمْ وَلَا

تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ [النساء: ١٧١]. ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، هؤلاء أقوام يتنسبون إلى كتب الله المنزلة، إلى الدين الحق، لكنهم يزيدون عليه أموراً من اختراعهم أو اختراع غيرهم.

فإذا كانت من النوع الذي ينقض ما جاءت به رسل الله أخرجتهم عن الدين الحق مهما كان القدر الذي استمسكوا به منه. يدخل في هذا النوع اليهود والنصارى الذين كذبوا رسول الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ونسبوا إلى الله الولد، وغير ذلك. ولكن يدخل فيه أيضاً كل من انتسب إلى الإسلام، وسلك مسلكهم باعقادات، أو أعمال هي من نواقض الإيمان. ونوع من الدين لا علاقة له بالدين المنزل من السماء ألبتة، وإنما هو من اختراع الناس، وهو المشار إليه في مثل قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

يدخل في هذا أديان المشركين من العرب، كما يدخل فيه من أهل زماننا أصحاب كل ما يُسمى بالأيديولوجيات التي هي من اختراع البشر كالشيوعية والعلمانية. ولا تستغرن تسميتها لها بالدين؛ لأن الدين في لغة العرب وحكم القرآن هو كل منهج للحياة يجعله الإنسان ديناً له مهما كان نوعه^(١).

(١) الدين دينان، منزل من السماء ومتخذ في الأرض، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٢٥٦-٢٥٩)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٧).

هائدة: ما الذي نستفيد منه نحن المسلمين في عصرنا هذا من التمييز بين

الدين المنزل من السماء، والدين الذي نمارسه في واقعنا ونسميه إسلاماً؟

مما نستفيد منه أولاً: إدراك صحيح لمفهوم تجديد الدين، فنذكر أن الدين الذي يجدد هو الدين الذي نمارسه لا الدين الذي أنزله الله تعالى؛ لأن الدين الذي يلى ويحتاج إلى تجديد هو الدين الممارس في الواقع لا الدين المنزل من السماء. وتجديد الدين الممارس إنما يكون بجعله بقدر اجتهاد المجتهدين وقبول المخاطبين موافقاً للدين الحق المنزل من السماء.

لكن بعض الناس في زماننا يجنحون إلى عكس ذلك تماماً، فيحرفون الدين المنزل من السماء ليوافق ممارسات المسلمين، بل وممارسات الكافرين؛ بحجة جعل الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان. ينسى هؤلاء أن ما يميز الإسلام المنزل من السماء هو صلاحيته كما هو لكل زمان ومكان. ولو أن هذه الصلاحية كانت لا تتأثر إلا بزيادة عليه ونقصان منه لما كان له فضل على غيره من مذاهب الحياة والأديان؛ لأن كل دين وكل مذهب في الحياة يمكن أن يغير فيه، ويبدل لكي يكون موافقاً للأهواء الشائعة في عصر من العصور.

فالدين الحق صالح لكل زمان ومكان لا بمعنى موافقته لما يشيع في العصر من أهواء، بل لموافقته لما يصلح الإنسان من حيث هو إنسان في كل زمان ومكان؛ لأنه وإن كان قد نزل على رسول الله في زمان معين ومكان معين إلا أنه ليس مرتبطاً بذلك الزمان وذلك المكان. كيف لا، والرسول النبي الخاتم ﷺ إنما أرسل للناس كافة رحمة للعالمين؟

ومما نستفيده ثانياً: أن نحلل واقعنا تحليلًا صحيحًا، نعزو به النتائج إلى أسبابها الحقيقية المتمثلة في الدين الواقعي الذي تدين به مجتمعاتنا، بكل ما فيه من شرك وبدع وانحرافات، فلا نبني هذه التحليلات على افتراض أن ما تدين به هذه المجتمعات مطابق للدين الذي أنزله الله؛ لأنها تسمى بالمجتمعات الإسلامية.

هنا أيضًا ضل بعض الناس بسبب هذا الافتراض سواء كان عن جهل أو عن غرض، فصاروا ينسبون إلى الدين الحق كل ما تعانيه الأمة من أمراض في التخلف الاقتصادي والصناعي، بل والفكري. قاد هذا التحليل المضلل جماعة من المفكرين الغربيين، ثم تبعهم فيه جماعة من المقلدين لهم من أبناء العالم الإسلامي.

مما نستفيده ثالثاً: أمر يتعلق بتطبيق الشريعة. إن كثيراً من إخواننا الذين نحسبهم صالحين يفترضون في مناداتهم بتطبيق الشريعة أن مجتمعاتهم مجتمعات كاملة في إسلاميتها، وأنه يمكن لذلك أن يطبق عليها كل ما تقتضيه الشريعة من أحكام كما كان الأمر في زمان الخلافة الراشدة. لو كان هذا الافتراض صحيحاً لما زال الحكم الإسلامي أصلاً، ولما اضطررنا للمناداة بالعودة إليه.

فعلينا إذن أن نتعاون مع من نحسبه مخلصاً من حكامنا في العودة بنا إلى الالتزام بما أنزل الله تعالى؛ بأن نعترف بأن في الأمة أمراضاً وانحرافات وجهل، فتتدرج في العودة بها إلى الدين الصحيح مقدمين الأهم على المهم. أنا أعلم أن بعض المنافقين اتخذوا من مبدأ التدرج ذريعة إلى الدعوة إلى الإعراض عن الدين. مع أن التدرج كما يدل عليه لفظ الكلمة إنما هو رقي الدرج. فمن وقف بعيداً عن الدرج لا يعد متدرجاً. لا بُدّ إذن من البداية ومن الرقي بحسب حال

المجتمع الذي يراد له أن يحكم بشرع الله. فالمجتمعات الإسلامية تختلف اختلافًا كبيرًا في قربها وبعدها من الدين الصحيح. فكلما كان المجتمع إلى هذا الحق أقرب كان الرقي به أسهل وأسرع^(١).

فائدة: الإسلام الذي يريده الغرب:

إنه الإسلام الهيلواني^(٢) ليس إسلامًا لله تعالى، وإنما هو إسلام لأهواء كل من يدعي الانتساب إليه. إنه إسلام لا صورة له ولا محتوى، ولا يمكن أن يُعرّف أو يوصف؛ لأنه دائم التغير والتشكل بأشكال تلك الأهواء التي لا تستقر على حال. وهو قابل لهذا التشكل المستمر؛ لأن القرآن في نظر الهيلانيين، وإن كان نصًا مقدسًا إلا أن فهمه هو دائمًا فهم بشري، والفهم البشري يتغير، بل يجب أن يتغير بحسب ظروف القارئ للقرآن زمانًا ومكانًا وثقافة ومزاجًا.

وإذا كانت الفهوم كلها بشرية فكلها متساوية في كونها فهمًا للقرآن الكريم، كيف بغير هذا يكون الإسلام صالحًا لكل زمان ومكان؟ لأن الحقيقة ليست ملكًا لأحد، وإنما هي أمر نسبي تابع لرؤى الناس وظروفهم، لا فرق إذن بين شيعة وسنة، ولا بين سني وأشعري ومعتزلي وخارجي، ولا بين معترف بالسنة ومنكر

(١) الدين دينان، منزل من السماء ومتخذ في الأرض، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدي، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٢٥٩-٢٦١)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، (ص: ٢٣٧).

(٢) الهيلواني: نسبة إلى هيلول - بفتح الهاء - وهي في فلسفة أرسططاليس مادة ليس لها شكل ولا صورة ثابتة وإنما هي قابلة لأن تأخذ صورًا وأشكالًا مختلفة.

لها، ولا بين سلفي وصوفي حتى لو كان الصوفي من النوع الذي يعتقد الولاية في من قال:

«وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة»

كل هؤلاء متساوون، ولكل منهم من الحقوق ما لغيره في الوطن المسلم الذي يعيشون فيه. فالإسلام اشتراكي إذا كان هوى المتسبب اشتراكياً، وهو رأسمالي إذا كان هواه مع الرأسمالية؛ لأن الله أحل البيع، أما الربا الذي حرمه فليس رباً البنوك الذي هو من ضرورات الاقتصاد الحديث، وإنما هو رباً العرب الجاهليين الذي كان يؤخذ أضعافاً مضاعفة استغلالاً لحجة لمساكين.

والإسلام ديمقراطي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] إذاً ماذا تكون الشورى غير الديمقراطية؟ ولكنه أيضاً دكتاتوري؛ لأنه يأمر بطاعة الحاكم وعدم الخروج عليه. والإسلام دين الجمال فهو لا يعترض على شيء من الفنون الجميلة رسماً ونحتاً ولا على ما يرسم أو ينحت مكسواً كان أم عاريًا، متحرّكاً كان أم ساكناً، ما دام الغرض منه تذوق الجمال، وإدخال البهجة على النفوس.

والإسلام دين المتع البريئة، فلا اعتراض فيه على غناء أو موسيقى، ولا على رقص بين رجال ونساء؛ كيف يحرم الغناء والموسيقى من خلق الطيور المغردة ذات الأصوات الشجية؟ والإسلام دين السلام فلا مكان فيه لحرب ولا قتال؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿كُنُوا آيِدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]، وأما الجهاد فإن المقصود منه جهاد النفس، وجهاد الكلمة والبيان؛ لأن الدعوة إلى الله لا تكون

إلا بالحكمة والموعظة الحسنة.

والإسلام دين الحرية؛ إذاً لا إكراه في الدين، فمن شاء أن يدخل فيه دخل، ومن شاء أن يخرج منه خرج، ولا تثريب على داخل فيه أو خارج منه، فلا كلام في عصرنا عن ردة ومرتب، إن عصرنا هو عصر حرية التعبير، فدعوا كل إنسان يقول ما شاء كيف شاء، ويدعو إليه ويدافع عنه، دعوا الأفكار تتصارع ولا تحكموا على واحد منها بالحرمان من الدخول في حلبة المصارعة.

وإذا أراد المسلم أن يهاجر إلى بلد غير إسلامي ويعيش بين ظهري أهله، فله أن يفعل ذلك؛ لأن الأرض كلها لله، والإسلام دين الله، ولكن عليه إذا اختار تلك الهجرة أن يعطي ولاءه الكامل لحكومة البلد الذي اختار الهجرة إليه، ولدستورها ولا سيما إذا كان دستوراً ديمقراطياً، فعلى من يعيش في الولايات المتحدة مثلاً أن يقرأ الدستور الأمريكي في أذن مولوده كما ينادي بالأذان في الأذن الأخرى، وعليه أن يحتفل بما يحتفلون به من أعياد عامة كعيد الشكر، وأن يذبح البط كما يذبحون، ثم عليه أن يهتفهم بما يختصون به من أعياد دينية نصرانية كانت أم يهودية.

نظم الحكم وأمور السياسة والاقتصاد هي من أمر الدنيا الذي قال الرسول ﷺ عنه: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» فلا بأس على المسلمين اليوم أن يتخذوا من أنظمة الحكم ما يرونه مناسباً لعصرهم ومحققاً لمطالبهم، وما دام الاتجاه الآن إلى مساواة النساء بالرجال في كل شيء فيجب أن نغير أحكام الميراث فلا يكون فيها فرق بين ذكور وإناث، ويجب أن يكون من حق المرأة أن تزاحم لتحتل مكانها في الصفوف الأمامية من المسجد، وأن تخطب المصلين وتؤمهم في صلاة الجمعة

كما يؤمهم الرجال، كما يجب أن تنال حقها في الاختلاط بالرجال ومزاحمتهم في أماكن العمل وفصول الدراسة وقاعاتها، وأن ترتدي من الملابس ما شاءت وكيف شاءت ما دام اللبس مما يعتبر في عصرها محتشماً؛ لأن الحشمة مسألة نسبية تختلف باختلاف الثقافات والعادات والتقاليد. هذا الدين الهولاني المطواع هو الإسلام الذي تريده أمريكا وترضى عنه، وما عداه وخالفه فإنما هو إسلام المتشدد من الوهابيين وأمثال الوهابيين الذين ما يزالون يعتقدون أن القرآن كله كلام الله، وأنه يجب الالتزام بكل ما صرح عن رسول الله ﷺ، كما يجب الحكم بما أنزل الله^(١).

فائدة: علاقة الأخلاق بالنظم في الإسلام وغيره من النظريات الأخرى:

غلّت النظرية الماركسية فزعمت أن الأخلاق إنما هي نتيجة النظم، ولذلك عزت كل ما اتصف به الناس من مساوئ الأخلاق كالسرقة والكذب والأنانية إلى النظام الرأسمالي، وكانت ترى أنه بحلول النظام الاشتراكي أو الشيوعي فإن كل هذه المساوئ ستتحول إلى حسنات، فتحل الأريحية محل الأنانية، والصدق محل الكذب، والأمانة محل الخيانة، وهكذا. لكن التجربة قد أثبتت بطلان هذه النظرية الماركسية؛ فقد بنى النظام الاشتراكي في كثير من البلاد لكن الناس ظلوا كما كانوا يخونون ويكذبون ويسرقون.

(١) الإسلام الهولاني، منزل من السماء ومتخذ في الأرض، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المستدي، ط١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٢٦٧-٢٧١)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، (ص: ٢٣٧).

هذه نظرية كان يمكن أن يعرف بطلانها قبل التجربة وبمجرد النظر. إن الذين دعوا إلى الاشتراكية كانوا هم أنفسهم من نتاج المجتمع الرأسمالي؛ فما الذي جعلهم يذمون تلك المساوىء حتى قبل حلول الاشتراكية؟ وما الذي جعلهم يفكرون في نظام يقضى عليها لولا أنهم كانوا منذ البداية مؤمنين بأن القضاء عليها شيء حسن تقتضيه مكارم الأخلاق؟

أما النظريات الغربية من ديمقراطية وليبرالية ورأسمالية فإنها تكاد تهمل هذا الأمر إهمالاً كاملاً في تعييدها النظري. إنها تفترض في الناس أن يكونوا أمناء، وتفرض عقوبات على أنواع من الجرائم الخلقية كالسرقة والخيانة. ما مصدر هذه الأخلاق؟ وما الذي يدعو الناس إلى الالتزام بمحاسنها، أو يغرهم باللجوء إلى مساوئها؟ ليس في هذه النظريات حتى محاولة للإجابة عن مثل هذه الأسئلة، بل ربما عدت الكلام فيها أمراً خارجاً عن نطاق النظم السياسية أو الاجتماعية.

أما الإسلام فيولي هذا الأمر أهمية قصوى. فهو يُخبرنا بأن أصل هذه المكارم في فطرة الإنسان. فالرسول ﷺ يخبرنا بأن «ما من مولود إلا يولد على الفطرة».

والفطرة هي كل ما في الإنسان من فضائل وعلى رأسها اعترافه بعبوديته لله تعالى. ويؤكد هذا قوله ﷺ في حديث أبي هريرة في الصحيحين: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال. ثُمَّ علموا من القرآن ثُمَّ علموا من السنة»، والجذر هو الأصل. إن في وجود هذه المعاسن في كل مجتمع من المجتمعات دليلاً على صدق هذا الذي يقرره الإسلام. لكن كونها مما فطر الله الناس عليه لا يعني أن

فطرتهم تلزمهم بها؛ لأن الفطرة إنما هي بمثابة الصوت الداخلي الذي يقول للإنسان: يا عبد الله! هذا خير فاتبعه! لكن الإنسان مخير بين أن يستمع إلى هذا الصوت أو يعرض عنه، كما أنه مخير بين أن يستمع إلى صوت الهداية الخارجي أو يعرض عنه.

بعد الفطرة يأتي الدين الحق الذي هو دين تلك الفطرة، فيقوى داعي هذه المكارم في قلوب المؤمنين إن الإيمان بالله هو الأساس والمحور الذي تدور حوله كل الفضائل التي فطر الله الناس عليها، فبقوته تزداد قوتها، وبضعفه يزداد ضعفها. إن الإيمان بالله وحبه يثمر في القلب ضرورة حب كل ما يحبه الله من الفضائل. ثم يأتي الإيمان بالحياة بعد الموت ليؤكد للملتزم بالمكارم أنه إذا كان يخسر خسارة مادية مؤقتة في هذه الحياة الدنيا القصيرة لالتزامه بصدق أو أمانة؛ فإنه هو الرابح في الحياة الآخرة الدائمة.

إذا كان الإيمان بالله تعالى وبالدار الآخرة يجعل اعتقاد الإنسان متوافقاً مع صوت فطرته الداعي إلى مكارم الأخلاق؛ فما هكذا تكون سائر المعتقدات. إن الذي ينكر وجود الخالق، ومن ثم وجود حياة بعد الموت، يجد في نفسه نزاعاً بين داعي فطرته، ومقتضيات فكرته. إذا عُرِضت عليه حالة تغريه بنوع من الظلم، خيانة أو سرقة أو كذباً، أو اعتداء في سبيل مكسب مادي، فلن يجد في فكرته أو معتقده ما يقول له: إن هذا خطأ فلا ترتكبه، بل سيجد فيها ما يسوغ له ارتكابه. سيقول لنفسه مثلاً: إذا كانت هذه الحياة هي الحياة الوحيدة التي لا حياة بعدها؛ فلمماذا أضحى بهذه المكاسب؟ ما الذي أكسبه من التضحية بها؟ لكنه باعتباره إنساناً سيجد في قلبه

ما يقول له: إن هذا خطأ؛ إنه أمر لا يليق؛ إنه وإنه.

فإما أن يستمع إلى صوت فطرته، أو يتصرف بحسب فكرته. أما المؤمن فإنه حين يلتزم بالعدل حتى لو كان عليه فإنه يفعل ذلك تلبية لداعي فطرته الإنسانية، وتمشيًا مع مقتضيات إيمانه الذي يقول له: إنك في الحقيقة تكسب حين تضحى هذه التضحية؛ لأن الله تعالى سيعطيك في حياتك الآخرة، وهي الحياة الدائمة أكثر مما خسرت في هذه الحياة الدنيا الفانية.

إن مكارم الأخلاق أمر ضروري لكل مجتمع لكن الإلحاد يجعلها متنافية مع العقل؛ إذ يجعلها تضحية مطلقة لا مكسب من ورائها والإنسان العاقل لا يعمل عملاً لا ثمره له، ولا يضحى تضحية مطلقة لا مكسب من ورائها. إن مثل هذا التصور يجعل الحياة الدنيوية كلها حياة متناقضة؛ فأكثر الناس نفعًا للمجتمع هم أكثر الناس خسارة.

وفي هذا يقول ربنا: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْسَّيِّئِينَ كَالْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[النجم: ٣٥-٣٦] فالحياة الدنيا تكون حياة ناقصة ومتناقضة من الناحية الخلقية، ولا تكتمل وتسق إلا بوجود دار آخرة يثاب فيها المحسنون ويعاقب المجرمون^(١).

(١) الأخلاق والنظم، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المستدي، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٣١٠-٣١٣)؛ للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، (ص: ٢٣٧).

فائدة: الاستدلال الخاطئ بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على الحرية

الدينية بالمفهوم الغربي:

من العبارات القرآنية التي حُرِفَتْ وصار يُستدل بها على الحرية الدينية بالمعنى الغربي قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. وما دامت الحرية الدينية بهذا المعنى الغربي تقتضي أن يكون من حق الإنسان أن يدخل في الدين أو يخرج منه متى شاء حكم هؤلاء بأن تكون الردة أمراً مباحاً لا جريمة يعاقب مرتكبها، حتى قال قائلهم في وقاحة مخالفاً لقول الرسول ﷺ: «لا بأس على الإنسان أن يبدل دينه» لكن حرية الدين بالمعنى الغربي لا تقف عند حدود إباحة الردة؛ لأنك إذا أبحث للإنسان أن يخرج من الدين كله فيلزمك أن تبيح له الخروج من بعضه. وهذا هو الأمر في الغرب. فكما أن من حق الإنسان أن يخرج من اليهودية أو النصرانية أو الإسلام؛ فمن حقه أيضاً أن ينكر بعض ما في دينه ويظل رغم ذلك يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً، ولا يحق لجهة دينية أن تعترض عليه.

ولا زلت أذكر مستغرباً كلمة الرجل الأمريكي الشاذ الذي انتخبته كنيسة قسيساً كبيراً لها معتزلاً للذين اعترضوا على ترشيحه، قال كلاماً فحواه أنهم محقون؛ لأن انتخابه مخالف لتقاليد الكنيسة، ومخالف لنصوص الكتاب المقدس، ثم قال: «لكن هذا لا يعني أنه خطأ!» وعليه فإذا كان من حق المسلم أن يرتد عن دينه كله، فيكون من حقه أن ينكر الصلاة أو الصيام، أو يمتنع عن أداء الزكاة، أو يبيع شرب الخمر أو الزنا، أو حتى الشذوذ.

وقد حدث فعلاً أن كوّن جماعة من الشباب المنحرفين في أمريكا جمعية أسموها (جماعة الشباب الإسلاميين الشاذين). لكن هذا يؤدي إلى نتيجة خطيرة هي أن الإسلام لا يمكن أن يكون نظاماً أو قانوناً للدولة؛ لأنه إذا كان من حق الإنسان أن يخرج على كل أمر أو نهى ديني، فيكون من حقه أن يخرج على كل أوامر الدولة وقوانينها. لكن الناس لا بُدّ لهم من دولة تأمر وتنهى وتعاقب؛ فإذا لم تكن دينية لزم أن تكون علمانية. يقول بعضهم: يمكن أن نلزم الناس بهذه الأوامر باعتبارهم مواطنين لا باعتبارهم مسلمين.

وأقول: إن هذا يؤكد علمانية الدولة؛ لأن العلمانية لا تمنع من أين تتبنى الدولة بعض الأوامر والنواهي ذات الأصل الديني ما دامت لا تجعل الدين أساساً لمشروعيتها. ونحن نعلم أن في الدول العلمانية الغربية كثيراً من أمثال هذه القوانين^(١).

فائدة: السبب في اعتبار الردة جريمة يعاقب عليها القانون الإسلامي:

إن الذي يعاقب عليه القانون ليس هو أن يغير الإنسان ما في قلبه؛ فهذا أمر لا يستطيع البشر الاطلاع عليه اطلاعاً مباشراً، ولا يستطيع أحد أن يجبر أحداً على اعتقاد معين حقاً كان أو باطلاً؛ ولذلك يقال للرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ

(١) من الحرية الدينية إلى الدولة العلمانية، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٣٦٥-٣٦٦)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٣٨).

أَحْبَبْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ [القصص: ٥٦] ويقال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] فالاستدلال بمثل هذه النصوص على إباحة الردة استدلال خطأ؛ لأن هذه النصوص لا تتكلم عن حرية التعبير عن الكفر وإنما تتحدث عن وجود الكفر في القلب.

ومنع التعبير عن الكفر والتصريح به غير منع وجوده في القلب، والتفريق بين هذين أمر متفق عليه بين كل العقلاء، ولا يمكن إلا أن يراعى حتى في القوانين الوضعية. فالقانون لا يعاقب إنساناً على اعتقاده بأن إنساناً آخر سارق مثلاً، وإنما يعاقبه على إعلانه عن هذا الاعتقاد لما يترتب عليه من ضرر بالمتهم. ولو أن مسلماً رأى أحاً له يزني وتأكد من هذا الأمر فلا يجوز له أن يصرح به، بل إن تصريحه به يعد ذنباً يعاقب عليه إذا لم يشهد معه ثلاثة مثل شهادته.

وكذلك الأمر بالنسبة للردة. فالمسلم إذا ارتد وكنتم رده في قلبه بحيث لم يطلع عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَحَاسِبُهُ. أما في الدنيا فيعامل معاملة المسلم. وأما إذا أعلن رده فإنه يعاقب لما قد يترتب على رده من عواقب سيئة عليه وعلى غيره. من هذه العواقب:

أولاً: استعمال الردة وسيلة لمحاربة الدين، ومن ثم الدولة التي يقوم عليها هذا الدين. قال تعالى عن بعض الكفار: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا عَاجِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ثانياً: أن الإنسان قد تخطر بباله شبهات تشككه في دينه؛ فإذا ما صرح بها وعرفها الناس عنه، ربما كان من الصعب عليه أن يتنازل عنها. وأما إذا ما كتمها

في قلبه، أو بدأ يناقش بعض إخوانه فيها مناقشة علمية، فقد يرجع عنها. وقد جربنا هذا كثيراً.

ثالثاً: إن التصريح بالخروج من الدين لا تقف حدود ضرره على المرتد وحده، بل إن هذا قد يؤثر في كل من له صلة به ولا سيما الزوجة أو الزوج والأولاد. فتجريم إعلان الردة هو في الحالة الأولى حماية للأمة، وفي الحالة الثانية حماية للفرد، وفي الحالة الثالثة حماية لمن حوله ممن قد يتأثر به. أقول بعد هذا: إن الذين فسروا عبارة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ذلك التفسير الغربي، والتزموا لوازمه كلها أو بعضها، وأباحوا الردة، اضطروا كلهم لأن ينكروا أو يحرفوا نصوص السنة النبوية.

يقول لك أحدهم: إنه لا ذكر لتجريم المرتد في القرآن الكريم. تقول له: بلى! قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَأَ لَهُمْ ۝٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ۝ [محمد: ٢٥-٢٧] يقول لك: لكن المذكور في هذه الآية وآيات غيرها إنما هو عقاب آخروي. تقول له: لكنه تجريم على كل حال. ثم إن تفاصيل كثير من الأحكام إنما جاءت بها السنة التي أمرنا الله تعالى في كتابه أن نأخذ بها.

فإنكار السنة أو شيء منها إنكار للقرآن الكريم. قلت لبعضهم: إن القرآن لم ينزل عليك ولا على أبيك، وإنما نزل على محمد ﷺ؛ فإذا كنت تعتقد أنه صادق

في قوله إن القرآن أنزل عليه، فيجب أن تعتقد أنه محق في بيانه للقرآن وفي قوله إنه أوتي القرآن ومثله معه. وإذا كنت لا تصدقه في هذا أو لا تأخذ بقوله فقد أبطلت الأصل الذي يقوم عليه إيمانك بأن القرآن كلام الله إن كنت حقاً مؤمناً بذلك. ثم كيف تبيح لنفسك أن تفسر القرآن وتنكر على من أنزل عليه أن يفسره؟ ومنهم من ينكر وجود أحاديث تجرم الردة وتعاقب عليها. ومنهم من يعترف بوجود بعض الأحاديث لكنه يتعمد تحريف معانيها بشتى الوسائل^(١).

فائدة: دلالة الوسطية في المفهوم الإسلامي:

الوسطية التي وردت في كتاب الله صفة خص الله بها المسلمين من أتباع محمد ﷺ، فقال تعالى عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. جعلهم سبحانه كذلك بالرسالة التي بلغهم إياها نبيهم، فكلما كان الواحد منهم أعلم بها وأكثر عملاً بها كان أقرب إلى الوسطية، فالوسطية ليست إذن موقفاً يتخذه الإنسان من الدين، ولا طريقة يفهم بها الدين، فيقول مثلاً: بما إنني وسطي فأنا لا أكفر أحداً، أو بما إنني وسطي فأنا لا أرى تحريم الموسيقى. كلا، إنما الوسطية صفة يكتسبها المسلم نتيجة لتمسكه بدينه، هذه الصفة هي التي تؤهله لأن يكون من الشهداء على الناس، الشهداء الذين

(١) الحرية الدينية إلى الدولة العلمانية، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٢٦٥-٢٦٦)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٣٨).

يقبل الله شهادتهم. ما هذه الصفة؟

قال الإمام ابن كثير: والوسط ها هنا الخيار والأجود، كما يقال: قرش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها. وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي صلاة العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في تفسير هذه اللفظة، فوجدها لا تخرج عن قولهم: إنها الخيار أو العدل، لكنه قال: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين... وأرى أن الله تبارك وتعالى إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصاري... ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود... ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. وقد جمع الشيخ السعدي بين القولين جمعاً جميلاً في عبارة موجزة فقال: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر^(١).

(١) الوسطية لا التبعية، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٣٧١)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٨).

فائدة: من هي الجماعة الوسط؟

هي جماعة معتزة بدينها، متأسية بسلفها، شاهدة بالعدل على غيرها، تقول لهذا: إنك على الحق، وتقول لذلك: إنك على باطل. جماعة تعمل لإعلاء كلمة الله على بصيرة بحقائق دينها، وبصيرة بواقع عصرها، جماعة تدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجادل بالتي هي أحسن إلا من ظلم، ولكنها تؤمن في الوقت نفسه بأنه كما لا يقوم الدين إلا بالكتاب الهادي، فإنه لا يقوم إلا بالسيف الناصر.

فهي إذن جماعة أبعد ما تكون عن التميع والمداهنة، والخضوع والاستكانة. ولكن بما أنها جماعة تؤمن بأن العدل واجب على كل أحد مع كل أحد في كل أمر، فإنها لا تُكفر من لا دليل في كتاب الله ولا في سنة رسوله على تكفيره، ولا من لم تُكفره الجماعة التي شهد الله لها بالوسطية أصحاب رسول الله ﷺ، ومن سار على منهجهم، واقتفى أثرهم ممن جاء بعدهم من أئمة أهل السنة، وكما أنها لا تُكفر بلا دليل، فإنها لا تهاب أن تقول لمن قام الدليل على كفره: إنه كفر وخرج على الملة؛ لأنه إذا لم يكن من العدل أن يخرج إنسان من هذه الملة الشريفة بغير دليل، فإنه من الظلم أن يحسب منها من قام الدليل على خروجه منها، ومعاداته لها. وهي جماعة يمنعها عدلها أن تعتدي على الأبرياء حتى لو كانوا كفارًا. هذه أمثلة للصفات التي تتحلى بها كل جماعة تتصف بالوسطية بالمفهوم الإسلامي الصحيح لها^(١).

(١) الوسطية لا التميعية، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٣٧١)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٣٨).

فائدة: الممكن أوسع دائرة من المعهود،

الممكن أوسع دائرة من المعهود، وأوسع دائرة مما يمكن تفسيره في حدود معارفنا العلمية الحالية. لكن كثيرًا من الناس تضيق أعطائهم عن هذا فيسارعون إلى إنكار ما لم يعهدوا، ويسارعون إلى إنكار ما لا تفسير له في حدود ما عندنا من علم، بل إن بعضهم يظن أن غير المعهود، أو غير ما يمكن تفسيره في حدود العلم المعهود مستحيل عقلاً. ويزداد الأمر عجبًا حين ترى أن ضيقي الأفق هؤلاء كثيرًا ما يدعون العقلانية، أو يدعون العلمية.

المعهود هو ما عرفناه وعهدناه واقعًا، كطلوع الشمس من جهة الشرق، وكمقدرة الناس على الكلام بألستهم، وكإرواء الماء للظمان. الممكن هو ما يمكن وقوعه وإن لم يقع. فوصول الناس إلى القمر كان ممكنًا قبل أن يقع، وكذلك السفر بالطائرات، والحديث بالهواتف، المستحيل ما لا يمكن أن يحدث بأي حال من الأحوال، كوجود الشيء الواحد نفسه في مكانين مختلفين، وكاجتماع الإيمان والإلحاد في قلب واحد، وكالكلام والصمت.

من الأمثلة التي ذكرت في القرآن الكريم لهذه المستحيلات قوله تعالى ردًا على الذين زعموا أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا: ﴿وَمَا أَرْأَتْ التَّوْرَةَ وَلَا نَجِیْلُ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ﴾، وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّنْ يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. أي أنه من المستحيل أن يكون ولد له أب وليس له أم. وأما قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. فليس المقصود به ولدًا يلده سبحانه فهذا

يتناقض مع الآية السابقة، وإنما المقصود به ولد متبنى بدليل قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾.

إن كون الشيء ممكناً لا يعني كونه لا بُدَّ أن يقع؛ لأن الممكن إنما يقع إذا تحققت شروط وقوعه، وإذا لم تتحقق فقد لا يقع أبداً وإن ظل وقوعه ممكناً^(١).

فائدة: أقسام المعهود:

المعهود نوعان: معهود طبيعي، ومعهود ثقافي. المعهود الطبيعي هو الذي يقع بحسب ما وضع الله تعالى في الكون من قوانين. وأما المعهود الثقافي فأعني به ما يعتاده الناس باختيارهم سواء كان حسناً أو سيئاً. وإذا كانت أعطان بعض الناس تضيق فتتكر ما لم تعهد في الطبيعة، فإن بعض الأعطان تكون أضيق من ذلك فتتكر كل ما لم تعهده في ثقافتها وعاداتها وتقاليدها وتعهده منكرًا.

الناس بالنسبة للممكن غير المعهود نوعان: نوع يستغرب وقوعه لكنه لا يعتقد استحالة، ونوع يعتقد أن وقوعه غير ممكن، أي يعتقد استحالة. إنه لأمر طبيعي أن يستغرب الإنسان ما لم يُعهد وأن يتعجب منه إذا ذكر له.

لذلك كان من الطبيعي أن يستغرب نبي الله زكريا عليه السلام أن يكون له ولد من امرأة عاقر ورجل قد بلغ من الكبر عتياً مع أن الذي أخبره بذلك هو الله الذي

(١) الممكن والمعهود، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المستدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٣٧٦)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٨).

أرسله. ﴿يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾
 قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا
 قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ تَكْفُ شَيْئًا ۝٨

وكان من الطبيعي أن تستغرب مريم ابنة عمران قول المَلَكِ لها: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، وكان من الطبيعي أن تسأله مستغربة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، وكان من الطبيعي أن يقول قوم مريم لها: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، مثل هذا الاستغراب أمر لا بُدَّ منه، وإلا استوى كون الشيء معهودًا معروفًا وكونه ليس بمعهود ولا معروف، وكان من لوازم ذلك أن يصدق الإنسان كل ما يقال له من غرائب. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يذم زكريا ولا ذم مريم على استغرابهما، وإنما بين لهما أن ما استغراباه أمر ممكن وأنه داخل في قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه سيقع فعلاً. التصديق بمثل غير المعهودات هذه التي يخبر بها الله تعالى أناساً لم يشهدوها هو من علامات حسن العلم به سبحانه، وقوة الإيمان به.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخْلَقْ لهذا، ولكني إنما خلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله! تعجباً وفرحاً: أبقرة تكلم؟ فقال رسول الله ﷺ: فإني أومن به وأبو بكر وعمر».

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «بينما راع في غنمه، عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة، فطلبه حتى استنقذها منه، فالتفت إليه الذئب فقال له: من لها يوم

مرة ثانية، مع أن الإعادة أهون من البداية؟ وبين لهم أن في ما يشاهدون من إحيائه الأرض بعد موتها ما يدلهم على إمكانية البعث ويقربه إليهم، ثم بين لهم أن هذا البعث أمر تستلزمه صفات الله تعالى.

كيف يرسل الله تعالى رسلاً فيؤمن بعض الناس بهم ويصلحون وقد يضلحون في سبيل ذلك ببعض المكاسب الدنيوية، بينما يكفر آخرون ويعيثون في الأرض فساداً، ثم يساوي بين مصير الفريقين؟ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ۖ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾.

من أمثلة إنكار الناس لما يخالف ما عهدوه من أمور ثقافية قول العرب الجاهليين: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، ومن أمثله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَأَنَّا عَلَىٰ بَأْسِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣) قُلْ أُولُو عِمَّتِكُمْ بَاهَدُوا بِمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١﴾.

فائدة: من فوائد الكشوف والمخترعات العلمية الحديثة:

لقد كان من فوائد الكشوف والمخترعات العلمية الحديثة أنها وسّعت من تصور الناس لدائرة الممكن لإتيانها كشفاً أو اختراعاً بأشياء ما كان الناس سيصدقون بها لولا قيام الأدلة الحسية أو العقلية على وجودها. من كان

(١) الممكن والمعهود، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتلدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٣٧٦)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٨).

سيصدق في شيء كالهاتف الجوال، أو الأقراص التي تحوي من الكلام ما يساوي آلاف الصفحات.

وأظن أن كثيرًا من الناس كانوا سيعتدون وجود ما يسمى بالثقوب السوداء أمرًا مستحيلًا؛ إذ كيف يوجد شيء حسي مادته أكثر من المادة التي في عدد من الجبال وهو مع ذلك لا يمكن أن يشاهد بشيء من الحواس الخمس؟ ولكن مع قيام الأدلة العقلية التي جاء بها الشرع، ومع وجود هذه الغرائب التي جاء بها العلم الطبيعي، فإن بعض الناس ما زالوا ينكرون أشياء مثل عذاب القبر، ووجود يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. بل إنهم ما زالوا يجدون حرجًا في الإيمان بكل ما ليس بمعهود في الحضارة الغربية السائدة، فيخرجون من قضية الردة ويحاولون أن يجدوا منها مخرجًا بتحريف النصوص الدالة عليها، ويخرجون من كل شيء في تاريخهم السياسي لم يكن سائرًا على قواعد الديمقراطية، ويدعون أن يساوا بين الناس مسلمهم وكافرهم ما داموا أبناء وطن واحد، وهكذا^(١).

فائدة: الفرق بين الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية،

هنالك فروق عظيمة بين الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية. فلما كان الاتباع العلمي هو في حقيقته اتباعًا للعلم؛ فإن المتبع يستطيع أن يأتي بالدليل

(١) الممكن والمعهود، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٢٣٨)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٨).

على صحة ما يدعو إليه، ولما كانت التبعية الجاهلية إنما هي اتباع لأشخاص؛ فإن المتبع لا يستطيع أن يأتي بدليل ولا يستطيع أن يعجب على اعتراض، بل يغضبه أن يعترض عليه، ولذلك فإنه يجعل عدم السؤال أو الاعتراض شرطاً في الاتباع. من الأدلة على هذا أن موسى لما ذهب لملاقاة العبد الصالح ورضي بأن يكون له تابعاً سَوَّغَ تبعيته له بقوله: ﴿عَلَى أَنْ تَعْلِمَنَ مَعًا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

ولما اشترط عليه العبد الصالح أن لا يسأله، لم يجعل ذلك شرطاً مطلقاً، وإنما قيده بقوله: ﴿حَقَّقْ أَصْدَقَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]. ولما قال الرجل الذي آمن لقومه: ﴿اتَّبِعُونِي أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨] لم يكتف بهذه الدعوى بل بين لهم ماذا يعني بسبيل الرشاد.

وأما فرعون الذي كان يريد من الناس أن يتبعوه تبعية جاهلية فقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فسبيل الرشاد عنده شيء تابع لرأيه وهو لا دليل علمياً عليه. كان أتباع أصحاب رسول الله له اتباعاً علمياً، لذلك لم يكونوا يتحرجون من سؤاله، ولم يكونوا يرون في السؤال تناقضاً مع يقينهم بأنه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، ولم يكن رسول الله - بأبي هو وأمي - ينكر عليهم أن يسألوه أسئلة يستبينون بها الحق ويزدادون به يقيناً.

فهذه أم المؤمنين عائشة تقول لرسول الله ﷺ: «كَيْفَ يُخَسِّفُ بِأَوْلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ» فأجابها بقوله: «يُخَسِّفُ بِأَوْلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُخَشِّرُونَ عَلَى نِيَاتِهِمْ». لماذا سألت أم المؤمنين هذا السؤال؟

سؤالها يدل على أنها لم تستطع أن توفق بين قول النبي ﷺ وقاعدة عظيمة من قواعد الدين هي أن الإنسان لا يعاقب إلا على جرم ارتكبه، وهي تعلم أن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ حق لا تناقض فيه.

ولما قال الرسول ﷺ: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة»، فقال له أعرابي: «يا رسول الله! فما بال إلي تكون في الرمل كأنها الظباء، فيأتي البعير الاجرب فيدخل بينها فيجربها؟»، فقال له الرسول ﷺ: «فمن أهدى الأول؟». ولا بُد أن الاعرابي إنما سأل هذا السؤال؛ لأنه يعلم أن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ حق لا يمكن أن يخالف حقيقة تجريبية واقعية.

وإجابة الرسول ﷺ تدل على أنه لم يعنِ بعدم العدوى انتقال المرض من شخص إلى آخر، وإنما عنى به أنها ليست السبب الأول للمرض. وقصة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلح الحديبية معروفة.

أذكر بهذه المناسبة أننا كنا أيام الشباب نقرأ كتب العقبريات للعقاد، وإنه كان يقول فيها: إن لشخصية كل عبقرى مفتاحاً، وإنه جعل مفتاح شخصية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التسليم، وقارن في هذا بينه وبين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان يسأل ويناقش؛ فلم يعجبني قول العقاد وقلت لبعض زملائي كلاماً فحواه أن تسليم أبي بكر كان تسليماً قائماً على علم حاج به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والإنسان إنما يسأل ويستفسر إذا لم يعلم. هكذا كان الاتباع في عهد النبوة والقرون الصالحة، وهكذا كان عند أئمة أهل السنة والجماعة. فما أكثر ما روي عنهم من نهى عن التقليد، وحث على البحث عن الدليل واتباعه. وما أكثر ما

كانوا يحرصون على الفهم والتدبر والتفكير. وما زال مثل هذا الاتجاه معروفاً عند السالكين سبيل أولئك الأئمة.

ما أكثر ما سمعت شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز عليه رحمة الله يقول لطلابه: لا تحقروا أنفسكم، ثم ينصحهم بأن يبحثوا عن الدليل وأن يقولوا بما توصلوا إليه؛ فإذا تبين للواحد منهم أنه كان مخطئاً فلا بأس عليه من أن يغير رأيه ويقول بما علم وهو مأجور في الأولى وفي الأخيرة. لكن الذي غلب على المسلمين في أيامهم الأخيرة هو الرجوع إلى التبعية الجاهلية، تبعية لأشخاص لا علم فيها ولا سؤال ولا مناقشة ولا مطالبة بدليل ولا برهان، بل شعارها بلهجتنا السودانية: «اللي عترض ينطرد» وصار المثل الأعلى للمريد أن يكون بين يدي شيخه كالجنازة بين يدي غاسلها، فتحول الاتباع - وما أكثرهم - من قوم خلقهم الله ليعلموا ويعقلوا ويتفكروا إلى جنائز لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر. بل حتى الذين زعموا أنهم تحرروا وصاروا علمانيين إنما كان تحررهم أن استبدلوا بالشيخ الدينيين شيوخاً علمانيين غربيين. فكان ما كان من أمر تدهورنا في أمر الدين وما تبعه من تخلف في أمور الدنيا^(١).

(١) الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المستدي، ط١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٥٩١)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٤٢).

فائدة: المقصود باليسر في الإسلام:

المقصود باليسر فعل ما يحقق الغاية بأدنى قدر من المشقة، مثلاً: إذا كان لا بُدَّ لك من وسيلة للكسب تحفظ لك ماء وجهك وتغنيك عن السؤال وتوفر لك ما تحتاج إليه من طعام ولباس وسكن وزيادة توفر بعضها وتتصدق ببعض؛ فإن خير وسيلة هي عمل يحقق لك كل هذا بأدنى قدر من المشقة فإذا قال لك الشيطان: لكن عدم الكسب أيسر من أية وسيلة فيها شيء من مشقة، ولذلك فإن الأفضل لك أن لا تعمل إطلاقاً... ستقول له إن كنت عاقلاً هذا صحيح بادئ الرأي أيها الخبيث!

لكن انظر ماذا سيترتب على البطالة، إنها ستجعل حياتي أعسر نفسياً وربما جسدياً؛ فعملي رغم ما فيه من مشقة هو في النهاية أيسر من البطالة التي يبدو أنه لا مشقة فيها؛ وكذلك الأمر بالنسبة للدين؛ فما يأمرنا الله تعالى به هو أعمال تحقق غايات ضرورية لنا، غايات لا تكون لنا سعادة إلا بها، ولكنها باعتبارها أعمالاً فلا بُدَّ أن تتضمن شيئاً من الجهد والمشقة، لكن الله تعالى الخالق لكل شيء، المحيط علماً بالوسائل والغايات، الرحيم بعباده، يختار لنا أسمى الغايات، ثم يدلُّنا إلى أحسن الوسائل التي تحققها بأدنى مشقة، كما قال الله تعالى في أول آية علَّل بها أمره بالصيام: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالغاية المطلوب الوصول إليها هي التقوى، والوسيلة إليها التي لا وسيلة غيرها لتحقيق هذا النوع من التقوى هو صيام شهر رمضان. وعليه؛ فيمكن

تقسيم الأعمال بالنسبة لغاياتها ووسائلها إلى أربعة أنواع:

أحسنها: غاية حسنة ووسيلة ميسرة، وهذا هو الذي اختاره الله تعالى لعباده.
 وأسوأها: غاية سيئة ووسيلة شاقة، من أمثلتها: محاربة الكفار للمسلمين،
 وبذلهم أموالهم وأنفسهم في سبيل ذلك. ومنها: ما يتظاهر به المنافق من صلاة
 وصوم وحج وزكاة وربما جهاد. في مثل هذا العمل قالت العرب:
 لحم جمل غث، على رأس جبل وعير، لا سمين فيشتهى، ولا سهل فيرتقى.
 وأقل منه سوءاً: غاية سيئة ووسيلة سهلة.
 وأحسن من هذا: غاية حسنة ووسيلة عسرة.

وهذا يشمل كل ما خالف السنة من أنواع الأعمال الصالحة.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ
 صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ: مَا
 زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ! قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ
 أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتَ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: «سُبْحَانَ اللَّهِ
 وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»^(١).

فالحديث يدل على أنه بالاعتداء بالنبي ﷺ في عبادته يحصل الإنسان
 بالعمل القليل في الوقت القصير على الأجر الكبير، فيا خسارة الذين يستبدلون
 بأذكار النبي ﷺ أذكارا اخترعوها أو اخترعها لهم سادتهم، إنها في أحسن

(١) صحيح مسلم (١٣/٢٥٨).

أحوالها جهد كبير وأجر قليل، ولذلك كان عدد من الصحابة رضي الله عنهم يقول: اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة.

أما إذا كانت تتضمن شركاً أو شيئاً حراماً فإنها قد تكون من النوع الذي قال الله تعالى فيه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ (٢) عَابِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ (٣) تَصَلَّى نَارًا كَاسِيَةً ۝ [الغاشية: ١-٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْكَ مَنثورًا ۝ [الفرقان: ٢٣].

إذا؛ فالدين كله يُسر بهذا المعنى الذي ذكرناه. قال سماحة الشيخ صالح بن حميد في خطبة له جامعة عن اليسر: والتيسير مقصد من مقاصد هذا الدين، وصفة عامة للشرعية في أحكامها وعقائدها، وأخلاقها ومعاملاتها، وأصولها وفروعها؛ فربنا بمنه وكرمه لم يكلف عباده بالمشاق، ولم يردعنا كالناس، بل أنزل دينه على قصد الرفق والتيسير.

شرعية الله حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، فله الحمد والمنة... ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ۝ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ۝ [النساء: ٢٨]، ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلِيلًا أَيْسَرُ إِلَيْكُمْ ۝ [الحج: ٧٨].

والتيسير له معانٍ أخرى، منها: أن الله تعالى لا يكلف الناس بما يطيقون، بل بما هو في وسعهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وتأمل قوله عز وجل: ﴿لَا تُكَلِّفُ الْوُشْعَ﴾، كيف تجد تحته أنهم في سعة ومنحة من تكاليفه، لا في ضيق وحرَج ومشقة؛ فإن الوُشْعَ يقتضي ذلك؛ فاقتضت الآية أن ما كلفهم به من غير عُسر

لهم ولا ضيق ولا حرج، بخلاف ما يقدر عليه الشخص؛ فإنه قد يكون مقدورًا له ولكن فيه ضيق وحرج عليه. وأما وسعته الذي هو منه في سعة فهو دون مدى الطاقة والمجهود، بل لنفسه فيه مجال ومتسع^(١).

ومنها: أن العمل وإن كان فيه مشقة إلا أن الله تعالى يجعله سهلاً بطرائق كثيرة، منها: أنه يغير طبيعته الشاقة فيجعلها سهلة، كما ذكر الشيخ بالنسبة للقرآن الكريم ذكرًا وتدبرًا وفهمًا.

ومنها: أن يجد المؤمن في العمل لذة روحية، حتى إنه ليكاد ينسى ما فيه من مشقة، وإذا حلت الهداية قلبًا نشطت للعبادة الأعضاء.

ومنها: أن يريد المؤمن تحقيق غاية يحبها لكنه يعلم أنها لا تتحقق إلا بعبادة معينة فيحرص عليها طلبًا لتلك الغاية المحبوبة فتَهون عليه؛ كما في قوله تعالى عن الصلاة: ﴿وَأَسْبِغُوا بِالْمَاءِ الْوُسْطَىٰ وَأُخْرَىٰ ۚ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۚ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]. وقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

«وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفْطَرَ رَجُلَاهُ قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ! أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(٢).

(١) الفتاوى (ج: ١٤)، التفسير الجزء الأول، (ص: ١٣٧-١٣٨).

(٢) أخرجه مسلم.

فحرصه ﷺ على شكر ربه وهو شعور له لذة لا تعدلها لذة هو الذي يسّر له هذا العمل الذي يبدو شاقاً.

ومنها: أن الله تعالى قد يزيل مشقات العمل حتى لا يكاد يبقى منها شيء؛ فأشق شيء على الإنسان أن يُقتل لكن رسول الله ﷺ يقول: «ما يجد الشهيد من مسّ القتال إلا كما يجد أحدكم من مسّ القرصة»^(١).

وعليه؛ فإذا كان الله تعالى قد تكفل بتسهيل العمل بما أنزل من أمر ونهي؛ فكذلك يجب أن نفهمه نحن في ممارستنا له. ولذلك قال ﷺ في الحديث الصحيح مشيراً إلى هذه الممارسة: «إن هذا الدين متين؛ فأوغلوا فيه برفق».

وقال: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»، فعبارة «خير دينكم» هي إشارة إلى الدين الممارس لا الذي أنزله الله تعالى، فإن ذلك ميسر في أصله لا يحتاج إلى أن ييسره إنسان.

ومن أحسن ما قرأت تطبيقاً لهذه الأحاديث ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه قال: حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن الأزرق بن قيس قال: «كنا على شاطئ نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء، فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس فصلّى وخلى فرسه، فانطلقت الفرس، فترك صلاته وتبعها حتى أدركها، فأخذها، ثم جاء فقضى صلاته، وفينا رجل له رأي، فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ، ترك صلاته من أجل فرس، فأقبل فقال: ما عنّني أحد منذ فارقت رسول الله ﷺ، وقال: إن منزلي متراخ، فلو صليت وتركت لم آت أهلي إلى

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح.

الليل، وذكر أنه صحب النبي ﷺ فرأى من تيسيره.

لكن فعل (أبي برزة) يختلف عما يفعله بعض الناس الآن في اختيارهم لما يختارون من الأقوال التي تختلف فيها العلماء. يقول أحدهم لنفسه: ما دام الدين يسراً فإنني سأختار ما أراه أسهل عليّ أو على الناس، ثم يبدأ ينظر في الأقوال بهذا المعيار فيقول مثلاً: قول الحنفية هذا صعب، لكن قول الحنابلة أصعب، أما قول المالكية فسهل، وأسهل منه قول الشافعية.

وأسهل من هذا كله قول العالم الفلاني الذي خالفهم جميعاً، فأنا آخذ به إن المنهج الصحيح هو أن يقول الإنسان لنفسه: ما دام دين الله كله يسراً فسأختار ما أراه بأدلتته أقرب إلى الشرع؛ لأن الأقرب إلى الشرع هو الأقرب لتحقيق الغاية بأدني مشقة.

قد يقول قائل: أليس هذا الذي انتقدت منهجه متأسيًا بالنبي ﷺ في أنه ما تُخَيَّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما؟ يقال له: نعم إذا خُيِّرَ كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفُذِّيْهُ مِنْ صِيَامِهِ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

والتخيير معناه أن كل واحد من الأمور المختير فيها يؤدي الغرض المطلوب، لكن بعضها قد يكون أيسر على الإنسان من بعض، فيختاره. لكن ما نحن في صددده لا علاقة له بالتخيير، بل المطلوب فيه معرفة حكم الله تعالى في الأمر الذي اختلفت فيه الأقوال أو الاجتهادات؛ لأنها إذا تناقضت فلا يمكن أن يكون كل واحد منها صحيحاً مؤدياً الغرض. نعم؛ إذا استوت الأدلة ولم يمكن ترجيح بعض الأقوال على بعض، فإن الأخذ بالأيسر يكون منهجاً صحيحاً.

لكن رغم هذا فقد يحدث التعسير في الدين شرعاً أو قدراً، ويكون عقاباً من الله تعالى لبعض الناس. مثال التعسير شرعاً: ما قال الله تعالى فيه: ﴿فِيْطَلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَيْتِ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيْرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وأما التعسير القدري فيكون بسبب سوء فهم بعض الناس للدين والزامهم أنفسهم بما لم يلزمهم به الله تعالى من أنواع العنت. وهذا هو الذي يحدث لأناس من هذه الأمة التي اختار الله لها الحنيفية السمحة والتي قال الله تعالى عن رسولها: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُوْلَ النَّبِيَّ الْأُمْنِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوْبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيْلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوْهُ وَنَصَرُوْهُ وَاتَّبَعُوا النُّوْرَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذا العنت القدري العقابي هو الذي يدعو المسلم ربّه أن يعيذه منه: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] (١).

(١) مفهوم اليسر في الإسلام، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥هـ (ص: ٤٢٨)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٣٩).

فائدة: العلم ينصر حقائق دين الإسلام،

كان بعض الغربيين في الماضي يعتزون بدينهم ويحسبون أن لا دين خير منه لأنه دين الأمم التي قادت الثورة العلمية واستفادت من تقنياتها في غزو العالم والهيمنة عليه، بل كانوا يجعلون نشر دينهم من مسوغات ذلك الغزو. لكن هذا العلم نفسه هو الذي بدأ منذ مدة يكشف لهم أباطيل دينهم وينصر حقائق دين الإسلام. أدت دراستهم لدينهم دراسة علمية إلى حقائق تدل على أن الكتاب الذي لديهم لا يمكن أن يكون كلام عيسى نبي الله، بل لا يمكن أن يكون حتى رواية صحيحة عنه بألفاظ الرواة.

فانتهت خرافة أن كل ما في البايبل (هكذا يسمون كتابهم) هو كلام الله. فلم يعد يؤمن بهذا عالم مختص بالدراسات البائيلية، وإنما بقي المؤمنون به عوام لا يعرفون شيئاً عن تلك الحقائق أو دعاة مغرضون لا يعقلون. وتبين لمن عرفوا الإسلام منهم صدق ما قرره من تحريف للكتاب.

ثم بدؤوا يدركون مع تطور نظرهم العقلانية إلى الدين حقيقة كبرى أخرى قررها القرآن وأكدها هي أنه لا يمكن أن يكون عيسى عليه السلام ابناً لله وهو مخلوق من مخلوقاته، ما أكثر الذين صاروا يصرحون بإنكارهم لهذه العقيدة الباطلة، وما أكثر الذين تابوا إلى الدين الحق بسبب إنكارهم لها. ثم إن العوام وأولئك المغرضين صاروا يخرجون غاية الحرج في أيامنا هذه مما بدأ ينشر من نصوص البايبل من كلام فاحش مناف لمكارم الأخلاق أدى ببعضهم إلى المطالبة بسحبه من مكتبات التلاميذ، وعده من الأدب الفاحش الذي يمنع

الأطفال من الاطلاع عليه! هل نجحت الايدولوجيات التي حلت محل ذلك الدين في أن تقدم للغربيين بديلاً يغني عن كل دين؟ يقول بعض كبار مفكريهم الآن: كلا.

إن العالم الحديث الذي نسلم به... إنما هو في أساسه نتاج ثورة القرن السابع عشر العلمية، وفترة التنوير التي تبعتها. لقد كانت هذه في حقيقتها بحثاً عن حقيقة مطلقة غير مأخوذة من أرسططاليس ولا من البايل يمكن أن يبنى عليها مجتمع يعامل فيه كل المواطنين بالمساواة. ثم يقول إن هذا المشروع كان ناجحاً إلى الحد الذي أفرغ فيه مفهوم (الله) من معناه. ثم يقول لكن هذا المشروع فشل كما بين السدير ماكتير Alisdair McIntyre أحد كبار الفلاسفة المعاصرين. لقد فشلت في إيجاد ذلك الأساس العقلي المطلق كل المحاولات الثلاث المشهورة: الفاشية، والشيوعية، والرأسمالية.

لم تبق إذن إلا العلوم الطبيعية، لكن هذه العلوم التي أدت في البداية إلى غرور بعضهم واستكبارهم، واعتقادهم بأنها ستغني البشرية عن الهداية السماوية، بدأ يتبين لهم من تجربتهم معها غير ذلك. اكتشفوا أنه لا بُدّ للناس من معتقدات تقوي جانب الخلق الكريم في نفوسهم، وتجعل منهم جماعة متعاونة لا أفراداً أنانيين.

لكنهم لا يريدون ديناً يتنافى مع المبادئ التي قام عليها العلم الطبيعي الذي رأوا من ثماره ما جعلهم يعتقدون في صحة منهجه القائم على العقلانية

والتجريبية، فلا تقبل فيه دعاوى لا دليل عليها، ولا يقبل فيه دعاوى متنافية مع المبادئ العقلية، أو منافية للحقائق الحسية.

اكتشف بعض من عرف الإسلام منهم أنه لا دين غيره تتوفر فيه هذه الشروط. فهو وحده الدين الثابتة نصوصه تاريخياً. حدثني بعض الشباب الأمريكيين المسلمين الذين كانوا يدرسون مقرراً في الأديان المقارنة أن أحد الاساتذة ولم يكن مسلماً قال للطلاب إن كنتم تريدون ديناً ثابتاً تاريخياً فلا دين إلا الإسلام.

ثم اكتشف بعض من هداهم الله تعالى من علمائهم الطبيعيين أنه ليس ثابتاً تاريخياً فقط، بل هو الدين الوحيد الذي يمتاز بعدم منافاته للحقائق العلمية، بل يمتاز بأكثر من هذا هو سبقه إلى تقرير حقائق علمية ما عرفت إلا في عصورنا هذه وما كان من الممكن أن يعرفها بشر عادي في العهد المحمدي أو قبله، فكانت حقاً معجزات علمية كانت سبباً في إيمان علماء غربيين مختصين اطلعوا عليها^(١).

فائدة: الاتساق التشريعي في القرآن:

ونعني به أن في القرآن الكريم تشريعات تشمل كل ما يحتاج إليه الإنسان من عقائد وعبادات وسلوك وعلاقات اقتصادية وسياسية واجتماعية وغيرها، ومع ذلك لا تجد منها تشريعاً يخالف الآخر أو ينافيه، أو يعوق تحقيقه لهدفه،

(١) المستقبل لنا، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٤٤٩)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٩).

بل تجد التشريعات كلها متعاضدة متساندة يشد بعضها بعضاً؛ وهذا هو المقصود بالتشابه في الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كَلِمًا مَّتَشَبِهًا مَتَانِي نَقَّشِعُرٌ وَمَنُهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالتشريعات منها ما هو أصل ينبثق منه وتبنى عليه فروع، ومنها ما هو فروع تثبت ذلك الأصل وتقويه، ومنها ما هو لازم لغيره أو حاميًا له، وهكذا. فأركان الإيمان تُصلِّح القلب وتجعله مستعداً لتقبل الأوامر والنواهي، بل تحببها إليه.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَرَزَقَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

الإسلام بأركانه الخمسة تعبير عن الإيمان بأركانه الستة، وتثبيت لها؛ فهو الذي يغذيها ويذكر بها، وهو الذي يسهل على العبد العمل بأوامر ربه والانتهاز عن نواهي. ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْتِغَاءِ الصَّالَاةِ تَتَهَيَّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. والسبب في هذا الاتساق هو:

أولاً: أن التشريعات الإسلامية لها مصدر واحد، بينما التشريعات الأخرى بكل أنواعها وسواء كانت ديمقراطية أو دكتاتورية أو دينية فهي متعددة المصادر.

ثانيًا: أن هذا المصدر الواحد هو الخالق الأحد الصمد علام الغيوب؛ فلا جرم تكون تشريعاته مؤتلفة غير مختلفة. أما مصادر التشريعات الأخرى فهم البشر، والبشر مهما كان إخلاصهم فهم ذو علم ناقص، ونظر محدود، وتصورات مختلفة؛ فلا يمكن أن تصدر عنهم تشريعات متسقة في أهدافها ونتائجها، ولذلك كان عدم الاتساق لازماً لها.

ثالثًا: ثم إن هذا الخالق جعل لكل هذه التشريعات الشاملة جميع ما يحتاج إليه البشر هدفاً واحداً، وجعلها كلها وسائل لتحقيقه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

هذا أمر لا يمكن أن يتحقق في تشريعات بشرية متعددة المصادر، أعني: أنه لا يمكن أن يكون لها كلها هدف واحد مهما كان نوعه.

رابعًا: ثم إنه سبحانه جعل كل تلك التشريعات متوافقة مع الفطرة التي فطر عليها عباده. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. هذا مع أن العلمانيين ما يزالون مختلفين في أمر الفطرة: هل للإنسان فطرة ثابتة، أم أن فطرته متغيرة بحسب الظروف الاقتصادية أو الثقافية التي يعيش فيها؟ وإذا كانت هنالك فطرة فهل يمكن تغييرها كما يرى بعض علماء الأحياء؟ وإذا كانت هنالك فطرة ثابتة لا تتغير فما علاقتها بالتشريعات والقوانين؟ وهكذا.

خامسًا: جعل الله تعالى للتشريعات المتعلقة بالعلاقات البشرية مبدأً واحدًا ضمن الإطار الذي رسمته المبادئ السابقة وهو الإخوة الإيمانية. قَالَ

تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. ثُمَّ عُلِّلَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةُ كُلُّ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الْمَتَعَلِّقَةِ بِالْعِلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَأَمْرٌ بِكُلِّ مَا يَشْبِتُ هَذِهِ الْإِخْوَةَ الْإِيمَانِيَّةَ وَيُقَوِّمُهَا، وَنَهْيٌ عَنْ كُلِّ مَا يَصَادِمُهَا وَيُنَافِيهَا، فَقَالَ مِثْلًا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

ونهى عن الخمر والميسر؛ لأنهما يثيران العداوة والبغضاء وهما أمران منافيان للأخوة؛ ولأنهما يصدان عن ذكر الله وهو أمر منافٍ للإيمان: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وجعل للمفقراء حقًّا في أموال الأغنياء، ونهى عن الربا؛ لأنه استغلال لحاجة الفقراء وهو أمر يتنافى مع الإخوة. جعل للمذكر من الميراث مثل حظ الأنثيين، لكنه كلفه بما لم يكلف به الأنثى من دفع مهر وقيام بواجبات الأسرة، فكان نصيبه من الميراث متسقًا مع واجباته المالية^(١).

فائدة: الفرق بين الاتساق التشريعي في الإسلام وبين تشريعات

الأيديولوجيات البشرية؛

إذا كان الإسلام قائمًا على الإيمان بالله؛ فإن الماركسية مبنية على إنكار وجود الخالق. وإذا كانت شرائع الإسلام تنبثق انبثاقًا طبيعيًا من هذا الإيمان،

(١) معجزة الاتساق التشريعي، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتشدي، ط١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٤٥٥)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٣٩).

فإن التشريعات الماركسية لا علاقة لها بهذا الإلحاد. كان لي زميل دراسة مثقف ذكي وكان شيعيًا فهداه الله تعالى فصرنا أصدقاء.

قلت له ذات مرة بعد أن هداه الله (وكننت قد قرأت سيرة كارل ماركس): هل تعلم يا فتح الرحمن أن ماركس ألحد وعمره سبعة عشر عامًا ولأسباب خاصة بأسرته، وأن إلحاده لم يكن له علاقة بما سُمي فيما بعد بـ (الماركسية)؟ قال لي رَحِمَهُ اللهُ: إني، والله، عندما كنت شيعيًا كنت أقول في نفسي: أَمِنْ أَجْلِ أَنْ أَطَالِبَ بِإِنصاف العمال والفقراء (وكان هذا الذي جذبته للشيعية) أَنْكُرُ وجود الخالق؟ ما علاقة هذا بهذا؟ قال: لكنني قبلت هذا ثمنًا لذلك. فليس هنالك إذن من علاقة فكرية بين الإلحاد أو المادية وبين الشيوعية.

فالملحد يمكن أن يكون داعية إلى الرأسمالية، والمادي يمكن أن يكون معاديًا للاشتراكية من غير أن يكون متناقضًا في مواقفه. ثُمَّ إن الماركسية شنت حربًا شعواء على الرأسمالية وانتقدتها نقدًا كان في كثير منه صحيحًا، ودعت إلى استبدالها باشتراكية تحرّم الملكية الفردية وتجعل الاقتصاد كله في يد الدولة، فكان أن أدى هذا إلى عبودية واستبداد شر من عبودية الرأسمالية^(١).

(١) معجزة الاتساق التشريعي، كتاب الإسلام لعصرتنا، طبعة أعضاء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٤٥٥)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٩).

فائدة: علاقة الدين بالأخلاق:

إن رسالات السماء التي يأتي بها الأنبياء تفصل للناس كل أنواع الخير التي تتوافق مع فطرتهم والتي تسعد حياتهم، ثم هناك الجزء الأخروي؛ فالمؤمن يعمل الخير؛ لأنه يحبه بفطرته؛ ولأن الله تعالى بفضله يعجزيه على الخير خيراً: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦١]. وكثير من الناس لا يميزون بين التصديق بوجود الخالق والإيمان به مع أنهما أمران مختلفان. الإيمان أمر زائد على التصديق؛ الإيمان يعني: الثقة بمن تؤمن به والاطمئنان إليه، ولذلك فإننا - معاشر المسلمين - نصدق بوجود الشياطين لكننا لا نؤمن بهم، بل إن الذين يؤمنون بهم هم الكفار الذين، قال الله تعالى فيهم على لسان ملائكته: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْيَحْيَىٰ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ١٤]، والشيطان من أكثر المخلوقات تصديقاً بوجود الخالق، لكنه ليس مؤمناً به بدليل اعتراضه على أمر ربه له بالسجود لآدم.

التصديق بوجود الخالق هو الخطوة الأولى، لكنها خطوة تقتضي خطوات أخرى لا يخطوها كثير من الناس ولا يلتزمون بلوازمها، وهذا هو السر في كونهم معدودين في كتاب الله من الكفار رغم تصديقهم بوجود الخالق. إن التصديق بوجود الخالق يقتضي من المصدق أن يعبد ولا يعبد أحداً سواه؛ لأن العبادة إنما هي في جوهرها تعبير عن الشكر، فإذا أقر الإنسان بأن الله هو الخالق لكل شيء لزمه أن يعتقد بأنه هو وحده المستحق لأن يُعبد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشْقُونَ ﴿٣٥﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١-٢٢﴾.

هذا الإيمان بالله يقتضي الإيمان برسالاته؛ لأن الذي آمن بربه وعرفه يعرف أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً عبثاً؛ فلا يمكن إذن أن يخلق عبداً ثم لا يهديهم إلى ما هو خير لهم. كيف يمدُّهم الله تعالى بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم البدنية ثم لا يمدُّهم بما يحتاجون إليه في حياتهم الروحية؟! ولذلك قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] والإيمان بالرسالات يقتضي الإيمان بالرسول كلهم؛ لأنه لا تكون رسالة إلا برسول، كما يقتضي الإيمان بالملائكة الذين يحملون هذه الرسالات إلى الرسل.

والإيمان برسالات الله وكتبه وملائكته، وبأنه هو خالق السماوات والأرض، وبأنه تعالى منزّه عن العبث؛ يقتضي الإيمان بالدار الآخرة التي يجد فيها المحسن جزاء إحسانه والمسيء جزاء سيئانه، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمَا خَلَقْتُمَا عَبْدًا وَأَنْتُمَا إِلَهُتَانَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال سبحانه: ﴿أَفَنْجَعُ الْمُشْرِكِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم: ٣٥-٣٦] والتصديق بكون الله تعالى هو الخالق يقتضي الإيمان بأنه هو الذي يقدّر المقادير ويعلم ما سيكون وهذا هو معنى الإيمان بالقدر، فما نسميه أركان الإيمان ليس هو إذن حقائق منفصل بعضها عن بعض، وإنما هي كلها من

مقتضيات التصديق بأن الله تعالى هو الرب الخالق الذي لا رب سواه؛ فهي إذن جزء من الإيمان به تعالى؛ فلا يكون الإنسان مؤمناً به - سبحانه - إذا هو أنكر شيئاً منها، ولا تكون الثمرات العملية للإيمان بالله كاملة إلا لمن آمن بهذه الأركان كلها التي هي من لوازم الإيمان بالله تعالى، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أن بعض هذه الأركان يقتضي بعضاً، وأن ثمراتها إنما تكون بالإيمان بها كلها. من ذلك قوله سبحانه في الآية المشهورة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] فذكر في أولها أركان الإيمان: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ثم بين بعد ذلك الثمرات العملية لهذا الإيمان.

فقال سبحانه: ﴿وَعَاقِبَةُ الْأُمَمِ عَلَى خَيْرٍ ذُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَالْعَسَاكِلَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وكما أن هذه الحقائق هي أركان الإيمان ولازمة عنه، وكما أن تلك الأعمال الصالحة هي من ثمراتها؛ فإن بعضها يقتضي الإيمان ببعض ويقتضي فعل بعض الحسنات. فالإيمان بالدار الآخرة يلزم عنه الإيمان بالرسالة كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] (١).

(١) الإيمان الشامل، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المستدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٤٩٨)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٣٩).

هافدة: خبراء الاقتصاد في الغرب يدعون إلى تبني النظام المصرفي

الإسلامي،

دعا مجلس الشيوخ الفرنسي إلى ضمّ النظام المصرفي الإسلامي إلى النظام المصرفي في فرنسا، وقال المجلس في تقرير أعدته لجنة تُعنى بالشؤون المالية في المجلس: إن النظام المصرفي الذي يعتمد على قواعد مستمدة من الشريعة الإسلامية مريح للجميع؛ مسلمين وغير مسلمين وسيزعج هذا الخبر كثيرًا من العلّمانيين في بلادنا، وحقّ للعلّمانيين أن ينزعجوا؛ لأنّ الشّاء على مبادئ الاقتصاد الإسلامي لن يقف عند حدود الاقتصاد، بل لا بُدّ أن يقول بعض العقلاء لأنفسهم: إذا كان هذا الدين صحيحًا في نظره إلى الاقتصاد، وإذا كان الأخذ بمبادئه سينجينا من هذه الكوارث الاقتصادية؛ فربما كان حقًا في جوانبه الأخرى أيضًا.

ربما قال بعض العقلاء منهم هذا؛ لاسيما إذا رأوا كيف أن ما حدث لبنوكهم هو صورة حسية للمحق الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وهل رأيت من محق أكثر من أن تفلس مؤسسات جمعت البلايين من الأموال بالربا ثمّ صارت تحتاج إلى إنقاذ؟ ولذلك فلمهم قد يدخلون في دين الله من هذا الباب، وهذا ليس بالأمر المستغرب؛ فإن أبواب الدخول في الدين متعددة، لكن كل داخل من باب يجد نفسه مع الداخلين من الأبواب الأخرى في باحة الحق الواسعة.

أقول بشيء من الأسى: إذا كانت هذه الأمثلة القليلة لمؤسسات اقتصادية

إسلامية قد جذبت هذا الانتباه الكبير؛ فكيف لو أن البلاد الإسلامية جميعاً كانت قد بنت حياتها الاقتصادية كلها على أسس من شرع الله تعالى؛ فضربت للناس مثلاً عملياً على تفوق التعاليم الإسلامية في مجال الاقتصاد على مبادئ الرأسمالية والاشتراكية، وأفلحت في إسعاد البشرية كما لم يفلح أي من تلك الأيديولوجيات الغربية. ولكن إذا لم تفعل في الماضي فلعلها تدرك الآن خطأها وتعود إلى هدى ربها.

وإخواننا العلماء الذين كانوا قد أجازوا لإخوانهم المسلمين في بلاد الغرب أن يقترضوا قروضاً ربوية لشراء البيوت؛ لعلمهم الآن يراجعون موقفهم، ويربؤون بإخوانهم المسلمين أن يشاركوا في معاملات تؤدي إلى مثل هذا الفساد في الأرض الذي كان نتيجة المعاملات الربوية في المصارف الغربية^(١).

فائدة: اختلاف مقادير الأزمان بالنسبة لبعضها:

إذا حسبنا الزمان بمقدار حركة معينة - كحركة عقارب الساعة مثلاً - فإنه حقيقة موضوعية لا تتغير. لكن الذي يتغير هو مقدار هذه الحقيقة الزمانية بالنسبة لغيرها من الأزمان؛ فخمس دقائق شيء كثير بالنسبة لبضع ثوانٍ، وقليل جداً بالنسبة لساعة كاملة. وكما يتغير مقدار كل زمان بالنسبة لزمان آخر فكذلك يتغير إدراك الناس له أو شعورهم به بحسب الحال التي هم فيها؛ فالذي ينام ثم

(١) الأزمة المالية، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتندي، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٥٠٣)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٤٠).

يستيقظ يكون تقديره للمدة التي نامها أقل بكثير من الزمن الحقيقي الموضوعي الذي قضاه في نومه. فهؤلاء أصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً، لكنهم عندما تساءلوا بعد أن استيقظوا: كم لبثتم؟ قال قائل منهم: لبثنا يوماً أو بعض يوم.

وكذلك الحال بالنسبة للذي يموت ثم يحيا. قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، لكن الفارق الأكبر في التقدير النسبي للزمان هو زمان الدنيا المحدود الذي لا يكاد يساوي شيئاً بالنسبة لزمان الآخرة الأبدي غير المحدود.

هذه حقيقة يدركها الناس في الآخرة ولا سيما الذين يتعرّضون لعذابها. إنهم جميعاً يرون أن المدة التي لبثوها في الدنيا كانت قليلة وإن اختلفت تقديراتهم لمدى قلتها.

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لهذه التقديرات؛ فمنهم من يقول: إن لبثنا في الدنيا إنما كان عشرة أيام، ومنهم من يقول: إنه كان يوماً واحداً. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۚ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

قالوا في التفسير: أمثلهم طريقة أي: أوفرهم عقلاً، ومنهم من يراه يوماً أو بعض يوم ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۚ﴾ [١١٣] قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿[المؤمنون: ١١٢-١١٣]، ومنهم من يعتقد اعتقاداً جازماً بأن لبثهم في

الدنيا لم يتجاوز الساعة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

وقال سبحانه واصفًا شعورهم بالنسبة للمدة التي قضوها في الدنيا حين يرون عذاب الآخرة: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦]. وقال: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وإذا كانت المدة التي يقضيها الناس في هذه الحياة لا تكاد تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة؛ فإن ما يتنعمون به فيها هو أيضًا لا يكاد يساوي شيئًا بالنسبة لنعيم الآخرة، وما يقاسونه فيها من تعب ونصب لا يكاد يساوي شيئًا بالنسبة لتعب الآخرة ونصبها.

قال سبحانه وتعالى عن الكفار المغرورين بمتاع الحياة الدنيا: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥-٢٦]. يعني: أفرأيت إن متعنهم عدة سنين من سني الدنيا المحدودة فإنه لن يغني عنهم شيئًا في تجنب العذاب الأبدي الذي سيصادفهم في الآخرة.

ولذلك فإن الإنسان العاقل لا يغتر بهذه المتعة الفانية، لكنه يستمتع بها استمتاعًا لا تضاد بينه وبين متعة الآخرة الأبدية كما قال قوم قارون ناصحين له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَابْتَغْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْصِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿ [التقصص: ٧٦-٧٧].

وجاء في صحيح مسلم أنه: يُؤْتَى بِأَنعَم أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّبَكَ نَعِيمَ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب! ويؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فيقال له: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟

هَلْ مَرَّبَكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله ما مَرَّبَنِي بُؤْسٌ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً، وَالْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ لَا يَضْحِكُ بِالْحَسَنِ الْكَثِيرِ الْأَجَلَ مِنْ أَجْلِ الْقَلِيلِ الْعَاجِلِ، وَلَا يُفْضِلُ الْمَتَاعَ الْقَلِيلَ الْعَاجِلَ الَّذِي يُسَبِّبُ لَهُ التَّعَبَ الْعَظِيمَ الْأَجَلَ، لَكِنْ هَذَا هُوَ عَيْنُ مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرُونَ مِمَّنْ لَا عَقْلَ لَهُمْ^(١).

فائدة: اختلاف مقادير الأزمان بالنسبة لما يحدث فيها من أحداث

كثرة وقلة:

وكما تختلف مقادير الأزمان بالنسبة لبعضها فإنها تختلف أيضًا بالنسبة لما يحدث فيها من أحداث كثرة وقلة. فهذا الذي عنده علم من الكتاب أتى بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام في أقل من ارتداد الطرف من غير أن يتغير فيه شيء، وأعظم من هذا إسراء النبي ﷺ إلى بيت المقدس ثم عروجه إلى السماوات، وما رأى في كل ذلك من مشاهد وما حدث له من أحداث، وقع كل

(١) نسبية الزمان في القرآن، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتشدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٥٢٤)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٤٠).

ذلك في زمن قصير؛ لأنه ﷺ عاد من تلك الرحلة (التي ربما كانت أطول رحلة يقوم بها بشر) في الليلة نفسها التي أُسري به فيها. هذا مع أن المختصين يقولون: إن الضوء المنبعث من بعض النجوم البعيدة يستغرق ملايين من السنين الضوئية ليصلنا. هذا مع أن سرعة الضوء هي ٣٠٠.٠٠٠ كيلو مترًا في الثانية الواحدة في الفضاء.

ونبينا ﷺ خرج من نطاق كل هذا الكون الدنيوي إلى سماوات رأى فيها من العجائب ما لا يوجد شيء منه في كوننا هذا. لعل الذي يعطينا فكرة عن هذه المعجزة النبوية هو الرؤيا الصادقة؛ فالإنسان قد يرى في منامه وقائع يستغرق حدوثها في الزمان المعهود بضع ساعات أو أيام أو أشهر، لكنه يراها في بضع ثوانٍ هي المدة التي يقول المختصون: إن الرؤيا مهما طالّت لا تتجاوزها. وإذا كان الناس يقيسون ما يعدّهم الله به بمقياس أيامهم المعهودة؛ فإن الله تعالى يذكّرهم بأنه تعالى يقيس الأمور بأيام هي أطول من أيامهم بكثير.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ وَعْدُهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ

كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ١٧٤].

قال الإمام ابن كثير: أي: هو تعالى لا يعجل؛ فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه؛ لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وإن أُجِّلَ وأنظَرَ وأُمِّلَى. وإذا كان اليوم من أيام الدنيا يساوي أربعًا

وعشرين ساعة فإن يوم القيامة يساوي خمسين ألف سنة^(١).

فائدة، لماذا الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر،

قد يقول قائل: إذا كان المعروف هو الأساس وكان المنكر نقيضه؛ أفلا يكفي الإنسان أن يكون عارفاً بالمعروف؛ لأنه إذا عرف المعروف أنكر المنكر؟ ثم ألا يكفي أن تكون الدعوة دعوة إلى المعروف من غير تعرض للمنكر؛ لأن مجرد الدعوة إلى المعروف هي نهي عن المنكر الذي يضاده؟ وقد يقال أيضاً: إذا أمرت إنساناً بالمعروف وامثله تكون قد حصنته من الوقوع في المنكر فلا تحتاج إلى أن تنهاه عنه.

أقول: كلاً؛ لأن النهي عن المنكر هو من مقتضيات الأمر بالمعروف، فإذا أمرت بمعروف ولم تنه عن المنكر الذي يضاده ويقابله لا تكون قد أعطيت الأمر بالمعروف حقه، ولا تكون قد حصنت من أمرته بالمعروف تحصيناً كاملاً، ولأن النهي عن المنكر هو من مقتضيات الأمر بالمعروف صاراً كالشيء الواحد في الهدي القرآني: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْثُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(١) نسيبة الزمان في القرآن، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٥٢٤)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٤٠).

وفي القرآن وفي سنة النبي ﷺ نصوص كثيرة ترى فيها كيف أن الأمر بالمعروف مقرون بالنهي عن المنكر، من ذلك في باب الإيمان: قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ حِكْمَةٍ سَوَّاهٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤] هذا أمر بمعروف ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] وهذا نهى عن منكر يناقض ذلك المعروف، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وهذا أمر بمعروف ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ وهذا نهى عن منكر يناقضه والإيمان بالله يقتضي الكفر بالطاغوت.

ومن أمثلة ذلك في باب الأخلاق: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ هذا أمر بمعروف ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النحل: ٩٠] وهذا نهى عن منكر.

ومن أمثلته في باب الحياة الاجتماعية: ﴿يٰٓبَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الأعراف: ٣١] أمر بمعروف ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] نهى عن منكر.

ومن أمثلته: أنه تعالى قال في الآية الثامنة والثمانين من سورة المائدة: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨]، ثم قال تعالى في الآية التسعين منها: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْفَنَرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] ^(١).

(١) الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٥٣٥)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٤٠).

فائدة: الأسباب التي تجعل الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر، وذلك لأسباب منها:

أولاً: أن المأمور بالمعروف قد لا يكون مدركاً لكل ما يناقضه من أنواع المنكرات فيقع في بعضها مع ظنه أنه عامل بالمعروف، ولهذا كان من اللازم أن تبين له أنواع المنكرات التي تناقض المعروف، نخذ لذلك مثلاً لأكبر معروف وهو عبادة الله، فإنك تجد أن كثيراً من الناس مع تسليمهم بأن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة يقعون في كثير من أنواع الشرك التي بين القرآن والسنة أنها شرك، وفصلاً في ذلك، وبيننا لهم فيما بيننا أن من الشرك أن يحب الإنسان شيئاً كحبه لله، أو أن يحكم بغير ما أنزل الله، أو أن يستغيث بغير الله، أو يذبح لغير الله... وهكذا.

ثانياً: إن الإنسان قد يكون محباً للخير كارهها للمنكر، لكن تناله حالات ضعف وجهل تجعله يقع فيه، فهو محتاج إلى من يعينه على الإقلاع عنه، والنهي عن المنكر هو من أحسن وسائل هذا العون؛ لأنه يذكره بقبح المنكر وتنافيه مع المعروف المحبوب له.

ثالثاً: النهي عن المنكر وجعله أمراً مستقبلاً أمر مهم؛ لأن في الناس من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف كما يبين لنا القرآن الكريم. فإذا اكتفى الصالحون بالأمر بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر خلا الميدان للبدعة إلى المنكر، ولم يجدوا فيه من يصارعهم ويدفعهم، وربما صار صوتهم لذلك هو الصوت العالي، ولا سيما إذا كانوا من المشاهير في المجتمع، ولذلك تجد

الناس في البلاد الغربية أكثر ما يقتدون بأهواء الممثلين والمغنين والرياضيين في كثير مما يرتكبون من منكرات.

رابعاً: كلما علا صوت الداعين إلى المنكر كان من الصعب على بعض الناس أن يتنهوا عنه؛ لأن للمجتمع ضغطاً عجيبيّاً على الإنسان، وهذه هي الآن المشكلة التي بدأتها الحضارة الغربية ثم جعلت تنتشر في العالم كله باسم الحرية.

خامساً: في نصوص الكتاب والسنة آيات تبين الآثار السيئة لعدم إنكار المنكر: ﴿لَوْ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وفي الآية الكريمة دليل على أن عدم تناهي هؤلاء القوم عن المنكر كان أحد أسباب ثلاثة للعنهم على السنة هؤلاء الرسل الكرام. والنهي عن المنكر واجب مهما شاع واستفحل قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِنْ رَبُّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

سادساً: قال الرسول ﷺ في الحديث المشهور: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

في هذا الحديث دليل على أننا مأمورون ليس فقط بأن ننهي عن المنكر نهياً باللسان، وإنما بمحاولة إزالته ومحوه بقدر الإمكان؛ لأن في الناس من يعجزو

على أن يسنّ للناس سنن المنكرات التي لم تكن معروفة في المجتمع. وقد يكون هؤلاء المتجاسرون على سنّ المنكرات في البداية قلة لا تُذكر، فإذا لم يأخذ الناس على أيديهم ويأطروهم على الحق أطراً؛ فربما تبعهم فيما سنوا غيرهم ثمّ ينتشر المنكر فيصبح من الصعب على الناس أن يأمرُوا بالمعروف الذي يناقضه.

بقي أن نقول: إن بعض الناس قد ينهى عن المنكر بطريقة فيها غلظة وخشونة تُخرج المنهي وتُغضبه؛ فربما أساء إلى من ينهاه، وربما أصرّ بسبب ذلك على المضيّ في ارتكابه لما نُهي عنه.

ويرى بعض الناس هذا فيخيّل إليه أن كل نهى عن المنكر يؤدي إلى هذه النتيجة فيحجم لذلك عن إنكار المنكر ويكتفي بالأمر بالمعروف، لكنّ في هذا خلطاً بين قاعدة النهي عن المنكر وطريقة النهي عنه، فالذي ينهى عن المنكر بطريقة تؤدي إلى زيادته يكون هو نفسه قد ارتكب نوعاً من المنكر، فلا يكون سوء طريقته سبباً لترك النهي عن المنكر، ومثل هذه الطريقة غير اللائقة قد تحدث أيضاً في الأمر بالمعروف، ولذلك قيل: فليكن أمرك بالمعروف أمراً بمعروف^(١).

(١) الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المتتدي، ط١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٥٣٥)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٤٠).

فائدة: ليست الأمة الأكثر قراءة هي بالضرورة الأكثر ثقافة؛

يقرأ بعضنا الإحصاءات التي تنشرها بعض المؤسسات العالمية كالأمم المتحدة عن متوسط ما يقرؤه الفرد في البلاد المختلفة، فيربط بين القراءة والثقافة فيعتقد أن الأمة الأكثر قراءة هي بالضرورة الأكثر ثقافة. وهذا استنتاج غلط. وغلطه في كونه لا يميز بين المعاني المختلفة للثقافة وصلة كل منها بالقراءة، كما أنه لا يميز بين أنواع القراءات وأنواع القراء^(١).

فائدة: معنى كلمة الثقافة بحسب الاستعمال الحديث؛

كلمة الثقافة بحسب الاستعمال الحديث الذي جعلها ترجمة لكلمة (Culture)، لا بمعناها العربي الأصلي؛ لها ثلاثة معانٍ: فعلماء الانثروبولوجيا يستعملونها بمعنى ما تمتاز به كل أمة أو كل مجموعة من الناس من معتقدات، وقيم خلقية، وعادات وتقاليد وأنماط سلوك، بل أغاني وموسيقى ورقص، وطريقة أكل وشرب. فهذا المعنى يكون لكل أمة بالضرورة ثقافة؛ قارئة كانت أم غير قارئة، فلا علاقة للقراءة بهذا النوع من الثقافة، لكن ثقافة أمة من الأمم قد تؤثر في أمة أخرى بوسائل كثيرة، لعل أهمها في عصرنا هو التلفزيون والسينما وبعض المجلات، وأما المادة المقروءة فربما تأتي في المرتبة الدنيا.

والأمريكان يسمون هذا النوع من الثقافة بالقوة الناعمة في مقابل القوة

(١) القراءة والثقافة، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٥٤٠)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٤٠).

الخشنة التي هي قوة السلاح. ويعتقدون أن هذه القوة الناعمة لها تأثير حتى ما كان منها مثل انتشار مطاعم (ماكدولاندز) ومقاهي (ستار بكس)، ومثل انتشار أفلامهم وسائر عاداتهم. وهم محقون في ذلك؛ لأن التشابه الخارجي كما كان يقول علماء مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية (يورث تشابهاً داخلياً)، وهذه هي الحكمة في مخالفة الكفار في هديهم الظاهر. والغريون يعلمون شيئاً من هذا، ولذلك يسرُّهم أن يجدوا ثقافتهم تنتشر في بلاد العالم ولا سيما العالم الإسلامي. ولقد انتشر هذا النوع من الثقافة الغربية حتى صار بعض الناس ولا سيما بعض النساء - يستمسكون به كأنه من ضرورات العصر التي لا يكون الإنسان عائشاً فيه إلا إذا كان ملتزماً بها.

أما الاستعمال الثاني للثقافة: فهو الثقافة بمعنى كثرة المعلومات في مواضيع متعددة. فالمثقف بهذا المعنى هو الذي يلمُّ من كل علم بطرف، فيكون ذا إلمام بالتاريخ؛ تاريخ قومه الخاص وتاريخ العالم، وذا إلمام بما يدور في العالم من أحداث، وذا إلمام بالعلوم المنتشرة في عصره، وغير ذلك.

وعامة الغربيين ليس لهم اهتمام بهذا النوع من الثقافة، بل إن الكثيرين منهم ولا سيما في أمريكا لا يكادون يعرفون شيئاً عن العالم. لكن هذه الثقافة متوفرة في خواصهم أكثر مما هي متوفرة في خواصنا.

وأكثر ما يقرؤه عامة الناس في البلاد الغربية إنما هو الروايات والقصص والمقالات التي تتحدث عن الرياضة والأفلام. لكن الذين يجرون الإحصاءات لا يفرقون بين هذا النوع الذي هو أكثر انتشاراً وبين النوع الأول، وقد يكون هو

السبب الأساس في ارتفاع متوسط القراءة عندهم.

سمعت بعضهم يذكر إحصائية تقول: إن متوسط ما يقرؤه العربي هو ربع صفحة، ثم تسأل: كيف نتقدم بربع صفحة؟ وربع الصفحة شيء قليل ما في ذلك شك لكن فائدته كانت ستكون أكثر ثقافياً لو كان من النوع المفيد.

المعنى الثالث للثقافة: هو الثقافة بمعنى ما يهذب النفوس، فيكون المثقف بهذا المعنى إنساناً صالحاً يلتزم بمكارم الاخلاق؛ من صدق في الحديث، ووفاء بالعهد، وإحسان إلى الخلق، وغير ذلك. وليس هناك من علاقة أطراد بين هذا النوع من الثقافة وبين كثرة القراءة، فالإنسان قد يقرأ أو يسمع آية من كتاب الله أو حديثاً لرسول الله ﷺ يذكره بربه وبالدار الآخرة فيصلح قلبه ويصلح بصلاحه كثير من أعماله وتصرفاته. وكلما ازدادت صلته بكتاب الله وبسنة رسول الله ازداد هدى وصلاحاً.

وكما تؤثر في الإنسان آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ تؤثر في صلاحه أيضاً سير الصالحين من عباد الله. ولذلك قالوا: إن الإمام أحمد كان ينصح بقراءة سيرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز. فربّ قراءة كتاب واحد في سيرة أحد هؤلاء الصالحين تؤثر في صلاح الإنسان أكثر من تأثير عشرات الكتب الأخرى. بل إن بعض هذه الكتب الأخرى ولا سيما الروايات منها قد يكون لها أثر عكسي على القارئ يفسده ولا يصلحه ولا سيما إذا كان في مرحلة الشباب.

ليست هذه دعوة إلى التقليل من فائدة القراءة، ولكنها محاولة لوضع

الأمور في نصابها. فحبذا لو اهتممنا بكل قراءة مفيدة لنا في صلاح قلوبنا وفي معرفة دنيانا. وحبذا لو يَسِّرنا لعامة الناس الوصول إلى الكتب والمجلات والدوريات التي تعينه^(١).

فائدة: المسالمة والمداهنة:

إن ما يطلبه الكفار الآن من المسلمين هو عكس ما يأمرهم به دينهم؛ إنهم يطلبون منهم أن لا يدافعوا عن أراضيهم حتى لو غزوا في عقر دارهم، وإلا كانوا إرهابيين مجرمين، بل صاروا يقرنون بين الجهاد والإرهاب؛ فيُسَمُّون الكثيرين ممن يصفونهم بالإرهابيين جهاديين، وصاروا يطلبون من المسلمين أن لا يدافعوا عن دينهم أو يردوا على الكافرين به حتى بالكلمة، وإلا كانوا متطرفين مفرقين للناس غير راضين بالتعايش السلمي معهم، لكن ديننا يعلمنا أن هنالك فرقاً بين أن تسالم أعداء دينك، وأن تعترف لهم بباطلهم؛ فالمطلوب من المسلمين أن يعيشوا في سلام مع من كل من يريد أن يعيش معهم في سلام، لكن المطلوب منهم في الوقت نفسه أن يقوموا بتبليغ رسالة نبيهم، وأن يبلغوها بالتي هي أحسن. ولا تضاد بين هذا وذاك؛ إذ إن هنالك فرقاً بين المسالمة والمداهنة^(٢).

(١) القراءة والثقافة، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٥٤٠)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٤٠).

(٢) شهر للجهاد بالقرآن، كتاب الإسلام لعصرنا، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٥٥٠)، للدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٤٠).

فائدة: العلاقة بين الخلق والشرع:

خلق الله الخلق وأنزل الشرع وجعل بينهما علاقة وثيقة؛ إذ جعل الخلق مناسباً لتحقيق أهداف الشرع.

أولاً: من حيث أن خلق الله هو سبب العبادة التي هي الغاية التي من أجلها خلق الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فنحن نعبد الله تعالى لأنه هو خالقنا وخالق كل شيء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] ومناسبة الخلق للعبادة هي أن الخلق يدل أولاً على قدرة الخالق؛ لأنه إذا كان خالقاً لكل شيء، فهو القادر على كل شيء؛ فيكون بهذا مستحقاً لأن يُحَبَّ ويُدعى ويُخشى ويُرجى؛ لأن أمر الإنسان كله بيده سبحانه.

وبدل ثانياً: على أن كل ما ننعم به هو من خلق الله؛ فيستحق - سبحانه - أن يُشكر، والشكر لب العبادة: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] فإذا كان الله تعالى إنما يُعبد؛ لأنه هو الذي يخلق، فإن من لا يخلق لا يستحق أن يُعبد: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَادِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤] ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧] ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا

يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿ [الفرقان: ٣] ﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ [النحل: ١٧].

وثالثاً: من حيث أن مخلوقات الله تعالى آيات وعلامات دالة على وجوده وعلى صفاته، بل وعلى وجود حياة بعد الموت. ولذلك كان التفكير في الخلق من أجل العبادات: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] فالإنسان المؤمن كلما ازدادت معرفته بخلق الله وتفكره فيه ازداد إيمانه به - سبحانه - وأنه سيعث عباده ويحاسبهم.

ورابعاً: ومن حيث إنه إذا كان الخلق بصفة عامة هو سبب عبادتنا لله تعالى فإن المخلوقات المعينة إنما صممت لتكون وسيلة لتحقيق تفاصيل العبادات: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَكِرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢] ﴿ سَتَلُونَا عَنْ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ كَانُوا الْأَبْيُوتَ مِنْ طُهْرٍهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَأَتَىٰ الْأَبْيُوتَ مِنَ ابْنِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وخامساً: من حيث كونه وسيلة لما شرع الله من عادات تستقيم بها حياة الناس: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢] ففي هذا دليل على أنها خلقت منذ البداية للذين آمنوا، وأن مشاركة الكفار لهم

فيها أمر مؤقت ينتهي بانتهاء الحياة الدنيوية ثم تكون الزينة خالصة للذين آمنوا لا يشركهم فيها كافر.

والرجال والنساء خلقوا لتكون هنالك صلة بينهم تؤدي إلى الإنجاب: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] والشذوذ محرم؛ لأنه ترك للأمر الطبيعي، ووضع للشهوة في غير موضعها الذي خلقه الله لها: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١] ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٦] ﴿وَقَدْ رَوْنَهَا مَا خَلَقَ لَكُمْ رِجَالَكُمْ مِنْ أَنْوَالِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

وسادساً: من حيث مناسبة الخلق لما شرع الله تعالى للناس من معاملات وأخلاق تتنظم بها حياتهم؛ فأصل الإحسان إلى الناس الذي أمر الله تعالى به مبناه على الإيمان بالدين الحق؛ والدين الحق مركز في فطرة الإنسان: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] وداعي الإحسان إلى الخلق يزداد قوة بما خلق الله تعالى بين الناس من صلات الإخوة الإيمانية، وصلات القربى الطبيعية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ، شَيْعاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء: ٣٦].

وقد جعل الله تعالى الانفاق إلى الأقرب فالأقرب من الناس قرباً طبعياً؛

لأن هذا أمر سهل على النفس البشرية؛ لأنه أمر تدعو الناس إليه فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

هذه الطريقة الطبيعية إلى الإحسان إلى الناس ومساعدتهم أحسن وأجدي من اعتبار الناس جميعاً أفراداً مشتتين وإيكال أمرهم إلى رعاية الدولة وحدها؛ فالشرع الإسلامي يقسم الناس إلى مجموعات يتكون منها المجتمع لا أفراد، ويقسم المسؤوليات بينهم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» أخرجه البخاري، في كل هذا دليل على أن الخلق لم يُخلق في البداية مستقلاً عن الشرع، ثم جاء الشرع ليختار منه ما يكون مناسباً له كأوقات الصلوات والصيام والحج؛ بل إن الخلق بطبيعته وأماكنه وأزمانه صُمِّم منذ البداية ليكون مناسباً لشرع الله، ثم جاء الشرع موافقاً لما صُمِّم له وقصِد به.

وسابغاً: من حيث أن من المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها رسله إنما هي خوارق لعادات طبيعية مطردة في الكون؛ فخرقها تأييداً للأنبياء يدل على صدقهم وعلى أن الأمر كله بيد الله تعالى فعندما رأى السحرة عصا موسى تنقلب إلى حية حقيقية آمنوا؛ لأنهم رأوا الفرق بينها وبين الحيات المصطنعة التي موهوا بها على الناس.

﴿قَالُوا يَمْحُومُونَ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُلْقِينَ﴾ (١٧٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١٧٦) وَأَوْحَيْنَا

إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأعراف: ١١٥-١٢٢] وَخَرَقُهَا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّهَا لَا تَسِيرُ وَفَقَ قَوَانِينِ طَبِيعِيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ عَنْ خَالِقِهَا، بَلْ إِنْ قَوَانِينُهَا نَفْسُهَا هِيَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَخْرِقُهَا مَتَى شَاءَ تَأْيِيدًا لَصَدَقِ أَنْبِيَائِهِ.

وثامناً: من حيث إن المؤمن يعيش في عالم صديق تربطه به صلة الإيمان بالله وعبادته؛ فكل ما في الكون يصلي لله تعالى كما يصلي المؤمن: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْبِيَاءُ صَافَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ١٤] وكل ما في الكون يُسَبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى كما يُسَبِّحُهُ المؤمن: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١] وكل ما فيه يسجد له كما يسجد المؤمن: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] وكل ما فيه يقنت له ويطيع كما يفعل المؤمنون: ﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَنُوتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

تاسعاً: أن معارفنا البشرية تُتلقى من مصدرين لا ثالث لهما هما: (وحي الله، وخلق الله) وهما مصدران يصدق بعضهما بعضاً؛ فلا تجد في كتاب الله ما يخالف واقعاً خلقه الله، ولا تجد في ما خلقه ما يكذب كلاماً ذكره الله تعالى: ﴿سَتَرِيهِمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفْ

رَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿[فصلت: ٥٣]﴾^(١).

فائدة: شبهات المعترضين على حكم الله تعالى:

المعترضون على حكم الله يشيرون شبهات، منها: قولهم: أين نجد هذا الحكم؟ هذه مشكلة خاصة بالغربيين الذين ليس لهم كتاب هم موقنون بأنه من عند الله تعالى، أما المسلمون، فعندهم كتاب لا يشك حتى من درس الإسلام من الغربيين في ثبوت نسبته التاريخية إلى الرسول الذي أنزل عليه. الشبهة الثانية التي يشيرونها، هي: أنه على فرض أن حكم الله تعالى مسجل في كتاب معروف؛ فإنه يكون شيئاً محدوداً مع أن ما يحدث للبشر من حوادث ونوازل شيء غير محدود؛ فكيف يكون حكم الله شاملاً لها؟ يكون شاملاً لها؛ لأن هنالك فرقاً بين النصوص والأحكام:

أولاً: لأن النص الواحد قد يدل على عدة أحكام؛ فالنص له سياق، وله إشارة وتنبه، وإيماء، واعتبار، واقتضاء، وكل تلك دلالات نصية تؤخذ من النص الشرعي، وتشمل بعمومها أحكاماً كثيرة، مبيّنة في كتب أصول الفقه.

ثانياً: إنه يمكن استخراج حكم جديد بضم نص إلى نص من نصوص أخرى، كما فهم الشافعي أن أقل الحمل ستة أشهر من ضم قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] إلى قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ

(١) خلق الله وشرع الله، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المتدي، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٥٦٠)، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٤١).

تَلْتَوُونَ شَهْرًا» [الأحقاف: ١٥].

ثالثًا: هنالك قواعد فقهية عامة. قال العلماء: إنها قطعية الثبوت، مثل قاعدة: لا ضرر ولا ضرار، وقاعدة: رفع الحرج، وقاعدة: اليقين لا يزول بالشك. فيمكن للفقيه أن يستدل على تحريم الدخان -مثلًا- بقاعدة لا ضرر ولا ضرار بعد أن ثبتت علاقته بالسرطان. ثالثًا: هنالك أحكام قياسية، وهي -باختصار-: أننا إذا وجدنا الشرع قد حكم على شيء ما بالتحريم -مثلًا- وعرفنا العلة التي من أجلها حُرِّم، ثُمَّ وجدنا هذه العلة نفسها في شيء جديد؛ فإننا نعطيه حكم الأصل الذي دلت عليه النصوص؛ فالعلة في تحريم الخمر -مثلًا- هي كونها مسكرة.

فإذا وجدنا شيئًا جديدًا فيه هذه العلة؛ فإننا نُحَرِّمُه بِغَضِّ النظر عن اسمه أو لونه أو كونه سائلًا أو جامدًا، هذا؛ لأن الشريعة مَبْنِيَّةٌ لا تناقض فيها: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. قال ابن قيم الجوزية: سَرَعَ اللهُ وُحْيُهُ وَثَوَابُهُ وَعِقَابُهُ قَائِمٌ عَلَى إلْحَاقِ النُّظِيرِ بِالنُّظِيرِ، واعتبار المثل بالمثل، وهذا أيضًا باب واسع يشمل ما لا يكاد يحصى من الحوادث.

رابعًا: ثُمَّ هنالك الاباحة؛ فإنها تشمل كُلَّ أمر لم يذكر الله حكمه، ولم يدل عليه القياس، ولا النصوص العامة؛ فهو باقٍ على أصل الاباحة، كما قال ﷺ: «وما سكت عنه، فهو عفو». وهذا أيضًا باب واسع جدًا. هذا الذي أوجزناه هنا، إنما هو قطرة من بحر ما كتب الفقهاء في هذا الأمر مشبتين أن الشريعة تفي

بمصالح العباد كلها في دنياهم وآخرهم^(١).

فائدة لا يحزن المؤمن حين يرى في الناس في بعض الأماكن أو بعض الأزمان إعراضاً عن دين الله أو ضعفاً في الاستمسك به :

هل يلزم من هذا أن يحزن المؤمن حين يرى في الناس في بعض الأماكن أو بعض الأزمان إعراضاً عن دين الله أو ضعفاً في الاستمسك به أو زيادة في الجهل به، أو حين يرى فيهم زيادة في الاتباع لسنن الكفار؟ كلا؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنْكَ كُفْرُهُ؛ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [النمل: ٢٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

بل قال العلماء: إن الحزن لم يرد في كتاب الله تعالى مأموراً به، بل ورد: إما منهياً عنه كما في الآيات السابقة، وإما تقريراً لواقع كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِكَائِدَاتِ اللَّهِ يَحْسَدُونَ ﴿[الأنعام: ٣٣]. لماذا لا يحزن الإنسان حين يرى ذلك الإعراض عن دين الله؟ السبب -والله أعلم-:

أولاً: أن الإعراض عن دين الله تعالى هو ذنب يرتكبه المعترضون بإرادتهم؛ فلماذا نحزن على ارتكابهم له؟

(١) لمن المحكم للمخالف أم المخلوق، كتاب الإسلام لعصيرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المتندي، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٥٦٦)، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٤١).

وثانيًا: أنه إذا كان الفرح بالنعم نوعًا من الشكر عليها، فإن مجرد الحزن على الكفر وتغير الأحوال لا يغير من واقعها شيئًا، وإنما يضر المحزون ويضيع وقته وفكره فيما لا فائدة فيه.

وثالثًا: لأن الإنسان العاقل لا يترك ما عرف من الحق أو يشك فيه؛ لأن بعض الناس كذب به: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۖ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥-١٦].

ورابعًا: لأنه ليس من شرط الحق أن يكثر المؤمنون المستمسكون به: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ لَمُتَّقٍ مِّنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]. وإذا استوحش المؤمن بكثرة المفتونين المغيرين لشرع الله فليتذكر أنه ليس وحده في طريق الحق الذي ثبته الله تعالى عليه؛ فهو طريق سلكه أفضل البشر: من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين على مدى التاريخ البشري، وأنه إذا مات وهو مستمسك بالحق فسيسعد بصحبته جميعًا في دار الخلد.

لكن المؤمن ينبغي أن يستمر -مع ذلك- في مقاومة الباطل بقدر ما يستطيع راجيًا ثواب الله تعالى؛ والله مثيبه على كل ما يبذل من جهد لإعلاء كلمته وقمع أعدائه. إن لشيخ الإسلام ابن تيمية كلامًا نفيسًا في تعليقه على الحديث النبوي الشريف: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ؛ فطوبى للغرباء». ننقل بعض ما جاء فيه:

١ - لا يقتضي هذا أنه إذا صار غريبًا أن المتمسك به يكون في شر، بل هو أسعد الناس، كما قال في تمام الحديث: «فطوبى للغرباء». و«طوبى» من

الطيب. قَالَ تَعَالَى: ﴿طُوبَى لِهَؤُلَاءِ وَحَسُنَ مَا لَبَّيْ﴾ [الرعد: ٢٩]؛ فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه كما كان غريباً، وهم أسعد الناس. أما في الآخرة فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

٢- وكما أن الله نهى نبيه أن يصيبه حزن أو ضيق ممن لم يدخل في الإسلام في أول الامر، فكذلك في آخره؛ فالمؤمن منهي أن يحزن عليهم، أو يكون في ضيق من مكروهم. وكثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكَلَّ ونَاحَ، كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى.

٣- وقوله ﷺ: «ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ» يحتمل شيئين:

أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريباً بينهم ثُمَّ يظهر، كما كان في أول الأمر غريباً ثُمَّ ظهر؛ ولهذا قال: «سيعود غريباً كما بدأ». وهو كما بدأ كان غريباً لا يُعَرَفُ ثُمَّ ظهر وعُرِفَ؛ فكذلك يعود حتى لا يُعَرَفَ ثُمَّ يظهر ويُعَرَفَ. فيُقِلُّ من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولاً.

ويُحْتَمَلُ أنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلم إلا قليل. وهذا إنما يكون بعد الدجال وأجوج ومأجوج عند قرب الساعة؛ وحينئذ يبعث الله ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ثُمَّ تقوم القيامة. وأما قبل ذلك فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحق، أعزاء، لا يضرهم المخالف ولا خلافخاذل. فأما بقاء الإسلام غريباً ذليلاً في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا.

٤- وقوله ﷺ: ثُمَّ يَعُودُ غُرَبًا كَمَا بَدَأَ أَعْظَمَ مَا تَكُونُ غُرَبَتُهُ إِذَا ارْتَدَّ الدَّاحِلُونَ فِيهِ عَنْهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فَهَؤُلَاءِ يَقِيمُونَهُ إِذَا ارْتَدَّ عَنْهُ أَوْلَثُكَ؛ وَكَذَلِكَ بَدَأَ غُرَبًا وَلَمْ يَزَلْ يَقْوَى حَتَّى انْتَشَرَ؛ فَهَكَذَا يَتَغَرَّبُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمَكَةِ وَالْأَزْمَةِ، ثُمَّ يَظْهَرُ، حَتَّى يَقِيمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ كَمَا كَانَ الْأَمْرُ لِمَا وُلِّيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قَدْ تَغَرَّبَ كَثِيرٌ مِنَ الْإِسْلَامِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى كَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ؛ فَأَظْهَرَ اللَّهُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ مَا كَانَ غُرَبًا.

٥- وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وَكِلَاهُمَا وَقَعَ، وَيَقَعُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّهُ مَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ طَائِفَةٌ إِلَّا أَتَى اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ يُجَاهِدُونَ عَنْهُ، وَهُمْ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ^(١).

(١) يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا، كِتَابَ الْإِسْلَامِ لِعَصْرِنَا لِلدُّكْتُورِ جَعْفَرِ شَيْخِ إِدْرِيسَ، طَبْعَةُ أَصْحَاءِ الْمُنْتَدَى، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٥٨١)، وَانْظُرْ كِتَابِي: (سِيرَتُهُ - مَقَالَاتُهُ - مُحَاضَرَاتُهُ - بَحُوثُهُ) دَارُ كُنُوزِ إِشْبِيلِيَا لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٤١).

فائدة: التبعية الجاهلية:

التبعية الجاهلية: هي أن يُسلم الإنسان قياده لإنسان يقوده بمجرد هواه. وهو إنما يُسلم قياده له لمجرد الهوى؛ كأن يكون معجباً به، أو لكونه من أجداده، أو يكون مقلداً لغيره في قبوله لزعامته والسير خلفه، أو لغير ذلك من الأسباب التي لا علاقة لها بالعلم. يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

إن الاتباع العلمي ليس اتباعاً لشخص لمجرد كونه الشخص الفلاني كما هو الحال في التبعية الجاهلية، وإنما ذلك أنه لما كان عامة الناس لا يتلقون الدين من عند الله تعالى مباشرة، وإنما يتلقونه عن طريق رُسل يرسلهم الله إليهم، كان الدين الحق هو الدين المبني على اتباع هؤلاء الرسل؛ اتباعهم في تلقي الدين عنهم، واتباعهم في فهم هذا الدين، واتباعهم في طريقة العمل به، واتباعهم في اتباع من يأمرون باتباعه.

يقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا بِكُفْرَيْنَ ۖ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْبَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام ٨٩-٩٠]، ويقول أيضاً: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُرٍّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النساء: ٥١]؛ ولأن هذا الاتباع اتباع علمي، فإن الرسل ومن أمر الله

باتباعهم، يُذكرون الناس بهذه الحقيقة حين يطلبون منهم اتباعهم؛ فهذا أبو الأنبياء إبراهيم يقول في دعوته لأبيه: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٣٤].

وهذا مؤمن آل فرعون يقول لقومه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُومُ آتِيعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ (٢٨) يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٢٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُوفٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٠) وَيَنْقُومُ مَا لِيَ آذَعُوكُمُ إِلَى الْعَذَابِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٣١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا آذَعُوكُمُ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ (٣٢) لَا جَبْرَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٣٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِلَهُكُمْ اللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٨-٤٤].

قد يقال: لكن فرعون أيضًا ادّعى هذه الدعوى في طلبه من قومه أن يتبعوه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٩٢] نعم! هكذا ادّعى فرعون، لكن انظر إلى الفرق بين حُجَّة فرعون وحُجَّة هذا المؤمن؛ ففرعون يطلب من قومه أن يتبعوه معللاً ذلك بقوله: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومُ آتِيسَ لِي مِثْلُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا بُصِيرُونَ (٥١) أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤]، فهو إذن لا يحتج في طلبه من الناس أن يتبعوه

يهدي يهديهم إليه وينفعهم الله تعالى به، وإنما يعلل طلب اتباعه بنعم أعطاها الله إياه. نعم! لا علاقة لها بكونه على حق أو أنه يستحق أن يتبع.

وعندما قال يوسف عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿[يوسف: ٣٧-٣٨]، لم يعلل اتباعه لهم بمجرد كونهم آباءه؛ كما فعل أصحاب التبعية الجاهلية، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وإنما علل هذا الاتباع بعلمية: ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٨٣].

إن من أقوى الأدلة على أن هذا الاتباع اتباع علمي وأنه ركن لا يقوم الدين الحق إلا به، قول الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿[الفاتحة: ٦-٧]،

ففي هذا الدعاء الذي هو أعظم دعاء يدعو به الإنسان في حياته، فإننا لا نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى الصراط المستقيم وحسب، وإنما نصِفُ هذا الصراط الذي نريد الهداية إليه بأنه صراطُ الذين أنعم الله عليهم لا الذين غضب الله عليهم من الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به، ولا الذين عملوا بغير علم.

إن الصراط المستقيم ليس صراطاً نظرياً، وليس صراطاً يُعرف بمجرد

النصوص، وإنما هو صراط واقعي سار عليه أناس معينون، لا يكون الإنسان سائرًا عليه إلا إذا كان متبعًا لطريقهم: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وبما أن صاحب الاتباع العلمي إنما يتبع الهدى الذي جاء به مَنْ يتبعه، فإن اتباعه له لا يكون تقليدًا أعمى، ولا يكون مجرد حفظ لا فقه فيه، وإنما يكون اتباعًا على بصيرة؛ ولذلك فإن صاحبه يعمل عقله، ويتدبر في الحق الذي هداه الله إليه، وكلما كان اتباعه أقرب إلى العلمية كان تدبره أكثر. انظر إلى حال أئمة أهل السنة كيف ملؤوا الدنيا علمًا بتدبرهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واستباطهم من نصوصهما من العلم ما هداهم الله به إلى حل مشكلات الناس الواقعية، وما هداهم به إلى الرد على الشبهات التي يثيرها المنافقون، وما هداهم به إلى حُسن الكلام الذي يذكر الناس برهم، ويحبب إليهم نبيهم، ويرقق قلوبهم. هو اتباع له في الهدى الذي جاء به، والذي يعمل به ويدعو إليه؛ ولذلك كانت الدعوة إلى اتباع الرسل هي في الوقت نفسه دعوة إلى اتباع هذا الهدى: ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨]. والاتباع العلمي بهذا المعنى الذي ذكرناه هو ركن لا يقوم الدين الحق إلا به^(١).

(١) الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية، كتاب الإسلام لعصرتنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المتندي، ط ١، ١٤٣٥ هـ (ص: ٥٩١)، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٤٢).

فائدة: الصراع بين الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية:

إن الصراع بين الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية، صراع مستمر. فإذا كان أصحاب الاتباع العلمي يظلون مستمسكين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدى الصالحين من عباد الله، فإن أصحاب التبعية الجاهلية تتفرق بهم السبل فيتبعون في كل عصر، بل في العصر الواحد أنواعاً ممن يتخذونهم سادة يصدرون عن رأيهم ويقتدون بهم.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك في عصرنا، اتخاذ بعض الناس المفكرين الغربيين سادة لهم، واتخاذ طريقهم مثلاً أعلى في المعتقدات والاخلاق وسائر أنواع السلوك. ولكن بما أن اتباعهم لهم إنما هو تبعية جاهلية فإنهم يسرون خلفهم سائر الحيوانات التي لا تعقل. يقول الغربيون - مثلاً - إنهم نظروا في دينهم نظراً متحرراً (ليبرالياً) فوجدوا فيه من الأخطاء والتناقضات ما جعلهم يشكُّون فيه، وما دعاهم لأن يستبدلوا به آراءهم البشرية ويجعلونها هي الحاكمة في مسائل السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، وغيرها، فيأتي هؤلاء المقلِّدون العميان ليقولوا مثل قولهم عن دين لا يحسنون حتى مجرد قراءة نصوصه، ودعك من فهمها أو المقدرة على نقدها^(١).

(١) الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥ هـ، (ص: ٥٩١)، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م، (ص: ٢٤٢).

فائدة: دعوى التناقض بين الانتماء إلى الوطن أو الانتماء إلى فكرة

أو عقيدة معينة أيًا كانت؛

وهذه الدعوى مبنية على افتراض أن هنالك تناقضًا بين الانتماء إلى الوطن أو الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة أيًا كانت وهذا افتراض غير صحيح. أولاً: لأن الانتماء إلى الوطن يلزم عنه الانتماء إلى عقيدة قد لا يشعر بها صاحبها، فإنه إن عرضت عليه مشكلة فأراد حلها لمصلحة وطنه فكيف سيفكر فيها؟

ثانياً: لأن الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة لا يلزم عنه أن يكون الشخص متعصباً غير عاقل ولا متجرد؛ بل إن الفكرة التي ينتمي إليها قد تكون هي نفسها مبنية على الدعوة إلى مكارم الأخلاق التي من بينها الصدق والأمانة والتجرد، وقد كان هذا في الإسلام فحين سرق أحد الممتنمين إلى هذا الدين درعاً وخبأها عند يهودي فوجدت عنده فحلف أنه ما سرقها فسأل قومه النبي ﷺ أن يجادل عنه ويبرئه أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] فبرأ القرآن الكريم اليهودي. لست أدري ماذا كان سيكون موقف الذين يجعلون الوطن هو الأساس فيقدمونه على مكارم الأخلاق في مثل هذه الحال؟

ثالثاً: من أقوى الأدلة على أن الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة لا يلزم عنه التنكر للوطن؛ بل إن الإنسان قد ينتمي إلى عقيدة معينة ويظل مستمسكاً بالحنين إلى وطنه، قول رسول الله ﷺ حين أجبره الكفار على الهجرة من مكة: «مَا أَطْيَيْتُكَ

مِنْ بِلْدَةٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ، وَلَوْ لَا أَنَّ قَوْمَكَ أَخْرَجُونِي مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ». قال الحاكم في (المستدرک) حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وكذلك كان أصحابه يعبرون عن هذا الحنين إلى الوطن ومن ذلك قول بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة
بوادٍ وحولي إذ خرو جليل
وهل أردنَ يوماً مياه مجنة
وهل يبدون لي شامة وطفيل

رابعاً: أن تحول الوطن إلى عقيدة تعلو على كلِّ العقائد والأفكار الأخرى فإن هذا قد يؤدي بالمؤمن بهذا الاعتقاد إلى أن يجعله كارهاً لكلِّ المعتقدات والأفكار التي يراها متناقضة مع فكرته هذه فيصير كما كان هتلر عدواً لكلِّ من يراه معتقداً لغير ما يعتقد، ومحارباً له بكلِّ الوسائل^(١).

(١) الانتماء إلى الوطن أم إلى المبدأ، كتاب الإسلام لعصرتنا للدكتور جعفر شيخ إدريس، طبعة أضواء المنتدى، ط ١، ١٤٣٥هـ، (ص: ٦٥١)، وانظر كتابي: (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٢٤٢).

﴿مصادر مقالات الثقافة الإسلامية والدعوة إلى الله﴾

أولاً: المقالات:

(١) مقالات كتبت في مجلات وصحف متنوعة:

١- أضواء قرآنية على ظاهرة الشذوذ الجنسي:

أورد الشيخ في هذا المقال الإجابات القرآنية عن بعض الأسئلة والشبهات والدعاوى التي أثارها المدافعون عن ظاهرة الشذوذ الجنسي^(١).

٢- إلا رحم الله ناشر السنة:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن الشيخ الهدية وجهوده في نشر التوحيد والدعوة السلفية^(٢).

٣- الآخر:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن المقصود بالآخر والاعتراف به وقبوله^(٣).

٤- الاسلام عقل وإيمان:

بين الشيخ في هذا المقال إن الله تعالى فطر الناس على العبودية له، وجعل

(١) جريدة منار السبيل، ذو القعدة ١٤١٣ هـ.

(٢) شبكة المشكاة الإسلامية، الأربعاء ٧ شوال ١٤٢٨ هـ، ١٧ أكتوبر ٢٠٠٧ م.

(٣) شبكة المشكاة الإسلامية، الإثنين ٣٠ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ، ١٠ يناير ٢٠٠٥ م.

هذه العبودية جوهر إنسانيتهم، فكلما ارتقى الإنسان في درجاتها كان أكثر اقتراباً من جوهره الذي فطره الله عليه، وكلما بعد عنها وتردى في حماة الشرك كان كالأنعام بل أضل سبيلاً^(١).

٥- الإسلام وتحقيق المجتمع الإنساني:

يتحدث الشيخ في هذا المقال عن كيف يتخلص الإنسان من المعوقات التي تحط من قدره الإنساني؟، وما هي الشروط التي يجب توافرها ليصبح الإنسان إنساناً حقيقياً ويصبح المجتمع مجتمعاً إنسانياً؟^(٢).

٦- الحرية:

بين الشيخ في هذا المقال إن التفاضل بين المجتمعات لا يكون بقدر ما فيها من حرية، وإلا لكان أفضلها مجتمع لا قوانين فيه، لأن كل قانون يأمر أو ينهى يمثل قيداً على الحرية الفردية، فالتفاضل يكون إذن بنوع ما يبيحه المجتمع وما يحرمه أو يوجبه^(٣).

٧- الحوار مجادلة لا مداهنة:

يبين الشيخ في هذا المقال الحوار وشروط ومشكلة الحوار مع العلمانيين في العالم الإسلامي وأشكال المداهنة في الحوار^(٤).

(١) جريد المسلمون السعودية.

(٢) مجلة المجتمع الكويتية (١٦١)، رجب ١٣٩٣ هـ، يوليو ١٣٧٣ م.

(٣) جريدة الميثاق الإسلامي، عدد (١٦)، شوال ١٣٨٧ هـ، يناير ١٩٦٨ م.

(٤) شبكة المشكاة الإسلامية (٢)، شعبان ١٤٢٤ هـ، ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣ م.

٨- الخمر والعدوان:

في هذا المقال يرد الشيخ على قول من زعم بأن شرب الخمر ينبغي أن لا يعد جريمة يعاقب عليها القانون إلا إذا ارتبط بعدوان^(١).

٩- الصلة بين ظاهر الإنسان وباطنه:

في هذا المقال بين الشيخ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لكل إنسان باطنًا وظاهرًا، باطنه هو قلبه وعقله، وما في هذا القلب من معتقدات وتصورات، وما تنتجها هذه المعتقدات والتصورات من مشاعر، وميول ورغبات، وظاهره هو هذا الجسم وتصرفاته لكن ظاهر الإنسان وباطنه ليسا عالمين مستقلين مفترقين، بل إن بينهما اتصالاً وثيقاً، وتأثيراً متبادلاً^(٢).

١٠- الصيام وتفاضل الأزمان:

بين الشيخ في هذا المقال إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الخلق وجعله متفاضلاً فالمخلوقات الحية متفاضله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، والبشر متفاضلون ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِزْمَرْنَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ والأنبياء متفاضلون ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾، والجمادات متفاضله ﴿أُحْدُ جَبَلٍ يَحْبِبُنَا وَنَحْبُهُ﴾ والأماكن متفاضله ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾، والأزمان متفاضله، فخير العصور عصر النبي ﷺ، وخير أيام الأسبوع يوم الجمعة، وخير أيام السنة

(١) شبكة المشكاة الإسلامية (١٩)، صفر ١٤٢٧هـ، ١٨ مارس ٢٠٠٦م.

(٢) منار السبيل، السنة الثانية، محرم ١٤١٤هـ يوليو ١٣٩٣م.

يوم عرفة، وخير ليا ليها ليلة القدر، وخير الشهور شهر رمضان. والأفضلية كلها كما مرتبطة بأسباب دينية، فالله سُبحانه وتعالى يختار الحي أو الجماد أو الزمان أو المكان لفضل جعله فيه، قد نعلمه نحن وربما لا نعلمه، ثُمَّ يكرمه بسبب ذلك الفضل فيجعله مكاناً لخير ديني، ثُمَّ يجعله بسبب ذلك الخير الديني القدري محلاً أو مناسبة أو أهلاً لخير ديني شرعي^(١).

١١- إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير:

في هذا المقال يجيب الشيخ على التساؤلات التالية: ما جوهر إنسانيتنا؟ هل لنا من طبيعة ثابتة هي التي بمقتضاها نكون بشرًا؟ أم أن طبيعتنا لوح فارغ تكتب عليها الثقافة والبيئة والهندسة الوراثية ما تريد؟ هل لنا من روح؟ وإن كانت لنا فما الفرق بينها وبين جلودنا؟^(٢).

١٢- أهمية العقيدة وأسبقيتها على الأفعال:

يبين الشيخ في هذا المقال إن عقيدة التوحيد هي جوهر الدين وأساسه، فالتأثير فيها سلباً أو إيجاباً هو أخطر التأثيرات على دين المسلم^(٣).

١٣- أين المرجعية؟

يبين الشيخ في هذا المقال المقصود بالمرجعية وأنها الطريقة التي يحسم بها الخلاف في قضية من القضايا. والمرجعية بهذا المعنى أمر ضروري لكل

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، الجمعة ١٩ رمضان ١٤٣١ هـ، أغسطس ٢٠١٠ م.

(٢) موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس، ١/٦/٢٠١٦ م.

(٣) موقع المختار الإسلامي، ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٣٦ هـ.

أناس يكونون أمة^(١).

١٤- بشاعة التمثيل بالجثث:

يبين الشيخ في هذا المقال إن الله تعالى جعل لقتال الأعداء المعتدين حدوداً يجب الالتزام بها. من هذه الحدود التي يجب أن يقف عندها المسلم عدم التمثيل بجثث المقتولين تشويهاً أو تقطيعاً أو حرقاً^(٢).

١٥- بل ليس في الإمكان إبداع:

يبين الشيخ في هذا المقال لماذا يكون بعض الأطباء أو المهندسين -ودعك من علماء الاجتماع والسياسة- قادرين على أن يكونوا في وزارة داخلية أو خارجية أو إعلام، ولا يكون كذلك المختصون بالعلوم الإسلامية؟ ويذكر أن السبب في ذلك هو المناهج الدراسية التي تجعل دراسة العلوم الدينية منعزلة عن المعارف والأفكار والمؤسسات العصرية، فالعلة ليست إذن في طبيعة دين الإسلام، حاشاه، ولكنها في مناهج المؤسسات التعليمية الإسلامية، وهي علة يمكن علاجها^(٣).

١٦- تحريم الشيوعية:

يرد الشيخ في هذا المقال على من يقول بأنه لا داعي للنص بتحريم الشيوعية في الدستور السوداني وأنه يكفي النص على تحريم الإلحاد^(٤).

(١) الشبكة العنكبوتية.

(٢) موقع الدكتور جعفر شيخ إدريس، ١٩ صفر، الموافق ٢٥ أبريل ٢٠٠٤ م.

(٣) مجلة المعرفة السعودية، العدد (٣٢)، ذو القعدة ١٤١٨ هـ.

(٤) جريدة الميثاق الإسلامي، العدد (١٦)، صفحة (١٢)، الجمعة ١٩ شوال ١٣٨٧ هـ الموافق

١٩ يناير.

١٧- رد شبهات المكذبين بعذاب القبر:

يبين الشيخ أن الذي ينكر عذاب القبر مكذب للرسول ﷺ، إلا أن يكون جاهلاً بهذا التواتر، أو جاهلاً بأمر عقلي وهو أن التواتر يدل دلالة قاطعة على نسبة القول أو الفعل إلى من نسب إليه... ومن كان مكذباً للنبي في أمر يعلم أنه قاله فلا يكون مؤمناً به، ولا بريء الذي أرسله، وإن كرر النطق بالشهادتين ألف مرة أو زاد، وكل حجة يتشبه بها من ينكر أمراً جاء به كتاب الله، أو قاله رسول الله لا بُدَّ أن تكون باطلة عقلاً؛ كما هي باطلة شرعاً... بل إنها لتدل على ضيق أفق صاحبها؛ لأنها كثيراً ما تعتمد على الخلط بين الممكن والمألوف... أعني أن أحدهم ينكر إمكان حدوث شيء ما لمجرد أنه أمر غير مألوف؛ فهو يخلط بين المستحيل وغير المعهود...^(١).

١٨- عالم النبوة الرحيب:

يبين الشيخ في هذا المقال إن رسل الله أحب خلق الله إلى الله، وقد آتاهم من العلم بنفسه تعالى وبخلقه ما لم يؤت أحداً، وآتاهم من أسباب العلم ووسائله ما لم يؤت أحداً من سائر خلقه، ومحمد ﷺ هو أحب رسل الله إلى الله، فلا ريب أنه ﷺ أعلمهم به وبخلقه، ولا جرم أن عالمه الذي يعيش فيه أرحب عالم^(٢).

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، الجمعة ٢٩ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ، الموافق ٢٦ مايو ٢٠٠٦م.

(٢) شبكة المشكاة الإسلامية، ١٣ ذو القعدة ١٤٢٨هـ، الموافق ٢١ نوفمبر ٢٠٠٧م.

١٩- غلو في فهم التوحيد:

يبين الشيخ في هذا المقال إن بعض الناس غلو في تعظيم التوحيد غلوًا يكاد يجعلهم يهونون من شأن شرائع الإسلام الأخرى، ويكاد يغري المستمع إليهم بالأمن والنجاة ما دام قد حقق كلمة التوحيد، مهما ارتكب بعد ذلك من ذنوب، وهذا خطأ عظيم. نعم إن أمور الحلال والحرام العملية أقل شأنًا من التوحيد، لكنها هي في نفسها عظيمة، وهي كلها مرتبطة بالعقيدة أو ثقل رباط^(١).

٢٠- فكيف يهدم الإعلام العقيدة:

في هذا المقال يذكر الشيخ تأثيرات الإعلام الغربي السلبية على عقيدة المسلم^(٢).

٢١- لا تعلق بالأشخاص، معالم في طريق الاستمسك بالمبادئ:

يبين الشيخ في هذا المقال إن العبادة لا تبدأ في فراغ فلا بُدَّ في بادئ الأمر أن يفعل المعبود شيئًا، أو أن يُخَيَّلَ إلى بعض الناس أنه قد فعل شيئًا، ينال رضى العابدين وإعجابهم حتى إذا تمكن الحب من قلوبهم، وأسلموه أمرهم، لم يبالوا بعد ذلك ما يفعل بنفسه وبهم، ورأوا من الكبائر أن يجروا أحد على الاعتراض عليه فقد حل هو بشخصه محل الفكرة التي عُبد من أجلها، فأصبح هو الفكرة وهو المبدأ الذي تُقاس به الأفكار والأفراد والمواقف بمدى قربها أو بعدها من نيل رضاه^(٣).

(١) مجلة منار السبيل، جمادى الآخرة ١٤١٦ هـ، الموافق نوفمبر ١٩٩٥ م.

(٢) شبكة المشكاة الإسلامية، الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤ هـ، ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣ م.

(٣) جريدة الميثاق الإسلامي، العدد (٦٣٧)، ١٠ أكتوبر ١٩٦٧ م.

٢٢- لا مدهانة في دين الله:

يبين الشيخ في هذا المقال إن ديننا يحثنا على أن نعامل المسلمين لنا من غير المسلمين معاملة حسنة، بل وأن نتعاون معهم في كل أمر نرى فيه خيرًا، لكن الحد الديني الفاصل بيننا وبينهم يظل قائمًا لا تمحوه مواطنة ولا يمحوه أي إحسان يسدونه إلينا أو نسد به إليهم مهما كان عظيمًا، فإذا علمنا عن إنسان أنه قد بلغته الرسالة المحمدية ولم يؤمن بها، بل أنكر أن يكون محمد رسول الله، أو أن القرآن كلام الله، فإنه لا يحق لنا أن نعامله وكأنه مؤمن بالله ورسوله. هذا من التناقض الذي لا نقدم عليه في حياتنا الدنيوية فما بال بعضنا يتجاهلونه في حياتهم الدينية؟^(١)

٢٣- من قواعد الدين المحافظة على سمعة المسلمين:

في هذا المقال يبين الشيخ خطأ تصرفات بعض المنتسبين إلى الإسلام الذين جعلوا الدين ضيقًا في العطن وتبلاً في الإحساس وعدم اكتراث بما يقوله أو يشعر به غير المؤمنين من الناس. بل ربما ظنوا هذا التبلى وعدم الاكتراث دلالة على قوة الاستمسك بالدين. مع أنه في حقيقته عدم فقه به، بل وصد للناس عنه^(٢).

٢٤- من مزالق الدعاة:

في هذا المقال يرد الشيخ على الذين يذمون كل من يظهر استمساكًا شديدًا

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، ١٠ رجب ١٤٢٦ هـ، الموافق ١٣ أغسطس ٢٠٠٥ م.

(٢) جريدة الميثاق الإسلامية، ربيع الثاني ١٤٢٥ هـ.

بما يعتقد أنه الحق ويقولون لا أحد غير الله تعالى الذي يسميه بعضهم بالمطلقيم تلك الحقيقة. فكأنهم يقولون إنك لكي تعترف بالآخر لا بُدَّ أن تعتقد أنه قد يكون على صواب وتكون أنت على خطأ^(١).

٢٥- مناقشة هادئة مع المفجرين:

يبين الشيخ أن أعمال الناس حسنة كانت أم سيئة إنما تنتج عن تصوراتهم، فإن أنجع وسيلة لعلاج ميولهم إلى الأعمال الشريرة هو إقناعهم بخطأ التصورات التي أدت إليها. لكن هذا الأمر لا يتيسر دائماً لأسباب كثيرة، ثم يذكر الشيخ هذه الأسباب^(٢).

٢٦- مهمة الداعية البلاغ:

يقرر الشيخ في هذا المقال إن مهمة الداعية البلاغ كما ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فينبغي عليه أن يبلغ الرسالة كما هي، وألا يزيد فيها ولا ينقص منها وأن يستمسك بها كما أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وينبغي عليه ثانياً أن لا يظن أن من مهمته أن يدخل الإيمان في قلوب الناس فذلك أمر قد تكفل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به ولم يتركه لنبي أو لداعية أو لأحد من البشر^(٣).

٢٧- نبي الرحمة الإيمانية:

يبين الشيخ في هذه المقالة أن الله سبحانه أرسل رسوله محمداً ﷺ رحمة

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤ هـ، أكتوبر ٢٠٠٣ م.

(٢) الشبكة العنكبوتية.

(٣) مجلة التوعية الإسلامية في الحج، العدد (١٨)، ذو الحجة ١٤٠٢ هـ.

للعالمين وأن رحمته تشمل:

١- رحمته بشخصه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٢- ورحمته برسالته: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَفِكْرَيْنِ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]، ﴿وَيَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]^(١).

٢٨- ازدياد حرارة الأرض:

في هذا المقال يذكر الشيخ أن الفساد المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، هو فساد في الطبيعة برها وبحرها سببه فساد في سلوك الناس... ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾. ليس من شرط ذلك الفساد الحسي المترتب على هذا الفساد السلوكي أن يحدث بطريقة خارقة

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، ٤/ ١٢/ ١٤٣١ هـ، الموافق ٩ نوفمبر ٢٠١٠ م.

لسنن الطبيعة المعروفة. بل قد يحدث بأسباب كثيرة وسيطة بينه وبين السلوك الفاسد: يؤدي السلوك الفاسد إلى نتيجة، وتؤدي تلك النتيجة إلى أخرى إلى أن تؤدي الأخيرة إلى الفساد^(١).

٢٩- مزايا حقيقية لثورة الاتصالات:

بين الشيخ في هذا المقال مزايا ثورة الاتصالات وأن لها محاسن لا يمكن تجاهلها ومنها:

أولاً: الكشف العلمية التي أظهرت من عجائب صنع الله تعالى في العالم الخارجي وفي المخلوقات الأرضية الدقيقة ما يكاد يجعل من المستحيل على الملحد أن يستمر في الادعاء بأن كل هذا إنما حدث مصادفة وبغير قوة مدبرة.

ثانياً: من الحقائق التي لا يزال العقلاء من المفكرين الغربيين يكررون التذكير بها ويحذرون من مغبتها، والتي يراها المعاش لهم والمتبع لأخبارهم في إعلانهم، أنه قد صاحب بعدهم عن القيم الدينية تدهور في الحياة الأخلاقية. فالمخدرات والإباحية الجنسية، تزداد انتشاراً حتى بين الصغار من طلاب المدارس، ويزداد معها اللجوء إلى العنف والقسوة.

ثالثاً: بالرغم مما في الشبكة العالمية من العيوب التي ذكرناها، فإنها أتاحت للمسلمين فرصة لم تُتاح لهم من قبل في وسائل الإعلام الأخرى لتعريف الغربيين بالإسلام ولرد على الشبهات التي تثار حوله، ولتكون منبراً مفتوحاً

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، ٧ ذو الحجة ١٤٢٥ هـ، الموافق ١٧ يناير ٢٠٠٥ م.

للحوار بين المسلمين أنفسهم وللدرد على أسئلة السائلين منهم ومن غيرهم^(١).

(ب) مقالات نشرت في مجلة البيان:

١- الإسلام لعصرنا. لماذا وكيف؟

وهذا المقال هو عنوان للمقالات التي كتبها الشيخ في مجلة البيان فالإسلام كما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ومن غير تحريف ولا تبديل هو الذي رضى سبحانه للناس أجمعين في كل مكان وكل عصر منذ مبعث رسوله الأمين والى أن يقوم الناس لرب العالمين^(٢).

٢- السلام وانتشار الإسلام:

وهو مقال يذكر الشيخ فيه أثر السلام في انتشار الإسلام، وهذا المقال كانت قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، ولاحظ بعد نظر الشيخ حين دعا للمحافظة على الحالة السلمية، وتوقعه بأن لا تدوم تلك الحال طالما كان الإسلام في انتشار، وقد سمعته قال أيضًا في محاضرة له في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا في الثمانينات الميلادية: «إن الأمريكان إذا شعروا بأن مثل اجتماعاتكم هذه يشكل خطرًا عليهم فإنهم لن يسمحوا لكم بها»^(٣).

٣- دعاة يستحقون المساعدة:

وهو مقال يدعو فيه الشيخ المسلمين أن يوسعوا مساعدتهم لكل داعية يدعو

(١) الشبكة العنكبوتية.

(٢) مجلة البيان (١٣٧)، محرم ١٤٢٠هـ، مايو ١٩٩٩م.

(٣) مجلة البيان العدد (١٣٨)، صفر ١٤٢٠هـ، الموافق يونيو ١٩٩٩م.

إلى الله على منهج أهل السنة ولو لم يكن من المتخصصين في العلوم الشرعية^(١).

٤- آيات الصيام والدعوة إلى الإسلام:

وفي هذا المقال يبين الشيخ أن الآيات التي أمر الله بها عباده بصيام شهر رمضان هي منهج في الدعوة إلى الإسلام ويسره فلم يأمر بالصيام أمرًا مجردًا، بل يسوق كل الحقائق التي من شأنها أن تعطف القلوب إلى الخير الذي يأمر به سبحانه^(٢).

٥- الدعوة، ووسائل الاتصال الحديثة:

يشير الشيخ أن وسائل الاتصال الحديثة فرصة كبيرة لنشر رسالة الإسلام، لكنها أيضًا أكبر تحد يواجه الدعوة في نشر هذه الرسالة^(٣).

٦- وسائل الاتصال وعلاقتنا بالثقافات الأخرى:

في هذا المقال يشير الشيخ إلى أن وسائل الاتصال تساعد على وصول الثقافات الأخرى للمسلمين، وانتشارها بينهم ومع ما فيها من شرور، ولكن ذلك قد ينطوي على بعض الخير؛ لأن معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم ومجادلتهم^(٤).

(١) مجلة البيان (١٤٠)، ربيع الآخر ١٤٢٠هـ، أغسطس ١٩٩٩م.

(٢) مجلة البيان (١٤٥)، رمضان ١٤٢٠هـ، ديسمبر/يناير ١٩٩٩م/٢٠٠٠م.

(٣) مجلة البيان العدد (١٤٦)، شوال ١٤٢٠هـ الموافق فبراير ٢٠٠٠م.

(٤) مجلة البيان (١٤٨)، ذو الحجة ١٤٢٠هـ، مارس ٢٠٠٠م.

٧- دين الحق والخير والجمال:

يبين الشيخ في هذا المقال كيف أن دين الإسلام هو دين الحق والخير والجمال؛ لأنه حق كله وخير كله وجمال كله فلا باطل فيه ولا قبح فيه، وأما ما عداه فيخلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر والجميل بالقبيح^(١).

٨- دين لا تكفير فيه ليس بدين:

يبين الشيخ أن الإسلام دين منزل من عند الله مركّز على مجموعة من الحقائق من آمن بها كان مسلمًا، ومن أنكرها أو سخر منها أو استهزأ بها كان كافرًا، فإمكانية الحكم على إنسان بالكفر أمر لازم لهوية الدين، فالدين الذي لا إكفار فيه ليس بدين؛ لأنه لا هوية له وإذا لم يكن للدين هوية ولم تكن له معالم فإلى أي شيء تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؟^(٢).

٩- ماذا وراء كسر الحكومة الأفغانية للأوثان:

يشير الشيخ في هذا المقال إن الحجر الذي أقدم على تكسيه الحكومة الأفغانية ليس مجرد حجر في صورة إنسان، ولو كان كذلك لما حرص على تكسيه الأفغان، وإنما لأن الناس رأوه إلهًا وما هو بإله، ورأوا أنهم يضاهون به خلق الله فكان كسره كسرًا لهذا التصور المفسد لقلب الإنسان، فالكسر وسيلة لإقامة الدليل القاطع على بطلان ذلك التصور الفاسد^(٣).

(١) مجلة البيان (١٥٠)، صفر ١٤٢١هـ، مايو/يونيو ٢٠٠٠م.

(٢) مجلة البيان (١٥٢)، ربيع الثاني ١٤٢١هـ، يوليو ٢٠٠٠م.

(٣) مجلة البيان (١٦٨)، شعبان ١٤٢٢هـ، نوفمبر ٢٠٠١م.

١٠- لا تحسبوه شرًا لكم:

بين الشيخ في هذا المقال إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ يجعل من المصائب أبوابًا يأتي منها خير كثير، وقد كتب هذا المقال بمناسبة أحداث الحادي من سبتمبر، وقال إنني أرى في هذه المصيبة فرصة كبيرة للدعوة إلى الله، وتصحيح الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأمريكان^(١).

١١- الحرية والعبودية:

في هذا المقال يبين الشيخ بأن القول إن الإنسان حر أو أنه ينبغي أن يكون حرًا بالمعنى الغربي الشائع كلام يكذبه الواقع، ثم إنه مخالف للإيمان بأن الإنسان عبد لله يأتمر بأوامره، وقد أدرك هذا بعض الكتاب النصارى، منهم كاتبهم الإنجليزي المشهور لويس الذي قال كلامًا فحواه: إنني لم أولد لأكون حرًا، وإنما ولدت لأسمع وأطيع^(٢).

١٢- الإنصاف في معاملة غير المسلمين:

بين الشيخ في هذا المقال إن معاملة المسلمين لغيرهم يجب أن تؤسس على الحقائق، حقائق الدين المتلوة وحقائق الواقع المشهودة فغير المسلمين وإن كانوا غير مسلمين فهم ليسوا سواء في قريتهم وبعدهم من حقائق الدين وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين وهذا يحتم علينا أن لا نغفلها في تعاملنا

(١) مجلة البيان (١٦٢)، صفر ١٤٢٢هـ، مايو ٢٠٠١م.

(٢) مجلة البيان (١٨٣)، ذو القعدة ١٤٢٣هـ، يناير ٢٠٠٢م.

معهم وهذا ليس إنصافاً لهم فحسب، بل هو أمر ضروري لتحصيل كثير من المصالح ودفع كثير من المفاسد^(١).

١٣- الاعتبار بمالات معاصي الكفار:

يؤكد الشيخ في هذا المقال إن الآثار العظيمة للمعاصي إنما تظهر في المجتمعات الكافرة، وكلما كثرت هذه المعاصي وكلما طال أمد مقارفتها والجهر بها كان ظهور آثارها السيئة أبين وأكثر^(٢).

١٤- الحوار مجادلة جادة، لا مدهانة:

يقرر الشيخ في هذا المقال إن الحوار لا يكون ناجحاً إلا إذا توفرت فيه بعض الشروط، وخلا من بعض المفسدات فمن الشروط صدق المتحاورين وإخلاصهما في الوصول إلى ما أعلنوه من أهداف ومنها أن يستند الحوار إلى معايير يؤمن بها الطرفان^(٣).

١٥- الاعتقاد في حفظ السُّنة:

يبين الشيخ في هذا المقال إن من لوازم الإيمان الاعتقاد في حفظ السُّنة النبوية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فالسُّنة محفوظة، لأنها من الذكر كما يقوله بعض العلماء، أو أن السُّنة تستلزم كلمة

(١) مجلة البيان (١٧٥)، ربيع أول ١٤٢٣ هـ، مايو/يونيو ٢٠٠٢ م.

(٢) مجلة البيان العدد (١٧٧)، جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ، يوليو/أغسطس.

(٣) مجلة البيان العدد (١٩٠)، جمادى الآخرة ١٤٢٤ هـ، الموافق أغسطس ٢٠٠٣ م.

الذكر وهو ما شرح ذلك وبينه الشيخ في هذه المقالة^(١).

١٦- الإسلام السياسي:

بين الشيخ في هذه المقالة المقصود بالإسلام السياسي عند الغربيين هو وصف للدعاة الذين يدعون إلى أن تكون دولهم إسلامية تحكم بما أنزل الله سبحانه؛ وكذلك بين الشيخ في هذا المقال ما الذي يأخذه خصوم الإسلام السياسي عليه؟^(٢)

١٧- الدين دينان: منزل من السماء. ومتخذ في الأرض:

يفرق الشيخ في هذه المقالة بين دين الله الحق المنزل وبين دين البشر الذي هو خليط بين الدين الحق والدين الباطل، أو هو دين لا علاقة له بالدين المنزل، إنما هو من اختراع الناس ويقرر الشيخ نتيجة، وهي إن الدين الذي يجدد هو دين الناس الذي يمارسون؛ وذلك بجعله موافقاً للدين الحق وليس الدين الذي يجدد هو دين الله المنزل^(٣).

١٨- الإسلام الهيلولاني:

يعبر الشيخ بالإسلام الهيلولاني عن إسلام الأهواء الذي ليس إسلاماً لله، إنما هو إسلام لأهواء كل من يدعي الانتساب إليه، فهو إسلام لا صورة له

(١) مجلة البيان العدد (١٩٤)، شوال ١٤٢٤هـ، ديسمبر ٢٠٠٢م.

(٢) مجلة البيان (٢٠٢)، جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، يوليو/ أغسطس ٢٠٠٤م.

(٣) مجلة البيان (٢٠٣) رجب ١٤٢٥هـ، أغسطس/ سبتمبر ٢٠٠٤م.

ولا محتوى ولا يمكن أن يعرف أو يوصف؛ لأنه دائم التغير والتشكل بأشكال تلك الأهواء التي لا تستقر على حال، فهو هيولاني نسبة هيولي، وهي في فلسفة أرسطاريس مادة ليس لها شكل ولا صورة ثابتة، إنما هي قابلة لأن تأخذ صوراً وأشكالاً مختلفة^(١).

١٩- الأخلاق والنظم:

يؤكد الشيخ في هذه المقالة علاقة النظم بالأخلاق حيث لا يمكن قيام نظام سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو حتى أسري إلا بقدر من الأخلاق والفضائل^(٢).

٢٠- الاعتراف بالآخر:

هذا المقال عبارة عن حوار تمثله الشيخ بين علماني يسأل صاحبه الإسلامي عن الاعتراف بالآخر من أصحاب الديانات الأخرى من المواطنين وغير المواطنين، ويصل إلى نتيجة مقدار الحرية التي يمنحها كل منهما للآخر حسب تصور كل منهما للحرية التي يراها تتناسب مع مبداءه، سواء العلماني أو الإسلامي^(٣).

٢١- من الحرية الدينية إلى الدولة العلمانية:

في هذا المقال يرد الشيخ على من يحرف الاستدلال بالآية الكريمة

(١) مجلة البيان (٢٠٦)، شوال ١٤٢٥هـ، نوفمبر/ ديسمبر ٢٠٠٤م.

(٢) مجلة البيان (٢١٥)، رجب ١٤٢٦هـ، أغسطس ٢٠٠٥م.

(٣) مجلة البيان العدد (٢٢٤)، ربيع الآخر ١٤٢٧هـ، الموافق مايو ٢٠٠٥م.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بحيث تصبح دليلاً على الحرية الدينية بالمعنى الغربي للحرية الدينية، بحيث من حق الشخص يدخل في الدين ويخرج منه متى شاء وتكون الردة أمراً مباحاً لا جريمة يعاقب مرتكبها مخالفاً لقول الرسول ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١).

٢٢- الوسطية لا التمييزية:

في هذا المقال يتحدث الشيخ عن الاستخدام الخاطئ لمعنى الوسطية وقياسها على مفهوم المودريت عند الغربيين الذي لا يأخذ دينه بقوة، بل يجامل فيه ويداهن ويغير ويبدل بحسب ما تقتضيه أهواء الثقافة الغربية، بل ومصالحها السياسية والاقتصادية، ثم يبين الشيخ المعنى الشرعي الصحيح لمفهوم الوسطية^(٢).

٢٣- الممكن والمعهود:

يبين الشيخ في هذا المقال إن الممكن أوسع دائرة من المعهود فالذين لا يدركون ذلك يسارعون في إنكار ما لم يعهدوا ويسارعوا إلى إنكار ما لا تفسير له في حدود ما عندنا من علم، بل أن بعضهم يظن أن غير المعهود أو غير ما يمكن تفسيره في حدود العلم المعهود مستحيل عقلاً، ويزداد الأمر عجباً حين ترى أن ضيقي الأفق هؤلاء كثيراً ما يدعون العقلانية أو العلمية^(٣).

(١) مجلة البيان (٢٢٥)، جمادى الأولى ١٤٢٧هـ، يونيو ٢٠٠٦م.

(٢) البيان العدد (٢٢٦)، جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ، الموافق يونيو ٢٠٠٦م.

(٣) مجلة البيان (٢٢٧)، رجب ١٤٢٧هـ، أغسطس ٢٠٠٦م.

٢٤- الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية:

يبين الشيخ في هذا المقال إن الاتباع في حقيقته إنما هو اتباع العلم، ثم يدخل فيه اتباع من قام عندنا دليل علمي على أن له علمًا وهذا المقصود بالاتباع العلمي، وأما إذا لم يكن الاتباع مؤسسًا على علم بأن المتبع ذو علم وكان مبنيًا على غير ذلك من الأسباب الداخلة في مفهوم الهوى فهو بالضرورة تبعية جاهلية^(١).

٢٥- مفهوم اليسر في الإسلام:

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن مفهوم اليسر في الإسلام وأنه فعل ما يحقق الغاية بأدنى قدر من المشقة، وليس معنى التيسير إلا يؤمر الناس بشيء فيه أدنى مشقة؛ لأنه لو كان كذلك لما كانت هناك تكليف بصلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد^(٢).

٢٦- المستقبل لنا:

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن أن المستقبل لقيم الإسلام وتعاليمه، لأنها قيم الحق والخير التي جاءت بها الرسل ودعا إليها خاتمهم فهي قيم ستغزو القيم الباطلة، وتزهقها في عقر دارها وتضيء لأهلها أنوار الحق فتجعلهم يفتنون بإذن الله إلى دين الله أفواجًا^(٣).

(١) مجلة البيان (٢٣٣)، محرم ١٤٢٨هـ، يناير ٢٠٠٧م.

(٢) مجلة البيان (٢٣٥)، ربيع الأول ١٤٢٨هـ، مارس ٢٠٠٧م.

(٣) مجلة البيان (٢٣٩)، رجب ١٤٢٨هـ، يوليو ٢٠٠٧م.

٢٧- معجزة الاتساق التشريعي:

وفي هذه المقالة يتحدث الشيخ عن الاتساق التشريعي وهو أن في القرآن تشريعات، تشمل كل ما يحتاجه الإنسان من عقائد وعبادات وسلوك وعلاقات اقتصادية وسياسية واجتماعية وغيرها، ومع ذلك لا تجد منها تشريعاً يخالف الآخر أو ينافيه أو يعوق تحقيقه لهدفه، بل تجد التشريعات كلها متعاضدة متساندة يشد بعضها بعضاً^(١).

٢٨- دين يتسع به الأفق:

وفي هذه المقالة يبين الشيخ لماذا يتسع الأفق بالتدين بدين الإسلام، وأنه كلما كان التدين أعمق كان الأفق أرحب؟^(٢).

٢٩- الإيمان الشامل:

يبين الشيخ في هذه المقالة أن الإيمان بالله يختلف عن التصديق بالله، فليس كل مصدق بوجود الخالق مؤمن به؛ لأن الإيمان بالله يقتضي عبادته وحده والإيمان برسالاته وملائكته وكتبه واليوم الآخر وهكذا، ولذا يتعين علينا أن نبين هذا التصور الإسلامي للإيمان؛ لأن ما يسمونه اليوم في الغرب إيماناً بالله لا يكاد يوجد فرق عملي بينه وبين الإلحاد^(٣).

(١) مجلة البيان (٢٤١)، رمضان ١٤٢٨هـ، سبتمبر ٢٠٠٧م.

(٢) مجلة البيان (٢٤٣)، ذو القعدة ١٤٢٨هـ، نوفمبر ٢٠٠٧م.

(٣) مجلة البيان (٢٥٤)، شوال ١٤٢٩هـ، أكتوبر ٢٠٠٨م.

٣٠- الأزمة المالية مبادئ الاقتصاد الإسلام:

يبين الشيخ في هذه المقالة كيف أن الأزمة المالية التي بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم أخذت تجتاح أوروبا والعالم من ورائها لفتت أنظار كثير من رجال الاقتصاد والسياسيين في أوروبا إلى مبادئ الاقتصاد الإسلامي، وإمكانية أن يكون بديلاً للنظام السائد، وعلاجاً لما تسبب فيه من مشكلات^(١).

٣١- نسبية الزمان في القرآن:

يبين الشيخ في هذه المقالة أنه كما يتغير مقدار كل زمان بالنسبة لزمان آخر، فكذلك يتغير إدراك الناس له أو شعورهم به بحسب الحال التي هم فيها، ثم يذكر الشيخ أمثلة من القرآن على ذلك كتقدير أصحاب الكهف نومهم بأنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، والناس في الآخرة يقولون إنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا يوماً أو بعض يوم وبعضهم يقسم بأن لبثهم كان ساعة^(٢).

٣٢- الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر:

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على شبهة من يقول: أنه يكفي للإنسان أن يأمر بالمعروف ويعرف به أنه إذا عرف المعروف أنكر المنكر من غير تعرض للمنكر؛ لأن مجرد الدعوة إلى المعروف هي نهى عن المنكر الذي يضاده، فالشيخ يرد على هذا المفهوم؛ لأن النهي عن المنكر هو من مقتضيات الأمر

(١) مجلة البيان (٢٥٥)، ذو القعدة ١٤٢٩ هـ، نوفمبر ٢٠٠٨ م.

(٢) مجلة البيان (٢٥٩)، ربيع الأول ١٤٣٠ هـ، مارس ٢٠٠٩ م.

بالمعروف، فإذا أمرت بمعروف ولم تنه عن المنكر الذي يضاده ويقابله لا تكون قد أعطيت الأمر بالمعروف حقّه، ولا تكون حصنت من أمرته بالمعروف تحصيناً كاملاً^(١).

٣٣- القراءة والثقافة:

وفي هذه المقالة يصحح الشيخ الاستنتاج الغلط وهو: الارتباط بين أن الأمة الأكثر قراءة هي بالضرورة الأكثر ثقافة، ووجه الغلط هو عدم التمييز بين المعاني المختلفة للثقافة وصلة كل منها بالقراءة؛ وكذلك عدم التمييز بين أنواع القراءات وأنواع القراء^(٢).

٣٤- عندما تؤيد الدراسات العلمية الحقائق الإسلامية:

في هذه المقالة أورد الشيخ عددًا من الدراسات العلمية التي تؤيد الحقائق الإسلامية وهو ما يسمى الآن بالاعجاز العلمي^(٣).

٣٥- شهر للجهد بالقرآن:

يبين الشيخ في هذه المقالة أن رمضان الكريم هو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، والقرآن هو أساس الجهاد الكبير المستمر، الجهاد بالكلمة حيث أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين معه

(١) البيان (٢٦١)، جمادى الأولى ١٤٣٠ هـ، مايو ٢٠٠٩ م.

(٢) مجلة البيان (٢٦٢)، جمادى الآخرة ١٤٣٠ هـ، يونيو ٢٠٠٩ م.

(٣) مجلة البيان (٢٦٤)، شعبان ١٤٣٠ هـ، أغسطس ٢٠٠٩ م.

بأن يجاهدوا الكفار بالقرآن الكريم جهاداً كبيراً وهم مضطهدون بمكة منهيون عن القتال بالسيف مأمورون بأن يكفوا أيديهم وقيموا الصلاة^(١).

٣٦- خلق الله وشرع الله:

يبين الشيخ في هذه المقالة إن الله خلق الخلق وأنزل الشرع، وجعل بينهما علاقة وثيقة إذ جعل الخلق مناسباً لتحقيق أهداف الشرع من حيث أن خلق الله هو سبب لعبادته التي هي الغاية من أجلها خلق الإنسان، ثم ذكر أن مناسبة الخلق للعبادة هي أن الخلق يدل على قدرة الخالق، فالقادر هو المستحق للعبادة؛ وكذلك هو المنعم فالمنعم يستحق أن يشكر بالعبادة وغيرها من الدلائل التي ذكرها الشيخ في ثنايا المقال^(٢).

٣٧- لمن الحكم للخالق أم المخلوق:

يبين الشيخ في هذا المقالة إن الحكم لا يكون إلا لله الخالق سبحانه وليس للمخلوق، سواء كانوا أفراداً أو حتى الناس جميعاً؛ لأنه لا أحد من البشر يمكن أن يعرف مصالح الناس كلها، وإنما الذي يعرف هذا هو خالقهم سبحانه^(٣).

٣٨- يا عباد الله فاثبتوا:

في هذه المقالة ينهي الشيخ عن الحزن بسبب إعراض الناس عن دين الله في بعض الأماكن، بل ينبغي أن يثبت على دينه، ثم يذكر الأسباب في عدم حزن

(١) مجلة البيان (٢٦٥)، رمضان ١٤٣٠هـ، سبتمبر ٢٠٠٩م.

(٢) مجلة البيان (٢٦٧)، ذو القعدة ١٤٣٠هـ، نوفمبر ٢٠٠٩م.

(٣) مجلة البيان (٢٦٨)، محرم ١٤٣١هـ، يناير ٢٠١٠م.

المسلم حين يرى الإعراض عن دين الله تعالى^(١).

٣٩- التدين الفردي والتدين الجماعي:

يبين الشيخ في هذا المقال مظاهر التدين الفردي والتدين الجماعي، ونقده لبعض أوضاع المسلمين في الغرب ممن تأثروا بالثقافة الغربية حيث صاروا يحصرّون الدين في الشرائع الفردية ولا يهتمون كثيراً بالشرائع الجماعية^(٢).

٤٠- الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية:

يبين الشيخ في هذه المقالة الفرق بين الاتباع العلمي وهو أن يتبع الإنسان طريق من علم بالدليل القطعي أن طريقه هو الطريق الموصل إلى الله، وهم أنبياء الله ومن سار على نهجهم وطريقهم من العلماء والدعاة، وأما التبعية الجاهلية فهي أن يسلم الإنسان قياده لإنسان يقوده بمجرد هواه، وهو إنما يسلم قياده له لمجرد الهوى كأن يكون معجباً به، أو لكونه من أجداده، أو يكون مقلداً لغيره في قبوله لزعامته والسير خلفه، أو لغير ذلك من الأسباب التي لا علاقة لها بالعلم^(٣).

٤١- الانتماء إلى الوطن أم إلى المبدأ:

في هذه المقولة يرد الشيخ على فرضية إن هناك تناقضاً بين الانتماء للوطن أو الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة أيا كانت، ويقول إن هذا افتراض غير صحيح ويذكر الأسباب على ذلك^(٤).

(١) مجلة البيان (٢٧٣)، جمادى الأولى ١٤٣١هـ، مايو ٢٠١٠م.

(٢) مجلة البيان (٢٧٤)، جمادى الآخرة ١٤٣١هـ، مايو / يونيو ٢٠١٠م.

(٣) مجلة البيان (٢٧٦)، رجب ١٤٣١هـ، يونيو / يوليو ٢٠١٠م.

(٤) مجلة البيان شعبان (٣٠٠)، شعبان ١٤٣٣هـ، يوليو ٢٠١٢م.

﴿فوائد محاضرات الدعوة﴾

فائدة: لا تناقص بين العمل للأهداف الكبيرة ومعالجة القضايا

الجزئية:

إنه لا تناقص بين العمل للأهداف الكبيرة ومعالجة القضايا الجزئية. والقضايا الجزئية تصادفها في ظروف كثير منها لا صلة لنا فيه، كل قضية جزئية هي في وضع من الأوضاع جزء كبير منه ليس من صنعنا، ولا نستطيع أن نغير فيه شيئاً ولكننا نعمل ما نستطيع في ظروفنا المكانية والزمانية، وهذا ما يكلفنا الله سبحانه وتعالى به، قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

والذي لفت نظري في هذا الحديث هذا اليوم وأنا أعد لهذا الكلام إن الرسول لماذا سمي كلام اللسان تغييراً؟ التغيير باليد واضح، هذا هنا غيره وأضعه بيدي هنا، لكن إذا كان هنا وأقول ينبغي أن يكون هنا باللسان، وحتى عجزت أن أقول باللسان قلت بقلبي، ما ينبغي أن يكون هنا ينبغي أن يكون هنا، لماذا سمي الرسول ﷺ هذا تغييراً؟ لعل من قدر الله تعالى أنه يربط بين البيان بين قول الحق أو إرادة الحق، وبين هذا التغيير الظاهر.

أقول هذا لأنني أرجوا ألا تصابوا بالإحباط، فلا تقولوا لا حيلة لنا، والأمر كله في يد غيرنا، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً، إن أقل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتكلم، ونبين حكم الشرع في القضايا التي تصادفنا في حياتنا اليومية أخذ بها

الناس أم لم يأخذوا، وإذا فعلنا هذا نكون قد أدينا واجبنا، ولا نشعر بعقده من الذنب ولا بشيء من الإحباط، ولا نهرب إلى أن هذه المشكلات من صنع كذا، وإلى أن يأتي كذا وكذا فستحل كلها لا نفعل هذا نسأل الله تعالى الإخلاص^(١).

فائدة: أحكام الله سبحانه وتعالى هي الحكم العدل:

إن أحكام الله سبحانه وتعالى هي الحكم العدل وهذا الحكم العدل يقال للناس سواء كانوا كفارًا أو مسلمين، بل حتى لو كانوا من أسوء أنواع الكفار، وأتلوا عليكم قول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ قُلُوبُهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُوا لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿[المائدة: ٤١-٤٢].

ولذلك قال العلماء: إذا جاءك كافران واحتكما إليك في قضية، فاحكم

(١) أزمة الأمة وخطوات نحو الحل، وهي ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا مع الدكتور محمد أبو فارس حول أزمة الأمة في حرب الخليج عام ١٩٩٠ م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٤٣).

بينهما بحكم الله الذي نزل في القرآن الكريم، وإن كان هذا الحكم قد جاء في أصله للحكم بين المسلمين^(١).

فائدة: الأمة التي ليست لها حكام ولا علماء فليست بأمة،

إذا قلنا: إن ابن باز هو عالم سلطان، فلا فائدة في هذه الأمة، ولا فائدة في جماعات أو حركات أو غيرها، لأنني لا أعرف وأنا عشت في هذه الحركات لا أعرف، والله العظيم في كل الحركات التي عرفتها رجلاً أضعه في مستوى الشيخ ابن باز.

أيها الإخوة: ان تشكيكم في العلماء وفي شعوب من شعوب الدول الإسلامية هذا نفسه مرض، والأمة إذا لم يكن لها حكام وليس لها علماء فليست بأمة لأن الله عز وجل قال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولوا الأمر هم الحكام والعلماء فإذا لم يكن حكام ولا ثقة لنا بالعلماء فنحن ليس بأمة^(٢).

(١) أزمة الأمة وخطوات نحو الحل، وهي ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا مع الدكتور محمد أبو فارس حول أزمة الأمة في حرب الخليج عام ١٩٩٠ م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٤٣).

(٢) أزمة الأمة وخطوات نحو الحل، وهي ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا مع الدكتور محمد أبو فارس حول أزمة الأمة في حرب الخليج عام ١٩٩٠ م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٤٣).

فائدة: استعمال القرآن الكريم للغة التجارة:

استعمال القرآن الكريم للغة التجارة هذا شيء خطر في بالي وربما خطر في بالكم، هو أننا نجد في القرآن الكريم أنه يستعمل لغة التجارة في الدعوة إلى حقائق الدين في القرآن، البيع والشراء، والربح والخسارة، والعمل والتمن والأجر وغير ذلك، وأيضاً حتى غير الألفاظ المعاني التي يضعها الناس في أذهانهم عندما يتعاملون معاملة تجارية، فالإنسان التاجر يضحى في القليل العاجل في سبيل أنه يكسب غداً أكثر منه وهكذا، وكل هذه المعاني يستعمله القرآن الكريم في دعوة الناس إلى حقائق الدين، فمن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَاطَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رِيحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ بَيْعٍ شَرٍّ لَّكُمْ مِنْ عَدَابِ اللَّهِ ۖ تَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْرُوا الْأَخْيَرَةَ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، واستعمل كلمة القرض قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِمَا بَقِيَ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

ما السر في هذا؟ هذا سؤال سألته نفسي.

وأقول: الإجابة والله أعلم يعني لم أقرأ هذا في كتاب، ولكن سؤال سألته نفسي ثم خطر في بالي إجابة أرجو أن تكون صحيحة، ما السر في هذا؟ لماذا

يستعمل القرآن لغة التجارة في دعوة الناس إلى الحق؟

خطر ببالي أن القرآن يدعوا الناس إلى أن يكونوا عقلاء، أن يستعملوا عقولهم والقرآن دائماً يتكلم عن الذين لا يؤمنون بأنهم لا يعقلون، ويتكلم عن الذين يهتدون هم الذين يعقلون ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٩]، فالذي خطر في بالي أن الإنسان أكثر ما يكون عقلاً حين يتعامل معاملة تجارية، الإنسان عنده خرافات وعنده خزعات وكذا، ولكنه إذا جاء لبيع ويشترى يكون عاقلاً جداً لا يبيع شيئاً يملكه، هو يجده ثمن أغلى ولا يشتري سلعة بثمان غالي، وهو يجد لها ثمناً رخيصاً، فالإنسان أكثر ما يكون عقلاً عندما يتعامل هذا المعاملة التجارية.

فكان الله سبحانه وتعالى يقول للناس هذه الطريقة العقلية التي تستعملونها في أعمالكم التجارية، وهذه المعايير التي تستعملونها، استعملوا نفس هذه المعايير حين يأتي الأمر إلى الحقائق الدينية، لا تشتروا الدنيا بالأخرة؛ لأن متاع الدنيا قليل، والأخرة أجرها كبير، فما في إنسان تاجر عاقل يبيع شيء اليوم بثمان رخيص، وهو يعلم أنه غداً سيكسب فيه مكسباً كبيراً، فكان الله سبحانه وتعالى يقول للناس استعملوا هذا المنطق التجاري حين تتعاملون مع الحقائق الدينية، فاعتبروا الأعمال الصالحة تجارة رابحة، والمعاصي أعمالاً خاسرة، واعتبروا الأموال التي تنفقونها في سبيل الله قرصاً ترضونه بكم سبحانه وتعالى؛ ليجزيكم عليه أكثر مما أقرضتموه.

فهذا ربما يكون السر في هذا الاستعمال القرآني لقضية الربح والخسارة،

وهناك في غير مسائل التجارة القرآن الكريم دائماً يقول للناس إن عندكم معايير بعضها معايير صحيحة، فلا تنسوا هذه المعايير حين تأتون إلى الدين، كثير من الناس يكون عاقلًا جدًا في الأمور الدنيوية، ولا سيما في الأمور التجارية، ولكنه إذا جاء إلى الدين حتى بعض المتدينين يترك عقله جانبًا ويتعامل بطريقة فيها عدم عقلانية، أو فيها نوع من الخرافة.

والله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يقول للناس كونوا عقلانيين حتى في تقويمكم للدين، ولذلك فإن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر هذه المعاني لو تدبرتم الآيات التي استعمل القرآن الكريم فيها هذه المعاني التجارية تجدونها بهذا المعنى الذي قلته لكم، فالإنسان العاقل هو الذي تربح تجارته، والإنسان العاقل هو الذي لا يعرض نفسه للخسارة، والإنسان العاقل هو الذي كما قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن بعض الناس أنهم يفضلون العاجل عن الأجل. وهذا شيء لا يفعلونه في حياتهم التجارية، لا يفضل العاجل القليل عن الأجل الكثير؛ بل يضحى في هذا في سبيل ذلك. فهذا أكرر لعله هذا هو السبب في أن القرآن الكريم استعمل هذه الألفاظ أو هذه اللغة التجارية^(١).

فائدة: الأقوال والأعمال تدل على ما في القلوب،

نحن لا نستطيع أن نطلع اطلاعًا مباشرًا على ما في قلوب الناس ولكن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أرانا أن هنالك أقولًا وأعمالًا تدل على ما في القلوب، فإذا رأينا هذه الأعمال والأقوال استدللنا بها على ما في قلب الإنسان، من هذه الآيات قوله

(١) حلقة آية وقضية، قناة الرسالة، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٤٩).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، كَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لَنَا إِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرِنَا الْإِنْسَانُ شَيْئًا إِرَادَةً جَازِمَةً ثُمَّ لَا يَكُونُ مِنْهُ هُوَ فِي الظَّاهِرَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْإِرَادَةِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْلِسَ إِنْسَانٌ كَذَا وَيَقُولُ وَاللَّهِ أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَفْتَحَ الْبَابَ وَلَا يَتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانِهِ شِبْرًا، فَنَحْنُ نَسْتَدِلُّ بِعَدَمِ حَرَكَتِهِ عَلَى أَنْ قَوْلُهُ يَرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ كَذِبٌ؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ إِذَا كَانَتْ إِرَادَةً جَازِمَةً لَا بُدَّ أَنْ تَتَرَجَّمُ فِي صُورِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ.

وَكَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْإِرَادَةِ فَقَالَ عَنِ النِّفَاقِ أَوْ عَلَى الْأَقْلَى بَعْضُ أَنْوَاعِ النِّفَاقِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَآتَيْنَهُمْ فُلْمَقَرَفَهُمْ بِسَمْعِهِمْ﴾ [محمد: ٣٠] فَلَانُ وَفَلَانُ وَفَلَانُ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْعَلْ، قَالُوا إِنْ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَتَرَ النَّاسَ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، لَحْنُ الْقَوْلِ: هُوَ فَلَاتَاتِ اللِّسَانِ، إِنْ الشَّخْصَ إِذَا كَانَ مُنَافِقًا فَلَا يَسْتَطِيعُ أَبَدًا أَنْ يَخْفِيَ نِفَاقَهُ، هَذَا لَا بُدَّ أَنْ تَفْلُتَ مِنْهُ كَلِمَاتٌ وَكَذَا تَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ.

وَأَيْضًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ مَا فِي الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الظَّاهِرَةِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]، هَؤُلَاءِ الْكَافِرُ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ ﷺ قَالُوا: أَيُّهَا الرَّسُولُ تَرِيدُنَا أَنْ نَقْتَنِعَ فِدَعَ اللَّهِ يَكَلِّمُنَا أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ يَعْنِي غَيْرَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَتَيْتَ بِهَا ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، لِمَاذَا؟ ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فَتَشَابَهَ الْقُلُوبُ أَدَّى إِلَى تَشَابَهٍ فِي الْأَقْوَالِ وَفِي التَّعْبِيرَاتِ.

إِذَا رَأَيْنَا إِنْسَانًا يَقُولُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي هِيَ أَقْوَالُ الْكَافِرِ وَاسْتَدَلَّنَا

بها على أن ما في قلبه مثلما ما في قلوب أولئك الكفار، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [الذاريات: ٥٢]، كل هؤلاء الأمم كلما جاءها رسول قالوا ساحر أو مجنون، ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٣]، طبعاً لا يمكن أن يكونوا تواصوا؛ لأنهم من أمم مختلفة وفي أزمان مختلفة.

إذا ما السبب ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، فطغيانهم أدهم إلى أن يتهموا الرسول بأنه ساحر أو مجنون، روى ابن كثير عن أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما أسرَّ أحد سريره إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه» ونستفيد من هذه الآية والآيات التي هي مثلها ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، وقوله: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أنه إذا رأينا إنسان يسلك مسلك الضالين أو يقول كلام الضالين لا يشترط أن يكون قد أخذ هذا القول أو هذا الكلام ممن سبقه هذا لا يشترط.

كثير ما يُضَيِّع بعض إخواننا أوقاته في أن يبحثوا عن مصدر هذا الكلام الذي قاله هذا الشخص، فيقول هذا ماسوني أو من بروتوكولات الصهيون هذا كذا لا يشترط الإنسان قد يكون أصيل في الشر؛ لأن الذي يوحى بهذا هو الشيطان، والشيطان واحد كما أوحى إلى أولئك بأن يقولوا هذا الكلام الذي فيه ضلال بسبب أنهم كانوا طاغين؛ كذلك يمكن أن يوحى لكل من طغى أن يقول كلاماً مثل كلام أولئك الذين طغوا، كما أن أحوال القلوب تؤثر في الأعمال الظاهرة، فكذلك العكس الأعمال الظاهرة تؤثر في القلوب، وهذا من الأسرار

التي لا يعرفها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يعني لماذا قال الله مثلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صلوا هذه الصلوات في هذه الأوقات؟ ولماذا قال صلوها بهذه الطريقة؟ لأن الله يعلم أن هنالك علاقة بين حركات الإنسان الظاهرة وأحواله الباطنة، ونحن نعرف بعض هذا يعني لو إن إنساناً وقف في الصلاة ووضع يديه على خصره، أو أنه بدلاً من أن يسجد أستلقى على ظهره ورفع رجليه، هو نفسه يشعر حتى من غير صلاة، هو نفسه يشعر بأن حاله التي في قلبه مختلفة عن حاله وهو ساجد، وعن حاله وهو مستلقي على ظهره ورفع رجليه.

مرة سمعت رجلاً فاضلاً عليه رحمة الله كان من إخواننا الهنود يعيش في باريس، اسمه محمد حميد الله ألقى محاضرة قال فيها: «إن بعض الراهبات طلبن منه أن يلقي عليهن محاضرة عن الإسلام، فقال: ذهبت إليهن وألقيت عليهن محاضرة، وكان في أثناء المحاضرة استأذنتهن بأن أصلي، قلت لهن: إن وقت الصلاة قد جاء، فذهبت لأصلي، فقلن لي: هل تأذن أن نصلي معك؟ قلت لهن: صلوا، فقال: يعني تابعوه في الحركة، الشيء الغريب الذي قاله: قال: بعدما أنهينا من الصلاة جائه بعضهن أو إحداهن وقالت: أنا مؤمنة وكنت أريد أن أتقرب إلى الله، وأشعر أنني قريبة من الله ما شعرت بهذا إلا اليوم عندما صليت معك».

وذكرني هذا بحديث الرسول ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» فكل هذه الحركات التي يظن بعض الناس أنها ليست مهمة، وأنت

تضيع وقتك بشيء غير مهم، أو أن هذه قشور عندما يرى ناس مهتمين بحركات الصلاة كيف تقف وأين تضع يديك وكيف تسجد؟، يظن أن هذا لا علاقة له بجوهر الموضوع جوهر الصلاة، والحقيقة بأن له علاقة؛ لأن كما قلت: إن هنالك علاقة بين هذه الصورة الظاهرة والأحوال الباطنة، بل نحن نعلم الآن شيء ما كان يعترف الناس به قبل مدة، وهو أن الأحوال الباطنة تؤدي حتى إلى أمراض ظاهرة، فكيف بالأشياء التي لها علاقة بالدين والمسائل الروحية وغير ذلك^(١).

فائدة: مفهوم التربية الدينية أو الإرشاد الديني:

للتربية غايتين: غاية داخلية: وهي تنمية الفضائل في الإنسان بحيث يصير إنساناً حقيقياً ولا يتحول إلى حيوان، والتربية ممكن أن نقول أنها خارجية: وهي التي تُعد هذا الإنسان؛ ليكون كما يقولون عضواً صالحاً في المجتمع مواطناً صالحاً وهكذا.

وكلا الأمرين يمكن أن يحدث فيهما نوعاً من الغلو، فإذا غلونا في الإعداد الخارجي حولنا الإنسان إلى مجرد وسيلة لغاية، وأصبحت الغاية هي المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتصبح الغاية من التعليم كله هي أن يُعد الناس لهذه المؤسسات، فأصبح الفرد وسيلة كسائر الوسائل الطبيعية مثل البترول، فكما أنك تخطط لزيادة الإنتاج من هنا، وزيادة الإنتاج

(١) حلقة آية وقضية. قناة الرسالة، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٥١).

من هناك، تخطط أيضًا لزيادة الإنتاج البشري المناسب للإعلام، للاقتصاد، للسياسة لكذا.

فإذا غلونا في هذه الناحية أصبح كما قلت، أصبح الإنسان وسيلة ولم يعد غاية، وهذه هي التهمة التي تتهم بها الدول التي يسمونها الجماعية، وإذا غلونا أيضًا من ناحية أخرى ولم نهتم إلا بما يصلح قلب الإنسان ونفسه وروحه، يمكن أن يؤدي هذا أيضًا إلى عزل الإنسان عن المجتمع، وإذا ساد هذا التوجيه أو هذا الاتجاه في مجتمع من المجتمعات سيضعف بعد قليل، ستضعف مؤسساته، يضعف إنتاجه الاقتصادي، تضعف قوته العسكرية وكذا، وفي النهاية تضعف الناحية الروحية أيضًا؛ لأن ضعف هذه يغري الفاسدين بأن يكونوا هم المسيطرين عليها، فإذا سيطروا عليها أثروا في تربية الأفراد وضعفت الناحية الروحية.

فإذا لا بُد من توازن بين الأمرين نعد الإنسان ليكون إنسانًا حقيقيًا، ونعده أيضًا ليكون مواطنًا نافعًا مؤثرًا في المجتمع، أريد أن أركز بعض الشيء على الناحية الأولى كيف نعد الإنسان ليكون إنسانًا صالحًا؟ هذا يعتمد على تصورنا للإنسان، يقولون إن لكل نظرية سياسية أو تربوية تصورًا للإنسان إن قاله الكتاب أو لم يقله وهناك تصور يفترضه، فالتصورات منها ما يعتبر هذا الإنسان ولد شريرًا، ونحن نريد إذا أن نزبح هذا الشر ونغرس فيه الفضائل، فالفضائل كأنها شيء جديد يأتيه من الخارج، أو نقول إن هذا الإنسان محايد لا هو شرير ولا هو خير، لكن عنده استعداد إلى أن يكون شريرًا أو يكون خيرًا، أو نقول إن الإنسان يولد خيرًا.

وفي رأيي أن هذا هو التصور الإسلامي قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» فأنتم تلاحظون أن الرسول ﷺ لم يقل يؤسلمانه، قال: يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؛ لأن الفطرة هي الإسلام، والإسلام خير «فطرة الله التي فطر الناس عليها».

فالإنسان إذا بحسب التصور الإنساني يولد خيرًا ﴿وَفَقِّسْ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧]، ثم بعد ذلك ﴿فَأَلَمَّهَا جُورَهَا وَتَقَوَّيَهَا﴾ [الشمس: ٨]، لكنها تولد سوية، هذا التصور للإنسان هو الذي يحدد لنا الوسائل والطرق التي نسلکہا لتربية الشباب والأطفال وإرشادهم، فإذا كنا نعتبر الإنسان خيرًا، فإذا كل ما تأتي به من خير فسنعتبر أن له أصلًا في نفسه، نحن لا نأتيه بشيء جديد غريب عليه، فإذا كان هذا تصورنا فسنقول إننا إذا كلما عرضنا الإنسان لما يناسب هذه الفطرة - إذا احتفظ بفطرته سليمة طبعًا - كلما كان هنالك تجاوب بينه وبين هذا الذي رآه أو جربه، أعني أننا لن نحتاج إلى أن نقنعه به، لن نحتاج إلى أن نغرسه في نفسه؛ لأن أصله هنالك في النفس البشرية^(١).

فائدة: كيف نصلح الإنسان؟

كيف نصلح الإنسان ونوجهه لكي يكون إنسانًا صالحًا؟ الناس متفقون

(١) ندوة عن التربية الدينية أو الإرشاد الديني في الرياض شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس والدكتور أحمد العسال رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٢٥٤).

على أن أصل الصلاح هو في تصورات الإنسان؛ لأنه كما كان يقول علماؤنا: العلم إمام العلم، فالإنسان يتصرف في الحياة بحسب تصوراته، فإذا تغيرت تصورات الإنسان وتغيرت اعتقاداته، تغيرت بالتالي تصرفاته وتغير سلوكه، فما هو التصور الذي يصلح الإنسان، تسمعون الناس أحياناً يقولون كيف يفعل فلان كذا وهو إنسان مثقف، هذا العمل لا يليق بإنسان مثقف، ماهي الثقافة؟ لنفرض أن إنسان قرأ التاريخ، أو تعمق في الجغرافيا، أو درس الفيزياء، أو درس الفلسفة أيضاً، أو علم النفس، هل تظنون أن هذا وحده يدفعه لأن يكون صادقاً؟ لأن يكون أميناً؟ ما أظن.

فإذا يعني مجرد حشو الذهن للمعلومات ليس هذا هو المهم، وإنما المهم أن نبحث عن تلك الحقائق التي إذا استقرت في نفس الإنسان أثرت في سلوكه، فما كل حقيقة يعرفها الإنسان تؤثر في سلوكه فتجعله حميداً أو ذليلاً، هذه من المشكلات التي واجهت الاشتراكيين، كانوا يقولون إن صلاح الإنسان لا يعتمد على التصورات، وإنما يعتمد على الظروف الخارجية، الرأسمالية هي التي أفسدت الناس.

فإذا إذا أردنا أن نصلح الناس فما علينا إلا أن نغير هذا النظام الرأسمالي ونأتي بنظام اشتراكي، فإذا جاء النظام الاشتراكي صلح الناس، وجاء النظام الاشتراكي واستمر خمسين عاماً، والناس يسرقون، والناس يكذبون، والناس يدمنون، ويزداد إدمانهم وكذا.

فقالوا بعد ذلك: إذا الناحية الاقتصادية وحدها لا تكفي، لابد من ثقافة

إشترائية تتناسب مع المؤسسات الإشرائية، لكن ماهي الثقافة الإشرائية التي تجعل الإنسان صادقاً وأميناً وكذا؟، لا شيء فالحقائق التي إذا استقرت في نفس الإنسان غيرت سلوكه، وجعلته سلوكاً خيراً، هي الحقائق التي يركز عليها القرآن الكريم.

الإنسان خلقه الله تعالى موحداً «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فالتوحيد في أصل الإنسان، فإذا جاءه الدين من الخارج من الرسول ﷺ فيقول هذا كما قيل في تفسير الآية «اللَّهُ نُورٌ أَلْسَنُوتِ وَالْأَرْضُ مِثْلُ نُورِهِ كَشَكْوَةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ أَلْيَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [النور: ٣٦].

قال: الزيت هنا هو الفطرة، فبعض الناس تكاد فطرتهم تعرف الوحي قبل أن ينزل، يكاد زيتها يضيء ولولم تمسه نار، نور على نور، نور الوحي إلى نور الفطرة، فإذا جاءه هذا الهدى من الخالق ناسب ما عنده، وهذا الذي يكون إنسانيته، الإنسان مفطور على الخير، مفطور على التوحيد، مفطور على حب الصدق والأمانة، كراهية الكذب، كراهية الظلم، كل إنسان سواء كان أمريكياً أو روسياً فطره الله هكذا.

فهذه الأخلاق لا تأتي للإنسان من الخارج، وإنما بذورها وجذورها في النفس البشرية، فطره الله على حب الجمال والنظافة، لا تحتاج إلى أن تقنع الطفل أن العفونة شيء سيء، لا تحتاج إلى ذلك، لا تحتاج إذا أخذت إنسان إلى حديقة فيها أزهار ومياه، لا تحتاج إلى أن تقول له أفهم أن هذا شيء جميل،

شيء فطره الله عليه؛ كذلك إذا رأى المحسن إلى الناس عرف بفطرته أن هذا شيء حسن، فيأتي الدين ليقوي هذه الفطرة، فإذا الدين إنما جاء ليجعل الإنسان إنساناً حقيقياً يتناسب واقعه مع فطرته، فإذا لم يسلك سبيل الدين تحول إلى حيوان ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، تحول إلى حيوان، فإذا الحقائق التي ركز عليها القرآن الكريم هي الحقائق المناسبة مع إصلاح الإنسان، أولها التوحيد، والتوحيد تزاحمه الآن عقائد خرافية منتشرة في العالم الإسلامي، فلا بُدَّ من تحصين الشباب ضد هذه الخرافات يبين له الحق، ثم يحصن ضد هذه الأباطيل وتزاحمها، أيضاً الفلسفات المادية والإلحادية التي تأتي أحياناً ساخرة في شكل الفكر الشيوعي، لكنها تأتي مختفية في كثير من العلوم التي يدرسها الطالب، وقد لا يلتفت إليها حتى الأستاذ لكنها تسري في الطالب سريان السم من غير أن يشعر بذلك، فلا بُدَّ أيضاً من تحصين الشباب ضد هذه الأفكار التي يسمونها بالأفكار الهدامة، والتحصين يكون كما قلت بمعرفة العقيدة الصحيحة، وبمعرفة الردود العقلية الفكرية على هذه الأباطيل.

قال أحد العلماء المسلمين: من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم لم يكن أوفى الإسلام حقه، وأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه عندما بدأ غريباً كانت الدعوة إليه إلى أصوله ودعوة للحجج العقلية والحسية، فكذلك إذا صار غريباً مرة أخرى فينبغي أن يدعى إليه بنفس الطريقة، حتى بين المسلمين لا سيما الشباب الذين يتعرضون للفكر والثقافة الغربية، ثم الخلق كما قلت الخلق، الإنسان إذا كانت

فطرته سوية يكفي أن يراه في الإنسان، يكفي أن يقال له لهذا يأتي في القرآن الكريم كثيرًا بصيغة الأسئلة الاستنكارية، يعني إن هذا شيء معروف مثلاً ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، شيء معروف ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [٢٥] ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] هذا شيء لا يليق بالله تعالى، فكل هذه الأشياء ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] يعني أن هذه كان يكفي فيها العقل، لكن الخلق أيضًا تراحمه أشياء أخرى، تراحمه أخلاق فاسدة تأتي في صور مغرية، تأتي في شكل فنون، قصائد، قصص، مسرحيات، مسلسلات وهكذا، وتعرض على الإنسان نماذج من الخلق الهابط والخلق السيء، فهذا يراحم ذلك كما قال ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»؛ لأن الإنسان إذا كان مولود على الفطرة، ليس بمعنى ذلك أن هذه الفطرة ستقاوم كل شيء لا يمكن أن تضعف، ثم العبادة. الإنسان إذا تصور تصورًا صحيحًا قاده هذا التصور إلى الخلق الحسن ثم احتاج إلى العبادة؛ لأن العبادة هي بمثابة الغذاء لذلك التصور ولهذا الخلق؛ لأن الإيمان كما قال الأخ أحمد: «لا بُدَّ أن يكون حيًا والإيمان لا يكون حيًا بمجرد التصديق وبمجرد القراءة ولكن يكون حيًا حين يُعبر عنه في العبادة»؛ لأن لبَّ العبادة هو الشكر لله تعالى، فالعبادة نفسها هي في الحقيقة نوع من الخلق الفاضل، هي تعبير عن الشكر لله تعالى، وهذه العبادة أيضًا العبادة الصحيحة تراحمها الآن في العالم الإسلامي بدع وخرافات لا بُدَّ أيضًا أن يحصن الشباب ضدها، هذا بالنسبة كما قلت للتصورات

لابد للشباب من أن يوثق صلته بالقرآن الكريم؛ لأن كما قلت لكم القرآن يركز على الأشياء التي تصلح الإنسان يذكره دائماً بالموت، كثير من الناس قد لا يتذكرون الموت أبداً بل لا يحبون أن يتذكروه؛ لأن تذكره يظنون أنه ينغص عليهم حياتهم لكن تذكر الموت، الموت حقيقة لكن الإنسان يحتاج إلى أن يتذكرها، وكلما تذكرها كلما كان هذا أحسن له، ويساعده على أن يكون إنساناً فاضلاً، ثم كما قلت في المقدمة لابد من أن نعرض الشباب للأشياء التي تناسب مع فطرتهم، مثلاً تكلم الأخ أحمد عن القضايا الكبيرة والقضايا السامية، وهكذا الإنسان المفطور على الخير يحب الأشياء السامية ويكره الأشياء الهابطة، لكن إذا لم يجد إلا الهابطة صادفت قلباً خالياً فتمكنت، فأنت إذا أردت أن تنقذه من الأشياء الهابطة فلا بُد أن تعرض عليه الأشياء السامية، إذا لم ترده أن يشتغل بقضايا تافهة فأعرض عليه هذه القضايا التي ذكر الأخ أحمد طائفة منها، ثم لابد أيضاً أن نعرضه للفكر القوي في الحجج القوية؛ لأن الإنسان كلما تعرض للفكر القوي والحجج القوية كلما ازدادت ونمت هذه المَلَكة عنده أصلها في الإنسان، الأصول العقلية في الإنسان لكنها تنمو بأن يعرض الإنسان نفسه للفكر القوي ويفكر فيه ويقرأه، لابد أيضاً من أن يتعرض الإنسان نفسه للفن الرفيع ولا بُد أن يتعرض للترويح البريء إذا لم يجد فناً رفيعاً ذهب إلى الفن الهابط، إذا لم يجد ترويحاً بريئاً ذهب إلى الترويح السيء، لابد له أيضاً من الرياضة وأن تكون هذه الرياضة في حدود ما ينفعه، ولا تتحول هي نفسها إلى أيولوجية وإلى فكر وإلى شيء مزاحم للدين، وإنما يكون الغرض منها محدود، الغرض منه صحة بدن

الإنسان وهي نوع أيضًا من الترويح.

أهم من هذا كله أن يتعرض الإنسان للقدوة الصالحة، الإنسان قد يقرأ عن قيام الليل، ولكنه إذا بات مع إنسان في بيته وراءه يصحو في الليل ويصلي، هذا يؤثر أكثر فيه من القراءة، وهذه القدوة الصالحة تكون عن طريقين تكون عن طريق الاتصال بالصالحين الموجودين في الحياة، وتكون بالاتصال بالصالحين الماضين عن طريق الكتب، ويقولون إن الإمام أحمد كان يشجع الناس على قراءة سير الصالحين، لاسيما سيرة عمر بن عبدالعزيز من الذين جاءوا من بعد أصحاب رسول الله ﷺ، فقراءة سيرة الرسول ﷺ وسير الصحابة وسير العلماء يعني كل أنواع المفكرين والصالحين من المسلمين، من أشتهر بالعبادة تعرف عنه أنه شيئاً، من أشتهر بالفكر، من أشتهر بالعلوم، ومعرفة وتحليلات الأشياء الدنيوية، وهكذا يعرف الإنسان سيرتهم، هذا من أكثر الأشياء التي تؤثر في نفوس الشباب، وكل هذا من الدين، وكل هذا إرشاد ديني^(١).

فائدة: حقيقة الإنسان التي إذا حققها صار إنساناً :

حقيقة الإنسان التي إذا حققها صار إنساناً، وإذا لم يحققها كان شيئاً منسوخاً كالحيوان أو أقل من الحيوان، ما هي ؟ نقول إنها العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذا الجواب الذي يستطيعه كل

(١) ندوة عن التربية الدينية أو الإرشاد الديني في الرياض، شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس والدكتور أحمد العسال رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٢٥٤).

طفل من أطفال المسلمين إذا قيل له ما حقيقتك؟ أو ماهي فطرتك؟ ما هو أهم شيء ينبغي عليك أن تفعله؟ لقال عبادة الله هذا الجواب السهل على الإنسان المسلم بفضل رسالة نبينا محمد ﷺ، سؤال أتعجب الفلاسفة والمفكرين الذين لم يهتدوا بهدى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فما أكثر المقالات والكتب التي كُتبت في محاولة الإجابة على هذا السؤال، ما هي حقيقة الإنسان؟

فبعضهم قال: إن الذي يميز الإنسان هو استعماله للألات، بعضهم قال: كونه مخلوق ناطق، بعضهم قال: إن له عقل، بعضهم كالوجوديين وبعض الشيوعيين قال: لا حقيقة له، هو يولد ومعه عقله وإرادته وكذا، ثم هو الذي يقرر حقيقته فكل إنسان حقيقته في يده هو الذي يصنع نفسه بحسب ما يريد.

لكننا نقول: إن الإنسان له حقيقة، أو له فطرة، له أصل، والمطلوب منه أن يحقق هذه الفطرة، وأن يكملها، وأن يعترف بها، وأن يسير وفق مقتضياتها، إذا فعل هذا كان إنساناً، فالإنسان كلما عبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلما ارتقى في سلم الإنسانية يعني العبودية لله هي رقي بالإنسان، وكلما تمرد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونسي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلما انحط قدره فصار أقل من الحيوان.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ عَلَى النَّاسِ نِعَمٌ كَثِيرَةٌ، ولكن أكبر نعمه على الناس هي نعمة الهداية، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تفضل فجعل بذرة الهداية في القلوب هذه الفطرة التي تحدثنا عنها، ولكن الإنسان إذا ترك لفطرته وعقله وتفكيره لا يستطيع أن يصل إلى الدين الحق، فلذلك تفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فأَنعم عليه نعمة أخرى بإرسال الأنبياء لتكميل هذه الفطرة وتوضيح تفاصيل الدين الذي

وضع الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أساسه في هذه الفطرة؛ لأن الإنسان كما قُلت إذا ترك نفسه حتى لو كان إنسان مخلصاً، حتى لو كان سائرًا مع فطرته لا يستطيع أن يعرف كل أسماء الله وصفاته، بل ربما أخطأ في ذلك وربما نسب إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن حسن قصد شيئًا لا يليق بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا أول ما جاءت الأنبياء لتوضيحه، الأنبياء يدعون الناس إلى توحيد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، توحيد الله في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، ثم إن الإنسان مهما كان مخلصاً كما قلنا ومهما كان سائرًا مع فطرته، إذا ترك لنفسه لا يعرف حتى إذا أراد أن يعبد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يعرف ما هي الوسيلة التي يعبد بها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، قد يكون خاصاً في قلبه، ولكن الخضوع القلبي وحده لا يكفي، الإنسان يريد أن يعبر عن هذا الخضوع بشيء يعمله، ما هو هذا الشيء؟ إذا ترك لنفسه لا يستطيع.

وعندنا أمثلة كثيرة لأناس هداهم الله للإسلام، فحكوا لنا حكايات في هذا الموضوع، منها ما حكاه الأستاذ حميد الله أحد إخواننا الباكستانيين الذي يعيش الآن في فرنسا، قال: إن إحدى الراهبات حدثته علمها كيف تصلي، أظنها أسلمت علمها كيف تصلي، فعندما صلت وسجدت جاءت وقالت له: إنها كانت تشعر قبل ذلك بالعبودية لله، ولكنها لم تكن تدري كيف تعبر عن هذا الشعور، ولم تشعر في طول حياتها ورغم انقطاعها للعبادة أنها خضعت لله وذلت لله إلا بعد أن سجدت؛ وكذلك قال لي بعض إخواننا الأمريكيين الذين هداهم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى للإسلام: كانوا مسلمين اسما يتمون إلى جماعة أليجا محمد، سمعتم عنها، فكانوا يصلون ويعبدون عبادات اخترعوها من عند أنفسهم، فعندما هداهم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى

وعلمناهم الصلاة، جاء أحد أئمتهم كان يأمرهم وكان مقدماً فيهم، ولكنه لم يكن يصلي ولا يعرف الصلاة، فعندما علمناه الصلاة وكيف يركع، وكيف يسجد، وكيف كذا، جاء من صباح الغد وألقى محاضرة بكى فيها وأبكى الناس عن الصلاة فقط، وقال نفس الكلام التي قالتها هذه الراهبة، إنه ما شعر أبداً في خضوعه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعبادته له إلا بعد أن سجد.

فأنتم أيها الإخوة في نعمة كبيرة كلما سجدتم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تذكروا أن هذه من أكبر نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليكم، وتقرؤون في الدين أن أقرب ما يكون الإنسان من ربه وهو ساجد، فلو تركنا لعقولنا لما فكرنا في هذا السجود، ربما فكرنا بأشياء أخرى لا تعبر عن هذا الخضوع الذي فطرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه؛ وكذلك بالنسبة للمأكّل والمشارب والتصرفات مهما كان الإنسان مخلصاً، ومهما كان سائراً مع فطرته إذا ترك لعقله وتفكيره لكي يقرر ماذا يأخذ؟ وماذا يدع؟ وكيف يتصرف؟ بحيث يكون أكله وشرابه وتصرفاته مرضية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومتناسبة مع فطرته التي فطره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها، لما استطاع، ربما شرب الخمر فأبعدته عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ربما أكل الخنزير، ربما أسرف في الأكل، ربما عامل الناس بطريقة لا تليق، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تفضل فهدانا إلى الإيمان بتفاصيله، وإلى العبادة الحقّة وإلى التصرفات والمأكّل والمشارب التي تتناسب مع فطرتنا، هذا كما قلت والذي جاء به الأنبياء جميعاً.

نلخص الآن أيضاً في صورة موجزة هذا الدين الذي جاءنا به الرسول ﷺ، فهذا الدين ككل الأديان بذرتة في قلوبنا، فإذا مثلناه بشجرة نقول إن قلوبنا هي

الأرض، وإن الفطرة هي هذه البذرة التي وضعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هذه الأرض، وإن الجذور التي تخرج من هذه البذرة هي الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أركان الإيمان هذه هي الأساس، فكما أن الشجرة لا تصلح بغير بذرة وبغير أرض وبغير جذور، فكذلك لا دين بغير قلب، وبغير بذرة من الفطرة، وبغير جذور التي هي امتداد لهذه البذرة التي وضعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي القلب، ولكن هذه البذرة لكي تنمو محتاجة إلى ماء، محتاجة إلى شيء يغذيها، والغذاء هو العبادات.

فديننا لا يقول لنا آمنوا بالله فقط، كما يقول الناس عن الفلاسفة إن دينهم دين فكري فقط، يقول إن الله موجود أو إن الله واحد، لكن ليس هذا هو المقصود فقط، وإنما المقصود أن يكون هذا إيماناً، أن يكون إيماناً حياً؛ لأن الإيمان الحي هو الإيمان الذي ينفع، الإيمان الذي ينتج عنه العمل الصالح، كما أن البذرة ينتج عنها الساق والفروع والثمار، ولكي يظل إيماننا هذا حياً فلا بُدَّ من ذكر الله تعالى، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكون بالذكر باللسان، كما نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ويكون بالعبادة، فالعبادة ذكر، ويكون بالزكاة، والزكاة ذكر لله تعالى، ويكون بالحج، فكل هذه وسائل أو طرق نعبر بها عن شكرنا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فنذكره، فيظل إيماننا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حي، وخطورة إهمال العبادات أنها قد تؤدي إلى ذهاب الإيمان؛ لأننا قلنا إن العبادات وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو بمثابة الماء الذي يغذي شجرة الإيمان، فإذا طال على الإنسان الأمد ولم يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإن إيمانه نفسه قد يذهب؛ لأن الإيمان لا يكفي مجرد الإقرار أن يقول الإنسان

يلسانه إن الله موجود، أو إن الله واحد، أو إن الأدلة على وجود الله ووحدانيته هي كذا وكذا وكذا، لأن هذا الإيمان يحتاج إلى حراسة؛ لأن هنالك شياطين من الإنس والجن تجتال الإنسان عن دينه فلا بُدَّ من هذه العبادة، لكننا نعيش في مجتمع يعني لو كنا أفرادًا، لو كان كل واحد منا يعيش فردًا ربما كفاه الإيمان والعبادة، حتى الزكاة لا يكون لها مكان لكننا نعيش في المجتمع.

إذا لا بُدَّ لنا من أن يكون تنظيمنا الاجتماعي متناسبًا مع إيماننا ومع عبادتنا، هذه أيضًا أهمية التنظيم الاجتماعي ما يسمى الآن بالتنظيم الاجتماعي، يعني ماذا نأخذ من أغنيائنا لنعطي فقراءنا؟ كيف يكون نظامنا السياسي؟ كيف يكون نظامنا الاجتماعي؟ ما هي حقوق جيراننا علينا؟ ما هي حقوق الدول الأخرى علينا؟ كيف ننجب أطفالنا؟ ما هي العلاقة بين الرجل والمرأة وهكذا؟

فالناس عندما يكونون مجتمعًا يحتاجون إلى كل هذا، فإذا لم يكن لهم دين اخترعوا شرائع لأنفسهم من عند أنفسهم وتخطوا فيها، مرة يحرمون وأخرى يحللون ما حرموا، ثم يعودون فيحرمون، كما يفعل الآن الإنجليز ألغوا عقوبة الإعدام عن القاتل، ثم ظهر لهم أن هنالك مشاكل كثيرة تنتج عن هذا، فهم الآن يفكرون في العودة إلى تقرير هذه العقوبة وهكذا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَضَعْنَا تَشْرِيْعًا نُنْظِمُ بِهِ حَيَاتِنَا الْاجْتِمَاعِيَّةَ.

ويمكن أن نقول إن لب هذا التشريع هو أن ينظم حياتنا بحيث تعيننا على ذكر الله، وبحيث تقل الفتن والمعوقات عن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني إن المقصود من التنظيم الاجتماعي أن ييسر لنا عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنتم كما تعرفون من

تجربتك في هذا البلد أن مجرد إقامة حدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَأْتِي للناس بالأمن، فإذا أمن الناس ساعدتهم هذا على عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الإنسان إذا كان مشغولاً طول الوقت بحراسة نفسه والتفكير في اللصوص والمجرمين وكذا وكذا يكون مشغول البال، فهذا هو ما يساعده على عبادة الله، جاءنا في تشريع الزكاة؛ لأن الإنسان إذا كان فقيراً أيضاً هذا الفقر قد يشغله عن عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذلك نظم لنا طريقة الزواج كيف نتزوج؟ وكيف نربي أولادنا؟ وكيف نطلق وكيف وكيف؟ لأننا إذا لم ننظم حياتنا بطريقة تجلب لنا الأمن والسعادة فإن هذا أيضاً قد يشغلنا عن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا المقصود من هذه التنظيمات كلها يعني بعض المقصود منها أن تساعدنا على عبادة الله^(١).

فائدة: ثمرة تطبيق شرع الله:

إذا آمنت الأمة وطبقت شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينعم عليها بالخير المادي إلى جانب هذا الخير الروحي والقلبي، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْمَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، فالخير المادي أيضاً هو نتيجة الالتزام بهذا الدين، طبعاً هذا لا يعني أن كل من أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم فقد أنعم عليهم؛ لأنه راضٍ عنهم يعني العكس ليس بصحيح، إذا آمنت الأمة جميعاً أو قل معظمها بقدر استمساكها بالدين إن شاء الله

(١) التعريف بالإسلام وبيان حقيقته، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض، وعلق عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رَحِمَهُ اللهُ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٢٦٠).

يفيض الله عليها من الخيرات، ولكن العكس ليس صحيحاً، يعني ما كل أمة أفاض الله سبحانه وتعالى عليها من الخيرات المادية فمعنى ذلك راضٍ عنها؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

فالنعم قد تكون في بعض الأحيان مجرد امتحان وقد تكون مقدمة للهلاك؛ لأن الأمة التي تكفر بنعم الله سبحانه وتعالى قد يمتحنها الله سبحانه وتعالى أولاً بأن يمسك عنها بعض هذه النعم، فإذا هي تذكرت ورجعت، رجع إليها النعم، وإذا هي تمادت ولم ترجع فإن الله سبحانه وتعالى قد يفتح عليها بنعم جديدة أكبر من النعم التي كانت من قبل، ولكن هذه النعم الأخيرة تكون مقدمة لهلاكهم فإذا العكس ليس صحيحاً، وأما الثمرة الكبرى فهي رضى الله سبحانه وتعالى وجزاؤه في الآخرة ﴿وَبُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، هذا هو الجزاء وهذه هي الثمرة التي ما بعدها ثمرة (١).

فائدة: مقارنة الإسلام بالأديان الأخرى:

يمكن أن نقسم ما في العالم الآن ما يسمى بالأيديولوجيات، يعني المذاهب والملل والنحل التي ينتمي إليها الناس، لنقسمها أولاً إلى نوعين: نوع ينكر وجود الخالق، ونوع يقر بالخالق، فالإسلام مع النوع الذي يقر بالخالق؛ لأن إنكاره

(١) التعريف بالإسلام وبيان حقيقته، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض، وعلق عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رَحِمَهُ اللهُ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٦٠).

للخالق أمر يأباه العقل يقول القرآن الكريم ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كُلٌّ لَا يُوَفِّقُونَ ﴿[الطور: ٣٥-٣٦].

يقول الذي ينكر وجود الخالق: من أين جئت؟ خلقت من غير شيء خلقت هكذا من فراغ لا يمكن، العقل يقول لا مستحيل أم هم الخالقون أم أنت خلقت نفسك، هذا مستحيل إذا لا بُدَّ لك من خالق، فإذا نترك هؤلاء المنكرين لوجود الخالق كالشيوعيين والملحدين وبعض الأفراد من الغربيين، نأتي للذين يقرون بالخالق نجد هؤلاء أيضًا قسمين: قسم يخترع دينًا من عنده كالبوديين، وقسم يقول دينه هذا من عند الله، فنحن مع الذين يقولون: إن دينهم هذا من عند الله؛ لأنه لا فائدة من دين يخترعه الإنسان؛ لأن المقصود أن يعبد الله بحسب ما يرضى الله سبحانه وتعالى. فإذا جئنا هؤلاء الذين يقولون: إن دينهم من عند الله، وجدنا فضلنا بحمد الله وسبحانه علينا.

فأولاً: نجد أن دعواهم ليس عندهم عليها دليل، نجد عندهم كتب يقولون أنها من عند الله، ولكن ليس عندهم دليل على أن كل ما في هذه الكتب هو مما جاء به عيسى رسول الله، أو موسى رسول الله، ونحن عندنا من الأدلة التاريخية ما يثبت أن ما عندنا من قرآن وسنة هو الذي جاء به محمد ﷺ، ثم إن لب الدين هو الإيمان بالله، نجد أن أديانهم فيها من الشرك ما يعرفه الطفل من أطفال المسلمين، فهي كتب متناقضة تقول مرة: إن الله على كل شيء قدير، وتقول مرة: إنه لا يستطيع أن يفعل كذا وكذا، تقول مرة: إنه خالق كل شيء، وتقول مرة: إن فلان ابن الله، كيف يكون خالقًا لكل شيء ويكون فلان ابنه؟ لأنه إذا كان فلان أبنا له فهو لم يخلقه،

يعني الإنسان لا يخلق الشيء لا يخلق ابنه، الإنسان المنصف يكفيه أن يقارن بين القرآن وبين هذه الكتب في أمرين اثنين فقط، وهما الكلام عن الله والكلام عن رسل الله.

إذا قرأت القرآن الكريم لا تملك إلا أن تشعر بأن هذا الذي يحدثك هو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنك لا تجد في كتاب غير القرآن من صفات الكمال والجلال لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ما تجده في القرآن الكريم، كل الكتب الأخرى سواء كانت من اختراع الفلاسفة، أو مما ينسبه النصارى واليهود إلى أنبيائهم وهم بريؤون منهم، كل هذه الكتب لا تصف الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بصفات الكمال التي نجدها في القرآن الكريم، فيكفي فقط أن نقارن هذه الكتب بالقرآن الكريم في هذه الناحية، لنقول إن القرآن كلام الله وإنها ليست كلام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

والناحية الثانية: أن نقارن بين ما تقول هذه الكتب عن أنبياء الله وبين ما يقوله القرآن عن أنبياء الله، فنجد فيها غلوًا في ناحية وتفريط في ناحية النصارى، غلوًا فرفعوا نبي الله عيسى إلى مرتبة الإلهية، واليهود فرطوا فنسبوا إلى أنبياء في كتبهم الذي يعتبرونها أنها كتب مقدسة، نسبوا إليهم من الجرائم ما لا تنسبه إلا إلى فئة ضاله شاذة من البشر، يعني حتى لا ينسب إلى المجرمين العاديين، ولكننا نجد في القرآن الكريم يقول لنا من ناحية إن هؤلاء الأنبياء جميعًا بشر جميعهم عبيد الله، ونجده من الناحية الأخرى يقول لنا: أنهم مصطفون وأخيار وأنهم معصومون وأنهم أحسن البشر وسادة البشر، وهذا هو الذي يليق بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، كيف تقول إن الله يعلم كل شيء ثم تقول إنه عاجز على أن يختار من هؤلاء البشر رجالًا صالحين

يحملهم رسالته، كيف يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يختار أناس يكذبون ويترنون ويغشون؟ كيف يختار هؤلاء ليكونوا رسله إلى الناس؟ فإذا قارننا ديتنا بهذه الأديان في هاتين المسألتين فقط، لبرز لنا فضله على هذه الأديان^(١).

فائدة: تفريط كثير من المسلمين في الالتزام بالإسلام،

هذا الدين مع الأسف مظلوم الآن من المنتسبين إليه فهم لم يوفوه حقه، ففي ناحية العبادة فرطوا فيه، هذا الدين كما أصله هو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذاته وأسمائه وصفاته، لكن المسلمين اليوم وقعوا في أنواع من الشرك، عوامهم وقعوا في الشرك المعروف الذي وقع فيه الناس من قبلهم أن يعتقدوا في الأولياء، أو في الأموات، أو في الأشجار، أو الأنهار، أو في السحرة، أو في كذا وكذا، أو في الأشياء التي جاء هذا الدين بالنهي عنها، وعن أن يشرك الإنسان هذه الأشياء بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأما حكامهم فقد وقعوا أيضًا نوع آخر من الشرك، وهو أن كثيرين منهم ظنوا أن من حقهم أن يشرعوا للناس، ونحن نعلم أن حق التشريع إنما هو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا ينبغي للناس أن يقولوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام، ولكن الناس الآن أيضًا في العالم الإسلامي وقعوا في هذا، فهم إما الحاكم بمفرده أو برلمانه أو مجلس شعبه يجتمع ويقرر أن هذا الأمر كذا، وأن هذا

(١) التعريف بالإسلام وبيان حقيقته، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض، وعلق عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رَحِمَهُ اللهُ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٦٠).

الأمر ليس كذا، ولا يلتفت إلى ما جاء في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، فإذا أعطى الناس أنفسهم هذا الحق رأوا أن من حقهم أن يشرعوا، فهذا نوع من الشرك.

وفي العبادات أيضًا ضل الناس عن الطريق القويم، فخلطوا عباداتهم بكثير من البدع، والإنسان ليس من شأنه أن يحزن ويكي على هذه الأمور، ولكن نذكر أنفسنا بهذه لكي نعمل عملاً إيجابياً، ينبغي على كل منا أن يحاول بقدر ما يستطيع، وبقدر ما في وسعه أن يعمل لإعلاء كلمة الله، يعمل لإعلاء كلمة الله، يبدأ في نفسه ويصحح عقيدته ويصلح عبادته ويصلح أخلاقه، ويتزود من معرفة هذا الدين بقدر ما يستطيع، ثم يجاهد لإعلاء كلمة الله بدعوة الناس إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْمَجَالِ الَّذِي يَسْتَطِيعُهُ، بعضنا يستطيع أن يدعوا في مجال العقيدة، بعضنا له موهبة على أن يذكر الناس بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويصحح عباداتهم، بعضنا عنده مقدرة على أن يتكلم في المسائل السياسية وأن يدعوا الناس إلى الحكم بما أنزل الله، وبعضنا يستطيع أن يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله.

المهم أن كل منا يعمل كل ما في وسعه، ربما يستطيع واحد منا أن يجمع بين كل هذه الأشياء فهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن ينبغي أن لا نتنازع، وألا نفسد أعمال بعضنا، كل إنسان يدعوا إلى خير أو يعمل خيراً فهو في مصلحتنا وفي مصلحة ديننا، وهو أخ لنا ينبغي أن نشجعه، وإن كنا لا نستطيع أن نعمل العمل الذي وهب نفسه له، ولكننا نستطيع أن نعمل عملاً آخر هو أيضاً عمل خير، إذا فعلنا هذا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإننا نرى الآن في العالم كله وفي العالم الإسلامي

مبشرات كثيرة في العالم تجعلنا نأمل في أن الناس سيرجعون إلى هذا الدين، وأن هذا الدين سيظهر بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسيُنتشر حتى في البلاد غير إسلامية وسيعود في البلاد الإسلامية، ولكن هذا ينبغي أن لا تكون مجرد أمان، بل ينبغي على كل منا أن يعمل ما في وسعه لكي يتحقق هذا الأمر^(١).

فائدة: معنى الآية الكريمة لو أراد الله أن يخذ ولداً لأصطفى مما

يخلق ما يشاء:

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، والقضية مهمة جداً هي الدعوى بأن الله ولداً، كنا ونحن في البلاد الغربية نحتج على النصارى بحجج عقلية، نقول لهم: إذا كنتم تؤمنون بأن الله خالق كل شيء فليزكم أن تقولوا إنه لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأنه إذا كان خالقاً لكل شيء فالوالد لا يخلق ولده، فالولد هذا من أين جاء إذا قلتم إنه ولده يعني أن الله يلد كما يلد البشر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا الولد يجب أن يكون قد خلقه خالق آخر غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا إما أن تقولوا إن الله خالق كل شيء فليزكم أن تقولوا لا ولد له، وإما أن تقولوا إن له ولد فليزكم أن تقولوا إن هنالك خالقاً غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا ملخص الحجة التي كنا نقولها.

(١) التعريف بالإسلام وبيان حقيقته، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض، وعلق عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٦٠).

وتعلمون أن بعض النصارى مختصون بالبحث عن الشبهات وكذا التي يردون بها على المسلمين، وبعضهم متخصصون باللغة العربية ويقرأون القرآن الكريم فأثاروا على بعض المسلمين شبهه، قالوا لهم إنكم تقولون إنه يستحيل على الله أن يتخذ ولدًا، لكن هذه الآية تقول: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٤].

فكان الخلاف بيننا وبينكم أيها المسلمون ليس هو في مبدأ اتخاذ الله ولدًا، وإنما هو، من هو هذا الولد؟ الآية تقول: ﴿لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني معناها كما ورد في بعض التفاسير ليس يلزم أن يكون عيسى، ولا أن يكون كما قالت العرب: الملائكة بنات الله، فاحتجوا على المسلمين بهذا ثم رجعنا إلى التفاسير، فلم نجد في كثير منها ما يشفي الغليل، وأضرب لكم مثلًا في بعض التفاسير، التفاسير الكبيرة والعظيمة التي يرجع إليها الناس.

مثلًا صاحب (الجلالين) يفسر هذه الآية يقول: «لو أراد الله أن يتخذ ولدًا كما قالوا لاتخذ الله ولدًا، لاصطفى مما يخلق ما يشاء، وأتخذه ولدًا غير من قالوا أظنهم الملائكة، أو عزيز أو المسيح تنزيهاً له سبحانه وتعالى عن اتخاذ الولد.

فهذه تؤكد شبهة النصارى، يعني كأن (الجلالين) يقول: «لو أراد أن يتخذ ولدًا لكان ولد غير هذا الذي قاله النصارى».

حتى ابن كثير المفسر العظيم، الإمام العظيم يقول: «ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعموا جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى، فقال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا

يَسْأَلُ ﴿١﴾، أي كان الأمر على خلاف ما يزعمون، ثم قال: «وهذا شرطه لا يلزم وقوعه ولا جوازه».

يعني الآية تقول: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَسْأَلُ ﴿١﴾﴾، وابن كثير يقول: «هذا شرطه لا يلزم وقوعه ولا جوازه» بل هو محال ويجوز عقلاً، يعني تعليق الشرط على المستحيل.

أما الذي فسر الآية يشفي الغليل فعلاً، هو المفسر العظيم ابن عطية فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ معناه اتخاذ التشریف والتبني، أكرر هذا الكلام ليس لاتخاذ يعني ولداً، في الحقيقة: لو أراد أن يتخذ ولداً اتخاذ التشریف والتبني «وعلى هذا يستقيم قوله لا صطفى مما يخلق ما يشاء»؛ لأنه إذا كان ولداً مولوداً فلا مجال للكلام اصطفاً مما يخلق؛ لأنه إذا كان مصطفىً مما خلق الله فلا يكون ولداً حقيقياً، هذا معنى كلام ابن عطية.

وأما اتخاذ المعهود للتولد فمستحيل أن يتوهم في جهة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يستقيم عليه، معنى قوله: ﴿لَاصْطَفَىٰ﴾؛ لأنه لا يمكن أن تقول إنه ولده، وإنه اصطفاً لا يستقيم الكلام، لا يستقيم مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، لفظ يعم اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاء، أكرر هذين اللفظين: اتخاذ النسل هو الذي نفاه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ وَكَمْ يُولَدُ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص: ١-٣]، يعني لا يمكن أن يكون له ولد حقيقي.

وأما اتخاذ الاصطفاء: فهو هكذا الأول: مستحيل كما قلنا، والثاني: ليس

مستحيلًا عقلاً، إن الله يخلق ثم يصطفي مما خلق بعض مخلوقاته، ويقول إن هذا ابن لي فكما قال ابن عطية: الأول: مستحيل عقلاً، والثاني: معروف بخبر الشرع، إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يمكن أن يكون.

ومما يدل على أن المعنى هنا الاصطفاء والتبني قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَخْلُقُ﴾ كما قلته أنا، أي من موجوداته ومحدثاته ثم نزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما لا يكون مدحاً، يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منزّه عن أن يكون له ولد سواء أن كان ولداً بالاصطفاء كما في هذه الآية، أو كان ولداً بالنسل.

ومما يدل على صحة كلام ابن عطية أن عبارة «اتخذ ولداً» جاءت فعلاً في القرآن الكريم في ولد الاصطفاء، مثلاً قوله سبحانه: ﴿قُرِئَتْ عَيْنٌ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلِداً﴾ [القصص: ٩]، وظاهره هنا أنه ليس ولد النسل؛ لأنه كان موجوداً وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على لسان الذي اشترى يوسف قوله لأمراته: ﴿اَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلِداً﴾ [يوسف: ٢١].

ومسألة أن الله ولداً هذه العقيدة هي من أكبر المشكلات حتى الآن عند النصاري، والإنسان يعرف الحكمة في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل هذه هي المسألة الأولى، هي التي يتكلم عنها بالنسبة للنصارى عندهم انحرافات كثيرة، لكن المسألة التي ركز عليها كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي هذه المسألة، فكثير من النصاري يتركون دينهم بسبب هذه المسألة، يعني هم يرون بعقولهم إنه لا يمكن أن يكون الله خالقاً، وأن يكون له ولد في الوقت نفسه، وكثير من الذين أسلموا قالوا لنا إن من أهم أسباب إسلامهم أنهم عندما وجدوا أن القرآن الكريم يفي نفيًا باتاً أن يكون لله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَد، فهذه العقيدة السليمة الصافية التي تنزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ هِيَ الَّتِي جَذَبْتَهُمْ إِلَى هَذَا الدِّينِ (١).

فائدة: أصل الخلقة:

هل الإنسان في أصله شرير؟ أم أنه خُلِقَ محايداً بين الخير والشر؟ أو أنه في أصله خير، وبكل من هذه الأقوال قال بعض الناس من المسلمين ومن غير المسلمين، ففرقة من النصاري تقول: أنه يولد شريراً؛ لأنه يولد وارثاً لخطيئة آدم، فالشر جزء من خلقتهم، وبعض المسلمين أو حتى من بعض علماء المسلمين قالوا: إن الإنسان شرير واستدلوا على ذلك بآيات مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) [المعارج: ١٩-٢١].

والذين قالوا إن الإنسان يولد محايداً استدلوا بآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) [الشمس: ٧-٨]، فاعتبروا أن الإنسان يولد وقد ألهم هذا الطريق وهذا الطريق، فإن شاء اختار طريق الفجور، وإن شاء اختار طريق التقوى، ولكن الحقيقة هي أن الإنسان يولد خيراً، وهذا هو الذي تدل عليه هذه الآية الكريمة؛ لأن الآية تقول إن هذا الدين والدين خير ما في جدل، ما في ذلك شك، وأن هذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها من أحسن من رأيت. وقد علق على هذه الآية تعليقاً يتناسب مع هذا المعنى الذي قلناه هو الإمام ابن كثير فقال رَحِمَهُ اللَّهُ ومعناه: «أنه يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ساوياً بين خلقه جميعاً في الفطرة

(١) آية وقضية، قناة الرسالة، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٧١).

على الجبل المستقيمة، لا يولد أحد إلى على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك»،
يعني كل الناس حين يولدون بغض النظر عن كون آبائهم مسلمين أو نصارى أو
يهود أو شيوعيين، أو كذا هو حين يولد يولد على الفطرة المستقيمة، ولا تفاوت
بين الناس في ذلك.

واستدل أيضًا بالحديث الذي في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه
أو يمجسانه»، انظر ما قال: يجعلانه مسلمًا، إنما قال: فأبواه يهودانه أو ينصرانه
أو يمجسانه، فكان التهويد والتنصير والتمجيس هي انحراف عن هذه الفطرة.

وكما جاء في (صحيح مسلم) كما قال ابن كثير عن عياض ابن حمار: إن
رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين
فاجتالهم عن دينهم»، هذا معناه أن الإنسان إذا ترك على فطرته ولم يتدخل فيها
شيء من الخارج، سواء كان من المجتمع أو من الأبوين أو من الشياطين، إنه إذا
ترك على فطرته فإنه يكون إنسان موحدًا لا يشرك بالله شيئًا، فكل انحراف يحصل
له هو بسبب هذه العوامل الخارجية، وأنا في رأيي أن هذا هو الأمر الذي يتناسب
مع حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدله؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يمكن أن يخلق الناس
شريرين، ثم يقول لهم كونوا خيرين لا يمكن أن يخلقهم محايدين بين الخير والشر
ثم يقول لهم لا كونوا خيرين؛ لأنه لكي يختار ويميز بين الخير والشر، لا بُدَّ أن
يكون له معيار.

وهذا المعيار لا بُدَّ أن يكون في فطرته، وهذا المعيار لا بُدَّ أن يكون هو الخير

الذي فطره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ، لكن هنالك نصوص فهم منها بعض الناس أو حتى بعض العلماء فهمًا لا يتناسب مع هذا الذي قلناه، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُمْ كَافِرٌ وَبَيْنَكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصُورَكُمْ فَاتَّخَذَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿[التغابن: ٢-٣].

فهم بعض الناس من الآية أن الناس منذ أن يخلقهم الله تعالى يخلقهم بعضهم كافر وبعضهم مؤمن، يعني كأن هذا في أصل خلقه الإنسان، هؤلاء يولدون كفار وهؤلاء يولدون مسلمين، وهذا ليس هو التفسير الصحيح كما ذكر ابن كثير أيضًا، وهو يعلق على آية أخرى في كتاب الله قال: «إن هذا في ثاني الحال»، شوف العبارة هذه «ثاني الحال»، يعني فمنكم كافر، ومنكم مؤمن، هذا في «ثاني الحال»، أول الحال «أنهم على الفطرة بعد أن يولدوا على الفطرة ينقسمون، وبعضهم يستمر على هذه الفطرة التي فطره الله عليها، فيكون مؤمنًا وبعضهم ينحرف عنها فيكون كافرًا».

وأثناء قراءتي للآية في الأيام الأخيرة وأنا أعد لهذا البرنامج، لاحظت أن الآية التي بعدها تؤكد هذا المعنى؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصُورَكُمْ فَاتَّخَذَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]. فقلت في نفسي: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يمكن أن يخلق أجسادنا في أحسن صورة، ولكن لا يخلق أرواحنا في مثل هذه الصورة الحسنة، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد خلق أجسادنا في أحسن صورة، فمن باب أولى أن يخلق قلوبنا وأرواحنا أيضًا في أحسن صورة، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الَّذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ [الأعراف: ٢٩]، فهذا هنا فسر ابن كثير الآية بالكلمات التي قلتها لكم وهي أن هذا في ثاني الحال^(١).

فائدة: أسباب غفلة المسلمين عن دينهم:

أسبابها كثيرة منها:

(١) أن المسلمين بعد أن ضعفوا واستعمروا أعجب كثير منهم بهذا المستعمر، وكما يقولون: «الناس مولعون بتقليد الغالب»؛ لأنهم يقولون لولا أن فيه بعض الفضائل وبعض المميزات لما استطاع أن يهزمنا وأن يغزونا، فلذلك أعجبوا برغم أنهم استعمروا ولكنهم أعجبوا بهذا الذي استعمرهم، فكان هذا سبباً واحداً من أسباب غفلتهم عن الدين، وكان هؤلاء المستعمرون في ذلك الوقت مفتونين جداً بالعلوم الطبيعية، وكان الأوروبيون والأمريكان وما أشباههم في ذلك الوقت يظنون أن هذه العلوم ستحل محل الدين، وأنها ستجفع حيث لم ينجح الدين في إسعاد البشرية وحل مشكلاتها، ففتنوا بالعلم الطبيعي فتبعهم في ذلك كثير من المسلمين.

(٢) ومن أسباب ذلك أيضاً قلة المعرفة بالدين؛ لأن قلة المعرفة هذه هي التي كانت من أسباب استعمار المسلمين أنفسهم، ولكنها بعد الاستعمار زادت؛ لأن الغربيين غيروا مناهج العلوم وسيطروا على وسائل الإعلام، وأتاحوا للشباب فرص من العلوم الدنيوية، فغفل الناس عن دراسة العلوم الشرعية فكان هذا أيضاً

(١) آية وقضية، قناة الرسالة، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٧٤).

من أسباب تلك الغفلة^(١).

فائدة: حقيقة الإنسان:

إن للإنسان حقيقة هي التي تمثل جوهره وهي التي نسميها إنسانية الإنسان، هذه الحقيقة المعنوية الباطنة في الإنسان ليست دائماً هي الحقيقة الواقعة المتمثلة في سلوكه الواقعي، فحين يكون سلوك الإنسان الخارجي صورة لحقيقته الداخلية يكون الإنسان إنسان حقيقياً، ويكون المجتمع المتكون من هؤلاء الأفراد مجتمع إنسانياً، وحين تكون حياة الإنسان واقعية مخالفة لحقيقته الباطنية، نقول عنه بالتعبير الحديث إنه إنسان مغترب إنسان لم يجد نفسه لم يجد ذاته، فبقدر ما تكون حياة الإنسان الواقعية مطابقة لحقيقته الإنسانية يكون إنسان، وبقدر ما تكون مخالفة لها يكون مغترباً عن ذاته ويكون أقل من الإنسان^(٢).

فائدة: تصور بعض النظريات لحقيقة الإنسان:

هنالك أناس مفكرون في شتى أصناف العلوم، ينكرون أن للإنسان حقيقة ويقولون ليس هنالك شيء اسمه الإنسان الحقيقي، إن الإنسان كالعجينة تصنع منها الظروف الخارجية ما تشاء، ظروفه الاقتصادية، ظروفه السياسية، مناهجه

(١) النصحوة الإسلامية بين مفهومين، محاضرة ألقاها الدكتور في منى بمكة المكرمة في موسم الحج.

(٢) الطريق إلى المجتمع الإنساني، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الموسم الثقافي لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الكويت، بالتعاون مع جامعة الكويت.

التعليمية، تطوره العلمي، هذا هو الذي يصنع الإنسان فكلما تغيرت هذه الظروف تغير نوع الإنسان، ولكن نسأل هؤلاء أكل إنسان صنعته ظروف كهذه كإنسان آخر صنعته ظروف مخالفة هل -على افتراض أن الظروف تصنع الإنسان-، هل الإنسان الذي تصطنع منه الظروف شخصاً أناً حاقداً متشائماً مليئاً بالكراهية، هل هذا الإنسان كإنسان آخر محب للخير ودود متواضع إلى آخره؟ ما أظنهم سيقولون نعم؛ لأنهم إن قالوا؛ كذلك فإذا لا نستطيع نفرق أن نقول أن هذا الوضع الاقتصادي أو هذه العلاقات الاقتصادية أحسن من تلك، أو هذا النظام السياسي أحسن من ذلك، أو هذا المنهج التربوي أحسن من ذلك، ولكن الواقع أننا نفرق بين كل هذه الأشياء، فما هو مقياسنا في التفرقة؟ لماذا نعتبر هذا المنهج التربوي مثلاً أحسن من المنهج الآخر.

إننا نقول: إن هذا يناسب الإنسان وذلك لا يناسبه، وإذا فنحن نفترض أن هنالك إنساناً حقيقياً نببحث عن الأوضاع والمناهج التي تناسبه، ونبتعد عن الأوضاع والمناهج التي لا تراها تناسبه، نأتي الآن إلى الذين يؤمنون بأن للإنسان جوهرًا، هؤلاء أيضًا يختلفون في ماهية هذا الجوهر، ما هو هذا الجوهر الإنساني؟ ما هو الشيء الذي يكون إنسانية الإنسان؟ ولكنهم لحسن الحظ لا يختلفون في الآثار الناتجة عن تحقيق هذا الجوهر، يعني الماركسيون مثلاً والمتديون والرأسماليون يتفقون تقريباً على صفات معينة يسمونها (الصفات الإنسانية) وإن كانوا كما قلت يختلفون في تصورهم لهذه الحقيقة الإنسانية من الآثار التي يتفقون عليها. إن الإنسان الحقيقي إنسان أريحي وليس بأناني، إنه إنسان يعيش في سلام مع

نفسه، وهو بذلك لا يلجأ إلى الملهيات والمخدرات وما أشبه ذلك، إنسان يعامل الناس على أساس أنهم أخوة له وهكذا، هذه الآثار هذه الصفات متفق عليها بين كل هذه الفلسفات، ولكن الاختلاف هو في كيفية تحقيقها؟ كيف نحقق هذه الصفات في الناس؟

كلهم متفقون على أنه لا يجدي أن تأتي إلى مجموعة من الناس فتقول لهم كونوا صادقين، كونوا أريحين، كونوا كذا؛ لأنه إذا كان الأمر يعتمد على مجرد الأوامر لكان أمراً سهلاً، ولكان الناس جميعاً إنسانيين، ولتحقق المجتمع الإنساني بصدور مثل هذه الأوامر، إذاً إذا كانت الأوامر وحدها لا تكفي فنحن محتاجون إلى توفر شروط أخرى تنتج عنها هذه الصفات، ويتحقق بمقتضاها هذا المجتمع الإنساني.

لنستعرض آراء بعض هذه الفلسفات، الفلسفة الفردية أو الليبرالية تقول في جوهرها: إن الإنسان في أساسه فرد، ووجود هذا الفرد في المجتمع أمر طارئ عليه، وكان مضطراً عليه، ولذلك فينبغي أن ننظم الحياة بحيث نتيح للفرد أكبر قدر من الحرية، وبحيث نقلل أثر المجتمع عليه إلى أقصى حد ممكن.

وهذا قادهم هذه النظرة الفلسفية، قادت إلى النظرة الاقتصادية التي تقول: «دعه يعمل» والتي قادت إلى الملكية الفردية الحرة حرية كاملة، ولكن هل تحقق المجتمع الإنساني حين أبيحت للإنسان هذه الحرية شبه المطلقة، طبعاً الواقع إنه لم يتحقق بل انقسم المجتمع إلى فئتين: فئة فقدت إنسانيتها: بذل الفقر والذل، وفئة أخرى فقدت إنسانيتها: ببطر الثراء والظلم والغنى الفاحش.

فإذا الفكرة الليبرالية لم تحقق لنا المجتمع الإنساني، وهي لم تنجح نجاحها، لم يكن مقصوراً على أنها لم تحقق المجتمع الإنساني، بل إنها حتى من الناحية الاقتصادية البحتة اضطرت إلى أن تغير من نظرتها الأولى، فنحن لا نجد الآن على وجه الأرض مجتمعاً رأسمالياً بالصورة النقية الأولى التي تصورها المفكرون الرأسماليون.

نأتي الآن إلى الماركسية: موقف الماركسية من هذا الموضوع فيه شيء من الاضطراب، فماركس يقول في إحدى كتاباته، ينكر مسألة الجوهر الإنساني فيقول: «إن الإنسان إن هو إلى مجموع علاقته الاجتماعية»، ولكن إذا كان هذا الكلام صائب كما قلت، إذا كان هذا الكلام صحيحاً، فإذا لا فرق بين الإنسان في المجتمع الرأسمالي، والإنسان في المجتمع الاشتراكي، والإنسان في المجتمع الإقطاعي، كل واحد من هؤلاء الإنسان صنعتهم هذه الظروف ولكن ماركس لا يقول هذا، من أكبر اعتراضاته على المجتمع الرأسمالي «أنه مجتمع يمسح حقيقة الإنسان فيحوّله إلى حيوان»، ومن نقله للمفكرين الرأسماليين «أنهم حين يتحدثون عن طبيعة الإنسان وفطرته يتحدثون عن الإنسان الذي يجدونه في المجتمع الرأسمالي»، وهو يقول إن هذا ليس هو الإنسان الحقيقي.

فإذا كان ماركس يقول من ناحية أنه ليس هنالك شيء اسمه إنسانية الإنسان، ولكنه من ناحية أخرى يفترض وجود مثل هذه الإنسانية، بل ويعتقد أن المجتمع الاشتراكي هو المجتمع الإنساني، هو المجتمع الذي تتحقق فيه كل هذه الصفات التي ذكرتها، المجتمع الذي ستزول فيه الأنانية وتحل محلها الأريحية، المجتمع

الذي ستزول عنه السرقة والكذب والنفاق، والمجتمع الذي تحل فيه مشكلة المخدرات إلى غير ذلك. كيف يحدث هذا؟

رأى كارل ماركس أن الملكية الفردية كانت هي سبب البلاء في المجتمعات الرأسمالية، فقال: الحل إذا ميسور، هو أن نلغي ملكية الفردية ونحولها إلى ملكية جماعية، إذا كانت الرأس مالية تقول إن الإنسان في حقيقته فرد، ووجوده في المجتمع أمر طارئ عليه.

فإن الماركسية تقول: إن الإنسان في حقيقته جماعي، وإذا فإذا ما ألغينا الملكية الفردية وأحلنا محلها الملكية الجماعية، فإن الإنسان الحقيقي سيظهر وستحل كل هذه المشاكل. ثم وجدت الماركسية الفرصة؛ لأن تحقق الملكية الجماعية ولكن النتيجة لم تظهر طال انتظار الناس لها ولكنها لم تظهر.

كارل ماركس كان يقول: إن الأساس في المجتمع الأساس هو البناء الاقتصادي، والقيم هي بنى فوقية تعتمد على هذا الأساس، فإذا غيرنا الأساس تغيرت البنى الفوقية فتغير الأساس، ولكن ظلت القيم وهي إحدى البنى الأساسية ظلت موجودة في المجتمع الشيوعي ظل النفاق، وظل الكذب بل أضيفت شروط أخرى ككبت الحريات، وتفاقمت مشكلة المخدرات في بعض الدول الاشتراكية إلى غير ذلك. لماذا حدث هذا؟ بدأوا يبحثون عن مبررات منها أن المجتمع الرأسمالي مازال موجود خارج الاتحاد السوفيتي مثلاً، فهو لذلك يؤثر بقيمه في البلاد الاشتراكية، منها أن مخلفات الماضي القيم التي يسمونها القيم المعتمدة على الغيبات وعلى المجتمع الزراعي وكذا مازالت موجودة، ولكن بعض

الماركسيين ولا سيّما خارج الدول الاشتراكية قالوا: إن مشكلة هذه الدول أنها لم تحقق الملكية الجماعية، وإنما حققت ملكية الدولة.

وهناك فرق بين ملكية الدولة والملكية الجماعية، وزعموا أنهم إذا ما تحققت الملكية الجماعية فلإذن هذه الآثار ستظهر، ولكن الملكية الجماعية هي بطبيعتها لا يمكن أن تفرض على الناس؛ لأنها إذا فرضت صارت ملكية دولة، ولكن إذا لم تفرض فهي إذا محتاجة إلى قيم تحرسها بل وتدفع إليها؛ لأن الإنسان الذي كما حصل في تجربة الاتحاد السوفيتي أو كما حصل في تجربة بعض الدول العربية كانوا يقولون في البداية إن المنتجات الاشتراكية ستأتي بقيم إنسانية جديدة، وبعد قليل تغير شعار فصاروا يقولون نحو أخلاق اشتراكية لمنجزاتنا الاشتراكية، فبدل من أن تكون المنجزات الاشتراكية بدلًا من أن تثمر الأخلاق، أصبحنا نقول: إن الأخلاق هي التي تحرس هذه المنجزات، فإذا قلنا هذا عن الملكية، ملكية الدولة، فأيضًا نقوله عن الملكية الجماعية من باب أولى.

قال آخرون: إن تغيير الواقع الاقتصادي لا يفيد، بل لا بُدَّ من حرية سياسية، لا بُدَّ من ديمقراطية، وهذا الذي تنادي به الآن الأحزاب الشيوعية في البلاد الرأسمالية في البلاد الغربية، بل أصبحوا يقولون: إن هناك شيوعية أوروبية، هذه الشيوعية الأوروبية هي التي تنادي بالجمع بين الاشتراكية والديمقراطية، إن الديمقراطية شيء حسن ما في ذلك شك، ولكن هل ستحل الديمقراطية هذه المشكلة التي يحاول الآن حلها؟

إن كل ما تفعله الديمقراطية هي أن تعطي الإنسان الحرية ليقول ما يرى،

وليفعل كثيرًا ما يرى، فإذا الديمقراطية أيضًا هي مجرد شرط من الشروط، أو هي جو يساعد على ميلاد هذه القيم الإنسانية ولكنه لا يتجها، ما الذي يتجها؟ قالوا: لا بُدَّ من ثقافة، وهنا نصل إلى النقطة الحرجة في موضوعنا لا بُدَّ من ثقافة، إذا مجرد تهيئة الجو لا تكفي، إن الأوضاع الاقتصادية والسياسية وكذا كلها بمثابة حرث الأرض وربها وتعرضها للشمس والهواء وكذا، فلا بُدَّ إذا أن نبذر فيها بذرة لكي تأتي هذه الثمار، هذه البذرة قالوا إنها الثقافة، أو بعبارة أدق: هي المعرفة، هي تصور معين لحقائق إذا ما عرفها الإنسان وأقرها أثمرت هذه الأخلاق، ولكن ماهي هذه الثقافة؟ ماهي هذه الحقائق؟ أهى دراسة الأدب والتاريخ؟ أهى دراسة القوانين والعلوم؟ ماهي هذه الثقافة؟

إن الكلام المعمم المجمل عن الثقافة لا يحل هذا الإشكال، فنحن محتاجون إذا إلى نوع من الحقائق، إذا ما عرفناه وأقررنا به كانت نتيجته هذه القيم^(١).

فائدة: نوع الحقيقة التي إذا ما عرفها الإنسان وتصورها وأقر بها أثمرت القيم الإنسانية المنشودة:

لا بُدَّ من حقيقة إذا ما عرفها الإنسان وتصورها وأقر بها أثمرت هذه القيم الإنسانية، فما هي هذه الحقيقة؟ كخطوة أولى نحو الوصول إليها، لتصور ما هي التصورات التي تناوى هذه القيم، هب أن إنسانًا وجد نفسه في موقف إذا قال

(١) الطريق إلى المجتمع الإنساني، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الموسم الثقافي لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الكويت، بالتعاون مع جامعة الكويت.

بالصدق خسر مبلغًا كبيرًا من المال، وإذا كذب نال هذا المال، ولنفترض أن هنالك شيئًا في نفسه نسميه الضمير أو القلب أو ما شئت، يقول له: قل الحق، ولكن فكرة يقول له: لماذا أقول الحق؟ إنني إذا قلته خسرت مبلغًا كبيرًا من المال، لماذا أستمع إلى هذا الصوت الداخلي؟ لماذا لا أعارضه؟ ماذا يحدث لو كذبت؟ إن الناس لن يعرفوا أنني كذبت، وهب أن بعضهم عرف، إن ما أكسبه من المال أكثر مما أخسره بقولهم إنني قد كذبت، هذا النوع من التفكير تفكير مناوئ من القيم الإنسانية فما هو الذي يسند هذا التفكير؟

يسنده أن يتصور الإنسان أنه ليست له مهمة في هذه الحياة، وأنه لا أحد يراقبه غير البشر، وأنه لن يحاسبه أحد على ما يفعل، فهذا التصور هو الذي يناوئ هذه القيم الإنسانية ويشجع على الخروج عليها، إذا فالتصور الذي يساعد هذه القيم ويقويها وينميها ويبحث عليها هو التصور المناقض لهذا، هو أن يقول الإنسان لنفسه أنني مخلوق لخالق يحب الخير ويكره الشر، وهذا الخالق الآن يراقبني، فإن فعلت خيرًا أحبني وجزاني على الخير خيرًا ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وإن فعلت شرًا أبغضني وجزاني على هذا الشر شرًا، فإذا ينبغي أن أضحي بهذا القدر من المال لأكسب حب خالقي، ولأكسب جزاءه الأكبر في حياة بعد هذه الحياة، هذا النوع من التصور إذا يساعد الإنسان على الالتزام بتلك القيم التي أسسناها بالقيم الإنسانية، بعض الفلاسفة يقولون كل هذا حق، ولكن ما الدليل على أن هذا التصور هو التصور الصحيح، نحن لا ننكر هكذا يقولون أنه حين يعتقد الإنسان تكون له هذه الآثار هذا أمر لا شك فيه.

ولكننا نتساءل أهذا التصور تصور حقيقي؟ أم أنه مجرد خيال، أو كما قال أحد الفلاسفة اليونان، قال: إن فكرة الإلوهية وفكرة الدار الآخرة هذه اخترعها إنسان ذكي جدًا لكونه يحث الناس على الخير وينهاهم عن الشر، فما هو الدليل هكذا يقولون؟ ما هو الدليل على أن هذا التصور تصور صحيح؟

وأقول: إن أول الأدلة على أنه تصور صحيح أن آثاره خيرة، إن الباطل لا يمكن أن يأتي بالخير، فإذا كان هذا التصور هو الذي يأخذ بيد الإنسان في سلم الإنسانية، وهو الذي يمنحه السعادة وهو الذي يجعل من الناس أخوة متحابين بدلًا أن يكون أفرادًا متنافسين، إذا كان هذا التصور ينشئ في النفوس البشرية مثل هذه المشاعر ومثل هذه الصلات الإنسانية، فهذا أحد الأدلة على أنه هو التصور الصحيح؛ لأن الباطل لا يمكن أن يأتي بالخير، ثم إننا نحن المسلمين نعتقد أن أصول ديننا ليست مجرد مسلمات نطلب من الناس أن يؤمنوا بها من غير تفكير ومن غير أدلة، بل إننا نؤمن بدين يقيم الأدلة والبراهين العقلية على وجود الخالق ووحدانيته وسائر صفاته، وعلى صدق الرسول المرسل وعلى إمكانية وضرورة الدار الآخرة، وعلى أن هذا القرآن منزل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا مجال هنا للدخول في كل هذا.

فإذا هنالك دليان إجمالاً، الدليل الأول: هذا التصور ينشأ حياة أفضل.

والدليل الثاني: أن عليه أدلة وبراهين عقلية، إذا حل المعضلة التي تحاول كل هذه الفلسفات وأخرى غيرها أن تحلها، لا حل لهذه المعضلة إلا في معرفة أن للإنسان خالقًا وأنه عبدًا لهذا الخالق، لكن إذا كانت هذه الحقيقة هي التي تثمر

هذه القيم الإنسانية، فإذا هذه الحقيقة هي التي تمثل جوهر الإنسان، إذا جوهر الإنسان يكمل في اعترافه بأنه عبد لخالق واحد، وإذا كلما ارتقى الإنسان في سلم العبودية لله تعالى كلما ارتقى في سلم الإنسانية؛ لأن العبودية لله تعالى هي التي تمثل جوهره الحقيقي وهي التي تمثل إنسانيته.

وهكذا يقول القرآن الكريم، وهكذا يقول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» والفطرة هي هذه الحقيقة التي تحدثنا عنها، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فإذا الإنسان في حقيقته خير، أي إنسان سواء كان أمريكياً أو روسياً، سواء كان في القرن العشرين أو القرون الأولى، سواء كان بدائياً أو متحضراً فهو في جوهره وفي بدايته إنسان مخلوق خير، والشر طارئ عليه وآت من الخارج، وخيره يكمن أساساً في اعترافه ومعرفة بأنه عبد لخالق واحد، فإذا الإسلام يحل المشكلة؛ لأنه يجعل الفكرة، يجعل التصور، وإن شئت قل الفلسفة مطابقة للفطرة، ومشكلة البشرية اليوم أن أفكارها تناقض فطرتها، فالفطرة تقول للناس شيئاً، والأفكار تقول لهم أشياء تناقضها، والفكرة التي توافق الفطرة هي هذه الحقيقة التي بينها الإسلام، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

قيل في بعض التفاسير: لا تبديل لخلق الله، يعني إن هذه الحقيقة يخلق أو يولد بها كل الناس، وهي حقيقة لا تبدل ولا تتغير، فكل مخلوق كل إنسان يولد بهذه الحقيقة، ولكن إذا كان الإسلام يحل هذه المعضلة حلاً يمكن أن نسميه حلاً فكرياً تصورياً، فإنه لا يغض الطرف عن البيئة التي تساعد الإنسان على أن يكون

إنساناً، فهو يقول للبراليين: إن معكم بعض الحق في قولكم إن الإنسان فرد، ولكن قولكم إنه فرد منافس لبقية الأفراد، إنه فرد أنا في هذا ليس بصحيح فهو فرد يسعى لمصلحته، ولكن شعوره بأخوة الآخرين أيضاً جزء من فرديته وجزء من فطرته.

ونقول للذين يقولون: إن الإنسان في أساسه جماعي أو اجتماعي، إن معكم بعض الحق فنقول إذا للرأسماليين: إنكم أخطأتم إذ ظننتم أن الملكية الفردية، إن الرأسماليين أو الفلاسفة الرأسماليين ومع الأسف هذه مسألة تأثر بها بعض الكتاب الإسلاميين، حين يدافعون عن الملكية الفردية يعتبرونها إحدى الوسائل التي يعبر بها الإنسان عن إنسانيته، فالإنسان حين يحرم من الملكية الفردية لا يحرم من مجرد شيء مالي اقتصادي ولكنه يحرم من التعبير عن ذاته هكذا يقولون.

أما الإسلام فمع أنه يبيح الملكية الفردية إلا أنه لا يعطيها هذه الأهمية، إن الامتلاك في حكم الإسلام الغرض منه الإنفاق، فالذي يمتلك ليجمع مذموم في القرآن الكريم، فإنسانية الإنسان لا تتحقق إلا إذا كان القصد من اكتسابه للمال هو إنفاق هذا المال في وجوه الخير، إذا فالإسلام يقول بشيء من الملكية الجماعية ولا سيما إذا عرفنا الملكية الجماعية كما يعرفها بعضهم بأن يكون الإنتاج لصالح الجماعة هذا.

وفي رأيي هذا النوع من الملكية هو الذي يتمشى حقيقة مع إنسانية الإنسان، وكما يهتم الإسلام بالناحية الاقتصادية فإنه كذلك يهتم بالناحية السياسية، إن القهر والتسلط أمر يتنافى مع الفطر ومع هذه الفكرة؛ لأنه إذا كان الإنسان عبداً لله تعالى فينبغي ألا يجعل منه المجتمع عبداً للسلطة أو للقادة أو حتى للجماهير، إن عبودية

الإنسان لله تعالى تجعل منه إنساناً حراً، وهكذا قل عن سائر النظم الإسلامية.

فإذا الإسلام يقول بأن الإنسان في فطرته خير، وأن هذه العقيدة تقوي هذا الخير وتكمله وتقويه، وهذه التشريعات تأتي بالنظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المناسبة مع فطرة الإنسان، أي إنها تأتي بالنظم الإنسانية، ولذلك فعندما نتحدث عن المجتمع الإنساني فإننا لا نرى فرقاً بين قولنا أنه مجتمع إنساني أو مجتمع إسلامي؛ لأن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الإنساني.

واعتقد أننا في العمل الإسلامي نملك أن نقدم للناس ولل البشرية هذه الرسالة، نملك أن نقدم لهم صورة لهذا المجتمع الإنساني، ولذلك فينبغي علينا أن نراجع أفكارنا هذه، وأن نثق بها وأن نبني مجتمعنا كله على هذه الأسس الإسلامية، لكي نخرج للناس مجتمعاً إنسانياً؛ ذلك المجتمع التي تشده البشرية اليوم، وإذا كان هذا واجب كل المسلمين فإنه أوجب بالنسبة للشعوب التي أعطاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْرًا من الثروة، فإنني لأرجو أن تستعمل هذه الثروة في القيام بهذه الرسالة شكرًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي منحنا هذه الثروة.

ولكي نجمع بين القوة المادية والمجد والقيادة للإنسانية، إن المال إذا لم ينفق في وجوه الخير لا يقدم للإنسان الذي يمتلكه ولا للشعب الذي يمتلكه لا تكون له قيمة حقيقة، فإنني أتمنى وأرجو أن نستخدم هذه الثروات التي حباها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها في التمكين لهذا المجتمع الإنساني في بلادنا أولاً، ثم في الدعوة إليه باللسان وبالمثال الحسن^(١).

(١) الطريق إلى المجتمع الإنساني، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الموسم الثقافي لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الكويت، بالتعاون مع جامعة الكويت.

فائدة: العلاقة بين الفرد والمجتمع:

نحن نرى الناس أفراد فلان وفلان وفلان، ولكن أيضًا نراهم جماعة إما قبيلة أو أسرة أو أمة وكذا، فأيهم الثابت؟ أيهم الأصل؟ انقسم الفلاسفة الغربيون في هذا إلى فلسفات كان لها نتائج حقيقية واقعية اجتماعية، انقسموا إلى فريقين:

جماعة قالوا: إن الأصل هم الأفراد وإن وجودهم في المجتمع وجود طارئ عليهم.

وقال الآخرون: لا بل إن الأصل هم الجماعة، وأن الفرد لا يعني شيئاً من غير جماعة.

كان من نتائج القول بالفردية وهي التي تقول إن الفرد هو الأصل أدت إلى الرأسمالية؛ لأن النظام الرأسمالي هو الذي يقول إن الإنسان الفرد يعني حر في أنه يستعمل ماله بالطريقة التي يُريدها وكذا، بل ربما هي الطريقة التي أدت إلى الليبرالية؛ لأن الإنسان ينبغي أن لا يكون عليه رقيب من حكومة أو من كذا أو من كذا إلا في حدود ضيقة هي ضرورة لعيشه في المجتمع، بل يقول كثير من المفكرين إن هذا الاعتقاد أدى في النهاية إلى نوع من الأنانية، وأنتم ترون هذا عند الغربيين يقول لك لا تتدخل في أموري الخاصة، لا تتدخل في شؤون كذا وكذا ولذلك ينكرون مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي هي ركن من أركان هذا الدين؛ لأنها تتناقض مع القول بالفردية.

القول بالجماعية أدى إلى الاشتراكية وأدى إلى عدم الاهتمام بالإنسان

وبحريره وفي كذا وكذا، فسألنا أنفسنا إذا ماذا يقول الإسلام؟ فوجدنا أن الإجابة أن الله سُبحانه وتعالى علمنا أن لا نقول بهذا ولا بهذا، وإنما نقول إنما المؤمنون إخوة، يعني إن الله سُبحانه وتعالى خلق الناس ليكونوا إخوة، وهذا يحل الإشكال؛ لأنهم إذا كانوا إخوة فالفرد نقول له إن فرديتك هذه لا تكتمل ولا تكون أنت فرداً حقيقياً إلا إذا اهتممت بالآخرين، فبهذا يربط الإسلام بين الفرد والمجتمع ويحل المشكلة المزعومة في التناقض بينهما، فإنما المؤمنون إخوة.

فإذا كان كل من الفردية والجماعية قد أدى إلى نظم اقتصادية وسياسية مبنية على افتراضاتهما، فإن الإسلام أيضاً قد أدى بقول الإخوة بني عليه نظام سياسي واقتصادي واجتماعي في الإسلام، سمعت مرة أحد الشيوخ أظنه الشيخ عبدالعزيز ابن باز إن الله سُبحانه وتعالى قد نهى، إما نهى تحريم أو نهى كراهة عن كل ما يتناقض مع مبدأ الإخوة، يعني هذا معنى كلامه ليست هذه ألفاظه، فالله سُبحانه وتعالى يقول مثلاً ينهى عن الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١].

فظاهر جداً من هذه الآية أن الحكمة من تحريم الخمر هي أنها تتناقض مع مبدأ الإخوة تناقضاً كاملاً؛ لأنه إذا كان شرب الخمر يؤدي إلى العداوة والبغضاء فهذا يتناقض مع مبدأ الإخوة، وإذا كان يصد الناس عن ذكر الله وعن الصلاة فهذا يتناقض مع الإيمان الذي هو أساس لمبدأ الإخوة، وهنالك تفاصيل في هذا فمثلاً في المسألة الاقتصادية، لماذا شرعت الزكاة؛ لأن هؤلاء إخوان والله سُبحانه وتعالى

لا يريد للمال أن يكون دولة بين الأغنياء، وإنما جعل للفقراء منه نصيب، وهؤلاء إخوانك فلا بُدَّ أن يكون لهم نصيب من هذا المال، ولذلك أيضًا منع الربا؛ لأن الربا فيه ظلم لإخوانك، الزكاة تأخذ من الغني وتعطي الفقير، والربا يأخذ من الفقير ويعطي الغني، وحتى في المعاملات الاجتماعية النبي ﷺ نهى أن يخطب الإنسان على خطبة أخيه؛ لأن هذا أيضًا يضيق الصدور، إنسان تقدم ليتزوج امرأة وأنت تذهب إلى أهلها أو تذهب إليها لا تفعل هذا؛ وكذلك لا يبيع أحدكم على بيع أخيه وهكذا، فكل شيء يؤدي إلى الشحناء بين الناس منعه هذا الدين.

القول بالفردية والجماعية هو كما قلت نظريات فلسفية ولا دليل عليها، حتى الذين يتكلمون عنها في الفكر الغربي يقولون إنهم يعني ما فيه دليل لم يكن الناس في يوم من الأيام أفرادًا مبشرين مشتين، ثم اجتمعوا وكونوا مجتمعًا لم يكن الناس في يوم من الأيام مجتمعًا يعني لا أفراد فيه، بل هذه مجرد كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

والذي يدل دلالة واقعية على أن الذي يقول دين الإسلام وهو دين الفطرة كما تكلمنا في أول هذه الحلقات، أن هذا هو الذي نشاهده في الناس حتى من كانوا ليسوا مؤمنين نرى فيهم بذرة هذه الإخوة، فالإنسان عنده عطف وعنده حتى نوع من التضحية لما هو قريب منه سواء كان الوالدان أو كان من الأولاد أو كان من الأصدقاء، بل أحيانًا يشعر الإنسان بالعطف حتى لو كان ليس مؤمنًا يشعر بالعطف، ويحب أن يساعد من يراه من الناس مسكينًا ويشعر بالسعادة في هذا، وكل هذا من الفطرة التي جعلها الله سبحانه وتعالى فيهم، فالإنسان إذا كلما عامل

غيره كما يريد هو أن يعامل، وكلما عامله كما يعامل نفسه، كلما تأكدت فرديته وزال التناقض بينه وبين المجتمع^(١).

فائدة: التصور الإسلامي العام لمسألة التغيير:

التغيير الإسلامي هو تطبيق لقانون عام لا يوصف بأنه إسلامي أو غير إسلامي، وكما أن القوانين الطبيعية كقانون الجاذبية مثلاً لا توصف بأنها قانون جاذبية إسلامي وغير إسلامي، فكذلك القوانين الاجتماعية هي قوانين كونية تحكم كل المجتمعات وتحكم كل الناس سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين. الفرق الذي يحدث أن بعض الناس يعرفون هذه القوانين فيستفيدون منها كما مثلاً الذي يعرف القوانين الطبيعية يمكن أن يستفيد منها في بناء تكنولوجي، والذي لا يعرف هذه القوانين لا يستفيد منها؛ وكذلك الذي يعرف القوانين الاجتماعية يمكن أن يستفيد منها في رسم الخطى التي يسير عليها؛ لتحقيق أهدافه والذي لا يعرف هذه القوانين يظل يتخبط.

أوجز لكم بإيجاز شديد التصور الإسلامي العام لمسألة القوانين التصور هو هكذا أن الله سبحانه وتعالى بفضله ورحمته ومنه يمنة يعطي الناس الخير، الخير في داخل أنفسهم والخير في بيتهم، الخير في داخل أنفسهم بأن يجعل فطرتهم فطرة خيرة، كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

والخير في البيئة كل ما حولنا من نعم لم تكن نتيجة عمل من أعمالنا وإنما

(١) آية وقضية، قناة الرسالة، قناة الرسالة، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٢٧٤).

هي فضل من الله سبحانه، ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُرِّ فِيهِ مُخْلَقُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا أَيْلًا بُاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا أَلْهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَيْنَنَا وَفُوقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا مَرَجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿[النبا: ١-١٦].

كل هذا فضل من الله وتعالى والله سبحانه وتعالى عندما خلق أول البشر آدم، منحه هذين النوعين من الخير، فهو ككل واحد منا خلق مفطوراً على الخير، ولكنه وضع في أحسن بيئة يتمنى أن يوضع فيها كل إنسان، جنة لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى، فهذا إذن الخير هو الأمر الطبيعي، الخير في داخل النفس، والخير في أحوال الناس الخارجية، إذا شكر الناس الله وحمدوه ثبت هذا الخير وزاد ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، أما إذا أعرضوا وعصوا وكفروا فإن الله سبحانه وتعالى يمسك عنهم من الخير بقدر عصيانهم وإعراضهم وكفرهم، وهنا تأتي الآية المشهورة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إن المقصود بالتغيير في هذه الآية هو التغيير من الحال الحسن إلى الحال السيء؛ لأن الحال الحسن هو الحال الطبيعي؛ ولأن الآية تقول بعد ذلك ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]؛ ولأن هذه الآية تفسرها آية أخرى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فإذا أمسك الله سبحانه وتعالى عن الناس بعض أنواع الخير كما قلت في النفس بأن

أصابهم نوع من القلق والأمراض النفسية الشك كذا كذا، أو أمسك عنهم نوعاً من الخير المادي، الأمطار، الزرع، المأكّل، المشرب، الثروات كذا كذا، فأمسك عنهم بعض هذا فرجعوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَاضِ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَرْجِعْ عَلَيْهِمْ نِعْمَهُ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِيعَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

أما إذا استمروا في عصيانه وكفرهم فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزيل عنهم هذه النعم؛ بل إنه قد يهلك المجتمع هلاك استئصال فلا يبقى منه أحد، أي قد يهلكه هلاك تششت وتمزيق ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكَالٍ خَسْطٍ وَاتُّرِشَ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

لكن من عجائب سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه أحياناً إذا كفر الناس وأعرضوا بعد أن قطع عنهم نعمه، يعني استمروا في طغيانهم وعصيائهم ولم يرجعوا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعيد النعم عليهم مرة أخرى؛ بل قد يعيدها بأكثر مما كانت عليه أولاً ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، تأتيهم النعم مرة أخرى، لكن هذه النعم التي تأتيهم في المرة الثانية تكون مقدمة للعقاب ولزوال النعم. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٤٤-٤٥].

هذا بإيجاز هو التصور الإسلامي للتغيرات التي في المجتمع من الخير إلى الشر، أو من الشر إلى الخير، وهو كما قلت: قانون يحكم كل الناس، فإذا أردتم تطبيقه الآن على الأمم التي ترونها فاذكروا قول الله تعالى: ﴿لَا يَتْرُكُ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَمِينِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]، هذه القوى الهائلة التي ترونها، القوى المادية هذه الشوارع، العمائر، الماكينات، كل أنواع التكنولوجيا، هذه لا تقي أمة من العقاب، لا تقيها من أن تزول وأن تضعف، وهذا أمرٌ يذكرنا به الله سُبحانه وتعالى في القرآن الكريم.

فهناك أمم كان لها من القوى المادية من الجاه والسلطان ما لم يكن للأمم أخرى أقل منها، ولكنها زالت وبقيت الأمم الأقل قوة مادية، فهذا الخير الذي يتمتع به الناس الآن في المجتمعات الغربية إذا هم رجعوا إلى الله سُبحانه وتعالى وعرفوه، وإذا شرفنا الله سُبحانه وتعالى بأن كنا أدوات ووسائل لتغيرهم وهديتهم، فإن هذا الخير سيستمر ويزداد، وأما إذا استمر فيما هم مستمرون فيه فلا بُدَّ من أن يزول كل هذا الخير، وأن تضعف هذه المجتمعات وأن تزول، ولكن هذا لا يعني أن الأمر سيؤول إلينا؛ لأن الأمر لا يؤول إلينا إلا إذا سلكنا نحن الطريق الذي يقوده إلى القوة وإلى الخير؛ بل يمكن أن تزول أمة طاغية ويعطي الله سُبحانه وتعالى فضله لأمة أخرى غير مسلمة؛ ليتليها ويجريها كما جرب هذه الأمم، وهكذا تتغير الحال من أمة إلى أمة، ولكن لا يؤول الأمر إلى الأمة المسلمة إلا إذا هي سارت في الطريق الذي جعله الله موصلاً إلى التمكين في الأرض وإعزاز الدين.

نحن نرى إذن من هذا التصور الموجز أن العامل الأساسي في الخير هو فضل الله سُبحانه وتعالى وأن العامل الأساسي في الشر هو نفوس الناس ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١]، بعض الذي عملوا؛ لأنه أذاقهم كل الذي عملوا ما ترك على ظهرها من دابة، إذا سبب الشر حتى بالمعنى المادي، الحروب والقلق والأمراض النفسية المادي والروحي، كل هذه الشرور سببها أن الناس يغيرون ما بأنفسهم، فإذا كان الخير من فضل الله سُبحانه وتعالى والشر من نفوس الناس، فإن الطريق إلى الخير هو أن نرضي الله سُبحانه وتعالى، بأن ننزع عن الشر ونتوب إليه ونتوب إليه ونسلك الطريق الذي يرضيه.

هذا هو العامل الأساسي في التغير من الحال السيئة إلى الحال الحسنة، وهذا هو باختصار هو المبدأ الذي ينبغي أن يسير عليه كل من يريد أن يحدث تغييراً إسلامياً، كل من يريد أن يحول مجتمعه أو المجتمع العالمي إلى مجتمع إسلامي^(١).

فائدة: القرآن الكريم كلام الله تعالى:

الآية التي نتكلم عنها في هذه الحلقة هي قوله سُبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ

(١) العمل الإسلامي الجماعي، محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا.

الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿[النساء: ٨٢]﴾، فكأن هذه الآية تعطي الناس دليلاً عقلياً على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، يعني كأنها تقول لهم: إذا أردتم أن تعرفوا بعقولكم أن هذا القرآن هو كلام الله وليس كلام أحد من البشر فتدبروه، وستجدون أنه لا اختلاف فيه، والاختلاف معروف أن يقول القائل كلاماً في مكان ثم ينقضه، أو يقول كلام مختلف عنه في مكان آخر.

والسبب هذا النوع من الاختلاف والتناقض هو أن البشر ليسوا كاملين، الإنسان يقول كلاماً ثم ينسى ما قال، فيقول كلاماً مختلفاً عن الذي قاله، أو يقول كلاماً ينقضه ويكون جاهلاً بأن ما قاله الآن يتناقض مع ما قاله بالأمس، أو قبل شهر أو كذا، وكل هذا لا يتناسب مع الله سُبحانه وتعالى؛ لأن الله سُبحانه وتعالى عالم بكل شيء، والله سُبحانه وتعالى لا ينسى فلا يمكن أن يكون في كلامه نوع من التناقض، وأنا فكرت في هذه الآية منذ سنين طويلة، ووجدت أن مما يجعل الناس يتناقضون ثلاثة أشياء:

أولها: المدة التي يقال فيها الكلام، إذا كان الكلام في مدة قصيرة طلب مني أن أتحدث في خمس دقائق أو كذا، يمكن أن أنتبه جداً ولا أتناقض فيما أقول، إذا قيل لي أن أتحدث لمدة ساعة زاد احتمال الاختلاف والتناقض، إذا زاد عن هذا فقليل لي كما في هذه الحلقات الآن تكلم اليوم لمدة نصف ساعة، ثم تكلم بعد أسبوع لمدة نصف ساعة، ثم تكلم كذا لمدة سنة كاملة، فإذا ما راجعت كلامي سأجد أنني حتى لو لم ينبهني شخص آخر أنا نفسي سأجد أنني قلت كلاماً ناقضت نفسي.

والقرآن الكريم نزل كما هو معلوم في مدة طويلة ثلاث وعشرون سنة، ينزل تدريجياً كل مرة تنزل آية، أو آيات، في مدة ثلاثة وعشرين سنة، ومع هذا ليس فيه تناقض، وهذا أمر يستحيل على البشر أن يتكلم الإنسان أو يكتب، أو كذا لمدة تزيد عن العشرين سنة، ثم لا يكون في كلامه تناقض.

المسألة الثانية: التي يزيد معها احتمال الاختلاف والتناقض هي تعدد الموضوعات، فإذا ما حصر الإنسان نفسه في فرع من فروع العلم قل الاقتصاد، مثلاً رجل مختص في الاقتصاد ولكنه مختص في جزئية من الاقتصاد، فهو يحصر نفسه فيها، ويتكلم فيها، ولا يتعدى هذا إلى موضوع آخر فاحتمال أن يقع في التناقض أقل مما لو أنه تكلم في مسائل الاقتصاد كلها، أو أنه أضاف إلى الحديث في الاقتصاد حديثاً في السياسة، وحديثاً في الاجتماع، وحديثاً في التاريخ، وكذا كلما زادت الموضوعات زاد احتمال أن يقع في التناقض.

والقرآن الكريم متعدد الموضوعات ليس على وجه الأرض كتاب فيه من الموضوعات ما في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو كتاب يدعو إلى العقيدة الصحيحة، وكتاب عن الأخلاق، وكتاب يتحدث عن العبادات كيف تعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويحدث الناس في مسائل التشريع الخاصة والعامة، مسائل الزواج والطلاق، وكذا ومسائل الحرب والسلم، ويتحدث عن السنن الاجتماعية، ويتحدث عن التاريخ، فليس على وجه الأرض كتاب فيه هذا الكم من الموضوعات مثل ما في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع هذا لا تجد فيه تناقضاً، وهذا لا يمكن أن يكون كتاب مثل هذا إلا من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي القرآن الكريم ما يدل على أن القرآن يمتاز بشيء

أكثر من هذا، ليس فقط أنه لا تناقض فيه؛ بل هو كتاب يشبه بعضه بعضاً، كتاباً كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَتَبْنَا مُتَشَبِهًا﴾.

المقصود بالمتشابه هنا: أنه كما روى ابن كثير عن ابن عباس يشبه بعضه بعضاً، ويرد بعضه على بعض، يعني الكلام يمكن أن يكون غير متناقض، والكلام لا علاقة له ببعض، يعني يمكن أن أتكلم في موضوع، وأتكلم في موضوع آخر لا علاقة له بالموضوع الأول، وكذا ولا يكون في كلامي تناقض، لكن القرآن هنالك فيه شيء أكثر من هذا، القرآن آياته يشبه بعضها بعضاً، بمعنى أنه كله رسالته واحدة، فالآيات كلها هي تعبير عن هذه الرسالة الواحدة، فهذا شيء أكبر من كونه ليس فيه تناقض.

ودراسات الناس للنظريات البشرية تدل دلالة قاطعة على أن هذا الأمر لا يمكن أن تتصف به نظرية بشرية، ولا سيما النظريات التي تسمى بالنظريات العامة التي تحاول أن تضع للناس منهجاً يسرون عليه في حياتهم كالنظرية الماركسية، فالنظرية الماركسية فيها كلام في الفلسفة، وفيها كلام في الاقتصاد، وفيها كلام في السياسة، ولكن بعد الدراسة وجد أن كلامها في الاقتصاد، وهو القصد من الاشتراكية هو أن تؤدي إلى تحرير الناس من العبودية لرأس المال، النظام السياسي التي أدت إليه الماركسية كان نظام من أكثر النظم التي فيها عبودية، فإذا حصل هنالك تناقض بمعنى عدم اتساق فيما تدعو إليه الرأسمالية، ربما لم يكن هذا قد خطر على بال ماركس أو من بعده من النظر في هذه النظرية.

وحتى النظرية الديمقراطية الشائعة الآن، والتي تسمى بالنظرية الديمقراطية الليبرالية أيضًا فيها تناقض، فالديمقراطية تقول إن الحكم للشعب وتجعل الشعب في المكان التي يضع فيه المؤمن الله شَبَّاحَهُ وَتَعَالَى، فالشعب هو الذي يحكم، هو الذي يشرع، فالسلطة التشريعية العليا عند الشعب هذه الديمقراطية، لكن الليبرالية تقول: أن هنالك أشياء هي من حق الناس ولا يجوز حتى للأغلبية أن تتعدى عليها، فالليبرالية في هذا تتناقض مع الديمقراطية^(١).

فائدة: الدعوة الإسلامية في الغرب:

ما زالت دعوتنا بين العوام وأشباه العوام من الغربيين، بل ما زالت الكتب التي نكتبها هي كتب للمبتدئين، والكتب الكبيرة التي تكتب عن الإسلام، وفيها تفصيل سواء كانت في تاريخ الإسلام أو في مسائل العقائد، أو في كذا هي الكتب التي كتبها المستشرقون الذين يريدون أن يكتب عن الإسلام، ويذهب للمكتبات يجد أن كتب المستشرقين هي المراجع الأساسية، وهي من حيث الفن الأكاديمي هي الكتب التي تعتبر كتب علمية، وأما كتب المسلمين لم ترقى إلى هذه الدرجة ولذلك لا نخدع أنفسنا.

فالغريون عندهم الإسلام ليس كما يظن كثير من إخواننا، أنهم يعرفون أنه الحق ولكن يأبونه؛ لأنه حق وكذا وأنهم يخافون من العالم الإسلامي، كثير منهم يخافون من العالم الإسلامي على أساس أنه حركة مثل حركة البربرية، يعني همها

(١) آية وقضية، قناة الرسالة، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٧٦).

تحطيم الحضارة وكذا، ولا يخافونه على أساس أنه دعوة تقوم على علم يتحداهم بل كثيرون منهم كانوا من الناحية الفكرية يحترمون الماركسية أكثر مما يحترمون الإسلام، ولذلك الماركسية تناقش في مدارسهم وفي جامعاتهم وبين مثقفهم وكذا، لكن الإسلام ما كان يناقش.

أنا أرى أن هذا تقصيرا نحاول أو من كان بإمكانه أن يسد هذا النقص فليحاول، هذا لا بد أن نكتب كتابات ونخاطب خطابا موجهًا إلى قادة الفكر، لأمر ما كان الرسل عندما يبعثهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخاطبون عوام الناس فقط، بل يذهب إلى فرعون ويكلمه، ويذهب إلى الملك النمرود ويكلمه، والذين يجادلون الرسل كانوا هم الملأ ولم يكونوا من عوام الناس، فهذا الخطاب لقادة الفكر الذين يحترمهم أتباعهم ويظنون أنهم على حق، إذا خاطبناهم وتحديناهم وجعلناهم يعتقدون في دخيلة أنفسهم أن هذا الدين هو الحق، نكون قد أدينا واجبنا سواء قبلوا أم لم يقبلوا.

أحفظ كلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية أظنها في بداية كتابه (موافقة صحيح المعقول لصحيح المنقول) قال: من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم لم يكن أوفى الإسلام حقه حتى يقمع باطلهم، وهكذا كان الأنبياء ﴿قَالُوا يَكُونُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنَّا يَمَّا تَعِدُنَا﴾ [هود: ٣٢]، يعني تعبوا من كلامه وبعد هذا أيضًا جادلهم ﴿قَالَ إِنَّمَا يَا أَيُّكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَسْتَرْيِعُزِينَ﴾ [هود: ٣٣]، هذا شيء أراه ناقصًا في دعوتنا في بلاد الغرب، بل إلى حد ما حتى في العالم الإسلامي كثير من العلمانيين في بلادنا لا يحترمون كثيرًا من الخطاب الذي نخاطبهم به.

وأنا أرى أن هناك أمارات في الحضارة الغربية من الناحية الفكرية، أمارات تبشر بأنه يمكن أن يقبلوا هذا الدين، وأن يقبلوا هذا الحق على هذا المستوى الكبير إذا عرض عليهم عرضاً يجذبهم ويقنعهم. كان الغرب من الناحية الفكرية إلى عهد قريب يظن أن التطور العلمي قد قضى على مسألة وجود الخالق، الفيزياء القديمة كانت يعني تعطي بعض المفكرين تعللاً بأن هذا الكون قديم، ولا يحتاج إلى خالق، الفيزياء الحديثة أبطلت هذا وقالت لهم: إن هذا الكون له خالق، وأنا اطلعت على أكثر من عشرة كتب في السنين الأخيرة كتبها فيزيائيون يتكلمون عن وجود الخالق، وكلامهم عن وجود الخالق أحسن من كلام كثير من القساوسة، فلو وجدوا كلاماً للمسلمين في هذا المجال وحججاً للمسلمين ربما اقتنعوا، وإذا اقتنع بدليلك لا تقلل من شأن مسألة وجود الخالق.

أنا أعرف أن كثيراً من إخواننا المنتسبين إلى السلفية يقولون هذا توحيد الربوبية والناس كلهم موحدون، وهذا ليس بصحيح يعني أن الناس كلهم مُسلمون بتوحيد الربوبية، بعالمنا هذا الآن لا يسلمون وكفرهم أسوأ من كفر العرب، وتوحيد الربوبية هو أساس لتوحيد الإلهوية، فالذي تقنعه ربما بوجود الخالق وفي بعض أسمائه وكذا يقتنع بما تقوله بعد ذلك من توحيد الإلهوية، فحبذا لو اهتممنا بهذه القضية.

عندهم قضية أخرى أن كبارهم الآن اقتنعوا وعلمائهم سواء كانوا من المتدينين أو من غيرهم، اقتنعوا أن هذه الكتب التي تسمى مقدسة ليست كلام الله الذي يقول إنها كلام الله، هم عوامهم هم الذين أو بعض الذين يسمون أنفسهم

بالأصوليين، الأصولية كلمة محتقرة عندهم؛ لأن كتبهم إذا أخذت يعني إذا فسر الكلام الذي فيها كما تدل عليه اللغة، وكما يدل عليه ظاهره، ظاهر الكلام فهو كلام باطل، ولذلك يحتاجوا إلى أن يؤولوه ويقولون ليس ذلك المقصود حتى يكون موافقاً للواقع وللعقل، الأصولية عندهم شيء مذموم.

وأيضاً أقول: حتى في الأيام الأخيرة قرأت عن كتابين أو ثلاثة كتباً في هذا، أن هذه الكتب ليست كلام الله بل وليست كلام المسيح، فصار السؤال عندهم الآن هل يعقل إن هذا الخالق لا يرسل للناس رسالة، أين هذه الرسالة إذا كان هذا الكلام ليس كلامه؟ لكن لأنهم يعتقدون بأن ليس هناك رسالة حقاً إلا هذه بالكتب التي يسمونها كتب مقدسة يحتارون هذه الحيرة ويتلفتون، فنحن من واجبتنا أن ندخل هذه المعامع الفكرية ونوضح لهم.

مشكلتهم الثالثة الكبيرة: أن العلاقة بين العقل والدين هم يحترمون العقل ولهم حق في ذلك، ويعتقدون أن كل ما عندهم من منجزات علمية كانت بسبب هذا العقل، فلا يقبلون أن تأتي نظرية أو أيولوجية أو كذا أو كذا، وتقول لهم كما تقول النصرانية: إذا جئتم إلى مسائل العقائد عطلوا العقل، فلو أننا عرضنا لهم هذا الدين وقلنا لهم إن ديننا بالعكس، من ذلك يقول في مسائل العقيدة وأرجو ألا يعتبر كلامي شاذاً يعني هذا كلام صحيح، أكثر ما في القرآن من حجج عقلية هو في باب العقيدة؛ لأنك بالعقيدة تخاطب إنساناً لم يؤمن بوجود الخالق أو لم يؤمن بأنه هو الذي يستحق العبادة، أو لم يؤمن بأنه محمد رسول الله أو لم يؤمن بأن القرآن كلام الله، فهذا لا تستطيع أن تخاطبه بمجرد أن القرآن كلام الله، وإنما لابد أن تخاطبه

بشيء مشترك بينك وبينه، والمشارك بينك وبينه هو العقل.

فالواجب علينا نحن خصوصاً المتتبعين إلى منهج أهل السنة أو المنهج السني، الواجب علينا أن لا نفعل مثل ما فعل بعض إخواننا المتتبعين إلى هذا المنهج، يظنون أن مهمتهم فقط هي أن يقرؤوا تلك الكتب التي كتبها العلماء السابقون، وأن يشرحوها وأن يبينوا ما فيها للناس، ولكن هناك خطوة بعد هذا نقرأ كتاب الله، نقرأ سنة رسول الله، نقرأ هذه الكتب ثم نفعل في عصرنا ما فعل هؤلاء العلماء في عصورهم، نسلط كل هذا العلم على المشكلات سواء كانت مشكلات في العقيدة، أو في الاقتصاد، أو في السياسة أو في كذا.

نسلط هذا العلم على هذه المشكلات، ونخاطب الناس في عصرنا باللغة التي يفهمونها، ونخاطبهم على قدر عقولهم، ونضرب لهم الأمثال التي تجذبهم، وبهذا نكون قد اتبعنا منهج أهل السنة والجماعة في الدعوة^(١).

هائدة: أكثر ما في القرآن من حجج عقلية هو في باب العقيدة،

أكثر ما في القرآن من حجج عقلية هو في باب العقيدة؛ لأنك بالعقيدة تخاطب إنساناً لم يؤمن بوجود الخالق، أو لم يؤمن بأنه هو الذي يستحق العبادة، أو لم يؤمن بأنه محمد رسول الله، أو لم يؤمن بأن القرآن كلام الله، فهذا لا تستطيع أن

(١) المسلمون في الغرب، ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الخامس لجمعية القرآن والسنة في أمريكا الشمالية ١٤١٢ هـ، مع كل من عبد الله إدريس وعلي التميمي، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٧٢).

تخاطبه بمجرد أن القرآن كلام الله، وإنما لا بُدَّ أن تخاطبه بشيء مشترك بينك وبينه، والمشارك بينك وبينه هو العقل، ولذلك القرآن أكثر ما فيه من حجج عقلية هي في مجال العقيدة، فإذا سلم الإنسان بأن هذا كلام الله بعد ذلك ما يحق له أن يجادل أو يماري، لذلك كثير من العلماء كانوا يذكروننا بأن القرآن لا يخاطب فقط من يسلم بأنه كلام الله، وإنما يخاطب حتى من لا يعتقد أنه كلام الله لكي يقنعه بأنه كلام الله. فالأدلة على وجود الخالق وعلى ربوبيته وعلى ألوهيته أنه يستحق للعبادة، وعلى أن محمد رسول الله وعلى أن هناك بعض وكذا، وأنا أعرف فتاة عندما كنا طلاباً في بريطانيا، أعرف فتاة أسلمت، قالت لي: أنها كانت تؤمن بالله وتركت النصرانية، لكنها ما كانت تؤمن بالدار الآخرة، فقرأت القرآن مترجم وأعجبها فيه الحجج القرآنية على البعث، واقتنعت بها، فعندما اقتنعت بهذه الحجج آمنت ببقية القرآن وأسلمت، وأحسبها الآن من النساء الصالحات وهي أستاذة كبيرة في نيجيريا^(١).

فائدة: أهمية العقيدة:

لماذا جعلت العقيدة أساس الدين وركنه الأول؟ ربما تبادر إلى أذهان بعض الناس ولا سيما أناس في عصرنا هذا الذي يرفع من قدر الظاهر المحسوس، أن الجدير بهذه المكانة هو الأعمال الصالحة الظاهرة، كالإنفاق وحسن معاملة الناس

(١) المسلمون في الغرب، ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الخامس لجمعية القرآن والسنة في أمريكا الشمالية ١٤١٢ هـ، مع كل من عبد الله إدريس وعلي التميمي، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٧٢).

والجهاد لرفع راية الدين، فلماذا جعلت لشيء باطني غير عملي؟ مع أننا إنما نقوم الناس بحركات جوارحهم لا بحركات قلوبهم وما يكمن في ضمائرهم؟

الجواب الموجز: هو أن ما في الباطن مقدم على ما في الظاهر؛ لأنه هو أساسه ومصدره. فما من عمل ظاهري حسن كان أم سيئ إلا وله أساس باطني. هذه حقيقة يعلمها كل إنسان من نفسه، ولو كان يعلم ما في نفوس الآخرين كما يعلم نفسه لكان تقويمه لأعمالهم بأساسها الباطني هذا.

تصور لو أن إنساناً أهدي إليك هدية قيمة، لكنك شاهدته في قلبه يقول لك: «ما أحقرك؟ والله إنك لا تستحقها ولا أقل منها، ولولا أنني أطمع منك في أكثر منها لما أعطيتك إياها». هذا علم غيبه الله عنا فلم يبق لنا إلا الحكم بالظاهر والاستدلال به أحياناً على ما في الباطن، أما الخالق سبحانه فإنه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولهذا كان تقويمه سبحانه للناس بهذا الباطن الذي هو أساس الظاهر، إن أصل تكريم الباطن هو أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الإنسان من عنصرين من مخلوقاته، عنصر الطين وعنصر الروح، فجعل المكون من الطين هو صورته المرئية، وجعل العنصر الروحي حقيقته الخفية. لكنه سبحانه جعل بين ظاهر الإنسان وباطنه صلة ونسباً. فالروح إنما تسكن في الجسد، وإنما تبدو تصرفاتها وتأثيراتها عليه وبوساطته؛ وربما كان هذا هو السر في أن بعض أعمال الروح تنسب إلى أعضاء جسدية لصلتها الخاصة بها.

إن القلب الجسدي ليس هو الذي يعقل كما يحدثنا شيخ الإسلام ابن تيمية،

وعليه فإن السلامة والمرض المنسوبتان إليه في الكتاب والسنة ليستا أحوالاً جسدية كما هو المشاهد، وإنما هي أحوال روحية نسبت إلي ما يلائمها من الأعضاء الجسدية.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الإنسان إنساناً بجوهره الروحي الداخلي الخفي لا بشكله الجسدي الخارجى. فالروح هي محل الإدراك والإيمان والتصورات والإرادات والمشاعر. والإنسان إنما يتحرك ويتصرف بما يعتقد، حقاً كان أو باطلاً، وبما يتصور واقعاً كان أم وهمًا. وإذا كان الأمر كذلك، كان ما يظهر لنا من صلاح الإنسان أو فساد السلوكي راجعاً بالضرورة إلي صلاح معتقداته وتصوراته أو فسادها.

إذن فالجانب الذي نسميه عملياً في حياة الإنسان والذي قد نخطئ فنظنه أهم جانيه، إنما هو أثر ونتائج عن جانبه الداخلي الذي قد نجح إلي التقليل من أهميته فنصفه بالنظري أو المثالي. كلا إنه لهو الجانب الفعال الذي يحدد مصير الإنسان والذي ينبغي لذلك أن تكون العناية به أكبر، وكما جعل الله تعالى غذاء الجسد وبقائه في بعض المطاعم والمشارب، وجعل مرضه أو موته في غيرها، فقد جعل غذاء الروح وبقائها في بعض العلوم وجعل مرضها وموتها في حرمانها منها، وجعل حياته الروحية هي حياته الحقيقية، وموتها هو موته الحقيقي.

والحقائق التي يمكن للإنسان أن يعلمها كثيرة، والعلوم النافعة كثيرة، لكن أشرف العلوم وأجلها نفعاً هو العلم بالله رباً لا رب سواه، وإلها لا معبود بحق إلا إياه. هذا هو العلم الذي لا تحيا القلوب إلا به، ولا يكون الإنسان مخلوقاً كريماً إلا

بمعرفته، والاعتراف به؛ لأن هذا العلم لا يؤتي ثماره إلا إذا اختار من علمه أن يعترف بما علم ويؤمن به. فالروح لا تحيا بالمعرفة وحدها بل لابد أن تتضمن إليها الإرادة، إرادة الإيمان. ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِمْ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

فتأثير هذا العلم معتمد على قبوله أو رفضه لا على مجرد اكتسابه: «وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١١٣) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَأْوَاهُمْ كَالْفِرْعَوْنِ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

فإذا ما عرف الإنسان ربه وآمن به تفجرت ينابيع الخير في قلبه، ثم فاضت على جوارحه بمقدار علمه وقوة إيمانه. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى كما جعل الروح جوهر الإنسان، فقد جعل الإيمان به منبع كل خير فيه. ولذلك كانت الدعوة إليه والتذكير به مفتاح كل دعوة إلى فكر قويم وسلوك مستقيم، وكانت الدواء الذي لا غناء عنه لكل أنواع الانحرافات السلوكية. ولذلك كانت البداية به في جهود الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لإصلاح المجتمعات التي بعثوا إليها. يدعو أحدهم قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبودية ثم يدعوهم بعد ذلك إلى تفاصيل الشريعة وإلي ترك ما هم عليه من أنواع الانحرافات السلوكية، خلقية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية، فالإيمان هو الذي يهيئ النفوس لعبادة الله وينشط الجوارح لها وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء،

وهو الذي يهيئها لقبول تفاصيل الشريعة.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «لقد نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام. ولو نزل تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدًا. ولو نزل لا تزنا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لعجارية ألعب: ﴿بِئْسَ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده» (١).

وهو السبب الأساس لحل المشكلات الاقتصادية والسياسية والخلقية. أقول إنه الأساس ولا أقول إنه يغني عن التفاصيل التشريعية المبينة عليه، ولا عن الأسباب الطبيعية والاجتماعية التي جعلها الله أسبابًا مؤثرة. وهو السبب الأساس لبقاء النعم المادية وزيادتها. والكفر والإخلال به هو السبب الأساس لنقصانها وزوالها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿هود: ٢٥-٢٦﴾. ثم ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١١ ﴿وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿نوح: ١٠-١٢﴾. ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ١٠﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿هود: ٥٠﴾. ثم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿نوح: ١٠-١١﴾. ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ١٠﴾ هُوَ أَشْأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَغْمَرَكُمْ فِيهَا

(١) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن.

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثُبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ [هود: ٦١]. ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ
يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤]. ثم: ﴿وَلَا تَقْصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ
بِهِ﴾ ﴿٨٤﴾ وَنَقُورُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿٨٦﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٢٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ
أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٢٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ
مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٢٨﴾ رَبِّ بَحْنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ فَجَئْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
الْغَدِيرِ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ
لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٥﴾ [الشعراء: ١٦١-١٧٥].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ
وَالْإِحْسَانَ وَمَا أُكْذِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ
مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْمِلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وأهم من هذا كله أن عقيدة التوحيد هي سبب السعادة النفسية ﴿أَلَا يَذْكُرُ
اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، بل هو سبب السعادة الأبدية؛ لأنها هي السبب

الأساس لدخول الجنة وللنجاة من النار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿تَوَمَّ لَا يُفْعَ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَقْبَلَ اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] (١).

فائدة: خطأ افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه:

من التأثيرات الشديدة الخفاء البالغة الضرر الاعتقاد السائد بين كثير من علماء الطبيعة والاجتماع، وبالتالي بين عامة المفكرين والصحفيين والمحللين في الغرب، أن التفسير العلمي للحوادث سواء كانت طبيعية أو اجتماعية هو ذلك التفسير القائم على افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه، وأن تفسير حوادثه ينبغي لذلك أن يكون من داخله، أعني أن الظواهر يجب أن تفسر بظواهر أخرى، وأن كل تفسير لشيء من حوادث الكون بإرجاعها إلى سبب خارج عنه هو تفسير خرافي غير علمي. هذا هو المبدأ المفترض، لكنه لا يقرر بهذه الطريقة الصريحة التي ذكرتها، وإنما يفترض افتراضاً، وقد يفترضه ويلتزم به حتى من لم يفكر فيه من العلماء الطبيعيين وسائر المفكرين والصحافيين، من مظاهر افتراضهم له أنهم يقفون في تفسيرهم للحوادث عند أسبابها الدنيوية ظاهرة كانت أم خفية، ولا يتجاوزونها.

(١) أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٨٣).

وما ذلك للاعتقاد بأنها هي الأسباب الحقيقية الكافية. لكن المسلم مع اعتقاده بفاعلية الأسباب الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية، لا يقف عند حدودها، بل يذكر نفسه بأنها إنما صارت أسبابًا بجعل الله لها أسبابًا، وأن الفاعل الحقيقي إنما هو الخالق سبحانه.

قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله: أرايت أدوية تتداوى بها، ورقى نسترقى بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله^(١).

قلت: إن هذا المبدأ الإلحادي قليلاً ما يصرح به، وأقول: إن التزامه في الواقع قد لا يبدو فيه ما يخالف عقيدة المسلم، ما دام المسلم معترفاً بتأثير الأسباب المخلوقة وفعاليتها. لكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك، إن المتلقي إذا كان لا يسمع لله ذكراً أبداً في كل ما يخبر به من حوادث طبيعية واجتماعية يوشك أن يتأثر بذلك المبدأ فينسى هو الآخر ذكر الله تعالى، وينحو نحو أصحابه في تفسيره للحوادث، فلا تكون له فيها عبرة^(٢).

هائدة: مبدأ النسبية:

المبدأ الغربي الذي أراه أيضاً ذا أثر سيئ، والذي أراه قد بدأ ينتشر حتى بين المسلمين في العالم الإسلامي بسبب التأثر بالثقافة الغربية التي تنقل عن طريق

(١) سنن الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية.

(٢) أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٨٣).

وسائل الإعلام، هو مبدأ النسبية. أعني نسبية الحقائق والقيم. لقد أصبح من المسلمات عند كثير من الناس في الغرب أنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولا قيمة مطلقة، وإنما الحقائق والقيم نسبية، أي إنها منسوبة وتابعة لزمانها أو مكانها أو الحضارة والثقافة التي ظهرت فيها وهكذا. فما قاله الناس في العصر الفلاني، أو اعتقدوه في المكان الفلاني، أو رأوه حسناً في الحضارة الفلانية، كل هذا صحيح أو معقول بالنسبة لهم وإن كنا نراه نحن في ظروفنا أو زماننا أو حضارتنا على غير ما رأوه. وما دام الأمر كذلك فليس من حق أحد أن يقول إن فهمه لنص من النصوص هو الفهم الصحيح أو إن فهم خصمه خطأ.

وأنا ينبغي لذلك أن نكون سلفيين في فهمنا للنصوص، فللسلف زمانهم ولنا زماننا، ولهم ظروفهم ولنا ظروفنا. بل قد رأيت بعضهم غلا في هذا الأمر حتى قال إن الرسول ﷺ لا يمكن أن يفسر القرآن لعصرنا؛ لأنه لا يعرفه^(١).

فائدة: المفهوم السلبي للحرية :

الاعتقاد في المفهوم السلبي للحرية قد أثر ذلك في الناس تأثيراً بالغاً حتى صار من المسلمات حتى عند كثير من المسلمين. إن الحرية بمعنى أن الله تعالى أعطى الإنسان المقدرة على الاختيار كما أعطاه المقدرة على العمل، أمر لا شك فيه، بل ربما كان هو مما يتميز به الإنسان. وقد شاء الله تعالى أن يجعل الإنسان

(١) أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٨٣).

شائئاً، ومسؤولاً عن مشيئته، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣].

فالمنازعة ليست إذن في كون الإنسان ذا إرادة ومشئئة واختيار، وإنما هي في الطريقة التي تستعمل بها هذه المشئئة أو الحرية التي منحها الله تعالى للإنسان. المفهوم السلبي للحرية يجعلها غاية في ذاتها، بمعنى أن كرامة الإنسان تزداد بازدياد استقلاله في اتخاذ قراره، أيا كان ذلك القرار. أي إن العبرة في الاختيار لا فيما يختار.

وعليه، فكلما مكن الإنسان من أن يفعل ما يشاء كان هذا أكرم له وأكثر تحقيقاً لإنسانيته. هذا المفهوم السلبي للحرية مفهوم قديم وإن تزيا بزى حديث، إنه المفهوم المرتبط بالاستكبار والكفر. وهو المفهوم الذي لجأ إليه قوم شعيب في احتجاجهم على أمره لهم بعبادة الله وعدم الظلم في المعاملات المالية. ﴿قَالُوا يَنْشُعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧]، وهو المفهوم الذي ذمه الله تعالى في قوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي لا يؤمر ولا ينهى.

فالإسلام يعلمنا أن كرامة الإنسان لا تتحقق بمجرد الاختيار؛ لأن هلاك الإنسان قد تكون فيما يختار. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَعْقَةُ الْعَذَابِ آَلُوتٍ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وإنما تتحقق باختياره للحق وللخير، ولما يختار له ربه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ

أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿١﴾
[الأحزاب: ٣٦]

فائدة: عدم مأخذنا لدين مأخذ الجدد:

كثير من الناس لم يعودوا يأخذون الدين مأخذ الجدد، لكنهم يصورون هذا بأنه تسامح، وسعة أفق، ويصمون كل من يبدو منه استمساكًا شديدًا بالدين بالتطرف، أو ضيق الأفق والتعصب وعدم العقلانية وهكذا، لذلك تعجب كثير من الغربيين من الضجة التي أثارها المسلمون بسبب ما قاله مؤلف الآيات الشيطانية عن الله تعالى. وقد تأثر الإعلام في البلاد العربية والإسلامية بهذا الانحراف فعاد هو الآخر يطبقه على كل من يبدو منه شدة استمساك بنصوص الكتاب والسنة، وعاد يمدح كل متسبب للعلم يبدو منه هذا النوع من التحلل^(١).

فائدة: فوائد الشبكة العالمية:

بالرغم مما في الشبكة العالمية من العيوب المعروفة، إلا أنها أتاحت للمسلمين فرصة لم تتح لهم من قبل في وسائل الإعلام الأخرى؛ لتعريف الغربيين

(١) أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٨٣).

(٢) أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٤٣).

بالإسلام وللرد على الشبهات التي تثار حوله، ولتكون منبراً مفتوحاً للحوار بين المسلمين أنفسهم وللرد على أسئلة السائلين منهم ومن غيرهم. ونحن وإن لم نكن قد استفدنا من هذه الوسيلة الجديدة الفائدة التي تبيحها لنا إلا أن الشباب المتابعين لما ينشر في صفحاتها الإسلامية - وما أكثرهم - قد انتفعوا بها، وشغلوا بها عن المداومة على مشاهدة التلفاز. ولم يقتصر نفعها على المسلمين، بل إن بعض المشاركين من غير المسلمين يطلع عليها ويبدى لأصحابها ويكتب لهم فيها مستفسراً أو طالباً لمزيد من المعرفة. بل لقد كانت سبباً لهدايتهم بعضهم إلى الإسلام^(١).

فائدة: الخلل الذي أصاب الأمة الإسلامية في هذا العصر،

نستطيع أن نقول أن هذا الخلل لا بُدَّ أن يكون خللاً أساسياً؛ لأن الله شَبَّحَهُ وَتَعَالَى أَرْحَمُ وَأَرْأَفُ بعباده من أن يعاقبهم كل هذا العقاب الدنيوي بسبب أمر جزئي أو فرعي تركوه من أمور هذا الدين إنني كثيراً ما أخشى أن تكون جهود كثير من الدعاة كمثّل جماعة من الركاب تعطلت سيارتهم فذهب بعضهم يجددون الطلاء، وبعضهم ينفخون في الإطارات الهواء، وبعضهم يجددون الفرش وبعضهم يغيرون الزيت والسيارة قابعة لا تتحرك؛ لأن مشكلتها في قلبها وفي ماكيبتها التي تحركها وليست في هذه المظاهر مع أهميتها إن هذه المظاهر مهمة، وتستفيد منها

(١) أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها؛ محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٨٣).

السيارة عند ما تتحرك أما قبل ذلك فلا فائدة منها. فأين الخلل في هذه الأمة؟ إذا رجعنا إلى الآيات الكريمة التي وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهَا الْمُؤْمِنِينَ بتلك الوعود يتبين لنا إن شاء الله السبب.

أولاً: الوصف دائماً هو للمؤمنين ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، والإيمان ليس مسألة نسبية ليس انتساباً، وإنما هو أمر يتحقق في القلب، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يعرف هذا، فمهما قال الفرد أو قالت الأمة أنها مؤمنة، إذا لم تكن مؤمنة حقاً فإن الله سبحانه يعلم هذا ولا يعطي ما يعطي المؤمنين حقاً. بل إن بعض الآيات توضح أن المقصود بالإيمان هو عبادة الله سبحانه وحده كالأية التي تقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، فهم أمة مؤمنة وهم يعملون الصالحات، وهم مؤمنون بمعنى إنهم لا يعبدون مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحداً، إذا تخلف شرط من هذه الشروط، لا ينالون هذا الفضل الذي وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به المؤمنين.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُجِدُونَ لِيَا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢١) مِثْلَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ ﴿[الفتح: ٢٣-٢٤] هذه سنة لا تتخلف، أن

الكفار إذا اتقوا مع المؤمنين فإنهم ينهزمون وهذا لا يحدث الآن، معنى ذلك أن هنالك خلل في الإيمان لم تف بالشرط الذي يستوجب هذا الفصل الذي وعدنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٩]، فإذا علم شيئاً في القلوب كانت بسببه هذه السكينة وكان هذا النصر.

إذا الخلل الذي أصاب هذه الأمة هو خلل في أمر جوهري، هو الذي يعطي هذه الأمة شخصيتها، ويميزها عن غيرها، إنه خلل في إيمانها والأمة الإسلامية أفراد تربط بينهم رابطة الإخوة الإيمانية، فإذا ذهب الإيمان أو ضعف انتفى شرط من شروط وجود هذه الأمة، وإذا ضعف الإيمان أو اختل، اختل أيضاً تبعاً لذلك شرط الإخوة وإذا لم تكن أخوة لم تكن هنالك أمة، فإذا لم يكن إيمان في القلوب لم تكن إخوة، وإذا لم تكن إخوة لم تكن أمة مؤمنة حقاً. أما أن يكون عندها إيمان، قد يكون، لكن لا تكون هي الأمة التي استكملت شروط الإيمان الواجب الذي تترتب عليه هذه الوعود التي وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها المؤمنين.

والإيمان ليس أساساً وسبباً لوجود المسلمين فحسب، بل هو الأساس لكل البناء التشريعي الإسلامي، واجبه ومندوبه ومباحه، وما حرم فيه وما أبيح، إنه الأساس العلمي والنفسي لهذا البناء، وأعني يكون أساسه العلمي، إن الإيمان هو بمثابة المقدمات التي تستتج منها كل شرائع الإسلام الأخرى، فهي تنتج عنه نتائجاً طبعياً، وأعني يكون أساسها النفسي أنه هو الذي يهيئ القلوب ويعدّها؛ لأن تقبل

بقية شرائع الإسلام، فإذا اختل الإيمان يكون هنالك خلل في البناء الذي يقوم عليه، ويكون هنالك خلل في الاستعداد النفسي لقبول هذه التشريعات النفسية، وما أصدق من قال:

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

هذا معنى معروف في القرآن الكريم: سأركز في بقية هذا الكلام على بعض مواضع الخلل التي أراها قد حدثت في أركان الإيمان، فأولها الإيمان بالله، والإيمان بالله لا يكتمل إلا بأربعة شروط:

الشرط الأول: وهو متوفر بحمد الله عندنا وعند غيرنا من غير المسلمين وهو الإيمان بأن الكون له خالق وأنه هو الذي يرزق ويرحم... هذا ما فيه إشكال.

الشرط الثاني: أن يعبد هذا الإله ولا يعبد معه غيره، هنا حدث خلل سببه -والله أعلم- أن الناس اختلط عليهم مفهوم العبودية، فهناك أشياء هي بحسب القرآن والسنة تعتبر عبادة، فتوجيهها لغير الله هو عبادة لهذا الذي وجهت إليه، فهي بهذا شرك يخرج الإنسان عن الملة، وبعضه شرك لا يخرج عن الملة، لكن نحن نتحدث الآن عن الخلل الأساسي، الذي من شأنه أو من شأن بعضه أن يخرج عن هذه الملة. العرب كانوا يعترفون أن ما يفعلونه عبادة، واعتذروا قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، المنتسبون إلى الإسلام الآن يفعلون بعض هذه الأشياء ولا يقولون إنها عبادة؛ لأنهم -وأظن أن معظمهم- يعتقد أنها عبادة، ولكن اعتقادهم أنها ليست بعبادة لا يغير من الواقع شيئاً.

الشرط الثالث: بالنسبة للإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ أَنْ تُوْمَنَ بِأَنْ هَذَا الْخَالِقُ
الَّذِي يَرْزُقُ وَيَخْلُقُ، وَالَّذِي لَا يَعْبُدُ سِوَاهُ هُوَ خَالِقُ لَهُ صِفَاتُ كَمَالٍ لَا يَشَارِكُهُ فِيهَا
أَحَدٌ، كَمَا أَنَّ ذَاتَهُ لَيْسَتْ كَالذَّوَاتِ الْآخَرَى فَلَهُ أَيْضًا صِفَاتٌ لَا يَتَصَفَّ بِهَا أَحَدٌ مِنْ
مَخْلُوقَاتِهِ، هُنَا أَيْضًا حَدِثٌ خَلَلٌ، وَحَدِثٌ خَلَلٌ مِنْذُ وَقْتِ طَوِيلٍ فِي تَارِيخِ الْأُمَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَأُرِيدُ أَيْهَا الْإِخْوَةُ أَنْ تَنْتَبِهُوا إِلَى تَفْسِيرِي لِهَذَا الْخَلَلِ، أَنَا فِي رَأْيِي أَنَّ
السَّبَبَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ تَأَثَّرُوا بِالْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، وَالْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ فَلَسَفَةُ مَادِيَّةٍ
بِالنَّسْبَةِ لِلْفَلَسَفَةِ الْمَادِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ حَقًّا هُوَ الْمَادِي الْمَشْهُورُ، وَإِذَا مَا اللَّغَةُ عِنْدَمَا
تَسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالًا حَقِيقِيًّا إِنَّمَا تَسْتَعْمَلُ لَوْصِفَ هَذَا الْمَوْجُودَ الْحَقِيقِيَّ الْأَشْيَاءَ
الْآخَرَى، إِذَا وَصَفْنَاهَا بِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ، فَوْجُودُهَا لَيْسَ وَجُودًا حَقِيقِيًّا كَوْجُودِ
الْمَادِي الْمَشْهُودِ، وَإِنَّمَا تَوْصِفُ بِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ مَجَازًا، كَأَنْ تَقُولَ مَثَلًا لِلْإِنْسَانِ إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَهُ عَقْلٌ، عَقْلُهُ مَوْجُودٌ لَكِنْ وَجُودُ عَقْلِهِ لَيْسَ وَجُودًا حَقِيقِيًّا كَوْجُودِ
جَسَمِهِ، هَذِهِ الْفَلَسَفَةُ طَبْعًا هِيَ أُمُّ الْفَلَسَفَةِ الْغَرِيبَةِ، فَتَأَثَّرْنَا نَحْنُ أَيْضًا بِالْفَلَسَفَةِ
الْغَرِيبَةِ الَّتِي هِيَ أَيْضًا اسْتِمْرَارٌ لِلْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، فَاسْتَمَرَ الْخَلَلُ الَّذِي وَجَدَ فِي
الْمَاضِي وَاسْتَمَرَ مَعَنَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، بَلْ زَادَتْ حَدَّتُهُ، مَاذَا كَانَتْ نَتِيجَةُ هَذَا؟

كَانَتْ نَتِيجَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا أَنَّهُ لَيْسَ مَوْجُودًا مَادِيًّا مَشْهُودًا وَبِمَا أَنَّ
اللَّغَةَ إِنَّمَا تَصِفُ فِي الْحَقِيقَةِ هَذَا الْمَادِي الْمَشْهُودَ، فَإِذَا اللَّغَةُ عِنْدَمَا تَصِفُ اللَّهَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا تَسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالًا حَقِيقِيًّا، فَلَا بُدَّ إِذَا مِنَ اللَّجْوِ إِلَى الْمَجَازَاتِ
وَالِى كَذَا، بَعْضُ النَّاسِ غَلَوْا فِي هَذَا الْأَمْرِ وَالْفِرْقَةُ الَّتِي سَمِيتَ بِالْجَهْمِيَّةِ، وَالَّتِي
أَتَعَبْتُ عُلَمَاءَ أَهْلِ السُّنَّةِ، مَا مِنْ إِمَامٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ إِلَّا وَرَدَ عَلَيْهِمُ الرَّدْعُ عَلَى

الجهمية، الرد على الجهمية، الرد على الجهمية.

ومع ذلك مع الأسف الذي بقي من أفكار الجهمية وانتشر هو أكثر، من الذي بقي من -مع الأسف- جهود هؤلاء العلماء الذين ردوا عليهم، الجهمية فكرة موجودة إلى الآن عند المسلمين وعند غير المسلمين، الذين غلوا فيهم أبوا أن يقولوا حتى -إن الله موجود-؛ لأنه في رأيهم أن الله لا يوصف بهذا الوصف هو هذا، وما دام الله ليس؛ كذلك فلا ينبغي أن يوصف بهذا الوصف، يعني دافعهم هو أن ينزهوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا ما دام لا يوصف بأنه موجود، لا يوصف بأنه رحمن ولا رحيم على الحقيقة، ودعك أن يوصف أنه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] أو أن له يداً أو له وجه، هذه من باب أولى أن ترفض؛ لأنه لا يفهم منها -في رأيهم- إلا هذه اليد ولا يفهم من الاستواء إلا هذه الطريقة التي يجلس فيها الناس أو يجلس فيها الحيوانات بعض الناس لم يغفل هذا الغلو، ولكن بقي أثر منهم، أبوا أن يصفوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ببعض هذه الصفات التي وردت في القرآن، أبوا أن يصفوه بها على حقيقتها، أما أن ينكر الإنسان أنها واردة في القرآن طبعاً لا ينكر هذا، لكن المهم ليس أن يتلوها الإنسان وإنما يؤمن بمعانيها والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنما أرسل الرسل لكي يعرفونا بالله.

فهذه الأوصاف هي تعريف بالله وأنت لا تعرف الشيء إلا إذا عرفت أوصافه، فإذا تحولت الأوصاف بالنسبة لك إلى كلمات فقط لا معنى لها فهذا خلل في الإيمان، ويذكر الإمام أحمد في كتابه له اسمه (الرد على الجهمية) قصة طريقة تبين لكم ما قلت من أن السبب هو التأثير بالفكر المادي، يقول: إنه قابل

جماعة يبدوا أنهم كانوا من الماديين يسمون (السمنية) فقالوا للجهنم هذا، من تعبد؟ هذا الذي تعبد هل رأيته بعينك؟ قال: لا، سمعت صوته؟ قال: لا، لمست يديك؟ قال: لا، ذقته؟ لا، شممت؟ لا. قالوا: إذا أنت لا تعبد شيئاً. فذهب واختار وجاءهم بعد أربعين يوماً، وقال لهم: هل لكم روح؟ أو عقل؟ لست أدري، قالوا نعم، قال: رأيتموه؟ لا، شممتوه؟ لا، لمستوه؟ لا، هكذا إلى كل الأسئلة التي سألوها إياها، قال لهم: إذا ليست لكم أرواح. ما الخلل الذي وقع فيه؟

بدأ بعد ذلك يشبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالروح وبالعقل، يعني تحول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تصوره من ذات موجودة في الخارج إلى فكرة، أو إلى ما يسمى في التعبيرات الحديثة، شيء مجرد (ارمتدكت) وهذا هو الشيء الذي يشيع الآن بين الناس، تجد مثلاً أوصافاً لا تجد لها ذكراً في القرآن الكريم، لكن الناس أصبحوا يعتقدون أنها هي الأوصاف الحقيقية التي لا يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا قال بها.

فالله يقال عنه في بعض تعبيرات الله الإنجليزية: (أفري هوير، أند نو هوير) تناقض، هو في كل مكان وليس في مكان أو حتى عدنا في اللغة العربية التعبيرات الكلامية، هو في كل مكان وبعدين أحياناً: لا يحده مكان، وليس في حيز، وليس له جهة، ولا كذا بل بعضهم قال: أنه لا يوصف إلا بوصف سلبي، فقال لهم علماء أهل السنة، أنتم شبهتموه بالمعدومات؛ لأن الشيء إذا كان ليس موجوداً، فأنا أستطيع أن أقول ليس طويلاً، ليس قصيراً ليس أحمر، ليس أصفر ليس سمياً، ليس ضعيفاً وهكذا، فلا بُدَّ لمعرفة الشيء من أن تصفه وصفاً إثباتياً،

وصفًا إيجابيًا فهذا هو السبب.

العلة أيها الإخوة: هو أن نعتقد أن نتخلص من هذه الفكرة التي أصبحت كأنها قاعدة عقلية أن من شرط الوجود حقًا أن يكون ماديًا، لا. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْجُودٌ، وصف بأنه ذات وصف بأنه شيء، ووصف في بعض الأحاديث بأنه شخص، فهو ذات موجودة لها صورة وإن كنا لا نعرف هذه الصورة ولا ندركها، أكرر لكم هذا، له صورة، عندما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول، ما قال: ليس له كيف، له كيف، لكن هذا الكيف لا نعرفه نحن، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيء ويمكن أن يرى، لا نراه الآن لأسباب تختص بنا، أما في الآخرة فإن شاء الله نراه ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، فالله شيء وموجود ولكنه ليس شيئًا ماديًا، وكذلك بعض المخلوقات موجودة، ولكنها ليست مادية فليس من شرط الموجود أن يكون ماديًا.

الشرط الثالث: وهو يقودنا إلى الركن الثالث من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالكتب والرسول، فلا يكفي أن يقول الإنسان إنه يعبد الله وحده بل لا بُدَّ أن يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطريقة التي شرعها رسوله ﷺ أو من أرسل إليه من الرسل السابقين إذا كان في عهدهم.

هنا أيضًا حدث بعض الخلل، بعضه حدث في زمن الصحابة، لم يحدث في الصحابة، وإنما حدث في زمانهم عند بعض الناس، أول خلل حدث في التاريخ الإسلامي هو خلل انكار السُّنَّة، طبعًا إذا أنكرت السُّنَّة لن تعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطريقة التي وصفها رسول الله ﷺ.

ولذلك أيها الإخوة، التعبير الذي تسمعون: أهل السنة والجماعة وبعض الناس يظنون أن أهل السنة والجماعة يعني فرقة من الناس، يقول لك: الناس يتقسموا أهل سنة وشيعة، ويظن أن هذا مثل هذا، لا، أهل السنة لماذا سمو أهل السنة؟ سمو بأهل السنة؛ لأن الذين انحرفوا عن الطريق الصحيح الذي هو طريق القرآن وطريق الرسول ﷺ في عهدهم كان انحرافهم بسبب انكارهم للسنة، فهؤلاء لكي يؤكدوا أنهم مستمرين على ما تركهم عليه الرسول ﷺ سمو أنفسهم أو سمو بأهل السنة.

وليس معنى ذلك أنهم ليسوا أهل القرآن الكريم، وليس معنى ذلك أنهم فرقة معينة لها رئيس معين، ليس هذا، وإنما هي تأكيد لاستمرارهم على ما تركهم عليهم الرسول ﷺ، وسموا بأهل الجماعة؛ لأن تلك الفرقة التي أنكرت السنة خرجت أيضًا على الحاكم الشرعي فكانت منكرة للسنة وداعية إلى الفرقة فسموا أنفسهم بأهل الجماعة والجماعة هنا المقصود بها: عدم الفرقة، ليس المقصود بها عدد كبير من الناس، لا. فإذا هذا كان الخلل الأول.

الخلل الثاني: يختص أيضًا بالسنة هو وما زال أيضًا موجود عند بعض الناس كما أن بعض الناس ينكرون السنة، بعضهم يشكك في عصمة الرسول ﷺ وأنت إذا لم تعتقد بعصمة الرسول ﷺ فقد جعلت كلامه كلام سائر البشر، بعضهم غلا، فلم ينف عصمة الرسول ﷺ ولكن أضاف العصمة إلى غير الرسول ﷺ، فإذا كان أولئك قد ساووا الرسول ببقية الناس، فهؤلاء قد ساووا بعض الناس بالرسول ﷺ،

فأصبح أيضًا يعني: حادوا عن أن يعبدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِمَا جاء به رسوله ﷺ^(١).

فائدة: شرك العوام، وشرك المثقفين والحكام:

شرك العوام، هو أن يدعو غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن يستغيث بغير الله أن يذبح لغير الله، أن يذهب إلى السحرة والكهان، ويصدقهم، أن يعتقد في شيخ أو ولي أن له تصرفًا في الكون، أنه يمكن أن يعطيه ولدًا، وهكذا... والذي وقع عند كثير من المثقفين ومنهم طبقة الحكام هو شرك أتانا من الثقافة الغربية، وهو الشرك في التشريع في الحكم اعتقد كثير من الناس ومنهم من يصلي ويصوم ويذهب إلى الحج، أن الدين لا علاقة له بمسائل التشريع وتنظيم أمور الناس، هذا أيضًا شرك.

لقد أدركت الحركة الإسلامية الحديثة، هذين النوعين ولكن المؤسف أننا انقسمنا إزاءهما إلى فريقين تقريبًا، منا من جمع بين الأمرين، لكن عمومًا كانت هنالك دعاة تخصصوا في النوع الأول وأهملوا النوع الثاني، ودعاة فعلوا عكس ذلك تمامًا، وأرى أن إصلاح الخلل يكون بأن يعترف كل الفريقين بأن ما يفعله الآخر ويدعو له حق، ثم يتخصص كل منا فيما يسره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، بعضنا يريد أن يصلح أحوال العوام وعامة الناس، وهذا من أكبر أنواع الخير ومن الجهاد؛ لأن الإصلاح ليس فقط إصلاحًا للحكم ولكن أن تنقذ إنسانًا من النار؛ «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمُر النعم»، لكن الذي

(١) أسباب ضعف الأمة (آين الخلل)؟ محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٩٤).

يحدث مع الأسف أن الذين يفعلون الأول يتقدون الذين يفعلون الثاني، والذين يفعلون الثاني يتقدون الذين يفعلون الأول وأحياناً كل منهم يحتقر ما يفعله الآخر، وهذا ليس صحيحاً^(١).

فائدة: التفريق بين صحة العقيدة والتخصص في علم العقيدة:

ينبغي لإخواننا الذين يهتمون بمسألة العقيدة أن يفرقوا بين صحة العقيدة والتخصص في علم العقيدة، يمكن أن يكون شخص متخصص في علم العقيدة، يعرف عن تفاصيلها وكل ما ورد أو معظم ما ورد في الكتاب والسنة عنها وما قاله علماء الكلام وكذا، ومصطلحاتها وكذا، وشخص آخر لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ويعبد الله، ولا يشرك به غيره فهل نقول له أنت لست موحداً؛ لأنك ما عرفت ما عرف الشيخ الفلاني.

فهناك فارق إذاً بين أن أكون موحداً وبين أن أكون مختصاً في علم العقيدة، فإذا جئت وامتحتنتني في بعض الأشياء قد لا أعرفها، كما أن المجاهد لا يشترط فيه أن يقرأ كل أبواب الجهاد في البخاري ومسلم، ويحفظ الأحاديث، يمكن أن يعرفها إنسان ولا يكون مجاهداً، ولا يعرف منها ولا حديث واحداً يحفظه عن ظهر قلب ويذهب ويجاهد ويموت في سبيل الله، فهذا مجاهد، وهذا ليس

(١) أسباب ضعف الأمة (أين الخلل)؟ محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٩٤).

بمجاهد وإن كان قد تخصص في علم الجهاد^(١).

فائدة: التفريق بين علم العقيدة وكتب العقيدة:

ينبغي أن نفرق بين علم العقيدة وكتب العقيدة، علم العقيدة في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ، ما فصل فيهما هذا العلم، لكن علماءنا جزأهم الله خيراراً أو في بعض الأوقات ورداً على بعض الشبهات ومناقشة لبعض الفلاسفة والمتكلمين، أن يستعملوا مصطلحات وأن يتكلموا في العقيدة بلغة خاصة، هذه اللغة ليست شرطاً في معرفة العقيدة، وأنا تعمدت عندما قلت لكم الإيمان له شروط ثلاثة كان في إمكاني أن أقول لكم: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، أفرض أن واحداً سألني قال: ما توحيد الربوبية، ما عرفت، لكن قال لي: هل تعتقد أن هناك خالقاً غير الله؟ أقول، لا. هذا توحيد الربوبية، فأنا عرفت توحيد الربوبية، لكن ما عرفت أنه يسمى بهذا الاسم والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يحاسبنا على الاسم وإنما يحاسبنا على ما استقر في قلبي، وكذلك أن أقول أن الله يوصف بكذا من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، كم منكم يعرف هذه الألفاظ؟

مرة في اجتماع قلت لأخواننا العلماء، خصوصاً إذا تكلمتم لعامة الناس في التلفزيون أو في الراديو لا تستعملوا هذه الألفاظ، التمثيل - الناس لا يعرفون إلا التمثيلات هذه، ما يعرفوا تمثيل إن هذه الألفاظ أنا أشهد بأنها ألفاظ دقيقة وعلمية

(١) أسباب ضعف الأمة (أبن الخلل)؟ محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٩٤).

لكنها لا تفيد عند من لا يعرفها، بعض الناس لا يعرفون أشياء أقل من هذا، بعد أن قلت هذا الكلام الذي قلت لكم أنني تكلمت فيه، جاءني بعض الناس يؤيدون ما قلت، قال لي أحدهم: والله أنا سمعت أو سمع عن شخص قرأ أو سمع من الإذاعة الحديث «لتبعن سنن من كان قبلكم حذوا القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» أخرجه الترمذي.

قال: كان يظن أن الترمذي أخرج الضب، مع أن هذا قد يظن العالم أن هذا شيء عادي، وقال آخر: إنه سمع شخصاً يقول: إن شخصاً سمع عالمًا يقول أن رسول الله ﷺ قال: كذا، قال: صححه البخاري قال: أيش يكون البخاري، هو الرسول يتكلم ويصححه البخاري؟ فحتى هذه المصطلحات وهي مصطلحات تظنونها سهلة، لكن بالنسبة لكثير من الناس ليست معروفة، فلا نمزج بين معرفة الحقائق ومعرفة المصطلحات «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»^(١).

فائدة: الفرق بين منهج العقيدة، ومنهج العمل:

الفرق بين منهج العقيدة، ومنهج العمل، هذا من الأشياء التي أخطأنا فيها كثيرًا، في العقيدة لا مساومة، إذا عرفت أن هذا الشيء قاله الله تؤمن به، ما فيه مساومة، تعتقد أنه صحيح، مهما كان من المندوبات، مثل ركعتين بعد المغرب، إذا عرفت أن الرسول قال هذا ثم أنكرتها كفرت، ما عملتها شيء آخر، فالعقيدة ما

(١) أسباب ضعف الأمة (أين الخلل)؟ محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٩٤).

فيها مساومة، بالنسبة للعمل المنهج مختلف، فكثير من إخواننا خلطوا بين الأمرين ظن أنه حتى في العمل ينبغي أن يعمل كل شيء كما يعتقد كل شيء، لا، العمل تابع للاستطاعة، والعمل تابع لتقدير الظروف، والعمل فيه تقديم الأهم على المهم، والعمل فيه ارتكاب أخف الضررين والعمل فيه أحياناً السكوت على بعض الباطل لكي لا ينتج عنه باطل أكثر، والعمل فيه ترتيب الخصوم والعداوات لا تفتح جبهات مختلفة مع كل الناس، هذه مسائل عقلية يعرفها حتى الكفار، فهي كذلك جزء من هذا الدين، فلا نخلط بين المنهج الاعتقاد ومنهج العمل.

وقد يكون أيضاً من أحسن الوسائل للدعوة إلى العقيدة أحياناً يكون بعض الأعمال الصالحة، طبعاً العمل الصالح لا يكون عملاً صالحاً إلا إذا بُني على العقيدة، لكن أعني أنك يمكن أن تدخل الإنسان إلى العقيدة عن طريق دعوته إلى بعض الأعمال الصالحة، هب أن إنساناً يريد أن يجاهد في أفغانستان فجئته، فقلت له: يا أخي أنا رأيتك تفعل كذا وكذا وهذا من الشرك، ألا تظنون أيها الإخوة أن هذا إنسان ذاهب ليعطي نفسه لله ألا يتنبه أكثر من الشخص العادي؟ لأن هذا يقول: أنا غداً أكون في الدار الآخرة إن شاء الله، فإذا قلت له: هذا شرك يدخلك النار، ما ذهب ليقاتل إلا ليخرج من النار، يقول لك لا خلاص أتركه، فيمكن في خمس دقائق أو في عشر دقائق أن تعطيه مبادئ العقيدة تخلص قلبه من أنواع الشرك فيذهب ويجاهد، فالعقيدة أيضاً الدعوة إليها لا تعني تعطيل الأعمال الأخرى.

أيضاً من وسائل العمل أن نتعاون في الأشياء التي نحن متفقون عليها،

ونتجادل بالتي هي أحسن في الأشياء التي تختلف فيها، ومن طبيعة العمل أيضًا أن نقسم الناس مراتب، حتى لو كانوا كفارًا، فهناك من هو أقرب، وهناك من هو أبعد، ولذلك القرآن الكريم أعطى أهل الكتاب مكانة خاصة، بعض الناس يقول لك الكفر ملة واحدة، فيفسر هذا بمعنى يتناقض مع ما جاء في كتاب الله وسنة الرسول ﷺ (١).

فائدة: عوامل البقاء في الحضارة الإسلامية:

في اعتقادي أننا برغم هزيمتنا لا زلنا نملك عوامل البقاء - كأمة - إن فينا من عوامل البقاء ما ليس في الحضارة الغربية. الحضارة الغربية فيها حيوية ولكنها مؤقتة، يمكن أن نشبهها بذبابة تعيش مدة قصيرة، فهي حية ولكنها بعد قليل تموت. ويمكن أن نشبه المسلمين بأنهم في حالة نوم أو إغماء ثم يعودون بعدها إلى الحياة إذا توفرت هذه الشروط - كيف نهض - أولاً أنا أرجو حين نفكر في النهضة ألا يكون كتفكير كثير من غير الإسلاميين، وهو أننا نريد أن نكون مثل الغربيين، نحن لا نريد هذا، نحن نريد أن نهض، ولكن غايتنا من النهضة أن نكون من الذين أنعم الله عليهم فجعل تمكين الدين على أيديهم وجعلهم رحمة للبشرية، لا نريد فقط أن تكون لنا مصانع كما لهم مصانع ومدارس كما لهم مدارس وكذا كما لهم كذا؛ لأن هذه يمكن تستعمل ضدنا وضد البشرية.

(١) أسباب ضعف الأمة (أبن الخلل)؟ محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٢٩٤).

لكن إذا أردنا هذا فإن الطريقة الأساسية والوحيدة إليه هو القرار بأن نعود إلى الدين عودة صادقة - أصل الدين موجود فينا ولكن هذا الأصل لا يكفي لبناء الحضارة وللتغلب على الأمم الأخرى لا بُدَّ من تقوية هذا الإيمان وتنقيته والالتزام بلوازمه في حياتنا الخلقية أولاً، ثم في حياتنا الخارجية، لا بُدَّ أن تؤول القيادة الفكرية والسياسية إلى هذا النوع من الناس، إن الذي نحتاج إليه ليس شطارة سياسية، وإن كانت الشطارة السياسية أحياناً تفيد على قاعدة - إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر، ولكنه لا ينصره بسبب فجوره ولكن ينصر المسلمين به كما ينصرهم بالنعاس وبأي شيء آخر^(١).

فائدة: الحكمة من قتل المرتد:

الردة هي قول أو فعل ظاهري يناقض الإيمان فتحزن نعاقبه على هذا الفعل الظاهر وهنالك حكم كثيره في هذا منها: أحياناً الإنسان تعظم بباله شبهات، لا بُدَّ أن كثيراً من الشباب جربوا هذا الواحد تأتيه شبهات وكذا إذا تكلمت بها وأعلنتها تكون كأنك ملتزم بها تقول فلان قال وفلان قال، لكن إذا خفت وكتمتها وجعلتها بينك وبين نفسك وأسرت بها إلى بعض أصدقائك أنا أعرف فيه بعض الشباب في أمريكا لديهم شبهات، لكن أسروا إلي ببعضها وهي كفر

(١) عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية وسبيل النهوض بها، ندوة شارك فيها الدكتور جعفر في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا بالإشتراك مع اسماعيل راجي الفاروقي رَحِمَهُمُ اللهُ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٠٧).

وتكلمت معهم وربنا هداهم واهتدوا والحمد لله وصاروا من أصلح الناس، فيحصل للإنسان كذا هذه واحدة الحكمة الثانية أن هذا يؤثر في أطفاله وزوجته وأقاربه وربما في أصدقائه.

ونحن عندنا الإيمان هذا هو أهم ما يملك الإنسان لا نحب للإنسان أن يموت كافراً، ولذلك الدين يسد كل الذرائع التي تؤدي إلى الكفر ما في إنسان يستطيع أن يدخل الإيمان في قلب الإنسان ولا فيه إنسان يستطيع أن يدخل الكفر في قلب إنسان، لا النبي يستطيع أن يدخل الإيمان في القلب إنك لا تهدي من أحببت ولن يستطيع الشيطان يستطيع أن يدخل الكفر في القلب ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فنحن معاملتنا كلها معاملة مع الناس في الظاهر^(١).

فائدة: ضرورة استمساك المسلم بدينه:

أريد أن أقول لكم كونوا مستمسكين بدينكم ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، الإنسان ما يكون ضعيف كلما سمع شبهه أثرت فيه كلما سمع رأي أثر فيه كن إنساناً مؤمناً إعرف أن هذا الكتاب الذي تقرأه هذا كلام الله سبحانه وتعالى الذي يعلم الغيب ويعلم ما في السموات وما في الأرض هذا الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

(١) فرقة دجال، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم يوم السبت ١٤٢٧/٣/١ هـ الموافق

٢٥/٤/٢٠١٦ م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣١٣).

ما يكون في قلبك حرج أو شك أو كذا من القرآن الكريم ولا مما صرح من حديث النبي ﷺ وإذا خطر ببالك الشكوك أو أسئلة أو كذا لا تحولها إلى مشكلة نفسية أجعلها فقط في مجال الفكر.

وأنا أقول لكثير من الشباب يعني عاملوا دينكم كما يعامل التجريبي الطبيعة الآن لو واحد يدرس طبيعة أي نوع من أنواع الطبيعة، ووجد مشكلة يقول والله هذه الطبيعة ما فيها فائدة كلها متناقضة مرة نلقى القانون كذا ومرة نلقاه كذا، ما فيه إنسان يعمل كذا دائماً الإنسان الذي يدرس يتهم نفسه يقول أنا الذي لم أفهم ويبحث وكذلك بالنسبة للمدين كثير من الأشياء لا نفهمها والله ثم نبحث ونجتهد ونسأل العلماء ونقرأ في التفسير حتى تطمئن قلوبنا^(١).

فائدة: الإسلام والعقلانية:

للإسلام خاصة يمكن أن نسميها بالتعبير الحديث خاصة العقلانية. أنا أعرف أن كثيراً من المتدينين لا يحبون كلمة العقلانية بل كثير من الناس يرون أن هناك تناقضاً بين أن يكون الشيء دينياً وعقلانياً؛ لأن العقلانية مما يميزها هي اعتبار النتائج، فالأعمال والأقوال تقوم بالنتائج التي تنتج عنها، لذلك يقول الإنسان في موقف قولاً لا يقوله في موقف آخر، يقول ويعمل عملاً اليوم لا يعمله غداً بحسب النتائج المترتبة على هذا (هذه هي العقلانية). لكن كثيراً من الناس

(١) فرفة دجال، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم يوم السبت ١/٣/١٤٢٧هـ الموافق

٢٥/٤/٢٠١٦م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣١٣).

يظنون أن الأوامر الدينية أوامر مطلقة غير مقيدة بزمان ولا مكان ولا مصلحة ولا اعتبار لظروف ولا كذا ولا كذا، وهذا ليس بصحيح. الإسلام هو عقلائي بهذا المعنى الذي ذكرناه^(١).

فائدة: العقلانية الشكلية والعقلانية الحقيقية؛

يمكن أن تقول: أن هناك عقلانية شكلية وعقلانية حقيقية. وبعض الغربيين خلطوا بين الأمرين ظنوا أن العقلانيات كلها عقلانيات شكلية. العقلانية الشكلية هي عقلانية يمكن أن يلتزم بها حتى الإنسان المفسد - يعني اللص يمكن أن يكون عقلانياً - يقدر هل سرقة الشيء الفلاني تستحق في هذا الظرف الذي هو فيه وفي المخاطر التي تحيط به أم لا؟ فتفكيره هذا تفكير عقلاني. يفكر في النتائج. اللص أيضاً الذي يقول أسرق هذا الذي هو أقل ثمناً وأقل خطورة وأترك ذلك الذي ثمنه غال، ولكن احتمال أن يقبض عليّ فيه أكبر عقلائي، ولولا أن الناس يفكرون بهذه الطريقة لما كان للعقاب من فائدة، لماذا يقول السارق والسارقة تقطع أيديهما؟ لأن هذا اللص يفكر.

أنا إن سرقت ستقطع يدي فيفكر فهو عقلائي بهذا المعنى أيضاً، الشخص الانتهازي يمكن أن يكون عقلانياً بل كثير من الانتهازين من أكثر الناس عقلانية.

(١) مرقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٣٢٣).

نحن نراه يغير موقفه ويغير انتماءه اليوم مع هذه الجماعة غداً مع تلك الجماعة، اليوم مع هذه الحكومة غداً مع تلك الحكومة؛ لأن له هدفاً يراه يحسب الواقع أن اليوم يحققه هذا الانتماء، غداً يحققه موقف آخر فهو عقلائي لكن هذه العقلانيات، يمكن أن نقول: أنها عقلانيات شريرة.

والذي يميز الإسلام أن عقلانيته يمكن أن نصفها بأنها عقلانية خيرة. لماذا؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَضَعَ لَنَا الْأَهْدَافَ الَّتِي نَتَغَيَّاها مِنْ أَعْمَالِنَا، وَأَيْضًا هَدَانَا إِلَى الْوَسَائِلِ الْأَسَاسِيَةِ الَّتِي نَلْتَزِمُ بِهَا فِي بُلُوغِنَا لِتِلْكَ الْغَايَاتِ فَهِيَ عَقْلَانِيَّةٌ لَكِنْهَا عَقْلَانِيَّةٌ خَيْرَةٌ وَلَيْسَتْ عَقْلَانِيَّةٌ شَرِيرَةٌ. الْمَصَالِحُ الَّتِي يَتَغَيَّاها الْمُسْلِمُونَ حَصَرَهَا كَمَا تَعْلَمُونَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي أَنَّهَا حِفْظُ الدِّينِ وَحِفْظُ الْعَقْلِ وَحِفْظُ الْمَالِ وَالنَّسْلِ وَالْعَرَضِ وَهَكَذَا. فَهَذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَتَغَيَّاها الْمُسْلِمُ وَيَجْعَلُهَا مَعْيَارًا لِلْعَمَلِ هَلْ يُعْمَلُ أَوْ لَا يُعْمَلُ؟ مَا النَّتَائِجُ الَّتِي سَتَحْدُثُ عَنِ الْعَمَلِ اعْتِبَارًا بِاعْتِبَارِ هَذِهِ الْأَهْدَافِ.

أما المصالح هذه فقد جعل الله وسائلها، بعضها ثابتة لا تتغير إلا في ظروف شاذة جداً مثلاً، قَالَ صَلَّى ﷺ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴿[النساء: ١٤٩]﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، ثُمَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَرْضَى لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَلَكِنْ قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ أَصْكَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، وَمِنْهَا مَا فِيهِ سَعَةٌ اخْتِيَارًا، اخْتِيَارًا يَرَاعَى فِيهِ حَالُ الْاِخْتِيَارِ وَمَدَى تَحْقِيقِ الْوَسِيلَةِ لِلْغَايَةِ الْمَعْنِيَةِ فِي الظَّرْفِ الْمَعِينِ، وَمِنْهَا وَسَائِلُ تَرْكِ الشَّرْعِ تَحْدِيدُهَا لِلنَّاسِ مَرَاعِينَ تِلْكَ الْأَحْوَالِ.

ومن الدلائل على هذه العقلانية أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً بِأَنْ

يكفروا أيديهم ويقيموا الصلاة ولا يقتتلوا عدوهم وفي مرة ثانية أذن لهم بالمقاتلة، وفي مرة ثالثة أمرهم بالقتال، ورضي من أقوام بالجزية ولم يرض من آخرين، عاهد الرسول ﷺ أقوامًا ولم يعاهد آخرين، هم ﷺ ذات مرة أن يتنازل للكفار عن بعض أموال للمسلمين، وهكذا. الذي ينظر في هذه المواقف إذا سردت هكذا سردًا يظنها متناقضة متضاربة. لكنه إذا نظر في ظروفها وملابساتها علم أن وضع واحد منها موضع الآخر هو التناقض المنافي للعقلانية.

نعم بعض العلماء قالوا إن آية القتال نسخت كل هذا، بل بالغ بعضهم فقالوا نسخت قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، لكن هذا القول ما أخذه المسلمون بل رأينا بعد موت النبي ﷺ كانت الدعوة بالتالي هي أحسن، وكان قتال في مرة وكانت معاهدات في مرة وكانت مسالمة في أخرى ورضى المسلمون في مرة بالتنازل وهكذا. كل ما حدث في زمن النبي ﷺ حدث أيضًا بعد زمانه ﷺ، فإذا نظرنا إلى أحوالنا هذه بهذه النظرة العقلانية سنقول إن السلام من مصلحة المسلمين^(١).

فائدة: نظرة الإسلام إلى الإنسان

ترى بعض النظريات أن الإنسان يولد شريرًا ووارثًا للخطيئة، ويرى بعضها إن الإنسان محايد بين الخير والشر ويرى بعضها أن الإنسان لا فطرة له. بل فطرته

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٣٢٣).

إنما تحددها الظروف الاجتماعية والاقتصادية وكذا، وبينما نرى بعض النظريات صارخة في تعصبها العنصري وبعضها يستخفي وهكذا. نجد أن الإسلام واضح جداً في أن الناس مفطورون على الخير ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) قَالَتْهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشعر: ٧-٨]، ويوضح الرسول ﷺ هذا في حديثه المشهور: «كل مولود يولد على الفطرة» وفي رواية: «على هذه الملة».

فنحن نعتقد أن كل مولود هو معناه كل مولود يولد مسلماً والانحرافات هذه طارئة عليه، فإذا عاش الناس في الإسلام واستطعنا أن نوصل هذه الدعوة إلى الناس فنحن نخاطبهم بهذه الفطرة التي فطرهم الله سبحانه عليها، ولذلك كان من سياسة الإسلام أنك تحاول بقدر الإمكان أن توصل هذا الحق إلى الناس ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُفْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، بل إن هذه الفطرة لا تتغير أبداً ﴿فَفُطِرَتِ اللَّهُ إِلَيْنَا فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِلْخَلْقِ مِنَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فهي لا تتغير. ينحرف الإنسان -يسير ضدها كذا، لكنها هي في حقيقتها لا تتغير. ويظل الإنسان الذي لا يكون اعتقاده وعمله متمشياً مع فطرته يظل في نزاع، ويعلم إنه على باطل إلا قلة من الناس تصل إلى درجة لا تعرف معروفاً أو تنكر منكراً.

إن تأكيد الإسلام على ثبات الفطرة وخيريتها يجعلها هي السابقة على الانتماءات الدينية الطارئة تلك والثقافية والحضارية، فليست الثقافات والحضارات هي التي تصنع فطرة الإنسان وتحدد سلوكه وطرائق تفكيره كما تقول بذلك بعض النظريات الغربية؛ وإنما فطرته هي المعيار الذي يمكنه من الحكم

على تلك الثقافات والحضارات. فما وافقها كان موافقاً للإنسان وسبباً لسعادته، وما خالفها كان من أسباب شقائه، ولذلك فإن المسلم لا يضيق بوجود الناس على الأرض مهما كانوا مخالفين له، بل يظل يطمح في أوبتهم إلى الخير الذي يدعوههم إليه^(١).

فائدة: الدعوة للإسلام هي الدعوة إلى الحق الموافق للظطرة:

إن أفضل ما يقدمه المسلم لغير المسلم هو دعوته إلى هذا الحق الموافق لتلك الظطرة، لذلك كانت الدعوة من أجل الأعمال التي يعملها المسلم، وكان جزاء الله عليها من أوفر جزائه سبحانه، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [قصص: ٣٣]، وقال ﷺ: «فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النعم»، لكن الهداية أمر قلبي لا يمكن أن يجبر الإنسان عليه، ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه واضح دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه. بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة. ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً. لذلك لا يستعمل في الدعوة إليه إلا الأساليب التي فيها احترام

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٣٢٣).

للإنسان وافترض أنه إنسان عاقل ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]،
والحكمة يدخل فيها كما قال العلماء إقامة الأدلة على الدعاوي الإسلامية
﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ [النحل: ١٢٥]، يدخل فيها بيان كل ما يترتب على قبول الحق
وكل ما يترتب على قبول الباطل، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَحْدِلْهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾
[النحل: ١٢٥] والمجادلة بالتتي هي أحسن يدخل فيها أن تستمع إلى حججه وإلى
اعتراضاته، وأن لا تخرجه في النقاش وهكذا إلا من ظلم وهذه في أحوال
شاذة^(١).

فائدة: الإسلام يميز تمييزاً واضحاً بين الحكم على المعتقدات ومعاملة

المعتقدين:

إن الإسلام يميز تمييزاً واضحاً بين الحكم على المعتقدات ومعاملة
المعتقدين. ففي المعتقدات ليس هناك أنصاف حلول، ليس هناك مجاملة. كل ما
كان نقيضاً للإسلام فهو باطل، وكل ما جاء به الإسلام أو لزم عنه عقلاً فهو حق،
وكل ما لزم عن باطل فهو باطل، سواء قال به مسلم أو قال به كافر، فهذا هو
الموقف من المعتقدات، وأهم المعتقدات التي يقسم الإسلام الناس على أساسها
هي كما تعلمون المعتقدات المتعلقة بالخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى هل هو موجود أو غير
موجود؟ هل يعبد وحده أم يشرك في عبادته غيره؟ هل هو سُبحَانَهُ وَتَعَالَى له الأسماء

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني
للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته
- محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ،
(ص: ٣٢٣).

الحسنى الصفات أم يشاركه في ذلك أحد غيره؟ هل أرسل رسلاً وأنزل كتباً يجب أن تتبع أم ترك الناس سدى؟

فما كان من الجانب الأول: في هذه الاختيارات كلها فهو على الحق منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى الأرض إلى الآن.

وما كان على الجانب الثاني: فهو من أهل الباطل. أما بالنسبة للناس فيختلفون، مثلاً الذي يدخل النار هو الكافر الذي عرف الحق وأباه ﴿كَلَّمَآ أَلْفِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمُ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴿[المك: ٨-٩]﴾. فإذا كل من لا ينطبق عليه هذا الكلام، كل من لا يقول يوم القيامة، بلى قد جاءنا نذير. لا يدخل النار ابتداءً وهؤلاء هم أهل الفطرة. فمهما كانوا على ضلال وكما قال أحد العلماء أظنه ابن تيمية قال في الحديث: «إن الله نظر إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم فمقتهم إلا بقايا من أهل الكتاب». فقال مع مقتهم لهم قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

وربما أضيف قسمًا ثالثًا: وهو وجدنا عجبًا من الناس في أمريكا بهذه الطريقة. هو إنسان بقي على فطرته حتى بعد أن كبر ورأى هذه الأديان التي درسها وما قبلها، وعاد إلى فطرته وآمن بأن الله واحد وأنه وحده الذي ينبغي أن يعبد، لكن عبده بالطريقة التي دلت عليه الفطرة. لا يعرف إلا الدعاء إلا أن يعمل بعض أعمال الخير لا يعرف شيئًا عن الإسلام أبدًا، لا تظنوا إن الناس يعرفون الكثير عن الإسلام، أناس في داخل واشنطن لا يعرفون الإسلام، شباب أسلموا قالوا لي كنا نعتقد أن الإسلام دين السوء، فهؤلاء أنا في رأيي ناجون؛ لأنهم ماتوا على الفطرة والحديث يقول: «إني خلقت عبادي حنفاء» الحديث القدسي وفي بعض الروايات

حنفاء: يعني على هذا الملة، فإذا بقي على هذه الملة فهو إن شاء الله من الناجين، حتى الكفار معاملتهم في الآخرة تختلف عن معاملتهم في الدنيا، فلذلك ينبغي أن نفرق هذه التفرقة.

بالنسبة للكفار في الدنيا للإسلام شيء يمتاز به على كل الأديان والأيدولوجيات الأخرى وهو أنه يعترف بما يسمونه الآخر، ويعترف بوجود الآخر، الله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ما قال له لذلك مهمتك أن تقتلهم جميعاً. الناس ولو حرصت لن يكونوا مؤمنين، ولذلك فصل الإسلام تفصيلاً لم يفصله دين ولا مذهب آخر في كيفية معاملة هؤلاء المخالفين للمسلمين، إذا أردتم أن تعرفوا قيمة هذا الاعتراف بوجود الآخر.

قارنوا الإسلام بالمذهب الشيوعي مثلاً، الشيوعية من اعتقاداتها إن الناس في النهاية سائرون حتماً إلى الشيوعية، ولذلك كل من يقف ضدها فهو يقف ضد حركة التاريخ، وإذا فكر الإنسان بهذه الطريقة فسيقول إذن أنا عندما أقضي على هؤلاء أساعد حركة التاريخ؛ لأن هؤلاء ضدها، الأديان هذه النصرانية واليهودية المحرفة الآن ليس فيها شيء عن الإسلام مع أنها في أصلها فيها شيء. فالدين الوحيد الذي يتكلم عن الآخر ويعلمنا كيف وماذا نفعل إزاءه هو الإسلام^(١).

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٢٣).

فائدة: السلام يساعد الناس على أن يحققوا مصالحهم المشتركة:

السلام من البديهيات، أنه يساعد الناس على أن يحققوا مصالحهم المشتركة وأرضنا هذه صارت كالقرية الواحدة، وهناك مشكلات يجب أن يتعاون الناس على حلها، مشكلات تواجه كل الناس، مشكلات التلوث، مشكلات المخدرات، مشكلات البرامج التليفزيونية هذه التي تذاع على العالم كله وهكذا. فصارت هنالك مشكلات يجب أن يتعاون الناس على حلها جميعاً مسلمون كانوا وغير مسلمين. وزيادة على ذلك السلام يهيئ للناس أو ييسر عليهم أن يتعاون كل منهم مع من يريد من البشر، لكن المشكلة في عصرنا والتي أراها تمنع من هذا الوضع المثالي هو موقف الحضارات الغربية. كثيراً من الغربيين خائفون جداً من فقدان سيطرتهم هذه التي ظلت سنين، ولذلك صار همهم أن يمنعوا الآخرين من أن يتطوروا كما تطوروا هم؛ لأنهم صاروا يعتقدون إن الناس إذا تطوروا وصارت لهم قوة فهذا خطر على الحضارة الغربية. فهذه في رأيي المشكلة. ولذلك أنا تعجبت من كلام الأستاذ هانتغتون وأظنه موجود عندنا هنا. عندما قال: إن الصراع سيكون بين الإسلام والكنفوشية من جهة والحضارة الغربية من جهة أخرى، مع أنه هو نفسه يقول أن أهم مكون للمدنية أو الحضارة هو الدين.

فقلت في نفسي: هل معنى ذلك أن الدين الإسلامي أقرب إلى الكنفوشية منه إلى اليهودية والنصرانية؟ لا يقول أحد بذلك أبداً يعرف الإسلام، ويعرف هذين الدينين ويعرف الديانة الكنفوشية. الإسلام أقرب إلى اليهودية والنصرانية منه إلى الكنفوشية، إذن السبب سبب التعاون إذا حدث لن يكون هو الدين وإنما معاملة

الغرب لأصحاب الحضارات الأخرى؛ لأنك إذا وقفت مني هذا الموقف فأنا سأضطر لأن أتعاون مع من هو في موقعي، نتعاون نحن جميعاً عليه^(١).

فائدة: العلم الطبيعي يعطي المسلمين الآن فرصة لقبول دينهم أكثر مما

يعطي أي دين آخر؛

أنا في رأيي أن العلم الطبيعي يعطي المسلمين الآن فرصة لقبول دينهم أكثر مما يعطي أي دين آخر. العلم الطبيعي هذا يتمثل في منهج عقلائي وفي حقائق اكتشفها العلم وفي تقنية بنيت على هذا العلم.

الناس في الغرب إلى الحرب العالمية الثانية كانوا مولعين جداً بالعلم الطبيعي، وكانوا يظنون أنه سيحل محل الدين، لكن عندما حصلت الحرب خيب أملهم، وبدأ الناس يرجعون يفكرون في الأديان مرة أخرى، وفي أيامنا هذه صارت الدعوة وصار الرجوع إلى ما يسمى بالأصولية ظاهرة عالمية، فالأصولية كما يكتب عنها المفكرون الغربيون ويحشونها ليست ظاهرة إسلامية فقط وإنما ظاهرة عالمية. كل الناس بدأوا يرجعون إلى دينهم وذلك؛ لأنه خاب أملهم في أن يحل هذا العلم الطبيعي محل دينهم. لكن هنالك أشياء في هذا العالم الطبيعي لا يمكن أن يتنازل عنها الإنسان المثقف وهي العقلانية هذه، والحقائق التي اكتشفها العلم

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٢٣).

فلا يمكن أن يؤمن الإنسان بدين يرى فيه مناقضة واضحة لما علم بالضرورة أنه حق، أو يرى فيه تناقضاً والعقلانية هي في أصلها في فطرة الإنسان لكن علق هذا العلم في ذهنه. فلا يمكن أن يؤمن ويرتاح إلى دين يقول له كلاماً متناقضاً.

ولذلك أنا في رأيي إذا كان هنالك سلام واستطعنا أن نوصل كلمة الإسلام إلى المثقفين ونعني كبار المثقفين حتى من الشباب وكذا في الجامعات؛ ولأن كل الناس متأثرون بهذا التفكير العلمي إذا استطعنا أن نوصل الإسلام إليهم. فأرجو أن يكون هذا من أسباب قبولهم للإسلام، وأقول هذا ليس ظناً، وإنما أقوله عن تجربة مع بعض الشباب. فلذلك يقولون الآن إن أسرع الأديان انتشاراً في أمريكا هو الإسلام، وقريناً إن شاء الله ستكون الحضارة الغربية التي توصف بأنها الحضارة النصرانية اليهودية بل ستضاف إليها كلمة الإسلامية، لذلك أنا أرى أن السلام سيساعد على هذا^(١).

فائدة: من أكثر ما يصد الناس عن الحق أن يروا أهل الحق ضعفاء:

لقد كان من دعاء إبراهيم عليه السلام وقومه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المتحة: ٥]. وكان من دعاء موسى عليه السلام وقومه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]. قال ابن كثير: أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا؛ لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك.

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٣٢٣).

من أكثر ما يصد الناس عن الحق أن يروا أهل الحق ضعفاء، وخصوصًا إذا كانوا ضعفاء لدرجة أن يسيطر عليهم أهل الباطل. ومن هنا كان إعداد القوة الرادعة أمرًا مكملًا للدعوة إلى الحق؛ لأنه بغير القوة يكون الحال صاّدًا عما يدعو إليه المقال. إن واقع عالمنا يؤكد لنا أهمية هذا الذي يهدينا إليه كتاب ربنا.

إن دول العالم تتسابق الآن كلها على اقتناء السلاح. منهم ما يفعل ذلك بغرض الدفاع عن نفسه في حالة الاعتداء عليه، ومنهم من يفعل ذلك لمجرد الردع، وهكذا يقول أحد الكتاب الأمريكيين في كتاب له اسمه النهوض إلى العالمية. كيف تغيرت سياسة الولايات المتحدة من سياسة محلية إلى سياسة عالمية؟ يقول أنه بعد نصف قرن من الحرب العالمية الثانية أصبح للولايات المتحدة جيش ضخم من القوات العاملة البرية والبحرية والجوية، وأن ميزانية وزارة الدفاع زادت عن ٣٠٠ بليون دولار، وأنه أصبح للولايات المتحدة تحالفات عسكرية مع أكثر من خمسين أمة.

وإن لها أكثر من مليون جندي من المشاة والطيارين والبحرية في أكثر من مائة قطر، هؤلاء مليون ليس في الولايات المتحدة هؤلاء في خارج الولايات المتحدة، وأن لها مقدرة هجومية كفيلة بأن تدمر العالم عدة مرات، وأنها استعملت قواتها العسكرية للتدخل في الهند الصينية ولبنان وجمهورية الدومينيكان، وجرانا، وأمريكا الوسطى والخليج، وإنها أعانت على غزو لكوبا، وإنها وزعت كميات كبيرة من الأسلحة على دول صديقة في العالم، وإنها خاضت حروبًا باهظة في كوبا وفيتنام، ولكن على الرغم من كل الأموال التي

صرفت على الأسلحة، ومهما كان بعد المدى الذي بسطت عليه أمريكا قوتها، فإن الأمن القومي لأمريكا في خطر دائم^(١).

فائدة: الأصولية والأصوليون:

الأصولية هي تعبير نصراني حديث، بعض النصارى كتبوا كتباً سموها (الرجوع إلى الأصول)، فلذلك سموها بالأصوليين، وهؤلاء مازال لهم تأثير كبير في أمريكا بل بعضهم صار الآن في الانتخابات الأخيرة، صار له وجود وتأثير حتى في السياسة فأصبح هو الرجوع إلى الأصول هذا هو معناه.

عند الغربيين هي كلمة ذنب؛ لأن عندهم الرجوع إلى الأصول معناها أن يأخذ كلمات الكتاب، يسمونه الكتاب المقدس، يأخذها على ظاهرها وهم يعتقدون إن هذه الكلمات إذا أخذت على ظاهرها ففيها أخطاء واضحة لا يمكن أن يقبلها إنسان، واضحة يعني مخالفة للعقل أو مخالفة للواقع أو مخالفة لما اكتشفه العلم، فيرون بذلك أن هذا شؤم ذميم مع إنه أنا قلت لهم في إحدى المحاضرات إن الأصولية إذا عرفت الأصولية بهذا التعريف فكل المسلمين أصوليون. كل المسلمين يعتقدون أن القرآن الكريم كلام الله من أوله إلى آخره. لكن النصارى يعتقدون ومعهم حق أن الإنجيل الذي عندهم من أوله إلى آخره

(١) موقف الإسلام من الأديان والمحاضرات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٢٣).

ليس كلام الله؛ لأنهم يقولون نحن نعرف إن فيه كلاماً ليس بصحيح، إن العالم سيتهيئ سنة كذا وما انتهى، أشياء واضحة أنها ليست بصحيحة، فيقولون لا يمكن أن يكون كلام الله، فقلت لهم بتعريفكم هذا إن كل المسلمين أصوليين، صارت تطلق على بعض الإسلاميين، صارت أيضاً لها معاني زائدة على هذا لكن هذا معناها الأصلي. هذا المعنى الذي قصدته بمعنى عندما قلت إنها صارت ظاهرة عالمية درستها جامعة شيكاغو وأصدروا ثلاثة مجلدات كبار عن الأصولية في العالم في كل الديانات. لكن التي اشتهرت هي الأصولية الإسلامية^(١).

فائدة: القرآن لا يكتفي بذكر الأدلة على الحقائق وإنما يعطيك ما

سيترتب على الإيمان بهذه الحقائق:

في القرآن الكريم حتى عن المعتقدات لا يعطيك الأدلة فقط. وإنما يعطيك ما سيترتب على إيمانك بهذه الحقائق، هذه هي العقلانية. يعني إذا آمنت بما الذي ينتج عن هذا الإيمان في هذه الحياة الدنيا، ثم في الآخرة. إذا كفرت ما الذي ينتج عن هذا، حتى الصلاة يتحدث عنه نتائجها، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [المنكوت: ٤٥]، يعني ما فيها من ذكر الله أكبر من نهىها عن الفحشاء والمنكر. وتراعي حتى في هذه العبادات

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٢٣).

تراعي الظروف. فالصلاة في السفر غيرها في الحضر، الصلاة في الحرب. ما قال أنا أمرتكم بالصلاة فصموا وأنتم في مواجهة العدو. وقفوا ولا يهمنكم أنا معكم توكلوا وصلوا. لا فصل تفصيلاً.

كيف تصلون وأنتم في موقف الحرب؟؟ بل قال العلماء أنه إذا لم يمكن هذا فكل إنسان يصلي لنفسه، فهذه هي التي أريد أن أركز عليها. هذه هي التي أسميها العقلانية، التي تدل عليها النصوص ويدل عليها عمل النبي ﷺ، وهي التي يفتي بها كبار علمائنا ويضيق بها بعض المبتدئين من الشباب المتدينين. يميل الإنسان المتدين الذي لم يتعمق في دينه إلى أن يأخذ النصوص منعزلة تماماً من نتائجها.

وتناقش بعضهم فتقول له: يا أخي لا تعمل العمل الفلاني هذا؛ لأن نتائجه كذا وكذا وما حصل منه إلا ضرر، يقول لك: لا أنا لا يهمني، ربنا قال قاتلوهم وأنا أقاتلهم. ربنا ما قال بغض النظر عن الظروف وبغض النظر عن ما ينتج عن القتال، فكل عمل لا بُدَّ من النظر إلى نتائجه.

أنا لا أريد طبعاً أن أذهب والعياذ بالله مذهب الذين لا يريدون الدين إطلاقاً، والذين يريدون أن يتركوا كل وسائل الدين ويقولون مثلاً إن الإسلام جاء بالعدالة، وجاء بالمساواة، وجاء بكذا وكل ما يحقق هذا فهو من الدين. ولذلك لا نلتزم بزكاة ولا بتحريم ربا لا، لا أقول هذا. هذا تطرف والآخر أيضاً تطرف، هذا غلو في الدين، وهذا بُعد عن الدين، والأمر الوسط هو الذي تدل

عليه النصوص ويدل عليه كلام كبار علمائنا^(١).

فائدة: منزلة العقل في القرآن:

العقل ما ورد في القرآن والسنة مذموماً أبداً، راجعت كل كلمة العقل ما ورد مذموماً أبداً، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما ذم أناس بأنهم يقدمون عقولهم أو أنهم يستعملون عقولهم وإنما قال: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولذلك كان من دقيق ولطيف علم السلف أنهم ما سموا هؤلاء العقلانيين كما نسميهم نحن الآن، تقول له عقلائي فينبسط، يقول: نعم، أنا عقلائي، سموهم أهل الأهواء يعني هناك فرق بين العقل وبين الهوى، هم كانوا يدعون كالمعتزلة وكذا يقول هذا العقل، وكان أهل السنة يقول عقولهم يعني عقولهم فاسدة أو ما ادعوا أنه عقل وليس هو بالعقل؛ لأنه ليس هناك مجال للكلام عن عقل وشرع؛ لأن العقل جزء من الشرع.

الدين كما قرر العلماء لا يأتي بمحالات العقول أبداً، ولكن يأتي بأشياء يحتر فيها العقل ومثله بهذا كمثل العلوم هذه الطبيعية، ألا تأتي الفيزياء بأشياء تُحير بها العقول؟ لولا أن العلماء عندهم أدلة عليها كيف الإنسان يصدقها، يقول لك شيء حجمه كحجم حبة الدخن، وزنه أكثر من الجبل هذا في مسألة (البلاك وزا) العقل العادي يتحير في هذا، ولكن هناك أدلة على هذا، فهذا الذي

(١) موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى، محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٢٣).

أحب أن أذكر فيه، والعقل أبدًا لا يستقل بمعرفة علم سواء كان علمًا دينيًا أو علمًا دنيويًا، العقل هو مجرد مقاييس فطر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عليها الناس.

المسائل الدنيوية تعرف بالمشاهدة وبالتجربة إذا أغلق على الإنسان في غرفة مظلمة، وكان من أعقل الناس ما يعرف شيء عن الحركة في البلد الذي فيه، ولا يعرف عن الأشجار والأنهار، ولا كذا ولا كذا، فالعقل لا يستقل بمعرفته سواء كانت معرفة دينية أو معرفة دنيوية، فأنا لا أحب أن تزيدوا هؤلاء الناس فتنةً إلى ما هم فيه من فتنة وتسموهم العقلانيين، أو أهل العقول، أو أنهم ضلوا بسبب عقولهم، وإنما نقول هم أصحاب هوى وأصحاب انحراف وعقولهم فاسدة وكذا^(١).

فائدة: مفهوم الدين:

الدين يراد به معنيان، يراد به: ما أنزله الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى على رسوله ﷺ من كتاب وسنة، والدين بهذا المعنى لا يبلى ولا يحتاج إلى تجديد فهو تكفل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بحفظه، ويراد بالدين أيضًا: ما يدين به الناس ويعتقدونه، ما يدين المتسبون إلى الإسلام ويعتقدونه، وهذا الذي يعتقده الناس قد يبلى وقد تحدث فيه انحرافات، وهو الذي يحتاج إلى تجديد، وتجديده يكون بجعله موافقًا للدين الذي أنزله الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنواع البلى والتغير التي تصيب الدين بالمعنى الثاني، بمعنى ما يدين به الناس كثيرة منها، وقد تفضل شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز

(١) ندوة التعاون الإسلامي، المنتدى الإسلامي، لندن.

بذكر بعضها، وأذكر أيضًا بعضًا منها: نقصان العلم بالدين الصحيح، إذا نقص العلم بالدين الصحيح كان لهذا آثار سيئة، وكان الدين الذي يدين به الناس كأنه قد بلى، منها نقصان التطبيق للدين في واقع الحياة يطبق الناس جانبًا ويتركون جوانب أخرى، ومنها سوء الفهم للدين الصحيح، ومنها خلطه ببدع وخرافات وأراء ومعتقدات وأهواء وكل هذا يكون باطلاً، ولا يكون جزءً من الدين الذي أنزله الله، ولكنه يصبح جزءً من الدين الذي يدين به بعض المتسبين إلى الإسلام، منها أن يتحول الدين إلى أشكال وهياكل وطقوس لا روح فيها ولا أثر لها على حياة من يزاولها ويتعاطاها؛ لأن الدين الحق هو الذي يؤثر في سلوك الإنسان وفي واقعه، فإذا تحول الدين إلى هياكل وأشكال لا روح لها ولا أثر لها فقد بلى هذا الدين فهو يحتاج إلى تجديد، ومنها غلبة التقليد وتقديم آراء الرجال والمذاهب على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ (١).

هائدة: تجديد الفكر، الإسلام تجديد الفكر الإسلامي:

المعنى الذي يراد به تجديد الفكر الإسلامي هو فهمنا نحن البشر لدين الله عز وجل، لدين الله المنزل هو مجموع تصوراتنا وآرائنا واجتهاداتنا المبنية على ذلك الفهم، فهو إذا الفكر الإسلامي يدخل بالدين بالمعنى الثاني الذي ذكرته، بمعنى ما

(١) تجديد الفكر الإسلامي، ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض، وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والدكتور جعفر شيخ إدريس. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٤٢).

يدين به الناس وتجديد الفكر الإسلامي هو إذا جعله موافقاً للدين المنزل من عند الله وخادماً له ولكن الفكر له، ولذلك فإن تجديده وحده لا يكون تجديدًا للدين، فنحن لا نحتاج فقط إلى تجديد الفكر الإسلامي بهذا المعنى ليس مطابقاً للدين، هو جزء من الدين الذي يدين به الناس وليس مطابقاً، وإنما نريد أن نجدد الدين، وتجديد الدين أشمل من تجديد الفكر. تجديد الفكر الإسلامي يكون بأشياء كثيرة منها المحاولة المستمرة المخلصة الجادة لجعلها التزاماً مخلصاً حقيقياً لا التزاماً بالألفاظ؛ لأن هذا الدين لم يأتي ليلتزم الناس بألفاظه ويفرغونها كما يقول المعاصرون من محتواها ومن معانيها، وسأذكر إن شاء الله أن هذا هو رأي أو هو اتجاه الذين يفهمون التجديد فهماً خاطئاً.

المسألة الثانية التي نحتاج إليها في تجديد الفكر الإسلامي: أن نصوغه بلغة يفهمها أبناء العصر ويتأثرون بها وهذا ليس عيباً؛ لأننا لا نريد أن نصوغ القرآن الكريم مرة أخرى، لا نريد أن نصوغ السنة المحمدية مرة أخرى، وإنما نريد أن نشرح هذه المعاني للناس فينبغي أن تصاغ هذه المعاني لكل أناس بحسب لغتهم، وبحسب مستواهم وبحسب فهمهم؛ لأن المقصود التبليغ وليس المقصود هو تلاوة حروف القرآن الكريم أو السنة المطهرة، وأن نحفظ عن ظهر القلب بعض ما قاله أسلافنا، وإنما المهم أن يفهم الناس هذه المعاني فالكلمات القرآنية وكلمات الرسول ﷺ ستظل باقية، ولكن الذي يتجدد هو شرحنا وتوضيحنا ونشرنا لما تضمنته من معاني، في هذا أيضاً قد تحدث أنواعاً من الشطط بعض الناس قد يصرون على ألا يتكلموا ولا يحاضروا ولا يتكلموا إلا بلغة رصينة من التي

عرفوها، وتمرسوا عليها من بطون الكتب، وبعضهم قد يتطرف تطرفاً آخر فإذا تحدث عن الإسلام لا تدري هل هو يتحدث عن الإسلام أم يتحدث عن البعثية، أم يتحدث عن الشيوعية، فكلا طرفي قصدي الأمور ذميم، لا مانع أن يتحدث الإنسان بلغة عربية رفيعة مادام يكتب للعلماء، لكن العيب في أن لا يتنازل عن هذا المستوى حتى وهو يخاطب من لا يفهم هذا المعنى الرفيع، وقد ذكر لي أحد العلماء الأفاضل قبل أيام أنه كانت من عادة العلماء ولا سيما الدعاة منهم، وذكر لي أمثلة منهم: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والإمام مالك، والإمام الشافعي، أنهم كانوا كثيراً ما يتنازلون عن المستوى الرفيع للغة العربية لكي يتحدثوا إلى الناس بلغة يفهمونها، بل كانوا أحياناً يستعملون بعض الكلمات الدارجة.

المسألة الثالثة: وهي مسألة مهمة هي أن يتعرض هذا الفكر لمشاكل العصر، وأن يحاول أن يوجد الحلول الإسلامية لهذه المشاكل، ومشاكل العصر كثيرة منها: مشاكل اعتقادية، مشاكل تعبدية، مشاكل علمية، مشاكل إقتصادية أو سياسية، إذا لم يحدث هذا حدثت أيضاً أنواع من الفتن منها: أن يغلب على ظن الذي ليس له حظ كبير من العلم أن هذا الدين شيء قديم؛ لأنه لا يرى أنه قديم بمعنى أنه لا يصلح لهذا العصر، أنه قديم وأنه يناسب عصوراً مضت ولا يناسب هذا العصر؛ لأنه لا يستطيع هو بمجهوده أن يرى الصلة الوثيقة بين ما يقرأ في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة، وبين ما يواجهه بالمشاكل هو يحتاج إنسان آخر ليقوم له بهذه المهمة، فإذا لم يجد من يقوم بهذه المهمة ظن أن هذا الكلام الذي يقرأه أو على الأقل حدثت في نفسه شبهة أنه هذا الكلام إنما قيل لعصور سابقة، وسيؤكد له هذه

الشبه الملحدون والمنحرفون؛ لأن هذا ديدنهم أن هذا الدين وكل دين إنما جاء لمناسبات وظروف معينة فهو ينتهي بانتهائها^(١).

فائدة: مفهوم العلم تجديد الفكر الإسلامي؛

إن مفهوم العلم السائد في عصرنا أصبح مفهومًا ماديًا إلهاديًا، وأقول هذا لا عن العلوم الطبيعية فقط، وإنما حتى عن ما يسمى بالعلوم الإنسانية أو الاجتماعية، لماذا أقول هذا؟ لأنه من المعروف حتى عند العلماء الغربيين أن هناك ما يسمى بالفروض التي يقوم عليها العلم، والفروض الفلسفية ما يفترضه العالم ولا يذكره صراحة ما هو الافتراض التي تقوم عليه العلوم الآن؟

الافتراض هو أن هذا الكون مكتفي بنفسه بحيث إننا إذا أردنا أن نفسر أي ظاهرة من ظواهره، سواء كانت في مجال الطبيعة أو في مجال العلوم الاجتماعية ينبغي أن نبحث عن سبب هذه الظاهرة في العالم نفسه، فإذا ما ذكرنا شيء خارج هذا العالم، إذا ما ذكرنا عن العالم المحسوس، يعني إذا ذكرنا شيئًا عن الملائكة أو حتى عن الله سبحانه وتعالى، قيل لنا إنكم لا تتحدثون لغة علمية وإنما تتحدثون بلغة الدين، والدين والعلم شيان مختلفان لماذا؟ طبعًا إذا بنيت العلم منذ الوهلة الأولى على افتراض أو على التسليم بالفلسفة المادية الإلهادية، من الطبيعي أن

(١) ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض، وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والدكتور جعفر شيخ إدريس، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٤٢).

يكون مخالفاً للدين؛ لأنك أنت الذي جعلته مخالفاً للدين، خطر هذا في العلوم الطبيعية قليل لا يكاد يذكر؛ لأنه لا يضر الإنسان كثيراً إلا من ناحية الاعتقاد، وكثيرون من المتدينين الذين يمارسون هذه العلوم تظل عقائدهم صحيحة، بمعنى أنه يعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو خالق هذه الأسباب، وخالق هذه الآثار، هذا الذي يعتقد في قلبه ولكنه لا يذكره باعتباره عالماً، أما في مجال العلوم التي تسمى بالعلوم الإنسانية فالخطر عظيم وكبير جداً والعلوم الإنسانية أذكر منها: علم النفس، أو فلسفة التربية، أو علم التاريخ، أو علم الاقتصاد.

أصحاب هذه العلوم في الغرب الآن يحاولون أن يحذوها بحذو العلوم الطبيعية، والعلوم الطبيعية كما قلت لكم هي أن تحاول أن تفسر الظاهر الكونية بأسباب من داخل العالم، بل وتفترض أنه لا يوجد في العالم في النهاية إلا مادة متحركة في فراغ، وهذا ما يفترضه كثير من علماء النفس وعلماء الاجتماع من الغربيين، ثم يأتي هذا كله لنا باعتباره علماً، ويزيد من مصيبي أن كثيراً من أساتذتنا الذين يدرسون هذه العلوم يدرسونها بطريقة تقليدية أكثر من واقعهم أنفسهم، قد نستمع إلى عالم نفس غربي يتحدث عن بعض النظريات في علم النفس، فيتقدها أو يذكرها بشيء من التحفظ، ولكن كثيراً من أساتذتنا إذا ما درسوها قالوا للطلاب: العلم يقول كذا، العلم أثبت كذا، طبعاً إذا قيل إن العلم أثبت كذا فنقيض العلم هو الجهل، فالذي يقول غير هذا إنما يتحدث عن جهل.

فهذا مجال من المجالات التي لا بُدَّ أن نجدد فيها، ويمكن أن يذكر الإنسان

هنا الفضل لأهله أن الجامعات في المملكة العربية السعودية من أكثر الجامعات اهتمامًا في هذه المسألة؛ لأنها تحاول أن تأسس علومها على أساس إسلامي.

ولكن أقول: إنها ما زالت تحبوا، إن لم أقول إنها في طور ما قبل ذلك، ما زالت تحبوا، أما الجامعات الأخرى فهي صور مشوهة للجامعات الغربية، فما يقال هناك يُقال هنا بحماس أكثر وبتشجيع أكثر^(١).

فائدة: تجديد الفكر الإسلامي لا يقتضي تسخير أهواء الحكام

وأهواء العوام؛

تجديد الفكر الإسلامي هو أن يكون فكرًا ملتزمًا بالحق والعدل، وأن لا يكون مسخرًا لأهواء الحكام، ولا أهواء العوام؛ لأننا إذا سخرنا الدين لأهواء العوام، أو أهواء الحكام، حدثت أيضًا فتن؛ لأن أهواء الحكام وأهواء العوام متقلبة، فكلما أراد حاكمًا من الحكام شيئًا أو كلما سادت بين الجماهير رغبة في شيء معين، غيرنا الدين وفسرناه بحيث يتناسب مع ما يطلبون.

ولكن هذا مع الأسف هو الذي كثيرًا ما يحدث في العالم العربي تسود في بلدة من البلاد، يسود نظام الرأسمالي فتخرج اجتهدات بأن الربا الذي يتعاطاه الناس في البنوك (ما يسمونه بسعر الفائدة) ليس هو الربا الذي حرم الله سبحانه وتعالى

(١) ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض، وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والدكتور جعفر شيخ إدريس. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٣٤٢).

لماذا؛ لأن هذا ما يريده العوام، ويريده بعض الحكام، ثم يتغير الوضع يأتي نظام إشتراكي فيكتب أحدهم خديجة أم الإشتراكية، بعد أن كانت أم المسلمين، أصبحت أم الإشتراكية، وأيضاً تجد النصوص وتفسر بحيث تناسب مع ما يريده الحاكم، هذا تحدث عنه فتن أيضاً الشخص الذي لم يتبحر في العلم؛ لأن محصوله من العلم بالدين قليلاً، فإنه لا يستطيع أن يفصل بين ما يقوله هؤلاء الذين يجعلون دينهم وفكرهم تابعاً لأراء الحكام، لا يستطيع أن يفرق بين الدين الحق وبين ما يقوله هؤلاء، فيربط بين الدين وبين أخطاء الحكام.

فإذا كره حاكماً، أو انتقده في شيء، انتقد معه الدين، وإذا رفضه رفضاً معه الدين، وهذا يقود أيضاً إلى عدم الثقة بالعلماء، وكثير من الذين يقومون بهذا التحريف قد يكونون من العلماء، بمعنى أن الشخص يعرف القرآن الكريم ربما يحفظه، يعرف التفسير، يعرف كثيراً من السنة، فهو عالم، فإذا كان بعض العلماء كذلك فقدت الثقة في العلماء، وإذا فقدت الثقة في العلماء ضل الناس وساء فهمهم للدين وربما انحرفوا عنه،

نسيت أن أقول في مجال الكلام الذي قلته عن ضرورة أن يتعرض الفكر الإسلامي في مجال العصر، إذا لم نفعل هذا حدثت بعض الفتن منها: أن الناس سيلجؤون الحلول الجاهزة، الإنسان تواجهه مشاكل مثلاً اقتصادية لا ينتظر سنين طويلة حتى يأتي له العلماء المسلمون بحل لهذا المشاكل، فيأخذ من الحلول الموجودة أمامه وهي حلول تقوم على فلسفة وفكر غير إسلامي، هذا يحدث في المسائل الاقتصادية، يحدث في المسائل القانونية.

وكلما تباطأ العلماء وتأخروا عن إيجاد الحلول الإسلامية، كلما انحصرت من البلاد حتى إذا كانت بلاد تنسب إلى الإسلام، وتريد أن تحكم في الإسلام، حتى إذا كانت مخصصة في هذا، لكنها إذا لم تجد الحلول لجأت إلى الحلول الجاهزة، وفي كل مرة إذا تنحسر الرقعة التي تحكم في الإسلام والتي يؤثر فيها الإسلام^(١).

فائدة: الفهم الخاطئ لتجديد الدين تجديد الفكر الإسلامي؛

الفهم الخاطئ للتجديد هو محاولة تجديد الدين بمعناه الأول، وهذا الاتجاه اتجاه يشبه إن لم يكن قد أخذ عن النصاري واليهود، قامت حركات نصرانية في نهاية القرن التاسع عشر تدعوا إلى تجديد الدين، بمعنى تفسيره بحسب ما يناسب العصر، وما هو العصر؟ العصر هو مجموعة الأفكار السائدة في العصر، أفكار فلسفية، أفكار علمية، أفكار في التاريخ، أفكار في علم النفس، أفكار في كذا وكذا، بعض الناس الذين يتسبون إلى الإسلام يريدون التجديد بهذا المعنى، يريدون أن يفسروا الإسلام تفسيراً يتناسب مع العصر، ولكن العصر الذي يعنونه هو أهواء العصر، ينبغي أن نفرق بين ما يستلزمه العصر وبين ما يسود في العصر، أما ما يستلزمه العصر هو الأمور التي تحدث بسبب التطور الطبيعي، مثلاً: أن طريقة

(١) ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض، وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والدكتور جعفر شيخ إدريس. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٤٢).

الإنتاج الآن مختلفة عما كانت عليه، هذا شيء استلزمه العصر، فلا بُدَّ أن نجد له حلاً.

أما الأفكار التي تسود في العصر فهذا بمحض الاتفاق، بمحض المصادفة، ونحن ليس المطلوب منا لكي نكون معاصرين أن نقلد ونعتنق هذه الأفكار، وأن نجعل ديننا تابعاً لها، لكن الذين كما قلت يفهمون التجديد هذا الفهم الخاطئ، هذا الذي يريدونه وهذا يقودهم إلى مشاكل كثيرة تتفاوت في خطرها منها: أن الفكر السائد في العصر هو الفكر المادي الإلحادي، فبعض هؤلاء المجددين يضيقون بكل شيء في الإسلام لا يتناسب مع هذا الفكر، فإذا وجد حديث عن الملائكة حاول بأن يفسرها أنها القوى الخيرة في الإنسان، الشياطين هي القوى الشريرة في الإنسان، بل قد يصل به الأمر إلى الذات الإلهية؛ لأنها لا تتناسب مع المفهوم المادي السائد الآن فيغير من مفهومه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويحاول أن يفهم ما يقال عن الذات الإلهية فهم أشبه بما كان يقوله الجهمية في الماضي، وهو الفهم التعطيلي، هو أن يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مجرد فكرة أو شيء أشبه بالعقل فقط، وليس ذاتاً لها صفات.

من هذه المشاكل أيضاً أن نقلدهم في طريقة الحكم، ولذلك بعضهم يقول إن الإسلام ليس فيه نظام حكم وكذا؛ لأنه يريد أن يعطي لنفسه الحرية في أن يحكم بالطريقة التي يحكم بها الغربيون، ثم في المسائل الاجتماعية والأسرية وكذا، تسود في الغرب تقاليد وتسود فيه آراء في هذه المجالات، فيحاول أن يقصر الإسلام على أن يكون موافقاً لها.

ومن الأمثلة المشهورة عندهم لهذا الضيق بمسألة الرجم، يريدون أن يغيروا هذا بعقوبة لا تتناسب مع العصر، لا تتناسب مع العصر بمعنى أهواء العصر لا تربدها، تعدد الزوجات أهواء العصر لا تريد هذا وهكذا، والشخص الذي يريد التجديد بهذا المعنى لا يمكنه التجديد بهذا المعنى إلا بتحريف الدين، ولكنه لا يستطيع أن يقول هذا الكلام صراحة، فلذلك يلجأ إلى المنهج الذي لجأ إليه كل المنحرفين على مدى التاريخ الإسلامي، وأوجزه وأختم به:

أولاً: عدم الالتزام باللغة العربية، القرآن نزل بلغة عربية بلسان عربي مبين، فإذا لم تلتزم باللغة فقل فيه بما شئت المسألة.

الثانية: عدم الالتزام أو اعتبار تفسير الصحابة، فيقول أن الصحابة عاشوا في ظروف معينة وفسروا القرآن بحسب الظروف التي كانوا يعيشون فيها، فنحن أيضاً نفسره بحسب الظروف التي نعيش فيها، عدم الالتزام بالتناسق القرآني أن يفسر بعضه بحيث يتناقض مع آيات أخرى، عدم الالتزام بالسنة النبوية؛ لأن الذي يلتزم بالسنة لا بُدَّ أن يفسر القرآن الكريم تفسيرات صحيحة، فالشخص الذي يريد التجديد بالمعنى المنحرف لهذه الكلمة لا يمكنه هذا إلا بأن يسلك منهجاً غير علمي؛ لأن الحق لا بُدَّ أن يقود إلى الحق، أما إذا أراد الإنسان الباطل فلا بُدَّ أن يسلك إليه منهجاً باطلاً^(١).

(١) ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض، وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والدكتور جعفر شيخ إدريس. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٤٢).

فائدة: المنهج الإسلامي في النظر إلى الواقع:

منهجنا في النظر إلى الواقع سواء كان واقعًا إسلاميًا أو غير إسلامي، إنه لا محيد للناس باعتبارهم بشرًا - سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين - من أن ينظروا إلى الواقع ويتأملوه؛ لأن مواقف الناس وتصرفاتهم مبنية على معرفتهم بالواقع وتصورهم له، لكن الناس يختلفون في هذا النظر بحسب الأغراض التي يتغيونها منه، وبحسب تصوراتهم الكلية للوجود، فعالم الاجتماع ينظر، وعالم النبات ينظر، والفيزيائي ينظر، ولكن كلاً منهم ينظر إلى جزء من الواقع ويدع جزءاً آخر، والفيلسوف يحاول أن يلقي نظرة كلية على هذا الوجود. وغاية السياسي من النظر تختلف عن غاية المصلح الاجتماعي، وطريقة الملحد في النظر تختلف عن طريقة المؤمن، لكنهم كما قلت جميعاً ينظرون ويتأملون، ولا بد لهم من أن ينظروا وأن يتأملوا^(١).

فائدة: الخصائص التي يمتاز بها الناظر المسلم:

ما هي الخصائص التي يمتاز بها الناظر المسلم؟ وما هي التوجيهات التي يجدها في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ لكي يهتدي بها في نظره إلى الوجود، سأذكر لكم بعض هذه الخصائص ولكنني أبادر فأقول: إن كونها خصائص لا يعني أنه لا نظرة أخرى أو لا منهج آخر يشاركنا في أي جزئية من جزئياته، فإن هذا يكاد يكون هذا مستحيلاً، فنحن بشر نتفق مع البشر في بعض الأشياء ولذلك

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

لأبد أيضًا أن تتفق معهم في بعض جزئيات مناهجنا، فأول ما يمتاز به النظر الإسلامي هو:

١- أنه نظر موضوعي: فالمطلوب من المسلم أن يصور الواقع كما هو، وألا يجعل في تصويره هذا مجالاً لأهوائه، بل ولا حتى لإيمانه في تغيير صورة الواقع. فلا بُد من تصوير الواقع كما هو سواء كان حسنًا كان أو كان قبيحًا، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْزِيكُمْ شَنَاكَ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فلا يحمل المسلم بغضه؛ لأناس أن يهضمهم حقوقهم، بل لأبد للمسلم أن يصور الواقع كما هو.

٢- طريقة انفعاله نحو هذا الواقع: كل إنسان لأبد له أن يتفعل نوعًا من الانفعال إزاء بعض الحقائق التي يعرفها. أقول: كل إنسان حتى علماء الطبيعة لأبد لهم من هذه الانفعالات، بعض هذه الانفعالات يهجم على الإنسان هجومًا لا حيلة له فيه، وبعضها يتعهده الإنسان ويستمر فيه. وموضوع التوجيه الديني قاصر على النوع الثاني الذي هو بإرادة الإنسان. فالمسلم يفرح كما يفرح غيره لكل ما يراه حسنًا ولا حرج عليه في ذلك، ويحزن لما يراه سيئًا، ولكنه مدعو ألا يتمادى في الحزن، قال تعالى: ﴿إِن يَصْرِفْ رَأْسَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَدْ غُتِيَ الرُّومُ﴾ (١) ﴿فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (٢) ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣) ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم: ١-٥] هذا في الفرح. ﴿وَأُخْرَىٰ يُخَوِّنُهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] هذا فرح طبيعي بالانتصار، ولكن ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ﴾ [لقمان: ٢٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ تَفْسَلُ عَلَىٰ عَائِثِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾

بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ﴿الكيف: ٦﴾.

٣- الاستنتاج العقلي: إن لكل واقع لوازمًا تلزم منه وتدل عليه، لكن تصورات الناس للوجود تؤثر فيما يمكن أن يستنجوا من هذا الواقع، فإذا كان التصور للوجود ضيقًا لا يسع الوجود كله فسيؤثر على ما يمكن أن يستخلص من بعض الوقائع، وإذا كان شاملًا للوجود فسيكون تصور الملزم به أقرب إلى الحقيقة. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنَوَّا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوَّى أَفَكُم يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، فهم قد جاؤوا مقتنعين بأن هذه الدار هي الدار وليس هناك دار أخرى، ورأوا هذا الواقع، ولكنهم بسبب هذا التصور لم يستطيعوا أن يستنجوا من هذا الواقع ما يؤدي إليه فعلاً.

٤- الموقف العملي: المسلم لا ينظر إلى الواقع لكي يتأمله مجرد تأمل ويفكر فيه مجرد تفكير، بل تفكيره دائماً يقود إلى عمل سواء كان بالقلب أو الجوارح. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنبياء: ٩٢] أنا ربكم حقيقة عرفناها، ﴿فَاعْبُدُونِي﴾ الموقف الذي يبنى على هذه الحقيقة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، لا تقل إن الشيطان عدو ثم تصاحبه وتصادقه، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]. فاعتبر أن عدم استفادتهم -مع أن جوابهم صحيح- لكنهم لم يبنوا على هذه المعرفة العمل الذي ينبغي أن يبنى عليه فلذلك اعتبره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَهْلًا.

٥- التفسير العلمي: نتقل بعد ذلك إلى التفسير العلمي بعد أن عرفنا الحقائق

وتفسيرها، ونقول باختصار شديد إن التفسير العلمي هو عزو الظواهر أو الآثار إلى أسبابها الحقيقية. هنا أيضًا تتدخل هنا تصورات الناس وفلسفاتهم، فيختلفون في ماهي الأسباب، ومن أكبر المشكلات التي نواجهها في هذا العصر الذي سادت فيه قيم الحضارة الغربية وتصوراتها هو هذا الموضوع.

تذكروا دائمًا أيها الإخوة أن العلوم التي تدرسونها ليست نظرات مجردة من الواقع، ولكنها نظرات في ضوء تصور معين للوجود، وهذا التصور الشائع الآن في الغرب ليس تصورًا نصرانيًا، ولا تصورًا يهوديًا بل مادي إلحادي فحوى، هذا التصور أن هذا الوجود ليس فيه شيء حقيقي إلا المادة في أي صورة من صورها، ولذلك إذا أردت أن تفسر الظواهر سواء كانت ظواهر نفسية أو اجتماعية أو طبيعية، إذا أردت أن تفسرها تفسيرًا علميًا فينبغي أن تكون الأسباب التي تعزو إليها تلك الظواهر يجب أن تكون من داخل هذا العالم، وأن تكون بقدر الإمكان أسبابًا مشاهدة ومحسوسة.

لكن نحن لنا تصور للوجود غير هذا ولذلك تفسيرنا سيكون تفسيرًا علميًا؛ لأنه يعزو الظواهر إلى ما نعتقد وإلى ما عندنا نملك الدليل على أنه حق فإذا عزونا شيئًا ما إلى إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو إلى فعل الملائكة، أو إلى فعل الجن فهذا تفسير ما دمنا نملك الدليل من الكتاب والسنة على أن هذا الفعل سببه هذا النوع من الأسباب، فينبغي أن لا تغرنا سيادة وانتشار التصور الغربي للعلم؛ ذلك التصور الذي جعل العلم صنوا للإلحاد، ولذلك جاءت المقابلة عندهم بين العلم والدين. في تفسيرنا العلمي أيضًا نربط بين السلوك البشري والظواهر الكونية، وهذا

لا يوجد الآن لماذا؟ كيف استطعنا نحن أن نربط؟ وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الذي يراقب البشر، وهو الذي بيده ملك السموات والأرض، فهو يحاسب الناس على أفعالهم بما يخلق في الكون وما يعجّره في هذا الكون، ولذلك أمكن أن نربط بين سلوك الناس وبين الظواهر الكونية سواء كانت رياح، أو أمطار أو قحط أو غير ذلك، هذه لا يمكن الربط بينها في النظرة المادية الإلحادية، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١]، فالفساد الذي ظهر ليس هو الفساد الخلقي؛ لأن الفساد الذي ظهر هو نتيجة الفساد الخلقي، فظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، فالفساد الذي ظهر هو فساد مادي، فساد في الأرض، فساد في الزرع، فساد في التلوث.

تفسيرنا العلمي لما يحدث للبشر مبني في النهاية على مسئولية الناس، أن الناس هم المسؤولون عن أعمالهم سواء كانوا أفراداً أو كانوا جماعات، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فالله سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم يبدأ الناس بالخير سواء كانوا مسلمين أو كفاراً يعطيهم الخير.

ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق هذه السموات والأرض، وأجرى الأنهار، وأنبث النبات قبل أن يخلق الناس، فهي ليست جزاء لهم على شيء حسن فعلوه وإنما هي منة من الله سبحانه، ولكن هذه المنّة لا تدوم إلا إذا رجع الناس إلى الله، بل تتغير إذا هم غيروا ما بأنفسهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

مَا يَنْفُسِهِمْ ﴿[الأنفال: ٢٥٣]، وإذا أهلك أمة فقد يعطي هذه النعمة - سواء كانت نعمة القيادة السياسية أو القوة الاقتصادية أو غيرها - قد يعطيها لأمة أخرى، كافرة أيضًا، ولكنها لم تبطل بالنعمة قبل ذلك.

لذلك كثير ما أقول لإخواننا المسلمين يعني لا تفرحوا بالظواهر التي تدل على انهيار الحضارة الغربية، وتظنون أنكم ستكونون الورثة الطبيعيين لهم، لا فقد يعطي الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى هذا لأمة أخرى كافرة أيضًا إذا لم نأخذ نحن بالأسباب، إذا استمررنا في هذا الضعف وهذا الانحراف، فالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يعطي هذا الفضل لأمة أخرى وليس بشرط أن تكون هي الأمة المسلمة.

والله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لا يديم الفضل فهو يعطيه لكل إنسان، لكنه لا يديمه على من يستمروا في طريق الفساد ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، هذا المعنى يتكرر في آيات كثيرة في القرآن الكريم، وأرجو أن تلقوا بالكم إليه، وأن تتأملوه.

القرآن يريد أن يقول لنا لا تغتروا بالمصانع وبالجيوش وبالمباني وبالشوارع وبالقوة الاقتصادية، فليس بهذا تحيا الأمم ولا به يدوم عزها، فهذه الأمم التي سبقتكم كانوا أكثر قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء الذين كان يخاطبهم القرآن الكريم، فلم تنفعهم تلك القوى المادية، بعد بيان هذا المنهج، ويمكن إذا أن نلخصه فنقول: إنه منهج موضوعي نفسي عقلي عملي علمي، في

ضوء هذا المنهج يمكننا أن ننظر إلى الواقع^(١).

فائدة: الحزن حالة سلبية:

إن الحزن حالة سلبية، وهو نوع من المرض يقعد الإنسان عن العمل، ولكن الفرح بعكس ذلك، فهو يدعو إلى العمل، ويشجع الإنسان، ويعطيه الأمل. فلا خرج على المؤمن إذا هجم عليه الحزن هجوماً، ولكنه لا يتمادى فيه، بل يأخذ بكل الأسباب التي تنسيه الحزن، وتعيد إليه الثقة والتماذي في العمل، وهناك رسالة صغيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية تعليقاً على حديث «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ» وهي في جزء الحديث من مجموع الفتاوى، فهو يقول ما معناه: أنه حتى إذا صار الإسلام غريباً، وصار لا يعرفه إلا العدد القليل من الناس، فإن المسلم لا يحزن، بل يعتبر أن كل واقع هو فرصة له لكي يعمل ويتقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن كان الواقع واقع انتصار للمسلمين فهو مناسبة؛ لأن يحمده الله ويشكره ويطلب منه المزيد، وإن كان واقع تخلف وانهمام فهو فرصة له؛ لأن يستغفر الله ويطلب منه الهدى والسداد ويجعله من الذين يعلون كلمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فائدة: أسباب انحطاط الأمة الإسلامية:

القرآن الكريم يعلمنا أن الأسباب الحقيقية لزوال أية أمة من الأمم كما قلنا سابقاً أن المسؤولية هي مسؤولية فردية، فإذا أسباب الزوال أو الإخيار أو الانحطاط الحقيقية هي دائماً أسباب داخلية في الأمة نفسها، وهذه العوامل الخارجية مع

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

أهميتها، ومع الاعتراف بأنها أسباب حقيقية، ومع ما ينبغي من الاهتمام بها، لكنها ينبغي أن توضع في موضعها الصحيح باعتبارها أسباباً ثانوية، بل قد تكون هي نفسها أثراً من آثار السبب الحقيقي، والسبب الحقيقي دائماً هو سبب نفسي ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّكَ اللَّهُ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وهذا المنهج في النظر إلى معرفة أسباب الضعف بالإضافة إلى أنه تصوير للواقع، هو أيضاً منهج مفيد من الناحية العملية؛ لأنني أملك نفسي فأستطيع أن أغير فيها وأن أصلحها، أما إذا جعل سبب الانهيار أو الانحطاط جعل كله أسباباً خارجية، فأنا قد لا تكون لي قوة على السيطرة على تلك الأسباب الخارجية، ولكنني أملك شيئاً من القوة على نفسي، فأستطيع أن أغير وأن أجعلها أحسن هذا كما قلت بالإضافة أنه هو المنهج الصحيح، فهو أيضاً المنهج العملي المفيد الذي يمكن أن تنفذه^(١).

فائدة : حال الأمة الإسلامية بعد سقوط الخلافة :

بعد أن سقطت الخلافة انقسم الناس أقساماً:

١ - فمنهم من سار في نفس الخط الذي أدى إلى سقوط الخلافة، وزاده سقوطها غروراً وتمادياً في الشر، وعلى رأس هؤلاء أتاتورك، فدعا هؤلاء إلى إطراح كل ما له علاقة بتاريخ هذه الأمة وعاداتها وتقاليدها بل وأزيائها، حتى قال

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

أتاتورك: نريد أن نأخذ من الغرب كل شيء حتى الديدان التي في بطونهم.

واستمر هذا النوع من التفكير إلى زمن د. طه حسين الذي كان يريد لمصر أن ترجع وتصير دولة فرعونية، وتصير جزءاً من أوروبا، بل وصل الحال ببعض المفكرين كالمصري زكي نجيب محمود إلى أنه - كما يقول عن نفسه - كان يرى أن الحضارة هي حضارة الغرب، وأنا لكي نكون متحضرين فلا بد أن نأكل كما يأكلون، ونشرب كما يشربون، ونجدد كما يجدون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون. مع أنه من كبار المفكرين في العالم العربي، ومن أكثر من يعرف الفلسفة الغربية ويكتبها بلغة عربية جميلة، وقد تغير بعد ذلك تغيراً طفيفاً غير مؤثر.

٢- وقابل هؤلاء من رأى أن كل ما جاء عن هذه الحضارة فهو كفر وشر، وكان في هؤلاء بعض علماء المسلمين وكثير من عوامهم. وقد كان تصور هؤلاء العلماء للدين تصوراً قاصراً، لذلك لم يكونوا من ذلك النوع الذي يؤثر في الحياة؛ إذ لم يفقهوا الواقع الذي يحيط بهم؛ ليعرفوا ما الذي يقترب من الدين وما الذي يتبعد عنه، مع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بذلك وهو سبب خيرية الأمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣- ثم ظهر علماء دعوا إلى الاستمساك بالدين والاعتزاز به مع الأخذ بكل أسباب الحضارة الغربية، وحاولوا التوفيق بين الدين وبين ما حسبه علماء بنوع من التعسف، كان بعضه موجوداً عند الشيخ محمد عبده، وأكثر منه عند أحمد خان في

الهند؛ لأنهم وجدوا في فترة انهزام للأمة الإسلامية وإعجاب شديد بالعلوم الطبيعية التي ازدهرت آنذاك في الغرب، حتى أنهم كانوا يرون أنها مستنجد حيث فشلت الأديان، وستحل كل مشكلات البشرية وتنتهي الحروب، ولم تتغير هذه النظرة إلا بعد الحرب العالمية الأولى ثم الحرب العالمية الثانية، فهم معذورون بعض الشيء، ويتمثل انهزامهم هذا في أنهم حاولوا أن يوفقوا بين الدين وما حسبوه علماً بنوع من التعسف. فإذا قوي التيار العلماني جداً بعد سقوط الخلافة، وظهرت آثاره في نظام الحكم الذي بدأ يتعد شيئاً فشيئاً عن الدين، وظهرت في التعليم واللغة، ولا زالت كل هذه السلبيات موجودة في العالم الإسلامي.

ولا ننكر أنه قد حدث بعد سقوط الخلافة وعلى إثر الاستعمار نوع من التطور في فهم العلوم الطبيعية ونوع من التطور في التقنية، ويرجع ذلك إلى أن نظام التعليم صار نظاماً غريباً، فصار الطلاب يدرسون الرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها. ولكن هذا التطور كان وما زال هو تطور المقلد (الشحاذ) إننا لا يمكن أن نتطور تطوراً حقيقياً إذا كنا حتى في مجالات العلوم الطبيعية مجرد تلاميذ للغربيين، وإذا استمرت تصوراتنا كتصوراتهم وإذا كنا نتلقى منهم بغير نقد، وإذا كانت التقنية التي يقوم عليها عالمنا كلها مستوردة من عندهم.

إن التطور الحقيقي يتم بإرساء أصول لهذه العلوم في الأمة تجعل من تقنياتها تعبيراً عن ثقافتها وعن تقاليدها فهذه كما قلت من مظاهر تطور المقلد^(١).

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

فائدة: لماذا يصبح بعض من يدرس من المسلمين في البلاد الغربية مظهر من مظاهر تخلف الأمة؟

هنالك مظهر جديد من مظاهر التخلف، وهو بعض الشباب المسلم الذي يصلي ويصوم ويرسل لحيته ويقصر ثيابه، ممن يدرس ويتخصص في مجالات العلوم الطبيعية ومجالات العلوم الإنسانية، في البلاد الغربية، لماذا أعتبر هذه ظاهرة وأنا مشفق منها جداً، إنكم أيها الإخوة تأتون إلى هذه البلاد الغربية، وتقضون سنوات طويلة وأنتم تدرسون هذه العلوم على أناس ربما يكونون مخلصين، يدرسونكم كما يدرسون غيركم، ولا يقصدون أن تنحرفوا، ولكن هذه العلوم التي تدرسونها وبحكم معرفتي بما يسمى بالفلسفة العلمية، أن هذه العلوم وراءها فلسفات ووراءها تصورات ولا سيما العلوم الاجتماعية، فأن يقضي الشاب المسلم خمس أو ست سنوات وهو يقرأ في هذه الكتب، ويختبر فيها، ويفكر فيها، ثم لا تكون لديه بالمقابل معرفة، بما يتصل بهذه العلوم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال علماء المسلمين، إن النتيجة تكون أن يتبنى هذه العلوم وهذه النظرات، والخطر يكمن في أنه إنسان متدين، لو جاءني إنسان شكله يدل على أنه ليس بمتدين وكلمني في نظرية من نظريات علم النفس أو الاقتصاد فسأرتاب فيه وأفكر، لكن إذا جاءني إنسان بلحية وعلامة الصلاة على وجهه، وقال: قال رسول الله، وقال الله، ثم حشر لي ما قاله داروين وفرويد وماركس من غير أن يذكر هذه الأسماء فأنا -إذا كنت من عوام المسلمين، وإذا كنت من غير أهل ذلك التخصص سأقبل ما يقول.

ولذلك قال العلماء: إن كثيرًا من الآراء الفلسفية انتشرت عن طريق الغزالي، والغزالي كان عدوًّا للفلاسفة، والمؤرخون للفلسفة يقولون إن الضربة التي ضربها الغزالي للفلاسفة لم يقوموا بعدها، لكن الأمة كانت تنظر إلى الفلاسفة نظرة إرتياب، بل كانت لغتهم لغة معقدة لا يكاد يقرؤها إلا القليل من الناس.

ثم جاء الغزالي الذي يثق به الناس، الغزالي صاحب الأسلوب الجميل، الغزالي الرجل الزاهد، فأدخل كثيرًا من هذه الآراء وهو يتحدث عن الدين، فشربتها الأمة وقبلتها، وهذا ما أحشاه. لا يغرنكم كونكم متدينين، فالتدين شيء والمعرفة أو العلم شيء آخر.

كان الإمام مالك يقول عن بعض الناس كلامًا معناه: إني لأرجو بركة دعائهم في السحر، لكنني لا آخذ منهم حديثًا واحدًا؛ لأنهم ليسوا من أهل هذا الشأن. لا يمكن للأمة أيها الأبناء والإخوة أن تنهض إلا إذا وجد فيها رجال يجمعون بين المعرفة الجيدة بالكتاب والسنة وأقوال السلف وتاريخ الأمة وبين العلوم التي يتخصصون فيها.

وأقول لكم: إن هذا هو شأن علماء الغرب الكبار في البلاد الغربية، ما قرأ تاريخ أحدهم إلا وجدته يعرف الفلسفة اليونانية معرفة عجيبة، بل وجدت أن كثيرًا من تعبيراتهم لها صلة بتاريخهم، فعلومهم هذه لها جذور في ذلك التاريخ الغربي، ولا يمكن أن نكون نحن مثلهم حتى إذا أردنا أن نكون مثلهم؛ لأنهم مختلفون عنا. فإذا أردنا لهذه العلوم أن تستوطن في العالم الإسلامي، فلا بُدَّ لنا من رجال من هذا النوع يجعلون لهذه العلوم جذورًا في تاريخ هذه الأمة

المسلمة وفي فكرها وثقافتها^(١).

فائدة: الأمة الإسلامية قد تضعف ولكن لا تموت وتزول:

إن مما حبا الله به هذه الأمة أنها أمة لا تموت إلا إذا دنت الساعة، قد تنعس وقد ترقد وقد تدوخ، ولكنها لا تموت، أمة أخرى تكون أقوى منها ثم تموت وتبقى هي حية؛ لماذا؟ لأن الله تكفل لها بشيئين:

أ- أن يحفظ لها هذا الدين الذي أنزله على رسوله ﷺ: ﴿إِنَّا عَنُّ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰحِفُظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والذكر - كما قال العلماء - يشمل السنة، فالقرآن والسنة محفوظان. لكن الحفظ ليس كما يتصور كثير من الناس حفظ كحفظ المكتبات أو حفظ متحف، لا بل هذا الدين محفوظ أيضًا في صورة رجال يعرفون هذه الحقائق، ويلتزمون بها قدر استطاعتهم، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون. هؤلاء هم أمل الأمة، هؤلاء هم الذين تستطيع الأمة أن تنهض على أكتافهم، ولذلك كلما كثر عددهم واتسع نطاقهم كلما كان الأمل في الأمة كبيرًا، فأرجوا أن لا تنظروا إلى الأمة بعدد المنتسبين إليها، عدد المنتسبين قد يكونوا غثاء لا يبالي الله بال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾. [المائدة: ٥٥-٥٦].

فهذا النوع هو الذي يؤدي إلى الغلبة، الذي يؤمن فلا يخالط إيمان شك،

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

والنوع الذي يصلي، ويزكي، أما النوع الذي أشرك فليس معدودًا في الأمة وإن انتسب إليها، والنوع الذي لا يصلي ولا يزكي حتى لو أسمىناه مسلمًا فلا يدخل في عناصر القوة التي تعتمد عليها الأمة، فحينما نتحدث عن الأمة إذا ينبغي أن لا يكون حديثنا عنها بمجرد العدد، ولذلك بسبب ما حبا الله سبحانه وتعالى به هذه الأمة من أنها أمة لا تموت، وأنه لا تزال طائفة منها على الحق، وهذه الطائفة بالمناسبة ليست حزبًا معينًا، ولا جماعة معينة وإنما هي أوصاف، فكل من اتصف بها فهو من هذه الطائفة.

فائدة: جميع العلوم مرتبطة بفلسفات لها فروض لا توجد في الكتب التي تدرسها؛

كل من درس فلسفة العلوم، وهو أن هذه العلوم مرتبطة بفلسفات لها فروض لا تجدها في الكتب، فكتاب الفيزياء لا يبدأ ويقول لك إن الله غير موجود، ولكنه يفترض ذلك، ولا يعتبر هؤلاء تفسيرك علميًا إلا إذا عزوته لأسباب من النوع الذي تعترف به هذه الفلسفة المادية الإلحادية، أما إذا عزوته إلى الله أو الملائكة أو الدعاء فلا يكن تفسيرًا علميًا؛ لأن هذه الأشياء ليست أسبابًا فاعلة في نطاق فلسفتهم، أما نحن المسلمين فنعتبرها كذلك، فتفسيرنا علمي مع أنه ديني في الوقت نفسه؛ لأنه لا تناقض لدينا بينهما.

قال لي أحد علمائنا في الرياضيات إنه قال ذلك لبعض زملائه، فقال له إنه محايد لا علاقة له بالدين، وهذه أيضًا خديعة، فهل هناك حياد بين أن تقول أن الله موجود أو غير موجود؟ لا يمكن ذلك. أما أن تقول بوجود الخالق فتعترف ببعض

الأشياء وتجعلها أسباباً، أو تفترض من أنه ليس هناك خالق فلا تعترف بها، فأنت في تصرفك العلمي - وليس في قلبك - إما أن تكون مؤمناً أو تكون ملحدًا^(١).

فائدة: العلوم الاجتماعية والإنسانية ليست مضرّة باعتبارها علومًا وإنما المضّر أن تؤخذ كما هي بأخطائها:

والقول بأن هذه العلوم مضرّة باعتبارها علومًا خطأ، فالمضر هو أن تؤخذ كما هي بكل أخطائها وفلسفاتها، ثم تفرض على الناس فرضاً، وهذا ما يحدث في طريقة التعليم في العالم الإسلامي، ومع الأسف يحدثه أناس من أمثالكم باسم العلم. لقد انعكست طريقة التلقي عند المسلمين، ففي الماضي كان الناس إذا قيل لهم: قال الله، قال رسوله يسلمون، أما اليوم فيقولون: لا، وما الدليل على أن الحديث صحيح، وإذا قيل لهم: علم الأحياء أو الفيزياء يقول إن المادة لا تستحدث ولا تفنى سلّموا.

فأصبح الطلاب يتلقون ما يقال لهم بأنه علم بالتسليم، وما يقال لهم إنه دين بالنقد، وما ينبغي هو العكس. لا أقول أن الإنسان لا يسأل في مجال الدين، وإنما يسأل سؤال استفسار له وليس استنكار، فلا بُدَّ أن نغير نظرتنا إلى هذه العلوم^(٢).

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

(٢) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

فائدة: المنهج الصحيح في دعوة الغربيين إلى الإسلام:

لابد أن يبدأ بمسألة التوحيد في دعوة الغربيين إلى الإسلام، فالغريون يكادون يكونون مجعنين - وأنا أعرف أدلتهم التي يعرضونها في كتبهم الفلسفية - على أنه ليس هناك برهان عقلي صحيح على وجود الخالق ووحدانيته، الكثير بعد تأمل هذه الحجج وطرحها عليهم هدى الله أناسا كثيرين فمن هنا تكون البداية؛ لأن التوحيد أساس نظرتنا، ولا يمكن أن يقبل نظرتنا ما لم يقبل أساسها، وهذا بالمناسبة موضوع يناقش علماء Astrophysicist المتهمين بمسألة نشأة الكون، فقد قادتهم أبحاثهم إلى السؤال: من أين جاء الكون؟ وهو سؤال ملح، إلا أنه لم يكن مشروعا في الزمن الذي درسنا فيه؛ لأنهم كانوا يتصورون مادة الكون، أو أن الذرات وما هو أصغر منها هي أشياء أزلية لا تتغير، فكل هذا بحمد الله ثم بفضل التطور العلمي تبين لهم أنه غير صحيح، وأصبح السؤال عن أصل الكون لديهم الآن سؤالا مشروعا وذا معنى^(١).

فائدة: أهمية الأخلاق في التعامل بين الناس:

هل يمكن للناس أن يتجوا أي نوع من الإنتاج الجماعي في مجتمع من المجتمعات إلا بنوع من الأخلاق، إن الغربيين أنفسهم يسمون الأخلاق أسمنت المجتمع، وبدون أخلاق لا يكون هناك علم. أليس العلم معتمدا على الصدق؟ هل هناك شيء اسمه الفيزياء هو الذي يأتينا ويقول لنا إن النتائج كذا وكذا، أم أنهم

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

بشر يجربون تجارب ثم يبنون النتائج، فلو كانوا كذابين ماذا كان سيحدث؟ وليس الصديق وحده، فإنك إذا نظرت إلى تاريخ كثير من هؤلاء العلماء وجدتهم كالزهاد ليسوا مشغولين بثروة أو مال أو مطامع؛ بل كل هم أحدهم أن يصل إلى حقيقة من الحقائق أو نظرية يفسر بها بعض الحقائق أو قانون، ويجرد نفسه لهذا سنين طويلة. لو كان إنساناً فاسقاً أو جاهلاً يجري وراء النساء ويتعاطى المخدرات فهل سيتبع حتى الفئان الذي يرسم لأبد له من نوع من الالتزام، فكلما كان الالتزام بالأخلاق أكثر كلما كان الإنتاج أحسن، وكلما ابتعد الناس عن الأخلاق كلما تردى إنتاجه. وحتى في الجيوش فلا يمكن لجيش يتعاطى المخدرات أن يحارب^(١).

فائدة: الحكمة من الابتلاء:

القاعدة العامة: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وأن كثرة المصائب لا تعني أن المصاب هو أكثر ذنباً من غيره، بل قد تعني أنه أحسن من غيره «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم يتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» لماذا؟ ليس لأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يكره هذا المتدين أو هذا النبي، ولكنه يريد أن يخرج من الدنيا وقد صفي حسابه بالنسبة للأخطاء التي وقع فيها، ثم يعطيه أجراً على كل عمل صالح قدمه في الدار الآخرة.

أما بالنسبة لمن ليس في دينه صلابة فمن رحمة الله به ألا يحاسبه ويعاقبه على

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

كل ما يفعل؛ لأن ضعف دينه قد يؤدي به إلى عدم الصبر أو الخروج من الدين،
فلذلك لا يحاسب على كل ما فعل، ولكن يكون ذلك على حساب الجزاء الذي
سيجده في الدار الآخرة.

فحتى الأنبياء يستغفرون الله، ونبينا محمد ﷺ كان يعد له في المجلس
الواحد مئة مرة يقول: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم، ومقام
الأنبياء مقام عظيم، فإن الإنسان كلما ارتقى في سلم الإيمان كلما شعر بتقصيره،
ولذلك قال أحد الصحابة إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه جالس تحت سفح جبل
يخاف أن يقع عليه، وتجدد بعض الناس إذا أصيب بمصيبة يقول أنا لم أعمل شيئاً
ولم أضر أحداً، وكأنه يمين على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعتقد أنه إذا حصل له مصيبة
فليس هناك مبرر لها، وبالعكس الشخص الذي يقترب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تتضخم
أخطاؤه عنده، فالذي لا نعتبه نحن ذنوباً ولا تقصيراً يعتبره النبي تقصيراً يستغفر
الله منه، فعندما نقول إن النبي يستغفر لا نعني أنه يرتكب هذه الذنوب الغليظة التي
لا يستغفر أحدنا إلا إذا ارتكبها^(١).

فائدة: عدم استجابة المدعوين لا يعني فشل الدعاة والمصلحين في

دعوتهم؛

إن الله عَزَّ وَجَلَّ حمل الدعاة - سواء كانوا أنبياء أو أتباعهم - مسؤولية، وحمل
المستمعين إليهم مسؤولية، فإذا لم يحدث ما يريده الدعاة فلا يعني هذا بالضرورة

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر
رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

أنهم فشلوا أو لم يسيروا في الطريق الصحيح خصوصاً إذا كانوا أنبياء، فنحن نقرأ في حديث النبي أنه يأتي يوم القيامة النبي ومعه الصحابة، والنبي ومعه الثلاثة، والنبي وليس معه أحد، فهل نقول إن هذا النبي لم يعرف كيف يدعو الناس ولم يتخذ الأساليب التي تؤدي إلى النصح، لا يمكن.

وهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم حمل كل الذين آمنوا معه في سفينة واحدة، فهل نقول إنه لم يكن ناجحاً؟ أو لم يسر في الطريق الذي يؤدي إلى النصح؟ لا، بل هو من أولي العزم من الرسل. إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحَاسِبُ الإنسان على عمره فيم أفناه... ماذا فعل؟ ولا يحاسب على النتائج التي ترتبت على ما طلب منه أن يفعله؛ لأن هذه مسئوليته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، هذا مع الاعتراف بأن غير الأنبياء قد يخطئون في طريقتهن ومنهجهم، ويكون السبب فعلاً راجعاً إليهم، وجزء كبير منه^(١).

فائدة: هل الإنسان يولد ومعه علم؟

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

القضية المتعلقة بهذه الآية هي مسألة اختلفوا فيها فلاسفة الغرب وربما أيضاً بين المسلمين، وهي مسألة العلم هل الإنسان يولد ومعه علم أم أنه علمه في طبعه

(١) نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

وفي فطرته؟ أم أنه يولد جاهلاً تاماً ثم يكتسب هذا العلم؟ هما نظريتان مشهورتان في الغرب، ولكن وبعد أن فكرت في الموضوع وجدت أن الإسلام لا يقول بهذا ولا بهذا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ عَنْ الدِّينِ أَنَّهُ فِطْرَةُ اللَّهِ، فالدين أصله في الفطرة، ولكنه يقول في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

فكان الفطرة حين يولد الإنسان لا يولد عالماً إذاً كيف الجمع بين الأمرين؟ يولد وهذا الدين في فطرته لكنه لم يتحول إلى علم، وإنما هو كالبذرة التي تنمو مع نمو عقل الإنسان وتكتمل بما يأتيه به رسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالإنسان يكتسب العلم، العلم المكتسب هذا بواحد من هذه الوسائل الثلاثة السمع والبصر والفؤاد أو قل الحس والعقل؛ لأن السمع والبصر ذكرهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنهما أهم حاستين وإلا فقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحواس الأخرى أيضاً في آيات أخرى مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، فلمسوه ذكر اللمس وأنبهم على أنهم لا يعترفون باللمس وهذا ليس من العقل، الإنسان إذا لمس شيئاً بيده فينبغي أن يعترف بأن هذا شيء موجود، فربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذمهم أنهم لو نزل عليهم كتاباً في قِرْطَاسٍ فلمسوه بأيديهم يقولون لا هذا سحر، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشم في قصة يوسف ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَقْنَدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]، وذكر الذوق ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

فالحواس الخمسة المذكورة في القرآن الكريم لكن أهم حاستين هما السمع

والبصر، ولذلك كان التركيز عليهما في هذه الآية وأمثالها من الآيات، ولذلك نحن المسلمين لا ننكر الحقائق التي يدل عليها العلم الطبيعي، الحقائق لا أقول النظريات لبعض العلماء وكذا، إذا كان الشيء ثبت بالحس أو ثبت بالعقل، فيكون من واجب المسلم أن يعترف بها.

ولذلك أنا كتبت مقال بعنوان حقائق العلم حقائق شرعية، لا يجوز للإنسان أن يماري فيها إذا ثبت أن الأرض في شكل كرة فلا تقل إن هذا يخالف الآية الفلانية؛ لأن الله لا يمكن أن يخلق الكون بشكل معين ويصفه في كتابه بما يخالف الصفة التي خلقه عليها، ولذلك إذا حدث هنالك كما يقول العلماء إنه لا يمكن أن يكون هنالك خلاف أو تناقض بين كتاب الله وبين خلق الله لا يمكن، ولكن قد يحدث التناقض بسبب الخطأ في الفهم إما في فهم الكون أو في فهم النصوص يكون النص مثلاً ظنيًا، ويفسره بعض الناس ويفهمونه فهمًا خاطئًا، ثم يجدون حقيقةً كونيةً يقينية لا شك فيها.

فالصحيح هو أنه إذا ثبتت الحقيقة الكونية التي لا شك فيها أن النص يفسر بهذه الحقيقة الكونية، ولذلك لا يجوز بعد أن اكتشف مثلاً أن الأرض بشكل كرة، لا يجوز أن تذكر بعض الأقوال التي في بعض التفاسير المخالفة لهذه الحقيقة، وهذا يدل أيضًا ما دامت الحقائق الكونية المعروفة بالحس وبالعقل حقائق يسلم بها المسلم، فإنه لا يحتاج أن يستدل عليها بأدلة سمعية، يعني لا أحتاج إذا كان عرفت في الطب أو في الهندسة أو في الجغرافيا، وكذا عرفت أن هذه حقيقة لا شك فيها كونية لا أحتاج أن أبحث عن دليل لها في كتاب الله وسنة رسول ﷺ؛ لأن هذه

حقيقة وما جاء في كتاب الله حقيقة لكن كما يقولون إذ تضافرت الأدلة.

يعني قوي الإيمان إذا وجدت الشيء في الكون ثم وجدته في كتاب الله هذا مما يزيد إيماني بما في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكما تكلمت الآية التي ذكرناها في البداية عن الطريقة التي يكتسب الناس بها العلم وهي السمع والعقل، فتكلمت آيات أخرى عن مصادر هذا العلم؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالمًا إلا إذا كانت عنده قوى يعلم بها، قلنا هي الحس والعقل وإلا إذا كان هنالك مصدر يأخذ منه هذا العلم فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكُتُبٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُكْرِمُ عَلَىٰ إِبْنِ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الاحقاف: ٤]، فكأنه يقول لهم إن هذه مصادر العلم فإذا لم يكن لم يكن على الدعوى دليل من الكون الذي هو السماوات والأرض، وليس عليه دليل من كتاب منزل من السماء فإنه كلام باطل وخرافة ومجرد دعوى وتكرار نفس المعنى في آية أخرى قول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

فنحن الفرق بيننا وبين الذين لا يؤمنون بالوحي أن مصادر المعرفة عندنا اثنان الكون والوحي، وهؤلاء يقصرون مصادر المعرفة على الكون ولا يستفيدون مما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتبه وما قاله رسول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

(١) آية وقضية، قناة الرسالة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٤٩).

فائدة: وجود الخالق سبحانه وتعالى :

يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿[الطور: ٣٥-٣٦]، والقضية هي قضية وجود الخالق
سبحانه وتعالى فكان هذه الآية فيها دليل من أقوى الأدلة العقلية، لعلها أقوى دليل
عقلي على وجود الخالق، فكان الآية تقول للذين لا يؤمنون بوجود الخالق إذا لم
يكن هنالك خالق هو الذي خلقكم فكيف جئتم أم خلقوا من غير شيء؟ يعني
خلقوا من غير شيء خلقهم كما يقولون في التفسير، يعني جئتم من العدم ما فيه
شيء خلقكم، ما فيه إنسان عاقل يقول مثل هذا؛ لأنه من العدم لا يأتي شيء من
العدم لا يكون إلا عدم، لا يمكن أن يكون لا شيء، لا شيء، ثم فجأة يأتي شيء من
هذا العدم؛ وكذلك ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، يعني إذا لم تكونوا قد جئتم من العدم هل
أنتم الذين خلقتم أنفسكم؟!

أيضاً الإنسان العاقل يقول هذا مستحيل بل هذا تناقض؛ لأنني لكي أخلق
نفسي لا بد أن أكون أولاً موجوداً، وإذا كنت موجوداً فأنا لا أحتاج؛ لأن أخلق،
فالقول بأن الشيء يخلق نفسه كلام متناقض، جاء في التفسير قال ابن كثير روى
البخاري عن جبير بن مطعم قال: سمعت الرسول ﷺ يقرأ في المغرب بالطور،
وكان جبير في ذلك الوقت لم يكن مسلماً قال: فلما بلغ هذه الآية كاد قلبي أن يطير،
تدرون لماذا؟ أظن أن الآية وضعت الأمر أمامه بطريقة واضحة، يا جبير إذا لم
تؤمن بوجود الخالق فإما أن تكون جئت من العدم، جبير يقول لنفسه: هذا مستحيل
أم أنت خلقت نفسك؟ جبير يقول لنفسه هذا مستحيل، فلذلك كاد قلبه أن يطير.

أنا درست الفلسفة الغربية أو بعض الفلسفة الغربية، وكان عندي اهتمام بما يسمى فلسفة العلوم، وناقشوا مسألة وجود الخالق هذه، وتبعت أقوال الملحدين فيها، ووجدت أن أقوالهم كلها لا تخرج عن هذين الأمرين: إما أن يقول الواحد منهم أن الأشياء جاءت من العدم، تصدقون أنهم يقولون هذا، وإما أن يقول إن الكون خلق نفسه، وصدقت أن منهم يقولون هذا ولا تغركم الأسماء الرنانة، فهناك علماء كبار في الفلسفة أو في الفيزياء، أو في كذا يقولون بأن الكون جاء من العدم، أو يقولون بأنه خلق نفسه طبعاً قبل هذا الكلام.

انحصرت آراءهم في هذين الأمرين بعد أن جاءت النظرية التي تسمى بنظرية (بق بانق) أو الانفجار الكبير؛ لأنه كان قبل ذلك كان الملحدون يقولون: إن الكون هذا لا يحتاج أن يخلق، إنه أصلاً لا بداية له، فهو لا يحتاج إلى أن يُخلق، لما جاءت هذه النظرية التي تقول بلى إن الكون له بداية، فصار السؤال عن أنه كيف جاء هذا الكون؟، صار السؤال ملحقاً جداً، ولذلك كتب كثيراً من الفيزيائيين والفلاسفة وكذا كتابات في هذا الأمر، وأردوا أن يدافع الملحدون منهم عن موقفهم، فلم يخرجوا كما قلت عن هذين الأمرين، إلا أن يقول الواحد منهم إن الكون جاء من العدم، أو أن يقول إنه خلق نفسه.

وكنا نقول لهم: إنه حتى لو لم تكن هناك نظرية، هذه النظرية التي نتحدث عن بداية الكون، وأن الكون له بداية حتى لو لم تكن هذه النظرية، فنحن نشاهد أن الأشياء تحدث وتزول، الناس يأتون ويزولون، يأتي إنسان ثم يموت، النجوم تحيا ثم تموت، الشجر يولد ثم يموت، وهكذا فالسؤال قائم ولذلك الآية وجهت

السؤال إلى البشر قالت: أم خلقوا من غير شيء، أنت تفكر في نفسك، وتساءل نفسك هل أنت خلقت من غير شيء أم أنت الذي خلقت نفسك؟ فلا يحتاج أصلاً إلى أن يفكر فيما يسمى في نظرية الانفجار العظيم.

وهذه الآية الكريمة من أقوى الأدلة على أن القرآن الكريم لا يخاطب كل الناس، على أنهم يؤمنون بأنه كتاب من عند الله، بل يخاطب الناس أحياناً على أنهم لهم عقول فقط، ويدعوهم بهذه الطريقة إلى أن يؤمنوا بالحق الذي جاء به القرآن الكريم، فقوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْمُخْلَقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، ثم قال لهم: ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦]، يعني إذا أنتم ما خلقتكم أنفسكم ولا جئتم من العدم هل أنتم الذين خلقتكم السموات والأرض ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾، لا يوقنون: يعني لا يريدون أن يؤمنوا ولا يريدون أن يقتنعوا.

فالعلماء منهم بالمناسبة من اعترف بهذا، حتى من علماء الفيزيائيين اعترف بهذا، وقال: إن الانفجار العظيم هذا فعلاً مشكلة؛ لأنه لا يمكن أن يأتي هذا الكون من العدم، ولا يمكن أن يكون هو الذي خلق نفسه، ثم نسيت أن أقول إن مسألة جبير بن مطعم تدلنا على شيء مهم، وهو أن الحقائق إذا اتضحت تؤثر في الناس، فأنت إذا أردت أن تقول كلاماً مقنعاً فقله بطريقة واضحة يراها الإنسان كأنه يراها رأي العين؛ لأن البشر ربنا خلقهم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على أنهم إذا رأوا الحقائق يعترفون بها، حتى لو لم يقولوا هذا بالسنتهم إذا اتضحت الحقيقة يعترف بها في نفسه، حتى ولو لم يعبر عن هذا الاعتراف بلسانه.

فمن المهم جداً لإخواننا الدعاة وأقول هذا لنفسي أيضاً، أنا لست مثلاً لما

فائدة: ثبوت سيرة الرسول ﷺ، وأنه من حيث ثبوتها لا نجد شيئاً

تاريخياً أثبت منها بعد القرآن الكريم:

وأنا ناقشت بهذه الحجة أحد المستشرقين الصغار، قلت له ما رأيك في محمد؟ قال: إنه رجل عظيم، قلت له: ما أعني هذا هل تعتقد أنه كان نبياً؟ قال لا، قلت له: هل تعتقد أنه كان كاذباً؟ قال لا، قال: أعتقد أن الرجل كان صادقاً، قلت

(١) آية وقضية، فناء الرسالة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٤٩).

له: تعتقد أنه كان نبياً؟ فما أحب أن يقول أنا أعتقد أنه كان نبياً، وكان المستشرقون في البداية - مما يدلّكم على قوة هذه الحجة - أنهم يتكلمون عن الرسول كلاماً كثيراً فارغاً، وبعد أن تطورت الدراسات أصبحوا الآن يستحون من ذلك الكلام وكثير منهم من المنصفين، منهم يقولون الذي يقول عن رجل هذه سيرته مثل هذا الكلام، هذا يدل على أنه نفسه إنسان مغرض أو مهبول أو كذا أو كذا؛ لأنك إذا قلت هذا الكلام عن رجل هذا سيرته فقله عن أي إنسان آخر أيضاً، ثم نقول بالإضافة إلى صدقه هنالك عنده من الأدلة ما يثبت أنه نبي، منها هذا القرآن الكريم، فإثبات أن القرآن من عند الله هو إثبات أن محمداً رسول الله؛ لأن محمد جاء بهذا القرآن وقال: أنا هذا الذي أرسلني به الله، فإذا أثبتنا بحجة واحدة في مسألة واحدة فقط أن هذا الشيء ما كان يمكن أن يعرف في عهد محمد ﷺ، ما كان يمكن أن يعرفه بشر، يكفي هذا لإثبات أن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول الله.

فنصيحتي لكم في مناقشتكم للناس: أنكم وطبعاً الإنسان لا تتصور في هذه المسائل بحجة واحدة يقتنع بها بعض الناس، نعم ربنا فتح عليهم يقتنعون لكن لا تياس كلمه وكلمه، وحاول أن تغريه بأن يقرأ سيرة الرسول ﷺ إذا قرأ سيرة الرسول في الغالب يتأثر إذا كان فعلاً طالباً للحق^(١).

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٦٠١).